الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد الثالث والأربعون . السنة الرابعة . أغسطس ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات
Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 43 - August 2002

تقرير من واشنطن:

ضرب محور الشر مقابل الحل!

سلامة أحمد سلامة

ثورة يوليو: خمسون عاما

عصر يتهاوى!

محمد حسنين هيكل

الشيوعيون المصريون وثورة يوليو

محمد سيد أحمد

الجزائر: تغييب الجغرافيا وإحباط الحاضر!

محمد الميلى

أمريكا.. الاقتصاد قبل البيئة

حسين عبدالله

كارل بوبر وقرن توهج فيه التفكير العلمى

يمنى طريف الخولى

حاربوا الإرهاب و حاربوا الفقر والجهل أيضا

جوزيف ستيجليتز

فرار الأمريكان من السياسة إلى الإيمان

ريتشارد سينيت

فى معرض الفنان محمد حجى

الوجه الآخر للمقاومة

عزالدين نجيب



كلمـــــة..

زيـــارة إلى أمـريكـــا

قليلون ربما من يَذكُرون ماحدث للأمريكيين من أصل يابانى إبان الحرب العالمية الثانية. ولكن «الصدمات توقظ الذاكرة» كما يعتقد السيكولوجيون. فقبل عشرة أيام فقط قال أحد أعضاء هيئة حقوق الإنسان الأمريكية (لاحظ الجهة) أنه ليس مستبعَدًا أن يطالب الأمريكيون «بإقامة معسكرات اعتقال للأمريكيين من أصول عربية».. إذا وقعت هجمات إرهابية أخرى فى الولايات المتحدة.

التصريح نقلته صحيفة «ميامى هيرالد». وصاحبه هو بيتر كيرساناو. وهو - بالمناسبة - العضو المعَين بالهيئة من قبَل الرئيس جورج دبليو بوش.

عن «معسكرات اعتقال جماعية على أساس عِرقى» يتحدث المسؤول الأمريكى ببساطة شديدة، مؤكدًا أنه إذا «نفذت الهجمات مجموعة من نفس الأصول الاثنية التى ينتمى إليها أولئك الذين هاجموا مركز التجارة العالمى والبنتاجون، فإنك يمكن أن تنسى كل شىء عن حقوق الإنسان».

هذا إذن عالمُ مابعد الحادى عشر من سبتمبر. أو بالأحرى هذه هى أمريكا القرن الحادى والعشرين. والتى أصرَّت فى «ديربان» قبل قيامة سبتمبر أن يُذْعِنَ الجميعُ لما أرادت. وإلا فـ «من ليس معنا فهو ضدنا» .. ولم يكن الشعار التهديدى الشهير قد ظهر بعد، ولكنه كان جاثما على صدر كل المحاولين فى كواليس مؤتمر مناهضة العنصرية يومها . كما كان واضحًا كل الوضوح فى قراراته التى خالفت، عندما صدرت، آراء الجميع لتتفق - وفقط - مع الإملاءات الأمريكية / الإسرائيلية.

إلى أمريكا القرن الحادى والعشرين، أو إلى أمريكا after September 11 إذا استَعرنا التعبيرَ الأكثر شهرة، والذى يصرُّ عليه الكثيرون، سافر سلامة أحمد سلامة رئيس تحرير هذه المطبوعة، فى زيارة سريعة ليعود إلينا بـ «تقرير من واشنطن» يحاول فيه قراءة المشهد الأمريكى بتلافيفه وتعقيداته المركبة. مشيرًا إلى صعوبة هذه القراءة «ليس فقط لأن نظرة الزائر العابرة أشبه بنظرة طائر يطل على العموميات من علٍ فلا يرى غير التضاريس الرئيسية وقد لا يلتقط كل التفاصيل، ولكن أيضاً لأن التعتيم المتعمد والسرية الشديدة التى فرضتها إدارة الرئيس بوش على نفسها فى معظم سياستها، تجعل من الصعب حتى على اقرب المقربين وأوثق الحلفاء أن يستقرىء ما يجرى فى عقل الرئيس بوش وما يدور بخاطر الذين يعدون له الخطط والخطب ويلقنونه التصريحات والكلمات والإجابات التى يتعين عليه أن يدلى بها فى مؤتمراته الصحفية وخطبه العامة».

ويحكى سلامة أحمد سلامة ماحدث أثناء زيارته القصيرة لواشنطن حين تكاتف اللوبى اليهودى لإسقاط عضو الكونجرس الديموقراطى الأسود ايرل هيلارد عن ولاية الاباما بعد خمس دورات متتالية احتفظ خلالها بمقعده، وذلك لأنه ضُبط متلبسًا «بالجرم المشهود» بإبداء تعاطفه مع الفلسطينيين. وكيف أن كثيرًا من المراقبين المحايدين يعترفون «بأن اللوبى الصهيونى نجح فى تحالفه مع اليمين المسيحى المحافظ فى تكميم أى مناقشة حرة للأوضاع فى الشرق الأوسط . فلا يكاد يسمح إلا لأنصار إسرائيل بالتصدى للحديث والتعليق فى وسائل الإعلام، وسرعان ما يوصم غيرهم بمعاداة السامية إذا بدا من حديث الواحد فيهم أى نقد لإسرائيل حتى لو كان يهودياً . وحين ظهرت فى بعض صحف أمريكية مثل نيويورك تايمز ولوس انجيلوس تايمز وسان فرنسيسكو كرونيكل التى لم تعرف طوال تاريخها بمعاداة إسرائيل، بعض التقارير التى تتحدث مجرد حديث ودون تعليق عن المذابح التى وقعت فى جنين أو عن الاحتلال الإسرائيلى، قامت حملة عنيفة تتهمها بالتحيز وعدم الموضوعية فى تغطية أحداث الشرق الأوسط، ومن ثم تدعو إلى مقاطعتها وإلغاء الاشتراك فيها . ونفس الشىء حدث مع محطة سى.إن.إن التى هددت إسرائيل بإغلاق مكاتبها لأنها نقلت بعض مشاهد لا ترضى عنها إسرائيل».

الجنون الأمريكى مابعد سبتمبر، واستثمار اللوبى الصهيونى له هناك، لا يبدو بعيدًا عن استقبال الأوساط الثقافية فى أوروبا وأمريكا لكتاب «طارق على الجديد عن صراع الأصوليات The Clash of Fundamentalisms والذى تعرض له «وجهات نظر فى هذا العدد. وتتحدد فكرة الكتاب الأساسية بأن العالم يعيش حالة التمزق تحت وطأة الصراع القائم بين أصوليات مختلفة فيما بينها . الأول يكمن فى التنوع الإسلامى، والآخر فى «الامبراطورية الأمريكية - الأم الطبيعية لجميع أنواع الأصوليات». ففى حين احتفى الملحق الثقافى لجريدة التايمز TLS بكتاب سليل العائلة الباكستانية العلمانية النخبوية ذات الاتجاه اليسارى، والذى يعمل حاليًا فى لندن روائيًا ومخرجًا سينمائيًا، انتقدت الـ «نيويورك تايمز» الكتاب بعنف. إذ اعتبر كاتبها «جيرارد دوجروف» أن كتاب الناشط التروتسكى القديم، لم يكن سوى أجزاء مبعثرة لخليط ينقصه الإعداد الكامل، إضافة إلى لغته الصاخبة، وحشده بحكايات غير مناسبة وتفاصيل تاريخية زائفة. فضلاً عن أن الكتاب جاء سيئا كما تقول الـ «نيويورك تايمز» نتيجة إعداده بشكل سريع للحاق بأجواء الحدث «إذ تمنح الأزمات الكبيرة الكتّاب فرصة ذهبية للنشر». الكتاب فى التحليل النهائى للمطبوعة الأمريكية «لا يقوم إلا بتأجيج المشاعر السلبية. وهو يعيد استخدام أساطير ماركسية مستهلكة ونبرة خطابية حادة معادية لأمريكا».

أياً ما كان أمرُ اختلاف المثقفين هناك حول كتاب «طارق على»، فإن ما يعنينا يتمثل قبل كل شىء فى السؤال التالى :

أين تقفُ أمريكا ؟ وهل هناك من حكمةٍ فى المراهنة عليها ؟

الإجابة - وبغض النظر عن الأسباب والمبررات، ورغم أنف التنازلات والتواطؤات وحملات العلاقات العامة - تبقى سافرةً وفاضحةً فى الوقائع / المشاهد التالية :

١- قبل شهرين فقط يصوت ٢٥٢ عضواً بمجلس النواب مقابل ٢١، و ٩٤ عضواً من الشيوخ مقابل اثنين ، لإعلان « التأييد المطلق لإسرائيل». ويحرص ٤٢ حاكماً من حكام الولايات الأمريكية الخمسين على حضور اجتماع سكرمنتو الذى دعا إليه اللوبى اليهودى لتأييد إسرائيل .

٢- الثلاثاء ٢٣ يوليو: طائرة إسرائيلية إف ١٦ أمريكية الصنع تحلق فى «أجواء آمنة» كما يقول التعبير العسكرى . وفوق «أراضٍ محتلة» وفق التعبير القانونى ، تقصف تحت جنح الليل مبنى سكنى فى أكثر أحياءِ غزةَ ازدحاماً وفقراً ، فتقتلُ فى فراش النوم ١٦ فلسطينياً بينهم تسعة أطفال ، وينتشل المسعفون فى ضوء المصابيح اليدوية مائة وخمسين جريحاً من تحت الأنقاض.

شارون يفخر بالعملية الناجحة فلا يفقد ثقة و «احترام» الرئيس بوش . وعندما يجتمع مجلس الأمن (الدولى) ليبحث فى أمر المذبحة بطلب من المجموعة العربية ، يقف المندوب الأمريكى ليطالب علناً بقرار يندد بالإرهاب «الفلسطينى» (!!)

وربما لا مكانَ - منطقيًا - لعلامات التعجب هنا . فالقاعدةُ المنطقيةُ تقول إن «المقدماتُ تفضى طبيعياً للخواتيم».

وجهات نظر

التعتيم المتعمد والسرية الشديدة التى فرضتها إدارة الرئيس بوش على نفسها فى معظم سياساتها، تجعل من الصعب حتى على أقرب المقربين وأوثق الحلفاء أن يستقرئ ما يجرى فى عقل الرئيس بوش وما يدور بخاطر الذين يعدون له الخطط

سلامة أحمد سلامة



بوش



كوندوليسا رايس

ضرب محور الشر

يبدو أنه لابد أن يذهب المرء إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لكى يدرك حجم المشكلة التى باتت تواجه العالم العربى فى التعامل مع السياسات الأمريكية. ويحس عمق الهوة التى تفصل بين الجانبين. ليس فقط فيما يتعلق بقضية الصراع العربى الإسرائيلى والانحياز الأمريكى المعلن فى تاييد إسرائيل، ولكن أيضًا فيما يتعلق بالتحول الذى طرأ على الرؤية الأمريكية لمجمل الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى هذه المنطقة من العالم، وازدياد الاقتناع الأمريكى بالحاجة الملحة للتدخل المباشر للعمل على تغييرها بدون حاجة إلى انتظار التطور الطبيعى الذى يفضى إلى التغير الإصلاحى المطلوب.

تبدو سحب العاصفة وهى تتجمع من بعيد، يجرى التخطيط لها بدقة وإمعان فى القاعات المغلقة للبنتاجون والمخابرات المركزية والبيت الأبيض. ولكنها ترسل بين الحين والآخر بصيصًا من الأضواء الإعلامية العاكسة التى تتسرب إلى شاشات التليفزيون وصفحات الصحف، لتجهيز الرأى العام الأمريكى إلى اللحظة الحاسمة التى يتحتم عليه فيها أن يتحمل تكاليف بناء نظام محكم للأمن الأمريكى، يضمن التفوق الكامل والسيطرة التامة على كل عوامل الخطر ومصادر التهديد القائمة والمحتملة.. وهى مراكز للخطر تحددت سلفًا فى عدد من المواقع فى الشرق الأوسط. ولكن شريطة أن تتجنب واشنطن مخاطر الزج بقواتها فى عمليات التحام عسكرية مباشرة. وقد كانت أفغانستان هى «البروفة الأولى» لمغامرة كونية تستعد إدارة الرئيس بوش لخوضها فى مناطق أخرى من العالم مدعومة ومدفوعة بقوى المسيحية الصهيونية التى يزداد نفوذها على المؤسسة الأمريكية الحاكمة، مسنودة بمراكز الأبحاث والدراسات التى يمولها اليمين المحافظ تحت شعار «الحرب ضد الإرهاب».

وفى البداية، لابد من تحفظ تفرضه الأمانة بقدر ما تفرضه صعوبة قراءة المشهد الأمريكى فى واشنطن بتلافيفه وتعقيداته المركبة، ليس فقط لأن نظرة الزائر العابر أشبه بنظرة طائر يطل على العموميات من علٍ فلا يرى غير التضاريس الرئيسية، وقد لا يلتقط كل التفاصيل، ولكن أيضًا لأن التعتيم المتعمد والسرية الشديدة التى فرضتها إدارة الرئيس بوش على نفسها فى معظم سياساتها، تجعل من الصعب حتى على أقرب المقربين وأوثق الحلفاء أن يستقرئ ما يجرى فى عقل الرئيس بوش وما يدور بخاطر الذين يعدون له الخطط والخطب ويلقنونه التصريحات والكلمات والإجابات التى يتعين عليه أن يدلى بها فى مؤتمراته الصحفية وخطبه العامة.

وقد قيل إن السبب فى إقدام كولين باول وزير الخارجية على الإدلاء بتصريحات صحفية عن الاتجاه لعقد مؤتمر دولى خلال شهر أغسطس يجرى خلاله بحث إقامة الدولة الفلسطينية المؤقتة أو ذات الحدود المؤقتة، ثم تراجعه عن ذلك وإغفال بوش كلية لهذه الفكرة فى خطابه الموعود أو المشهود، يرجع إلى أن دائرة ضيقة جدًا من معاونى بوش ـ لم يشارك فيها باول ـ هى التى عكفت على إعداد خطاب بوش حول الشرق الأوسط الذى ألقاه بعد ذلك، وضمت عناصر فاجات الجميع: بما فى ذلك



تشيني



رامسفيلد



باول

مقـــابل الحـــل

باول نفسه والأطراف العربية التى زارت أمريكا وتباحثت مع بوش ساعات طويلة فى مزرعته بتكساس، وفى كامب ديفيد قرب واشنطن.

منذ اليوم الأول لدى وصولى إلى العاصمة الأمريكية وجدتنى أتابع قضيتين دالتين تعبران دون مواربة عن الأجواء السائدة فى واشنطن وعن طبيعة المزاج الأمريكى الراهن والمشاعر الدفينة التى تحكمه وتحركه.

كانت القضية الأولى تدور حول «قسم الولاء» الذى يؤديه التلاميذ فى المدارس الأمريكية «أشبه بنشيد الصباح»، وفيه يؤكد التلاميذ ولاءهم أو حبهم للوطن «فى رعاية الله» أو «تحت حماية الله» أو «ببركة من الله» وكلها تعبيرات أضيفت أثناء الحرب الباردة عام ١٩٥٤ للربط بين حب الوطن والإيمان بالله، ولم تعجب هذه العبارة التى تقحم «الله» فى حب الوطن والد إحدى التلميذات فرفع دعوى أمام محكمة عليا فى كاليفورنيا يطالب فيها بإلغاء هذه العبارة من القسم الذى يفرضه المدرسون على التلاميذ، لأنها منافية للدستور الذى ينص على الفصل بين الدين والدولة أو بين الكنيسة والنظام السياسى. وما إن أصدرت المحكمة حكمها مؤيدة طلب الأب، حتى هاجت قوى اليمين المحافظ فى أمريكا وتظاهر أعضاء الكونجرس على سلالم مبنى الكابيتول هيل يقسمون عليه الولاء باسم الله تحديًا لقرار المحكمة. وصدر قرار بوقف تنفيذ حكم المحكمة تمهيدًا لنقضه فى محكمة أعلى. وقد وجدت هذه القضية أصداء بعيدة المدى لدى الرئيس بوش نفسه الذى انتقد الحكم.

وتعمد فى خطبه يوم الاحتفال بعيد الاستقلال فى ٤ يوليو أن يصوغ خطابه فى عبارات دينية رنانة مؤكدًا على أن الحكمة والعناية الإلهية هى التى قادت خطى الشعب الأمريكى طوال ٢٢٦ عامًا.

لم تكن الأصولية الدينية فى أمريكا أقوى فى أى وقت آخر منها كما هى الآن. فقد امتزج الولاء للدين بالولاء للوطن بدرجة غير مسبوقة، غير أن الظاهرة الدينية فى أمريكا اتخذت أشكالاً أعقد بكثير من ذلك، فعلى حين يجنح اليمين الأمريكى إلى كراهية اليهود بينه وبين نفسه فى الداخل، تقوى وتشتد مناصرتهم لإسرائيل واليهود فى الخارج. وأظهر مثال على ذلك القس بيلى جراهام الذى أفرج عن محاوراته مع الرئيس الأسبق ريتشارد نيكسون أخيرًا، وفيها بدا ـ على عكس مواقفه العلنية المؤيدة لإسرائيل ـ متبرمًا من سيطرة اليهود على الحياة العامة فى أمريكا.

ويعترف كثير من المراقبين المحايدين بأن اللوبى الصهيونى نجح فى تحالفه مع اليمين المسيحى المحافظ فى تكميم أى مناقشة حرة للأوضاع فى الشرق الأوسط. فلا يكاد يسمح إلا لأنصار إسرائيل بالتصدى للحديث والتعليق فى وسائل الإعلام، وسرعان ما يوصم غيرهم بمعاداة السامية إذا بدا من حديث الواحد فيهم أى نقد لإسرائيل حتى ولو كان يهوديًا. وحين ظهرت فى بعض صحف أمريكية مثل نيويورك تايمز ولوس أنجيلوس تايمز وسان فرانسيسكو كرونيكل التى لم تعرف طوال تاريخها بمعاداة إسرائيل، بعض التقارير التى تتحدث مجرد حديث ودون تعليق عن المذابح التى وقعت فى جنين أو عن الاحتلال الإسرائيلى، قامت حملة

عنيفة تتهمها بالتحيز وعدم الموضوعية في تغطية أحداث الشرق الأوسط، ومن ثم تدعو إلى مقاطعتها وإلغاء الاشتراك فيها. ونفس الشيء حدث مع محطة سي. إن. إن التي هددت إسرائيل بإغلاق مكاتبها لأنها نقلت بعض مشاهد لا ترضى عنها إسرائيل.

على أن هذا التحالف بين اليمين المسيحي الصهيوني واللوبي الإسرائيلي لا يكاد يحظى منا في العالم العربي باهتمام كبير. وطبقًا لما نشر من أدبيات حول هذا التحالف، فقد اتخذ شكله الراهن بمشروع وضعه حزب الليكود عام ١٩٧٨، بهدف متواضع في البداية هو تشجيع الكنائس الأصولية الأمريكية على مساعدة إسرائيل. وتوطدت العلاقة بعد ذلك بين الطرفين أثناء حكومة نتنياهو. ولعب عدد من الشخصيات المسيحية اليمينية المعروفة مثل جيري فالويل وبات روبرتسون (الذي قام بتمويل محطة التليفزيون الناطقة بلسان سعد حداد المتعاون مع القوات الإسرائيلية في جنوب لبنان) دورًا مهمًا في دعم أواصر التعاون.

ويفسر يوري أفنيري ـ أحد الشخصيات الناشطة في حركة السلام الإسرائيلية ـ أسباب هذا الزواج الغريب، في الاعتقاد الراسخ لدى المسيحية الصهيونية بأن عودة اليهود من الشتات إلى فلسطين وإقامة دولتهم على كامل التراب الفلسطيني، سوف يحقق النبوءة التوراتية بالظهور الثاني للمسيح. ويضيف أفنيري أن النصف الثاني من النبوءة يقول بأن اليهود لابد حينئذ أن يعتنقوا المسيحية. ومن أعرض منهم فإن مصيره الهلاك في الهولوكوست العظيم «ارماجيدون». وتبدو النبوءة في صميمها معادية للسامية. ولكن دعاة اللوبي الصهيوني لم يكن يهمهم غير التأييد الذي يحصلون عليه لإسرائيل.

ولا يقتصر النفوذ اليهودي على هذا التحالف الديني السياسي، ولكن خطورة النفوذ الإسرائيلي تكمن في تأثيره على المؤسسة التشريعية: أي الكونجرس بمجلسيه النواب والشيوخ. ويقول أفنيري في مقاله المشار إليه «إن سطوة اللوبي الإسرائيلي المالية والانتخابية تلقي بظلالها على الكونجرس، مئات من أعضاء مجلس الشيوخ والنواب يتم انتخابهم بمساعدة مالية من المتبرعين اليهود. وأي تمرد على تعليمات اللوبي كفيل بانتحار العضو سياسيًا.

ولو أن منظمة «الإيباك» ـ أكبر منظمات اللوبي اليهودي للعلاقات العامة ـ دفعت بمشروع قرار لإلغاء «الوصايا العشر»: لما تردد ٨٠ عضوًا على الأقل بمجلس الشيوخ و٣٠٠ من النواب في التوقيع عليه فورًا.. وبنفس الدرجة ترهب «الإيباك» الميديا وتضمن ولاءها لإسرائيل».

مصداق ذلك ما حدث أثناء زيارتي القصيرة لواشنطن، حين تكاتف اللوبي اليهودي لإسقاط عضو الكونجرس الديمقراطي الأسود إيرل هيلارد عن ولاية الآباما، بعد خمس دورات متوالية احتفظ خلالها بمقعده.. وذلك لأنه ارتكب المعصية الكبرى بإبداء تعاطفه مع الفلسطينيين، وزيارته إلى ليبيا قبل عدة سنوات. وعلى الرغم من وقوف المنظمات العربية والإسلامية إلى جانبه، إلا أنها أخفقت في مقاومة النفوذ اليهودي الكاسح، وأخرج من السباق في الانتخابات التمهيدية ليحل محله مرشح يخضع بالكامل لتعليمات اللوبي اليهودي، ويتلقى المساعدات المالية لتمويل حملته الانتخابية بسخاء من نيويورك.

وقبل شهرين فقط صوت ٣٥٢ عضوًا بمجلس النواب مقابل ٢١، وصوت ٩٤ عضوًا من الشيوخ مقابل اثنين، لإعلان تأييدهم المطلق لإسرائيل. ويقول جيمس أبو رزق السناتور السابق والذي يرأس منظمة «العرب الأمريكيين ضد التمييز» أن هؤلاء الأعضاء لم يراجعوا ناخبيهم ويأخذوا رأيهم. وأن الأمر لا علاقة له بمدى تعاطفهم أو عدم تعاطفهم مع إسرائيل، ولكنه يتعلق بحجم الأموال والمساعدات التي تتدفق إلى حملاتهم الانتخابية. ويكفي أن نعرف أنه خلال أيام قليلة اندفع ٤٢ حاكمًا من حكام الولايات الأمريكية الخمسين، إلى الاجتماع الذي دعا إليه اللوبي اليهودي في سكرمنتو لإعلان تأييدهم لإسرائيل.

في ظل هذه الضغوط، لم يكن أحد يتوقع أن يكون خطاب الرئيس بوش عن الشرق الأوسط شيئًا آخر غير الخطاب الذي ألقاه. ومازال هناك اعتقاد جازم بأن بوش الأب فقد ولايته الثانية لمجرد أن تجرأ على أن يقول لإسرائيل أنها لا بد أن تدخل في سلام مع العرب. ولن يرتكب بوش الابن نفس الخطأ وهو على أبواب الانتخابات النصفية للكونجرس، كما أن شقيقه «جيب» لا يريد أن يخسر الانتخابات القادمة كحاكم لولاية فلوريدا.

لهذا السبب لم يكن احتفاء شارون بخطاب بوش أقل من احتفاء التحالف المسيحي الصهيوني به.. ومن يكون أشد مسيحية من بوش في مثل هذه الظروف؟

أما القضية الثانية التي فرضتها الأحداث على أجواء واشنطن، ورسمت صورة للمشهد الأمريكي بخطوطه العريضة، فقد دارت حول موضوع يثير خلافًا شديدًا في أمريكا، بشأن وضع الأمريكيين العرب والمسلمين في المجتمع الأمريكي. وهل يمكن اعتبارهم جزءًا لا يتجزأ من الشعب الأمريكي، بعد أحداث سبتمبر أم تستجيب السلطات الأمريكية للدعوات الصهيونية المتطرفة التي طالبت بطردهم وترحيلهم من الولايات المتحدة الأمريكية أو تحديد إقامتهم واعتقالهم كما فعلت أمريكا باليابانيين إبان الحرب العالمية. وظهر هذا الخلاف بصورة حادة عندما أعلن روبرت موللر رئيس جهاز المباحث الفيدرالية (إف. بي. آي) عزمه على الالتقاء بمنظمات الأمريكيين العرب والمسلمين، لطمأنتهم بعد الانتقادات الحادة التي وجهوها لخطاب بوش عن الشرق الأوسط وأعربوا فيها عن خيبة أملهم لانحياز بوش لإسرائيل. وشنت المنظمات اليهودية حملة عنيفة تطالب موللر بعدم التوجه إلى اللقاء أو الحوار مع الأمريكيين العرب، بعد أن ثبت أنهم قدموا تبرعات مالية وعينية إلى منظمتي حماس والجهاد الفلسطينيتين، اللتين كانت الحكومة الأمريكية لتوها قد أعلنت وضعهما على قائمة المنظمات الإرهابية.. ومع ذلك فقد ذهب موللر إلى الاجتماع الذي دعاه إليه المجلس الإسلامي الأمريكي ليقول للمسلمين الأمريكيين أنه يطلب تعاونهم ومساعدتهم في محاربة الإرهاب.

والأمر الذي لا شك فيه والذي يستنتجه المرء دون صعوبة كبيرة من خلال اللقاءات العارضة مع المسلمين الأمريكيين أو الأشخاص الذين تحمل ملامحهم وسحنتهم وربما أزياؤهم شبهة الانتماء إلى بلدان وشعوب الشرق الأوسط، إنهم يواجهون معركة حاسمة تضعهم بطريقة أو بأخرى تحت نوع من الحصار المعنوي والنفسي، الذي سرعان ما ينقلب إلى حصار حقيقي في الحياة العامة. وهي معركة متعددة الجوانب والأطراف: مع تيار يتخذ موقفًا عدائيًا من الإسلام ويسعى لتحويله إلى عدو للغرب بعد الشيوعية.. ومع المتعصبين من أشياع إسرائيل وداعميها الذين يرون في أي نشاط ذي صبغة إسلامية تهديدًا لوجود إسرائيل.. ومع بعض القوى الإسلامية التي ترى في نغمة الاعتدال والعقلانية وفي التعامل مع مؤسسات المجتمع الأمريكي السياسية والمدنية خيانة لصحيح الإسلام ولجماعة المسلمين. ومازالت قيادات الجماعات المدنية للمسلمين الأمريكيين بعيدة عن التواصل مع قواعدها، وينظر إليها على أنها مجرد مجموعة من الأشخاص الذين يبتغون النفع الخاص ويسعون لتحسين علاقاتهم مع السلطات الأمريكية.

هذه ملامح من الصورة ومن طبيعة الأجواء السائدة قد لا تكشف المشهد الأمريكي عن آخره. ولكنه قد يكتمل بنظرة فاحصة إلى التوجهات السياسية التي تحكم الإدارة الأمريكية تحت رياسة جورج بوش الابن.

فقد فاز بوش الابن في انتخابات الرياسة بصعوبة شديدة، أي ببضعة أصوات. أتاحت للتيار اليميني المحافظ أن يفرض رؤاه وفلسفته السياسية بكل قوة في أعقاب التوجهات الليبرالية التي ميزت إدارة كلينتون. ويعتبر بوش ـ بتنشئته وأفقه السياسي المحدود ـ خير تعبير عن هذا التيار المحافظ الذي يمثل ما يسمى بالعزلة الجديدة Neo-Isolationism وهي تختلف عن سياسة العزلة القديمة، في انتهاجها لسياسة خارجية تحجم عن التدخل الخارجي في القضايا الدولية، ويقتصر دورها على الدفاع عن المصالح الحيوية المباشرة، مع عدم التورع عن استخدام القوة العسكرية إذا لزم الأمر، ودون حاجة للاعتماد على مساندة الحلفاء أو التشاور معهم. وهو ما يعني العمل على تقوية الاستعداد العسكري الأمريكي ورفع درجته لمواجهة أي أوضاع طارئة تهدد المصالح الأمريكية.. ويعتبر تشيني ورامسفيلد وكوندوليزا رايس من أهم أركانه.

وقد ترتب على ذلك اتخاذ عدد من القرارات التي أثارت دهشة العالم ودهشة حلفاء أمريكا.. حين انسحبت أمريكا من معاهدة حظر الصواريخ البالستية، ثم خرجت على اتفاقية كيوتو للتغيرات المناخية بعد أن كانت أحد الموقعين عليها، وكان آخر الخطوات في هذا الاتجاه التراجع عن الانضمام إلى المحكمة الجنائية الدولية والتهديد بسحب قواتها من البلقان خوفًا من تعرض جنودها لأية مساءلة دولية.

وجاءت أحداث سبتمبر ٢٠٠١، لتدعم هذه الاتجاهات وتمنح القوى اليمينية المتشددة من رجال الرئيس صكًا على بياض لانتهاج سياسات أكثر تشددًا. واتخذت إدارة بوش من «الحرب ضد الإرهاب» حجر الزاوية في صياغة هذه السياسات وفي إقامة تحالف دولي يقدم غطاء لتقسيم العالم إلى دول «مع» أمريكا ودول «ضدها». فمن ليس مع أمريكا فهو مع الإرهاب، وهو جزء من محور الشر الذي آلت أمريكا على نفسها أن تضربه وتقضي عليه.

خلال الأسابيع الأخيرة كشفت إدارة الرئيس بوش عن «مبدأ عسكري جديد» تحدد بمقتضاه شروط الضربة الإجهاضية التي تقوم على مبدأ «اضرب أولاً واشرح فيما بعد». ووضعت استراتيجية عسكرية جديدة لتبرير هذا المبدأ، يتجاوز الاستراتيجية العسكرية السابقة التي لم تعد من وجهة نظرهم ملائمة لمواجهة مخاطر الإرهاب الدولي متمثلاً في بن لادن والقاعدة، وفي تهديدات الدول المارقة التي تملك أسلحة غير تقليدية ـ مثل العراق وإيران

جاءت أحداث سبتمبر، لتمنح القوى اليمينية المتشددة من رجال الرئيس صكًا على بياض لانتهاج سياسات أكثر تشددًا. واتخذت إدارة بوش من «الحرب ضد الإرهاب» حجر الزاوية في صياغة هذه السياسات وفي إقامة تحالف دولي يقدم غطاء لتقسيم العالم إلى دول «مع» أمريكا ودول «ضدها»



وكوريا الشمالية. ومثل هذه الاستراتيجية لا تتخذ بالضرورة أشكالاً عسكرية بعد أن دخلت الحرب الإلكترونية مجالات الصراع الدولى وتطورت بدرجة غير مسبوقة. وقد كشف الرئيس بوش عن هذه الاستراتيجية أخيرًا فى خطاب ألقاه فى قاعدة وست بوينت العسكرية: وقال فيه «إننا لو انتظرنا حتى يتم تنفيذ التهديدات، لكان علينا أن ننتظر طويلاً.. لا بد أن ننقل المعركة إلى العدو ونفسد خططه، ونواجه تهديداته قبل أن يجد الوقت لتنفيذها!».

من الواضح إذن أن بوش لا يكترث كثيرًا بميثاق الأمم المتحدة، الذى حددت المادة ٥١ منه معنى الدفاع عن النفس واشترطت فى تعريفه أن تتعرض الدولة لعدوان مسلح.. هنا لا يحتاج بوش إلى انتظار وقوع هجوم مسلح، بل يتخذ من مجرد «احتمال» وقوعه مبررًا لتوجيه ضربة مسبقة. وهو نفس المنطق الذى شنت به إسرائيل حرب يونية ٦٧، ودمرت بمقتضاه مفاعل العراق النووى عام ١٩٨١.

من هنا تبدو خطورة تنامى أنصار الاتجاهات الإمبريالية اليمينية داخل الإدارة الأمريكية. وما صحبها من تحريض متصاعد ضد العراق، ومن ارتقاء إسرائيل لدورها المركزى فى التأثير على السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط وبالأخص تجاه القضية الفلسطينية. وتبوؤها لمركز رئيسى فى المشروع الأمريكى الذى تحكمه أفكار التيار اليمينى المحافظ ذى النزعة المسيحية الصهيونية.

فتأييد إسرائيل ليس مجرد واجب دينى كما يرى أصحاب هذه النزعة، على أساس أن الرب قد وعد اليهود بأرض إسرائيل وأن بقاء إسرائيل شرط لعودة المسيح فى نهاية العالم، ولكنه يعبر عن اقتناع هذا التيار بحق إسرائيل فى أن تفعل بالسلطة الفلسطينية ما فعلته أمريكا بطالبان والقاعدة فى أفغانستان وما حولها باعتباره حربًا ضد الإرهاب وإجهاضًا لقوى الشر. والأولى بالإدارة الأمريكية - من وجهة نظر هذا التيار - ألا تقف فى وجه إسرائيل وحملتها ضد الإرهاب الفلسطينى. ومن ثم فإن المشكلة الحقيقية التى يجب أن تهتم الإدارة الأمريكية بها هى العراق وليس الصراع العربى الإسرائيلى. ولو نجحت أمريكا فى تغيير النظام العراقى، فسوف تنجح فى إقامة علاقة جديدة بين أمريكا والعالم العربى. وسوف يكون من السهل بعد ذلك تشجيع التحول الديمقراطى فى الدول العربية التى ظلت الأوضاع فيها مستعصية على الحرية والديمقراطية، وهى التى أنشأت تربة خصبة لمشاعر العداء والكراهية ضد أمريكا والغرب. وأنتجت تنظيم القاعدة وبن لادن والظواهرى وأشياعهما الذين دبروا الهجوم على واشنطن ونيويورك.. ومازالت تهديداتهم تتطاير فى أجواء المدن الأمريكية ومطاراتها فى أشكال وأوقات مختلفة.

فى هذا الإطار، وفى هذه الأجواء، وفى هذا السياق جرت وقائع اللقاءات التى جرت بين بوش والقادة العرب فى مزرعة بوش بتكساس مع الأمير عبد الله ولى العهد السعودى ثم فى كامب ديفيد مع الرئيس حسنى مبارك.

وطبقًا لمصادر مطلعة، شهدت تفاصيل المحادثات التى دارت بين الرئيس بوش والرئيس مبارك، فقد نجحت هذه المحادثات - وقتها - فى الحصول على وعدين قبل أن يلقى الرئيس بوش خطابه الذى أعلن أنه سيحدد فيه سياسة أمريكا إزاء الشرق الأوسط:

الوعد الأول هو الالتزام بتحديد إطار زمنى لقيام الدولة الفلسطينية. والوعد الثانى هو إعطاء عرفات فرصة أخرى لإصلاح الأوضاع الداخلية وإحكام سيطرته الأمنية، واستخدام كل نفوذه لوقف العمليات الانتحارية (الاستشهادية) بشرط ألا يعرف عرفات شيئًا عن هذه المهلة، ليظل تحت الضغط المستمر لتنفيذ إصلاحات جذرية.

وفى يوم ١٠ يونية بعد زيارة شارون لواشنطن التى قطعها بسبب وقوع حادث التفجير فى ريشون ليزيون وقتل فيه ١٥ إسرائيليًا، أدلى كولين باول بحديث لصحيفة «الحياة اللندنية» قال فيها: «إن شارون يعرف أننا لا نوافق على تفكيره بشأن استبعاد عرفات. فعرفات هو رئيس السلطة الفلسطينية، والحكومة الأمريكية تعترف بحكومته. وقد كررت ذلك عدة مرات من قبل».

ولكن بعد عشرة أيام، وقعت خلالها عمليات استشهادية متعددة. فى الوقت الذى كانت تجرى فيه كتابة خطاب بوش الذى سيحدد سياسته فى الشرق الأوسط وهو يتارجح صعودًا وهبوطًا، وحذفًا وإضافة، وتعديلاً وتصحيحًا، طلب الملحق العسكرى الإسرائيلى فى واشنطن الالتقاء بأحد المسئولين فى مجلس الأمن القومى الأمريكى وأطلعه على صورة شيك بإمضاء عرفات بمبلغ ٢٠ ألف دولار، يصرف لأعضاء منظمة شهداء الأقصى، التى كانت قد أعلنت فى نفس اليوم مسئوليتها عن الحادث الانتحارى الذى وقع يوم ١٩ يونية.

وتقول الرواية التى تتداولها العاصمة الأمريكية، أن هذا الدليل كان حاسمًا فى تغيير موقف بوش ليتخلى ببساطة عن وعوده السابقة التى أعطاها للقادة العرب. وبعد أن عدلت مسودة خطاب بوش نحو ٢٨ مرة، حسم الرئيس الأمريكى موقفه، ووقف يعلن فى مؤتمر صحفى عقده بحديقة الورود فى البيت الأبيض، أنه إذا أراد الشعب الفلسطينى أن يحصل على دعم أمريكا لإقامة دولته، فلابد أن يختار قيادات جديدة لم تتلوث أيديها بالإرهاب. ويقال إن هذا «الدليل» الذى قدمته إسرائيل، هو الذى حسم الخلاف داخل الإدارة الأمريكية، من ناحية بين باول ورجاله فى وزارة الخارجية، الذين كانوا يرون اعتماد خطاب ينطوى على قدر من دبلوماسية الغموض الإيجابى الذى يترك ثقب إبرة لعرفات كى ينفذ منه.. وبين الصقور من أمثال ديك تشينى نائب الرئيس ورامسفيلد وزير الدفاع الذين حثوا بوش على ضرورة انتهاج سياسة قاطعة لا مكان فيها للمهادنة فى «الحرب ضد الإرهاب»، خصوصًا بعد أن تأكدت علاقات عرفات بالعمليات «الانتحارية». وهكذا منى باول بهزيمة، سحبت زمام المبادرة من بين يديه وتركتها فى أيدى الصقور المتشددين فى مكتب نائب الرئيس تشينى ودوائر البنتاجون ومجلس الأمن القومى. وبالتالى سقطت فكرة المؤتمر الدولى للسلام الذى دعا باول إلى عقده هذا الصيف وذهبت أدراج الرياح. وعاد بوش بذلك إلى موقفه السابق الذى يعطيه الفرصة كاملة لتفادى الاشتباك مع شارون أو التورط المباشر فى مفاوضات مرهقة ومعقدة كالتى تورط فيها الرئيس السابق كلينتون دون جدوى. وقد أعاد بوش تأكيد مواقفه الجديدة أثناء لقائه بالزعماء الثمانية فى كندا، وضاعف هجومه على عرفات والسلطة الفلسطينية مؤكدًا أنه لا يمكن إقامة دولة فلسطينية على أساس الإرهاب والفساد الذى يعشش بين قياداتها.

ومعنى ذلك ببساطة أن الإدارة الأمريكية قد تخلت واقعيًا عن عمل أى شيء للخروج من الأزمة فى الوقت الراهن. بل حتى عن مطالبة إسرائيل بسحب قواتها، تاركة لشارون حرية التصرف.. فى انتظار أن تتحقق الأوضاع الجديدة لكى تفرز قيادات جديدة فى الأراضى الفلسطينية. وبعد أكثر من شهر من خطاب بوش، لم يطرأ أى تغيير على الموقف، فيما عدا ما تقوم به «الاجتماعات الرباعية» التى تضم ممثلين عن أمريكا والاتحاد الأوروبى وروسيا والأمم المتحدة من جهود لسد الفراغ بحجة الإشراف والمساعدة على عملية الإصلاح الأمنى والسياسى والاقتصادى التى طالب بها الرئيس بوش فى فلسطين فى انتظار ظهور قيادات بديلة لعرفات. وهو ما يتفق مع الآراء التى يعبر عنها تشينى ورامسفيلد من أن الصراع الفلسطينى الإسرائيلى لا يمثل تهديدًا حالاً للمصالح الحيوية الأمريكية فى الشرق الأوسط، على العكس من التهديدات التى يمثلها انغماس العراق فى تطوير أسلحة للدمار الشامل.

فى ضوء خطاب بوش الذى جاء صدمة للعالم العربى، رغم كل النيات الحسنة التى أبدتها النظم العربية والجهود المكثفة لمحاولة استخراج أفضل ما فيه من جوانب إيجابية، أو بعبارة أخرى لمحاولة استنتاج ما لا يمكن استنتاجه فيه طبقًا لقوانين القياس المنطقى التى تفترض وجود النتائج فى المقدمات بصورة ضمنية، فإن العاصمة الأمريكية باتت تئز بأفكار ومخططات جديدة تحمل طابع الإمبريالية اليمينية ذات الاتجاهات المسيحية الصهيونية. وتتبلور هذه الأفكار فى اتجاهات مختلفة ولكنها تصب جميعًا فى ضرورة استخدام القوة العسكرية الأمريكية طبقًا لمبدأ الضربة الاستباقية أو الضربة الإجهاضية بهدف إعادة ترتيب الأوضاع فى الشرق الأوسط. وتتفق هذه الأفكار على أن الاستراتيجية الأمريكية وصلت إلى مفترق طرق، ولم يعد أمام الإدارة الأمريكية إلا التدخل لمنع انزلاق الشرق الأوسط إلى حالة من الفوضى التى تجعل من المنطقة مرتعًا للإرهاب، على حد قول جيم هوجلاند فى مقال مهم ظهر بصحيفة «واشنطن بوست» يعبر عن وجهة نظر المتشددين فى الإدارة الأمريكية.

وتعتمد هذه الخطة على مشاركة الناتو أو بعض قوات أوروبية مع قوات أمريكية لتحقق هدفين: محاربة بؤر الإرهاب العالمية ودعم قضايا الديمقراطية فى العالم العربى بما يؤدى للحفاظ على بقاء إسرائيل. وذلك على عكس الداعين لحل القضية الفلسطينية أولاً، قبل أن تتدخل القوات الأمريكية لإزالة أسلحة الدمار الشامل من العراق وقيادته المتحررة. هذا الاتجاه الأخير لم يعد يلقى تأييدًا كبيرًا، بل تغلب الاتجاه الآخر كما بدا من خطاب بوش عن الشرق الأوسط. فقد فهم من الخطاب أنه أعاد ترتيب الأولويات على أساس أن حل العقدة العراقية سوف يسهل حل المشكلة الفلسطينية.. وكلما زاد الاستقطاب بين إسرائيل والفلسطينيين واتسعت الفجوة، كلما أصبح الغزو الأمريكى للعراق أكثر إلحاحًا. ومن بين الأفكار التى يزداد الاقتناع بها طبقًا لهوجلاند، إبقاء القوات الأمريكية فى الأراضى العراقية لعدة سنوات، ليصبح الوجود الأمريكى قاعدة انطلاق للتحول الديمقراطى فى العراق.. بما يجعلها نموذجًا للديمقراطية فى سائر دول المنطقة.. ويشجع على هذا الاتجاه أن معارضة روسيا وفرنسا للتدخل العسكرى الأمريكى فى العراق قد تضاءلت. وشرعت كل من الدولتين فى فتح قنوات اتصال مع المعارضة العراقية. ومن الواضح أن ثمة تنسيقًا مستمرًا بين إسرائيل وخطط الإدارة الأمريكية لغزو العراق.

لا يختلف هذا الاتجاه كثيرًا عن الاتجاه الذى ورد فى ورقة قدمها مارتن أنديك المسئول حاليًا عن مركز أبحاث الشرق الأوسط فى معهد بروكنجز الشهير القريب من الإدارة الأمريكية. وكان أنديك، هذا الأسترالى الأصل من أبرز أركان إدارة كلينتون

الدليل الذى قدمته إسرائيل كان حاسما فى تخلى بوش عن الوعود التى قدمها للقادة العرب.. وهو الذى حسم الخلاف داخل الإدارة الأمريكية، بين باول ورجاله فى الخارجية، وبين الصقور من أمثال تشينى ورامسفيلد لانتهاج سياسة قاطعة ضد الإرهاب بعد أن تأكدت علاقات عرفات بالعمليات «الانتحارية»!

وسفيرًا سابقًا فى إسرائيل ومديرًا للإيباك اليهودية ووكيلاً للخارجية الأمريكية. وفى هذه الورقة يقترح أنديك وضع «خريطة عمل دبلوماسية» تقوم على توسيع نطاق عضوية «اللجنة الرباعية» بضم مصر والسعودية والأردن إليها - وهو ما حدث فعلاً - وتمارس هذه اللجنة ضغوطها على عرفات لكي يعتزل منصبه الحالي، ويتولى منصبًا رياسيًا شرفيًا، ويترك السلطة الحقيقية لرئيس وزراء منتخب، يشكل حكومة مسئولة أمام مجلس تشريعي منتخب (وهى الفكرة التى اقترحها يوشكا فيشر وزير خارجية ألمانيا فى مشروع مقدم إلى اللجنة الرباعية).

وفى هذه الأثناء يعود جورج تينيت مدير المخابرات الأمريكية لتنشيط «مجموعة عمل أمنيه» تشارك فيها مصر والأردن لإعادة تشكيل أجهزة الأمن الفلسطينية بحيث تكون مسئولة عن وقف كل العمليات الإرهابية وأعمال العنف. ويتم خلال ذلك ترتيب انسحاب تدريجى للقوات الإسرائيلية من الأراضى الفلسطينية، دون ارتباط بجدول زمنى محدد.

ولكى لا ينشأ فراغ فى الأراضى الفلسطينية يسمح بعودة المقاومة وأعمال الإرهاب، فإن المجموعة الدولية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية - كما يقترح أنديك فى ورقته - سوف يعهد لها بوضع الأراضى الفلسطينية تحت سيطرتها. ويعقد مؤتمر دولى يعلن إقامة الدولة الفلسطينية «المؤقتة»، ولكنه يضع الأراضى الفلسطينية (٤٢٪ من الضفة ومعظم قطاع غزة) تحت وصاية دولية بقيادة أمريكا لمدة ثلاث سنوات تحدد إسرائيل بدايتها ونهايتها. ويتم خلالها التفاوض بين الفلسطينيين وإسرائيل حول الحدود النهائية، وتجرى الانتخابات لقيادات فلسطينية جديدة تتسلم المسئولية السياسية، وهو نفس ما حدث قبل ذلك - كما يقول أنديك - فى البوسنة، وتيمور الشرقية،

ضـرب محـور الشـر...



وافغانستان. وما يمكن أن يكون قد تم إنجازه خلال هذه الفترة فى العراق.

من واشنطن، يبدو المشهد العربى عبر المحيط مثقلاً بكثير من الضغوط والمشاحنات والخلافات العربية العربية، الناجمة عن الجمود والعجز عن التصرف حيال التعقيدات التى تلف الأزمة. ولأسباب كثيرة، أحجمت الدول العربية وبالأخص كلٌ من مصر والسعودية عن المعارضة الصريحة لمبدأ بوش الذى أعلنه فى خطابه عن الشرق الأوسط والذى جعل نقطة الانطلاق فيه التخلص من عرفات. وتمسكت الدولتان بأن خطاب بوش حوى عناصر متوازنة تحدثت عن قيام دولتين فلسطينية إلى جانب الإسرائيلية، ولكن بعض جوانبه مازالت بحاجة إلى إيضاح. وربما تكون الاجتماعات التى عقدتها «اللجنة الرباعية» بالاشتراك مع «اللجنة الثلاثية» التى ضمت مصر والسعودية والأردن فى نيويورك، ثم الاجتماع الذى عقدته الثلاثية مع الرئيس بوش فى واشنطن قد ساعدت على تقريب الفجوة بين أمريكا والدول العربية، بالاتفاق على «معالجات» معينة، تستهدف بالدرجة الأولى تحقيق الأمن، كما تطالب به إسرائيل. وتخفيف المعاناة عن الشعب الفلسطينى وليس رفع الحصار أو إنهاء الاحتلال فى توقيت معين وإصلاح السلطة الفلسطينية وتجهيزها لإحداث تغييرات قيادية.. ولكن كل هذه «المعالجات» التى اقتربت من الموقف الأمريكى تظل مرهونة بموافقة شارون.. إنها أشبه بصندوق يملك شارون وحده مفتاحه. وليس بوسع بوش إن يُكرِهَهُ على استعماله رغم إرادته. ولن يمكن ترجمة هذه «المعالجات» التى قد تصاب بنكسة شديدة لدى كل عملية من عمليات المقاومة، أو قيام شارون بمذبحة من مذابحة المدبرة كما حدث فى المجزرة الأخيرة فى غزة التى قتل فيها ١٥ من المدنيين وأصيب عدة عشرات من الجرحى، إلا مع بداية عام ٢٠٠٣.. ولا أحد يتوقع أن تنهى إسرائيل احتلالها للأراضى الفلسطينية، لكى تتمكن السلطة من إجراء الانتخابات، حتى هذا التاريخ. إذ لن تكون إسرائيل قد انتهت من إقامة الحاجز الأمنى.. وفى أحسن الظروف فلن تتحقق غير فترة تهدئة على الجبهة الفلسطينية، تسمح لأمريكا بتنفيذ مخططها فى العراق.

وإذا كانت الدول العربية بسبب تهافت وتمزق أوراقها، قد آثرت انتهاج المبدأ القائل: «انضم إلى خصمك إذا عجزت عن هزيمته» IF You Can't Beat Them Join Them فإن الخصم يبدو مصرًا حتى النهاية على عدم ترك الباب مفتوحًا للتقهقر. فإسرائيل ترفض تجميد المستوطنات وغيرها من أساليب بناء الثقة. ولا تعبا الإدارة الأمريكية بأن تدعو شارون أو تحثه على خلق الظروف الملائمة لإحداث التغيير المطلوب فى السلطة. بل على العكس رفضت حكومة شارون طلب بوش بالإفراج عن المبالغ المتجمدة لحساب السلطة الفلسطينية (٦٠٠ مليون دولار) وأقدمت على إغلاق مكاتب السلطة فى القدس. ولا يمكن فى هذا الإطار تجاهل الحملة التى تجددت بشأن اتهام مصر بالحصول على إمكانيات نووية بمساعدة صينية أو كورية. وكذلك تصعيد الضغط على سوريا بسبب إيوائها لمنظمات إرهابية ودعمها لحزب الله.. فضلاً عن استبعاد سوريا ولبنان اللتين تحتل إسرائيل بعض أراضيهما، من معظم الاتصالات والتحركات الجارية.

ليس من المتوقع فى ظل هذه الظروف أن تتحرك إدارة بوش، فى أى اتجاه من شأنه إثارة خلافات مع شارون ومع التيار اليمينى المحافظ فى الكونجرس، خصوصًا مع تفجر الفضائح المالية الأخيرة وانزلاق الأسواق المالية الأمريكية إلى أوضاع مضطربة واقتراب موعد الانتخابات النصفية للكونجرس. ومع ذلك فلا أحد يضمن بقاء الأوضاع المأساوية فى الأراضى الفلسطينية تحت السيطرة. والمستقبل يبدو محملاً بنذر خريف ساخن يصعب التنبؤ باحتمالاته.

فرار الأمريكان

من السياسة إلى الإيمان

ريتشارد سينيت



نانسي ريجان، جورج بوش، وترنت لوت زعيم الأقلية في الكونجرس.. أثناء الصلاة

ما الذي تعلمته الولايات المتحدة من الحادي عشر من سبتمبر؟ لقد أدت المذبحة إلى تصلب الشرايين ذات النزعة الأحادية في الحكومة: ففي الوقت الراهن تجرى تسوية الكثير من الحسابات القديمة، مثل عزل كوبا وكوريا الشمالية أو معاقبة إيران، تحت اسم مكافحة الإرهاب. ومع أن الشعب الأمريكي لا يزال غاضبًا، فإن الكثيرين منه يزدادون حيرة من أمر العالم الواقع فيما وراء حدود أمريكا. وقد تتسم شكوى الأمريكيين العاديين التي ينطوي عليها تساؤلهم «لماذا يكرهوننا؟» بالسذاجة، ولكنها تتسم كذلك بسلامة النية وتستحق الرد عليها بإجابات صادقة.

ولكن من يمكنهم تقديم تلك الإجابات الصادقة عجزوا إلى حد كبير عن تقديمها. فالصحافة المطبوعة تنقل تأويل الحكومة على أنه حقيقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. وتزخر موجات الأثير ببرامج مثل The Military Diaries (المذكرات العسكرية) الذي ينتجه ر. ج. كتلر R.J. Cutler ويهدف إلى تقديم «الترفيه العسكري». وكانت أفلام الدعاية الأمريكية والبريطانية في فترة الحرب العالمية الثانية تنشر «مذكرات عسكرية» توضح للجنود وجهتهم، وما عليهم القيام به هناك، وأسباب قيامهم به. أما «الترفيه العسكري» فهو على العكس من ذلك يركز على المشاعر: ذلك أن البرنامج الإذاعي يركز على ما يأكله الجنود، والموسيقى التي يستمعون إليها، وكم مضى من الوقت منذ آخر مرة مارسوا فيها الجنس.

وتوضح نزعة نخبوية لا واعية في الصحافة الأمريكية إلى حد ما سبب اعتقادهم أن ما هو أفضل من ذلك قد يجعل الناس يشعرون بالملل. ولكن كما أشار المذيع التليفزيوني البارز دان راذر Dan Rather مؤخرًا، فإن زملاءه يخشون كذلك وصمة أن يبدو «غير أمريكيين». وبذلك تعكس الصحافة انهيارًا عامًا لليسار الأمريكي عقب الحادي عشر من سبتمبر.

وفي اليوم التالي مباشرة للهجوم، ربما بدت مناقشات الآثار السلبية للنفوذ الأمريكي في غير وقتها إلى حد كبير. فقد انقلب جمهور القراء ضد سوزان سونتاج Suzan Sontag التي ربطت، في مقال نشرته في مجلة «نيويوركر» New Yorker عقب التفجيرات مباشرة، بين النفوذ الأمريكي والغضب القاتل الآتي من الخارج. وكثيرًا ما كان نصيب أستاذ العلوم السياسية تشالمرز جونسون Chalmers Johnson وهو المحلل الجاد والمحافظ - تلويث سمعته على أيدي أناس لم يقرءوا كتابه Blowback: The Costs and consequences of American empire (الارتداد: ثمن الامبراطورية الأمريكية وعواقبها)، كما لو كان قد صدَّق الفرضية الشائعة القائلة إن «أمريكا هي التي جلبته لنفسها». ولكن الصدمة النقدية ما زالت قائمة: فالتحليلات التي تتناول لا عقلانية الأصولية الإسلامية في تزايد، في الوقت الذي لا تزال فيه مناقشات الآثار العالمية للنفوذ الأمريكي على استحيائها.

ولدى اليسار الأمريكي السبب الذي يجعله منشغلاً بإثبات أن له موقفًا يتسم بالإخلاص والولاء. ويمكننا إرجاع الخوف من أن يبدو المرء «غير أمريكي» إلى حرب فيتنام من ناحية، ومن قبلها إلى المكارثية McCarthyism من ناحية أخرى. إلا أن تعافي الجماهير بصورة عامة من الصدمة المكارثية كان أسرع من تعافي المفكرين، الذين كانوا يرون أن التواطؤ - بعلم أو بدون علم - مع قوة شمولية أجنبية مسألة باقية لا يمكن الفصل فيها. ولا يزال جيلي يحمل جرحًا محليًا من حقبة فيتنام لن يندمل أبدًا؛ فمعظم الشباب في الجامعات كانت لديهم الوسائل للهروب من الخدمة العسكرية، وهو ما كان يعني أن يحارب الفقراء وغير المتعلمين تعليمًا عاليًا في الخارج بدلاً منا. وهذه الوصمات التي تلطخ شرف اليسار المدني أتت على قدرة عناصر بعينها على التحدث إلى الآخرين بإيمان صادق.

وتشمل العقبة الأكثر عمومية، التي تحول دون النقاش النقدي المتعلق بشأن الدور الذي قامت به أمريكا في مشاكلنا الراهنة، المصيرين المتقاطعين للهوية الأمريكية والدين. فغالبية الأمريكيين يؤمنون بالوجود المادي لجهنم، كما تؤمن أقلية كبيرة من المسيحيين أنها اتصلت اتصالاً مباشرًا بالروح القُدُس. وأدى هذا التدين الراسخ بالأمريكيين إلى دعم المستشفيات والمدارس والجمعيات الخيرية التي تقوم على أسس إيمانية. فالدين يؤدي إلى تماسك المجتمع المدني، وهو ما لا تفعله الحكومة.

وقد يبدو أن الإيمان الذي لا ينفصل بالرب والوطن هو الذي يحدد كل شيء يعتز به الأمريكيون في العالم الأكبر. ولكن الصورة أكثر تعقيدًا من ذلك. فقد وضع الجمهور العام منذ مذبحة سبتمبر خطًا ثابتًا بين الإسلام في حد ذاته والإرهاب - وهو كذلك ما فعله الرئيس الأمريكي، الذي يعود إليه الفضل الكبير في ذلك؛ ويشير استطلاع للرأي أجري مؤخرًا إلى أن أكثر من ٧٠ بالمائة من الشعب الأمريكي يرفضون الفرضية التي تفتقر إلى العلم وتقول إن الإيمان بالإسلام «يؤدي إلى السلوك العنيف». وتكشف المواقف تجاه إسرائيل عن تعقيد مشابه. فكثير من الأمريكيين اليمينيين، ويمثلهم بيلي جراهام Billy Graham (الذي أفرج مؤخرًا عن أحاديثه المسجلة مع الرئيس نيكسون عن «السيطرة القوية» لليهود على الولايات المتحدة)، معادون للسامية في الداخل ومدافعون بقوة عن إسرائيل في الخارج. ولدى اليهود الأمريكيين مواقف تجاه إسرائيل نفسها أكثر تشويشًا من تصريحات زعمائنا الدينيين، حيث يخشون من أن تشكل عواطف الأصوليين اليهود تهديدًا لقدرة إسرائيل طويلة المدى على البقاء.

ومع ذلك فإن طارق على محق في تسمية كتابه الجديد The Clash of Fundamentalisms (صراع الأصوليات)، كطريقة لتسمية من يحددون الصراع الحالي، وإن كنت لا أظن أنه فهم الأسس الأمريكية الخاصة بالله والوطن فهمًا صحيحًا. فطارق على سليل العائلة الباكستانية العلمانية النخبوية ذات الاتجاه اليساري، والروائي والمخرج السينمائي الذي يعمل حاليًا في لندن، يرسم خريطة اشتباكه النقدي مع الإسلام وقوى التشدد الموجودة داخله. والكتاب من أربعة أجزاء هي مراجعة عامة وسريعة للتنوير الإسلامي وانهياره، وبحث أدق تفصيلاً في العلاقة بين اقتصادات البترول والحركات الدينية في الشرق الأوسط، ثم السياسة والدين في باكستان وأفغانستان وكشمير، وأخيرًا نقد قصير وحاد للطرق التي اتبعتها السياسة الخارجية الأمريكية لتضليل العالم الإسلامي.

وقد كُتب «صراع الأصوليات» بأسلوب رفيع وبقدر كبير من الذكاء والحيوية. ونأمل ألا تكون إحدى الفتاوى من نصيب هذه الدراسة الرائعة؛ ومع أن طارق على لا يزال على علمانيته، فهو شديد الوعي بالطريقة التي يمكن بها للإسلام توفير إحساس بالكرامة والعزيمة للفقراء. وما نطلق عليها «أصولية» تمثل إلى حد ما رد فعل تجاه الانهيار الكوني لتلك المؤسسات التي كانت تقيم أود الفقراء في الماضي.

أما الثقافة الأخرى التي في صراع الثقافات الذي يصوره هو فمصنوعة من مكونات شديدة الاختلاف. فالأصولية الأمريكية الخاصة بالله والوطن ليست مجرد غطاء للحكم الكوني، بل إنها تمثل تجربة دينية تفرق بين الذات والعالم، مع وجود بعض المؤسسات المهيمنة الثابتة في الوسط. وقد لاحظت المؤرخة المعاصرة فرانسيس فيتزجيرالد Frances Fitzgerald أن العاطفة الدينية الأمريكية شديدة الفردية وتتجه للداخل، وذلك بسبب أصولها التطهرية. وإذا بدت التطهرية مهددة باستمرار من الفساد الأخلاقي، فإن أزمات

1-The Clash of Fundamentalisms: Crusades, Jihads and Modernity
(صدام الأصوليات الحروب الصليبية والجهاد والحداثة)
Tariq Ali
Verso, 2002, 852P.

2- Two Hours that Shook the World, September 11, 2001: Causes and Cosequences
(ساعتان هزتا العالم ١١ سبتمبر ٢٠٠١.. الأسباب والنتائج)
Fred Halliday
Saqi, 2002, 256P.

في الوقت الراهن تجرى تسوية الكثير من الحسابات القديمة، مثل عزل كوبا وكوريا الشمالية أو معاقبة إيران، تحت اسم مكافحة الإرهاب

الإيمان كانت تهدد الأفراد أكثر من تهديدها لأحياء المدينة: فقد كان الضمير الفردى وليست البيروقراطيات الكنسية هو صلب العقيدة.

والآن، وكما كان الحال فى البداية، يتحدث الضمير فى أى مكان ـ فقد كان يتحدث إلى التطهرى الذى يتجول فى الغابة فيما مضى، والآن يتحدث إلى من يستمعون إلى الإذاعة الدينية وهم يقودون سياراتهم. وإعطاء الصبغة الفردية للإيمان هو السبب، على سبيل المثال، فى أن الكثيرين من الأمريكيين، الذين يعتقدون أن لهم اتصالاً شخصياً بالإله، يصلون لهذا الاعتقاد من خلال تحليلهم لسلوكهم وليس من خلال دراستهم للكتاب المقدس. وحين حلل ويليام جيمس William James ظاهرة اعتناق عقائد جديدة منذ قرن مضى، كان يظن أن إعجاب الأمريكى بان يصبح المرء «مولودًا من جديد» يكمن فى الرغبة فى تغيير نفسه وليس فى الامتثال لما أمر به الرب. وهذه هى أصوليتنا، أى أصولية الشخص.

وتشجع فيتزجيرالد دراسة السياسة الخارجية، باعتبارها سياسة تعكس بشكل مباشر هذه الرؤية الدينية شديدة الفردية. فهى ومدرستها ترجعان المنطق الدينى لدرع الصواريخ الأمريكى، على سبيل المثال، إلى خوف المدينة من التلوث الفردى من الخارج: فانتهاك الأخلاق لا يأبه بالمصلحة العليا؛ وبذلك تبدو قوى كوريا الشمالية النووية فى إطار الوعى بالخطر أكبر من ترسانة روسيا. وتصبح الأصولية الإسلامية، حين تُفهم على انها خضوع الضمير الفردى للحكم الجمعى، غريبة إلى حد كبير؛ ويسير التمسك بالنظام الدوجماتى فى اتجاه معاكس تمامًا لتجربة التحول الداخلى الذى ينبغى أن تحرر المرء من أغلال العادة والمؤسسات. والواقع أنه فى أمريكا القرن التاسع عشر كان البروتستانت الوطنيون يشككون فى كاثوليكية المهاجرين «الخانعة» بلغة تشبه إلى حد مخيف تلك المناقشات التى تدور حول الأصوليين الأجانب فى الوقت الراهن.

وبطبيعة الحال فإن «هناك» عالمًا حقيقيًا، وفى لحظات الأزمة ـ كما حدث إبان الحربين العالميتين ـ كان الناس يستجيبون له فى نهاية الأمر. وليست أصولية الفرد أصولية أنانية وحسب، بل إنها تقود إلى احترام صادق تجاه الآخرين، ولكن من زاوية أمريكية مميزة.

وتتضح الطريقة التى يعمل بها الآن هذا الاتجاه إلى الخارج فى عقول المفكرين فى إعلان نوايا بعنوان «ما الذى نحارب من أجله»، كتبه ديفيد بلانكنهورن David Blankenhorn رئيس معهد القيم الأمريكى ويحمل توقيعات نقاد أقوياء آخرين للمجتمع الأمريكى مثل الفيلسوفين جان بيتك الستين Jean Beathke Elstain ومايكل والزر Michael Walzer، وعالم الاجتماع فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama وروبرت بوتمان Robert Putnam، وليس إعلان النوايا هذا مجرد وطنية متعصبة، ولا يدعو بلانكنهورن ومن وقعوا معه إلى مبدأ «العين بالعين». بل إن هدفهم هو بيان أن هناك أوقاتًا لا يكون فيها شن الحرب مسموحًا به أخلاقيًا وحسب، بل ضروريًا من الناحية الأخلاقية، للرد على أعمال العنف الماساوية والكراهية والظلم. وهذا وقت من تلك الأوقات.

ولكى يبرروا موقفهم، فإنهم يناشدون بتلك «القيم الأمريكية» التى لا تخص أمريكا وحدها، بل يشترك فيها ميراث البشرية فى واقع الأمر. وهم يناشدون بصورة أمريكية من الإيمان بالدين باعتبارها أهم تلك القيم. وبينما يعترف بيان المثقفين الأمريكيين بأنه «ليس هناك تراث دينى يتسم بالكمال»، فإنهم يرفضون ما يسمونه «العلمانية الأيديولوجية». (توضح إحدى الحواشى أنهم يقبلون فصل الكنيسة عن الدولة ولكنهم ضد «رؤية العالم التى تقوم على رفض الدين أو معاداة الدين»). وما يؤكدونه هو أن الإيمان بالدين «بُعد مهم من أبعاد الفردية»، والواقع أن الإعلان يركز على إبراز صوته الخلاق؛ وبينما يبدو أن الدين، شانه شان الوطنية، يوحى بخضوع الذات أو محوها، نجد أن التركيز هنا على «من نحن».

وما لا يوضحه البيان هو كيف سيؤدى الإيمان «باعتباره بعدًا مهمًا من أبعاد الفردية» إلى ضم كوريا الشمالية إلى «محور الشر» الذى تحدث عنه الرئيس بوش. ولا تقيِّم الوثيقة أخلاقيات الاستراتيجية الأمريكية الفعلية فى منطقة أفغانستان: بل إنها تصر على حقيقة العامل الأخلاقى الخالصة. وأنا أفهم أن تشن الحرب للقضاء على مخزون المجنون صدام حسين من الأسلحة البيولوجية والكيماوية، ولكنى لا أفهم أن تكون لفرديتى علاقة بذلك.

ويكمن منطق «ما الذى نحارب من أجله» فى الانتقال من «أنا أؤمن» إلى «أنا مخلص للمبادئ الأمريكية» إلى النتيجة التى تقول إن «شن الحرب ضرورى من الناحية الأخلاقية». وما يغيب عن هذا المنطق ـ وقد أحيل إلى غياهب العلمانية ـ هو الاقتناع باننا قد نكتشف مبادئ أخلاقية معيارية فى علاقات البشر المتينة ببعضهم البعض ـ وهناك إقرار عام بانها مهمة اقتصادية وسوسيولوجية وسياسية شاقة. ويجاوز منطق الإيمان كل هذه التفاصيل التى يصعب علاجها. وبذلك فإن «ما الذى نحارب من أجله» يبرر، رغم الاختلاف الطفيف فى درجاته وإنسانيته، تسمية طارق على للحظة الراهنة بانها صراع أصوليات.

وأنا لا أقصد بهذا النقد أى تعليق على إيمان من كتبوا الإعلان. فالخطأ هو أن الإعلان يفعل القليل من أجل إلقاء الضوء على الأخلاقيات التى تليق بالقوة العظمى. وقد وظف كتاب فريد هاليداى Fred Halliday وعنوانه Two Hours That Shook the World «ساعتان هزتا العالم» تلك المسالة بعرض تاريخ تواطؤ أمريكا السابق مع أعدائها الحاليين. وهاليداى الخبير البريطانى بشئون كل من منطقة أفغانستان والشرق الأوسط، ليس معاديًا آليًا لأمريكا. فهو يرى العدالة الحقيقية فى الحملة الأمريكية ضد العراق قبل عقد من الزمان، وإن لم تنطو على عدالة سماوية؛ فقد كانت ترسانة صدام الكيماوية والبيولوجية هى التى بررت الحرب. وهو متشدد كذلك بشان النخب الإسلاموية: ذلك أنه مثل طارق على يعتقد أن التخلى عن مسئوليتها المؤسساتية تجاه شعوبها ساعد على خلق تلك الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى تنتعش فيها الأصولية الخلاصية.

وتخلق القيود الزمانية الخاصة بالإنتاج صعوبة ما تتعلق بهذا الكتاب. فمع أنه نُشر فى الولايات المتحدة وحسب، فلم يظهر فى بريطانيا إلا بعد بضعة أشهر من مذبحة سبتمبر؛ ولا تتحد مجموعة هاليداى من الكتابات المتنوعة على مر سنوات كثيرة فى مركز اهتمامها. ولكن هناك حقيقة غير مريحة تتخلل الكتاب بكامله. إذ يوضح هاليداى التواطؤ الأمريكى فى الماضى مع من يهددون أمن أمريكا الآن ـ وهو ليس تواطؤًا مع الشر، وإنما تواطؤ مع الشرير. «والمعاداة الاستراتيجية للإسلام» سياسة يرجعها هو إلى سياسة البترول، وبالأخص إلى أزمة البترول فى عام ١٩٧٣، وفى اللعبة الأخيرة لعبت أمريكا ضد الإمبراطورية السوفيتية. وكأى من ممارسات السياسة الواقعية، كانت «المعاداة الاستراتيجية للإسلام» تشتعل وتخبو حسب الظروف، وهو ما جعل الولايات المتحدة تدخل منذ عقد مضى فى علاقات ودية مع طالبان فى السر. وفى فصل عن السياسة الداخلية السعودية، يبحث هاليداى مرونة أمريكا بشان خداع الأسرة الحاكمة، والعناصر التى كانت تمول المنظمات التى كانت بدورها تمول الإرهاب. وربما تقر أية سياسة خارجية أخلاقية، على أقل تقدير، المكان والزمان الذى يتحتم فيه التنازل عن بعض القيم من أجل قيم غيرها.

وفى قلب الكتاب تكمن رؤية أخلاقية أكثر إيجابية وبساطة فى التحليل المحكم الذى يقدمه هاليداى للإرهاب كما يفهم «من أعلى» مقابل فهمه «من أسفل». ولكى يعيد طرح هذه المقولة بشكل بسيط، يفرِّق هاليداى بين «الإرهاب» كتهديد لأمن الآمنين و«الترهيب» الذى هو تهديد القوة من أعلى لمن هم أدنى. وفى هذا السياق تتضمن كل ديانة من الديانات الكبرى نصًا لمناقشة الحرب العادلة، والظروف التى فى ظلها يكون استخدام القوة مشروعًا، ونوع القوة التى يكون من المشروع استخدامها.

ويقول هاليداى إنه لهذا السبب فإن الشكل الفج لـ «مطابقة الإسلام بالإرهاب فيه إساءة استغلال للمصطلح الأخير من أجل أغراض سياسية مثيرة للجدل.... إذ يقصر مناقشة الإرهاب على الدول المسلمة وحدها». ولا يعارض الموقعون على «ما الذى نحارب من أجله» ذلك ـ من حيث المبدأ. إلا أنهم ليسوا مهتمين بما قد يشعر به من لا تقبلهم أمريكا من رعب من قوتها، ولا بالعواقب غير المنطقية الناجمة عن كراهية المرء لعجزه، على الجانب الآخر.

قد يكون هناك اعتراض على عدم وجود عامل تهدئة فى كلام هاليداى الصريح إلى عائلات ضحايا الحادى عشر من سبتمبر، أو على طلبه الزائد عن الحد حين يريد من شعب ما أن يكون ناقدًا ذاتيًا بشان قوته. ولكنه هو وطارق على يطرحان، وبطريقتين مختلفتين تمامًا، سؤالا مُلحًا، هو كيف يمكن تاكيد سلامة السياسة العلمانية؟ لقد كانت الولايات المتحدة، مثلها مثل معظم الديمقراطيات الغربية الأخرى، تشهد سقوطا سريعا لكل من مشروعية العملية السياسة والساسة فى الجيل السابق. والتهاون بشان الأخلاق السياسية لا يترك سوى خيارين، هما العودة إلى المشاهد السينمائية ـ وهو ما يمكن تسميته باسلوب بيرلسكونى Berlusconi Way الذى تناسب فيه المشاهد السينمائية الخاصة بـ «الترفيه العسكرى» الجميع بشكل مامون جداً ـ أو اللجوء إلى الدين كمرشد للسياسة.

إن نزاهة السياسة امر يحتاجه المفكرون الأمريكيون بشدة. فكوننا موصومين فى بعض الأحيان بعدم صدق الإيمان، وفى أحيان أخرى بالنزعة النخبوية غير الواعية، فإننا لم نعد أصواتًا انتقادية موثوقًا بها تعبر عن شعبنا. وليس استعادة تلك المشروعية عن طريق اللجوء إلى العاطفة الدينية، بالولوج بحذر فى «الفردية» الدينية، سوى إعلان عن أن المثقفين هم كذلك أمريكيون صالحون. ويقول فريد هاليداى صراحةً إن النفوذ الأمريكى أثار «الظلم الكونى والعداوة الكونية». وهو ما يعنى أن الرد على سؤال «ما الذى نحارب من أجله»، هو أن نيتنا سليمة. وهذا يعادل التراجع عن السياسة؛ وهو ما لن يفيد بكل صراحة. ■

بترتيب خاص مع TLS
ترجمة أحمد محمود

في الذكرى الأربعين لاستقلالها

الجزائر

بين تغييب الجغرافيا وإحباط الحاضر!

محمد الميلي

مجندات جزائريات في جيش التحرير الوطني



برز دور مدينة الجزائر منذ القرن السادس عشر
عندما اتجهت امبراطورية ناشئة هى أسبانيا المسيحية
إلى احتلال بلدان المغرب العربى خاصة مدنه البحرية،
بعد أن نجحت فى القضاء على آخر دويلات
الأندلس، وهى دولة بنى سراج فى غرناطة

لم يكن هناك من تصور أن موقع «ارجيل» كما كانت تسمى فى العهد البربرى (ومعناه المكان المغطى) سوف تصبح له مكانة معتبرة منذ القرن السادس عشر الميلادى.. وكانت قد عرفت باسم «اقسيون» فى العصر اليونانى، وهى كلمة مشتقة من كلمة «إيقوسى» اليونانية وتعنى «عشرين». يقال أن تلك التسمية مرتبطة بعدد الجزر والصخور التى كانت توجد فى مدخلها. ويقال أن ذلك يرجع إلى أسطورة يونانية خلاصتها أن عشرين من رفاق «هرَقْل» انفصلوا عنه عندما أبحر فى طريق عودته من بحر الظلمات إلى اليونان. وإذ لم يتفقوا على تسمية واحدة لهذا الموقع أطلقوا عليه «عشرون» وهو الرقم الذى يعبر عن عددهم كلهم.

بعد ذلك بعدة قرون استقرت بالمكان قبيلة «بنى مزغنة» وهى من فروع صنهاجة التى كانت تقطن المناطق التَّلْية الممتدة من القبائل إلى مصب نهر الشلف. لذلك عرفت «أقسيون» أو «ريقسيوم» فى المنطق اللاتينى باسم «جزائر بنى مزغنة»، واقتصروا على «الجزائر» بعد ذلك وهو الاسم الذى اشتهرت به خاصة بعد أن سعى «بلقين بن زيرى» الصنهاجى إلى إعمارها، قبل أكثر من ألف سنة.

ولاشك أن هذا الموقع على البحر كان أحد العوامل التى ترشحها لأن تتطور وتندمج فى ركب الحضارة. فالفضاءات البحرية من شأنها أن تجذب الانسان الذى يبحث عن الثروة والمغامرة والشهرة. فليس من قبيل الصدفة أن يشغل البحر حيْزًا كبيرًا فى ألف ليلة وليلة، عبر رحلات السندباد البحرى ومغامرات «خطّاف العرائس» والممالك التى يسيطر عليها سلاطين الجان فى أعماق البحار. إن فضاءات البحر الخالية من العمران الثابت تفسر إلى حد كبير نشأة وتطور الحضارات التى قامت على ضفافه منذ أقدم العصور مثل الحضارة المصرية واليونانية ثم الرومانية.

وتشبه الفضاءات الصحراوية البحار فى كونها هى الأخرى كان لها دور فى نشأة وتطور حضارات تشكلت حول الواحات. يؤكد ذلك التسمية التى كان أطلقها العرب على الجمل «سفينة الصحراء». هناك أوجه شبه بين فضاءات البحار وفضاءات الصحراء: فمدن الحضارات البحرية، لؤلؤ، مرجان إلخ.. وكذلك بسبب نشاط القراصنة، كما تطورت مدن الواحات الصحراوية بفعل ما تشتمل عليه هذه من حدائق وثمار ونخيل، وكذلك بسبب المغانم التى يتحصل عليها فرسان البدو الرحل إثر غاراتهم وفى غزواتهم.

ولعل أحد الفروق الأساسية يتمثل فى كون الفراغات الصحراوية تشكل عامل طرد لسكانها، بينما تكون فراغات البحار عامل جذب للمقيمين على شطآنها، وفى كلتا الحالتين تمثل المسالك الصحراوية والمسالك البحرية أحد عوامل ازدهار التجارة التى تؤمن إيصال بضائع وسلع إلى حيث يكون الطلب عليها شديدًا والأرباح التى توفرها مرتفعة.

لكن كلا من الموقع البحرى والصحراوى لا ينتج حضارة إن لم يتعانق فيه التاريخ مع الجغرافيا. لأن «الجغرافيا لا تقتصر على دراسة الأرض، إنها تمتد وتشمل كل ما هو حى على سطحها، خاصة الإنسان، والحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبشر» حسب تعبير أندريه سيجفريد .

إن هذا التعريف للجغرافيا يجعل هذه ملتحمة مع التاريخ، فى علاقة عضوية تفسر كون كل منهما يعتبر أقدم علوم الأرض، ويتداخل كلاهما مع أولى خطوات الفكر الإنسانى، وهذا يعنى أن التاريخ هو علم وليس فنًا أو أدبًا فقط، كما حسم فى ذلك لوي بوردو منذ عام ١٨٨٨ عندما أكد على أن التاريخ هو «علم ولا يمكن أن يكون غير ذلك».

هذا التلازم هو الذى جعل «بروديل» يستعمل مصطلح «جيو تاريخ» فى كتابه «مطامح التاريخ»[(١)]، ويعرف هذا المصطلح بانه «هو التاريخ الذى يفرضه المحيط على الناس بما يتضمنه من ثوابت، وهو ما يحدث غالبًا، أو بتقلباته الخفيفة عندما يترتب على هذه عواقب إنسانية». ثم يضيف «إن الجيو تاريخ هو أيضًا تاريخ الإنسان فى صراعه مع فضائه، مكافحًا ضده على امتداد حياته الشاقة المجهدة، منتصرًا عليه، متحملاً له مقابل أعمال مدعوة دومًا لأن تتجدد».

إن هذا الترابط بين التاريخ والجغرافيا هو ما تنبه له العظماء فى الفترات الحاسمة من تاريخ شعوبهم.

وهذا ما يفسر المكانة التى اكتسبتها مدينة الجزائر منذ أصبحت عاصمة للمغرب الأوسط فى العهد العثمانى. اكتسبت تلك المكانة بقانون الجغرافيا، «لأن الذى يريد الكلام فى السياسة عليه أن يضع أمامه خريطة ينظر إليها ويدرس ألوانها وخطوطها، وحينئذ فقط يحق له أن يتكلم برأى ويجتهد بحكم» حسب تعبير الجنرال دى جول، كما نقله الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل[(٢)].

تتأكد مقولة الجنرال دى جول هذه عندما نلاحظ أن المدن الكبرى الواقعة على ضفاف المتوسط أدت دورًا أساسيًا، حتى عندما تزحزحت مكانة المتوسط بعد اكتشاف أمريكا، كما يدل على ذلك تاريخ العصر الحديث، بما فيه تاريخ القرن العشرين. ومن الجدير بالتسجيل هنا أن الجنرال دى جول ربط، فى حديثه مع الأستاذ هيكل، بين الجغرافيا والسياسة التى هى تاريخ راهن أو هى واقع الحال الساخن قبل أن يصبح تاريخاً بارداً.

برز دور مدينة الجزائر منذ القرن السادس عشر عندما اتجهت امبراطورية ناشئة هى اسبانيا المسيحية إلى احتلال بلدان المغرب العربى خاصة مدنه البحرية، بعد أن نجحت فى القضاء على آخر دويلات الأندلس، وهى دولة بنى سراج فى غرناطة. وقد عزز اندفاعها للسيطرة على أهم موانئ المغرب العربى عوامل رئيسية ثلاثة:

١ - الخلافات والحروب بين دويلاته من جهة، ٢ - التفوق العسكرى الاسبانى من جهة ثانية، ٣ - دعم المغرب العربى للمسلمين الباقين فى الأندلس من جهة ثالثة.

فقد تسبب سقوط غرناطة فى بعث تضامن سكان الشمال الأفريقى وزعمائهم مع مسلمى الأندلس، وهو ما عبّر عنه «بروديل» بـ«تجديد الإسلام المغاربى»[(٣)].

وقد اصطدمت المحاولات الاسبانية، وهى سياسية، بمصاعب مرتبطة بالتضاريس والمناخ، أى الجغرافيا: مساحات شاسعة، بحر دائم الهيجان، جبال وعرة، شواطئ تنعدم فيها المخابئ الآمنة، فضلاً عن عدم معرفتهم بالآبار ونقاط الماء.

لكن ذلك لم يحل دون السيطرة على «مرسى الكبير» فى عام ١٥٠٥، وهو ما يعتبره المؤرخون أهم حادث سياسى عسكرى عرفته المنطقة. وقد اعتُبِرَ استيلاء الأسبان على مرسى الكبير رد فعل أولى على الثورة التى قام بها مسلمو أسبانيا أو الموريسكيون عام ١٥٠١. إذ لمس الأسبان الخطر الذى يتهددهم من طرف الإسلام المغاربى المتجدد فى تحريك تلك الثورة. وما أن تمكن الأسبان من إخمادها حتى شرع كسيماناس فى إعداد حملة ضخمة ضد مرسى الكبير.

ذلك أن بروز الخطر الإسلامى أدى إلى تهييج العواطف الكاثوليكية وتعبئة الطاقات الإسبانية ضد موانئ المغرب العربى.

وقد تواصلت محاولات الاحتلال، فكان احتلال مليلة، وهران، بجاية، الجزيرة، الصخرة المواجهة لمدن الجزائر. وقد كانت الملكة إيزابيلا «الكاثوليكية» كما كانت تسمى تسعى جديًا للاستحواذ على مملكة تلمسان. كما فكر أراجون فى توطين عدد ضخم من المسيحيين فى بعض مدن الساحل الشمالى - أفريقيا. فقد راسل فى الموضوع بدرو نافارو الذى كان يتبنى فكرة التوطين، قائلاً له فى رسالة وجهت فى شهر مايو ١٥١٠: «أعتقد أننا إذا أردنا البقاء فى أفريقيا، فلا بد أن نسعى لتطبيق الفكرة التى كاتبتمونى بها عدة مرات، لأن نحتل وهران وبجاية وطرابلس، وأن نُوطِّن بها الكاثوليك بصورة كلية». كما كتب فى شهر أكتوبر من نفس السنة إلى انطونيو دو روفيدا يقول عن بجاية: «يجب أن تتخذوا الإجراءات اللازمة بأن تملأوا المدينة فور احتلالها بأتباعنا من الموريسكيين».

لكن محاولة احتلال مدينة الجزائر التى قادها دييجو دو فيرا عام ١٥١٦ فشلت، كما فشلت حملة سنة ١٥١٩، وإن كانت قد نجحت فى احتلال جربة عام ١٥٢٠.

وفى عام ١٥٢٩ وجه خير الدين ضربة موجعة للأسبان عندما طردهم من القلعة التى أقاموها على الصخرة المواجهة للمدينة، رغم تحصيناتها.

فى عام ١٥٣٥ فشل مارتان دو أوجولو فى حملته ضد تلمسان، فى الوقت الذى تمكن «شارلتان» من الاستيلاء على ميناء «حلق الواد» بعاصمة تونس. إلا أن هذا الأخير منى بهزيمة ماحقة أمام مدينة الجزائر بعد ذلك بست سنوات. توالت الهزائم الكاثوليكية بعد ذلك، إذ طرد فرسان مالطا من طرابلس عام ١٥٥٤، وخرج الكاثوليك من المهدية عام ١٥٥٨، كما انتهت الحملة ضد مستغانم بكارثة كبرى بالنسبة للكاثوليك الأسبان.

عبقرية خير الدين

على أن ما يفسر المكانة التى احتلتها مدينة الجزائر منذ أن استقر بها الأخوان، عروج وخير الدين، هى «الجيوتاريخ» أى الالتحام بين الموقع والمنحنى التاريخى المتمثل فى العبقرية التى كان يتمتع بها خير الدين فى المجال الحربى والغزوات البحرية، أى ما يمكن تسميته بالتقاء «عبقرية المكان» مع «عبقرية الزمان» حسب المصطلح المفضل عند أحد عمالقة الفكر الجغرافى والتاريخى وهو المرحوم جمال حمدان صاحب كتاب «شخصية مصر».

فقد تبين أن ميناء الجزائر يمثل موقعًا حربيًا فذا يستطيع التحكم فى جميع المسالك البحرية التى تقطع الحوض الغربى للمتوسط.

فالموقع الجغرافى للميناء متصلاً بعبقرية خير الدين الحربية هو الذى يفسر ذلك التطور الذى عرفته الجزائر سياسيًا وذلك الازدهار الذى حققته اقتصاديًا، وخاصة بعد أن نجح خير الدين فى طرد الأسبان من حصنهم المواجه للميناء. وقد اغتنم تلك الفرصة فربط الحصن المذكور الواقع على صخرة يحيط بها الماء وشدها إلى البر بواسطة رصيف يضع البواخر والسفن فى مأمن من غلواء البحر وهيجان أمواجه. ولم يكن محض صدفة أن يجعل بعض المؤرخين هذا الحدث



ظل المتوسط محل صراع بين دول أوروبا حتى بعد أن تمكن الاستعمار الفرنسي من السيطرة على مقدرات الشمال الأفريقي. فقد كان موضوع رهان شديد وشد وجذب بين فرنسا والنظام الفاشي في إيطاليا، منذ أن حكمها موسوليني منتصف العشرينيات من القرن الماضي

هو بداية تشكل الدولة الجزائرية التي ارتبط ازدهارها بغزوات البحر.

مالبثت الثروات التي تدرها الانتصارات البحرية أن صارت عامل جذب للقراصنة الأوروبيين الذين أصبحوا يؤمون المدينة، كي يعملوا في أساطيلها بعد أن يكونوا قد اعتنقوا الإسلام.

أثار ذلك حفيظة «هايدو» ضدهم فوصفهم بأنهم «حثالة المسيحيين» وقال عنهم: «يمكن أن نعتبر بأن كل قراصنة الجزائر هم من الذين ارتدوا عن دينهم «المسيحي»، فهم الذين يعرفون جيدًا شطآن الموانئ المسيحية وأراضيها».

وفعلاً فإن الأرشيف الذي يحفظ الوثائق المتصلة بتاريخ المعارك البحرية في تلك الفترة، يسجل بأن عددًا كبيرًا من القراصنة ترجع أصولهم إلى كورسيكا وصقلية وكالابري.

ولا شك أن الخبرة التي يتمتع بها أولئك عسكريًا ودراستهم بالمواقع الأوروبية ومعرفتهم بتضاريسها. بالإضافة إلى الدعم المالي والبشري الذي توجهه القسطنطينية إلى دايات الجزائر، قد جعل أسطولها يسيطر كلية على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، مما أدى إلى إحباط مختلف المحاولات التي كانت تبذلها الدول الأوروبية المواجهة للتخلص من «قراصنة الشواطئ البربرية» كما كانوا يسمونهم. هذا يسجل المؤرخ الفرنسي، بروديل، الذي تخصص في تاريخ حوض المتوسط وجغرافيته أن «الجنود والبحارة الأسبان اصطدموا بأعداء متدربين مهرة، شديدي المراس خبراء في استعمال الأسلحة». هو في نفس الوقت يقدم عاملاً آخر لتفسير السمعة الكبيرة التي اكتساها «رياس» البحر الجزائريون، عندما يقول إن الأسبان قد ساهموا في ذلك بسياسة الإهمال التي انتهجوها ولأنهم لم يخططوا للمستقبل، واستصغروا شأن الجزائريين، «أليس قد خسروا الموقع - الصخرة المواجهة لميناء الجزائر لأنهم لم يزودوه في الإبان بالتموين والسلاح؟ إن الهزائم التي مني بها الأسبان أمام الجزائر في ١٥١٦ و١٥١٩، و١٥٤١، والتي أسبغت على أسيادها هالة خاصة ترجع إلى ما عرف عن الطرف الأسباني من إهمال وسوء تنظيم» وبقطع النظر عما قد يكون في هذا التفسير الجزئي من «تبرير» للهزائم الأسبانية، فإن الذي لا شك فيه أن التحام عبقرية المكان وعبقرية الزمان قد ساعد على بناء تلك المكانة التي اشتهرت بها الجزائر. فنفس المؤرخ يسجل فشل إسبانيا في استغلال التجزئة بين الموانئ الجزائرية مثل وهران وبجاية التي ينسب إلى الإسبان تخريبها فحالوا بذلك دون أن تكون «منافسة لمدينة الجزائر».

على أن هناك عاملاً آخر أساسيًا يرتبط هو الآخر بالجغرافيا والتاريخ أي الجيوتاريخ، سجله نفس المؤرخ في كتابه الأساسي «البحر الأبيض المتوسط في عصر فيليب الثاني»، يتمثل في الآفاق الجديدة التي فتحها اكتشاف العالم الجديد أمام الأساطيل الإسبانية والبرتغالية التي انصرفت عن سواحل أفريقيا.

وفعلاً فقد ظلت مخططات احتلال الجزائر محفوظة في مشاريع قيادة أركان الجيش الإسباني حتى القرن السابع عشر، تنتظر فقط الأمر من الإمبراطور أو الملك بتنفيذها، مصحوبة بتوطين مسيحيين فيها. ولم يصدر الأمر، لانشغال المسئولين بالحروب في أوروبا بالإضافة إلى الآفاق الأمريكية الجديدة.

استمر البحر يؤدي دورًا أساسيًا في حياة الجزائريين منذ بدايات العهد العثماني، عدة قرون. ويبدو أن عادة تكدس الجزائريين في الشارع المطل على الميناء يرجع إلى العصر الذهبي للرياس الجزائريين. إذ يقال إن سكان العاصمة تعودوا على ذلك منذ فترة الدايات، ينتظرون الأنباء القادمة من وراء الميناء، حين كان البحرا لأبيض المتوسط ميدانًا للمعارك التي اندلعت في إطار الموجة المتأخرة من الحملات الصليبية الموجهة ضد الغرب الإسلامي.

وقد ظل المتوسط محل صراع بين دول أوروبا حتى بعد أن تمكن الاستعمار الفرنسي من السيطرة على مقدرات الشمال الأفريقي. فقد كان موضوع رهان شديد وشد وجذب بين فرنسا الجمهورية الثالثة والنظام الفاشي في إيطاليا، منذ أن حكمها موسوليني منتصف العشرينيات من القرن الماضي. فقد كان هذا الأخير يرى ضرورة احتلال تونس، حتى يتحكم في مضيق صقلية التي تواجه ميناء بنزرت على الضفة المقابلة.

على ذكر تونس يمكن الاستشهاد بما قاله الجنرال دي جول لمحمد المصمودي، سفير تونس، يوم ٩ فبراير ١٩٥٨. كان الرئيس الحبيب بورقيبة قد قرر سحب سفيره في فرنسا احتجاجًا على ضرب القاذفات الحربية الفرنسية لقرية «ساقية سيدي يوسف» الواقعة على الحدود الشمالية مع الجزائر، (وذلك يوم ٨ فبراير ١٩٥٨).

رأى سفير تونس أن يؤدي زيارة للجنرال في بيته بكولومبي، حيث كان يقيم منذ أن اعتزل الحكم مطلع عام ١٩٤٦، أي في بدايات الجمهورية الرابعة.

تحدث الجنرال دي جول بعض الوقت عن فيلم «الوصايا العشر» تلطيفًا للجو، ثم دخل في صميم الموضوع، متخذًا من الجغرافيا والتاريخ مدخلاً للحديث، كما فعل في الستينيات عندما استقبل الأستاذ هيكل في قصر الإليزيه. أكد أن تاريخ العالم يعتمد على الجغرافيا، وأن تاريخ تونس وتاريخ فرنسا يجب أن يظلا مرتبطين، ثم ختم كلامه طالبًا من التونسيين أن يكظموا غيظهم، «حتى لا يشتموا المستقبل» (جان لاكوتور في كتابه الضخم عن دي جول). ومعروف أن المتوسط كان أحد الرهانات التي تحكمت في توجيه أحداث الحرب العالمية الثانية، التي أدى فيها الجنرال دي جول دورًا أساسيًا. والمعروف عن رجل ١٨ يونيو أنه يتمتع بحس استراتيجي كبير؛ ولو أخذت قيادة الأركان الفرنسية برأيه في الحروب الحديثة لكانت قد تجنبت ربما تلك الهزيمة التي منيت بها عندما كان يرأس حكومتها الماريشال بيتان.

كان بول راينو، الذي ترأس الحكومة قبل الماريشال، قد طلب من الجنرال دي جول أن ينضم إلى طاقمه يوم ٦ يونيو ١٩٤٠ مكلفًا بالدفاع الوطني والحرب. وقد كلفه فور التعيين، بمهمة لدى رئيس الحكومة البريطانية أحد العمالقة السياسيين الذي يعرفون أهمية الجغرافيا في السياسة. وكانت مهمته تتمثل في إقناع ونستون شرشل باستخدام الطيران البريطاني لدعم الجيش الفرنسي المحارب على التراب الفرنسي، رغم أن المعركة تبدو آنذاك ميئوسة.

وكان الجنرال دي جول قد فكر جديًا في توظيف الجغرافيا ضد الألمان عندما حاول أن يقنع الحكومة الفرنسية بتطبيق خطته التي تتمثل في تنظيم انسحاب مكثف نحو شواطئ الشمال الأفريقي، يتم بمقتضاها نقل نحو نصف مليون جندي من فرنسا إلى هناك مع استعمال كل الوسائل المتاحة من طيران عسكري ووحدات الأسطول الحربي المرابط في «تولون»، مع دعم الأسطول البريطاني.

لكن هذه الخطة لم تتم لأن أغلبية أعضاء الحكومة الفرنسية كانوا يؤيدون موقف الماريشال بيتان في مطالبته بتوقيع الهدنة مع هتلر بأسرع ما يمكن. وما إن استقالت حكومة بول راينو، حتى خلفتها حكومة الماريشال بيتان، الذي سارع بتوقيع معاهدة منفردة مع ألمانيا ضاربًا عرض الحائط باتفاقية وقعت قبل ذلك ببضعة شهور تلزم كلا من فرنسا وبريطانيا بعدم توقيع أي اتفاقية منفصلة مع الألمان.

كان توقيع الهدنة وفتح أبواب باريس لهتلر وتعاون حكومة «بيتان» مع الإدارة النازية، منعرجًا كبيرًا في حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥، تسبب في متغيرات داخل فرنسا وفي بريطانيا.

رهــان واحــــــــد وثــلاثـــة تــواريـــخ

يتأكد من كل ذلك مدى أهمية «الجيوتاريخ» في توجيه الأحداث. لكن هناك عاملاً أساسيًا آخر لا يمكن بدونه أن نفهم الأحداث، ولا نستطيع إذا نحن أغفلناه أن نخوض في حديث مسئول عن السياسة، وهو الإنسان أي الإنسان ليس بوصفه فردًا أو مجموعة أفراد، لكن بوصفه كائنًا اجتماعيًا يساهم في تشكيل فكره وصياغة عواطفه مجموعة عوامل مرتبطة بالاقتصاد والجغرافيا والسياسة، فالنمو الديموجرافي الذي عرفته أوروبا في بدايات العصر الحديث هو الذي يفسر تسارع المبادلات التجارية بين دولها، ومضاعفة حجمها. كما أن النمو الديموجرافي بفرنسا وخسارتها للألزاس لورين في حربها ضد الألمان في حرب ١٨٧٠ هو الذي يفسر الدعم الذي أصبح يلقاه المنادون في فرنسا بانتهاج استعمار استيطاني كثيف.

والنمو الديموجرافي الذي عرفته الجزائر بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية هو الذي يفسر المنحى الذي أخذته الحياة السياسية ونجاح الدعوة إلى الاستقلال. هذا العامل مضافًا على عوامل اقتصادية وجغرافية وسياسية واجتماعية هو الذي يفسر النقلة النوعية التي حققتها الجماهير الجزائرية عبر تواريخ ثلاثة يشكل كل منها منعرجًا حاسمًا في تاريخ الجزائر المعاصر: ١٨٣٠، ١٩٣٠، ١٩٥٤.. فعام ١٨٣٠ هو عام احتلال الجزائر، و١٩٣٠ يمثل الاحتفالات الضخمة التي أقيمت بمدينة الجزائر احتفاء بمرور قرن على استعمارها، وعام ١٩٥٤ هو انطلاق العمل المسلح في أول نوفمبر.

تَعَوَّدَ سكان العاصمة الجزائرية منذ عصر الدايات على الوقوف طويلاً في مواجهة الخليج، كما أشرنا، يشاهدون وحدات الأسطول البحري مغادرة أو قادمة محملة بالمغانم.

استمر الوضع نحوًا من ثلاثة قرون، حتى بدأت حركة جزر وانحسار انتهت بهزيمة حكومة الداي وسقوط العاصمة.

كانت صدمة لا تحتمل: السكان الذين تعودوا على ترقب أنباء النصر، صاروا يتفرجون على جحافل جيش أجنبي انطلق من شبه جزيرة «سيدي فرج» ثم ينتشر حتى يدخل العاصمة بعد معارك ضارية.

عقد الذهول ألسنة الناس فأصبحوا لا ينطقون.. شلت الدهشة أطرافهم فلا يتحركون.. طاشت عقولهم من قوة الصدمة فتصوروا مواكب الغزاة أضغاث أحلام وكابوس منام، ظلوا في أمكنتهم جامدين ينتظرون عبثًا يقظة من سبات ثقيل طالت ليلته واشتدت ظلمته.. الفرنسيون لم يهتدوا إلى استنطاق ما شاهدوه: تصوروه خنوعًا مطلقًا إن لم يروا فيه نوعًا من الترحيب صامت. ظل الفرنسيون مدة لا يفهمون سلوك الناس ولا يغوصون في عمق أحاسيسهم؛ ولعل هذا هو ما دفع بيليسييه دو رينو إلى أن يكتب عن العاصمة، يصفها بعد ثلاثين سنة من الاحتلال: «تبدو مذبالة متصدعة، يمكن تشبيهها بإحدى بنات الهوى، نال من نضارتها سوء السلوك فذبلت قبل أن تنضج». ويعلق على ذلك كاتب المقال الذي أورد النص: «هذه

المدينة، يبدو أنها لا تؤخذ بل تمنح نفسها» ومن أية ناحية جئتها تبدو أنها «صدرت عن سابق لتمنح نفسها للاحق»(٤).

تلك بعض المظاهر الخداعة لصدمة الهزيمة ووقع الاحتلال، انطلقت المقاومة بقيادة فتية صدرت عن معسكر تسعى لنقل المعارك من البحر إلى البر.. استمرت المقاومة إلى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، دليلاً على شدة الرفض وضراوة الصمود. وإذا كان الأمير عبدالقادر قد انهزم عسكريًا فقد سعى إلى تعويض الاختلال الذى حدث فى توازن القوى المادية بين جيوش، بحرب معنوية تحفظ القلوب خفاقة للإسلام، عامرة بالإيمان، ترفض أن يستولى المحتل على العقول بعد أن استحوذ على الأرض.

نجح الغزاة فى بسط نفوذهم على كامل البلاد، بعد أن نجحوا فى تحييد الجارتين، تمهيدًا لاحتلالهما، ثم تركوا شبهة سيادة للجناحين حتى يتفرغوا للقلب يسدون شرايينه ويستاصلون كل ما كان به هو هو، فلم يتركوا معهدًا مهمًا إلا أغلقوه، ولا وقفًا يخصص ريعه للتعليم إلا ألحقوه بممتلكاتهم، ثم منعوا تعليم القرآن، وحجموا أماكن العبادة، حتى يفقد الشعب كل أمل فى النهوض، وتنضب فيه إلى الأبد جذوة المقاومة، تمهيدًا ليوم يأتى فيه جيل جديد يعتز بانه منحدر من سلالة الغال.. وكانت فترة ركود وسبات، فى الظاهر على الأقل.

لم يكد يدور القرن حتى اطمأن الاستعمار، أصبحت جماهير هذه الأرض الشموس فرنسية إلى الأبد، لم يعد السكان يفكرون فى تمرد أو ثورة، لقد قُضى على رؤوس المقاومة، ونظمت إبادة عدد ضخم من السكان بمناسبة مجاعة كبرى ذهب ضحيتها مئات الآلاف إن لم يبلغ عددهم المليونين فى نظر بعض المؤرخين.

تصور الفرنسيون أنهم دجنوا إلى الأبد أبناءهم، وضمنوا ولاءهم، ترهيبًا بالقمع والبطش والتجويع أو ترغيبًا بالجاه والنفوذ، أو إغراء بالمال والمنصب.

حتى الذين تظاهروا بالاستسلام للأمر الواقع، وتعاونوا مع الفرنسيين كظموا غيظهم وكبتوا ثورتهم، لكن لم يلغوا عواطفهم. يروى أن حاكم مدينة «نبسة» المعروف بجبروته، كان يتجول فى شوارعها مع مساعد له جزائرى؛ عند مرورهما بالآثار الرومانية والبيزنطية قال الحاكم: انظر هذه الآثار، ألا تدل على عظمة حضارة وقوة إمبراطورية؟ أجابه مساعده: صحيح، ليس أعظم منها إلا القوة التى هزمتها.

مع قيام الجمهورية الثالثة عرف الإعمار والاستيطان الأوروبى منعرجًا كبيرًا: فاعتبار الجزائر فرنسية وضع حدًا لوصفها بـ«المستعمرة» فاصبحت، كما قيل، امتدادًا للتراب الفرنسى. من هنا كان لابد أن تتطور مدينة الجزائر بما يجعل منها «عاصمة أفريقية» كما كتب بعضهم. تعزز هذا الاتجاه بعد فتح قناة السويس فى ١٨٦٩، إذ أعطى لميناء المدينة دفعًا جديدًا.

ظهرت آثار التوجه الفرنسى الجديد نحو تكثيف التوطين الأوروبى فى مدينة الجزائر على الخصوص: سكانها الذين كان عددهم ٤٢٠٠٠ منهم ٣٤٥٠٠ أوروبى عام ١٨٧٢، صاروا ٨٢٠٠٠، منهم ٦٠٥٠٠ أوروبى، مقابل ٢١٥٠٠ جزائرى.

أصبحت المدينة آنئذ هى «رأس الحربة» لسياسة الاستيطان التى تجدد الاهتمام بها فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر. تؤكد ذلك عدة إجراءات قانونية، مثل اشتراط الجنسية الفرنسية لكل من يريد أن يستثمر؛ علمًا بأن مدينة الجزائر أصبحت خلال هذه الفترة عبارة عن حظيرة أشغال ضخمة، مشاريعها مربحة؛ ومثل منح الجنسية الفرنسية لليهود بصورة جماعية عام ١٨٧٠. وفى عام ١٨٨٩ ظهر قانون عرفت مواده بقوانين منح الجنسية الفرنسية بصورة أوتوماتيكية لجميع الأوروبيين غير الفرنسيين، وعرفت المدينة انقلابًا كبيرًا فى مجالات الإعمار والاقتصاد فيما بين ١٨٧٠ و١٩٠٠: فالشارع الواسع فى مواجهة البحر أنجز عام ١٨٧٤ فقامت حواليه وبالقرب منه أحياء أصبحت وتيرة تطورها ونموها أسرع من السابق، مثل حى باب الواد، وحى إيزلى، وحى بلكور.. كما أن حى مصطفى عرف نموًا كبيرًا بعد أن أصبح بلدية، إذ قفز عدد سكانه من ١٢٠٠٠ عام ١٨٨١ إلى ٤٠٠٠٠ عام ١٩٠٦.. ومدت فى نفس الوقت سكك للترام، كما تمت توسعة الميناء، وشيدت محطتان للسكك الحديدية.

كان المردود المرتفع للاستثمار فى مدينة الجزائر سببًا فى جلب الأوروبيين، إذ كان يعتبر من أضمن الاستثمارات وأرفعها مردودًا بالنسبة لفرنسا نفسها.

وهكذا ارتفع عدد السكان من ١١٥٠٠٠، منهم ٨٥٠٠٠ أوروبى عام ١٨٩٦، إلى ٢٢٦٠٠٠، منهم ١٧٠٠٠٠ أوروبى عام ١٩٢٦، ليصبح غداة الاحتفال بمرور القرن ٣٦٧٠٠٠ نسمة مما يجعل مدينة الجزائر تحتل المرتبة الرابعة بين المدن الفرنسية.

هذا التطور المذهل مع احتفاظ الأوروبيين بأغلبية ساحقة، لم ينل منه الجزائريون إلا شيئًا قليلاً.



فسكان منطقة القبائل الذين انتزعت منهم أراضيهم بعد فشل ثورة المقرانى عام ١٨٧١ لم يجدوا إلا حى القصبة الذى تكدسوا فيه، ولم يجدوا من مناصب العمل إلا حمل البضائع فى الميناء، وقليل هم الجزائريون الذين سمحت لهم إمكانياتهم بالسكن خارج حى القصبة.

أثناء هذا التطور برز حيَّان متميزان من حيث أصل السكان: حى القصبة الذى كان معظم سكانه من الجزائريين، وحى باب الواد الذى كان معظم سكانه من الأوروبيين من أصل أسبانى.

استمر الطابع الفرنسى لمدينة الجزائر يتطور، واستمر صوت الجزائرى المسلم مغيبًا حتى كان صيف ١٩٣٠: احتفالات ضخمة بمرور مائة سنة على الاحتلال، تكرس خلالها الحضور الفرنسى وترسخ بصورة لا يمكن معها النيل منه. مواكب حبور وبهجة، واستعراض للقوة فى صلف، وتذكير بالانتصارات الحربية من غير مبالاة بمشاعر الجزائريين. ألم يتمكن الاستعمار من القضاء على تاريخ كامل فلم يبق من تلمسان وتيارت ومعسكر ووهران، ومن الجزائر والمدية وكوكو، ومن بجاية وقسنطينة وبونه، ما يشهد بعراقة تاريخ وأمجاد ماض غير لاتينى. قام مكانها ما يشهد بعظمة فرنسا وشدة بأسها. مظاهر عمران متسلطة، تمكن الطبقة الحاكمة الجديدة من السيطرة على كل شىء. طبقة استقدمت من آفاق شتى، فرنسا، أسبانيا، إيطاليا، مالطا، لا يجمع بينها شىء إلا كونها أجنبية عن البلد، تلتقى على كره الأهلى وتجريده من حقوقه، فاستحوذت على الادارة والجيش، وعلى الأرض والاقتصاد، صناعة وتجارة وزراعة، وعلى الثقافة تعليمًا وصحافة وكتابًا.

حتى الجغرافيا غيَّرتها: لم تكتف بتلوين الخرائط التى تمثل الجزائر بنفس لون الخرائط التى تمثل فرنسا، بل ادعت أن البحر الأبيض المتوسط يقسم فرنسا شطرين، كما يقسم نهر «السين» باريس ضفتين.

راحت الجموع الأوروبية تتوافد على الجزائر العاصمة فى مظاهر بذخ صارخ، وتقدم مسرحيات تمثل عمليات الإنزال فى سيدى فرج، وتجدد العهد بجان دارك، بوصفها بطلة فرنسية ومسيحية.. غير آبهة بمشاعر الأهالى.. دقت الطبول ترحيبًا بوفود القادمين من الداخل صحبة زوجاتهم وأبنائهم وبناتهم وقد لبسوا أزهى الحلل وأجمل الثياب وأغلى المصوغ، يتبخترون مزهوين ويعبرون عن ظفرهم بالجزائر إلى أبد الأبدين.. سالت الخمور أنهارًا، وأضاءت الليالى أنوارًا، لم يعد هناك فرق بين ليل ونهار إذ تواصلا عبر سهرات صاخبة تمتد حتى الصباح.

وكان كل ذلك لا يكفى، فاختار مؤتمر القربان المسيحى، (المؤتمر الافخاريستى) تلك المناسبة لينعقد فى قرطاج، حيث أقام مواكب تمثل القديس لويس، (لويس التاسع).. (كان قد حضر لتونس عام ١٢٧٠ ليقنع ملكها باعتناق المسيحية، ثم يتوجه من هناك إلى مصر قائدًا للحملة الصليبية الثامنة، لكن الموت لم يُمهله): وأعيد تمثيل مسرحية عن «بلانش دى كاستيل» وكبار القادة الصليبيين بملابسهم العسكرية ودروعهم الحربية.

كانت صدمة كبرى أحس بها الوطنيّون نارًا تلفح وجوههم، وسياطًا تمزق جلودهم، ولعنة تاريخ طالت المقدسات.. صدمة ترددت أصداؤها فى كل الربوع، شعر بها الشعب على اختلاف فئاته ومستوياته، تحديًا لأعز ما يكسب: ذكرى الأسلاف الذين يعتز بالانتساب إليهم، ذاكرة الأرض التى اختلط أديمها بعرقه ودمه منذ فجر التاريخ وبدايات الدنيا، الدين الذى ربطهم بحضارة من ألمع الحضارات، لغة الثقافة التى تم تغييبها وحُرِّم تعليمها، فلم يعودوا يرددون من قرآنها إلا سورًا قصارًا يتلونها فى الصلاة، دون أن يفقهوا لها معنى فى معظم الأحيان.

حتى الذين كانوا يتعاملون مع الفرنسيين موظفين فى إداراتهم، أو ممثلين فى الأرياف لحكامهم، أو يشتغلون فى الحقول والمزارع لفائدة معمريهم، أو عناصر النخبة من أطباء وصيادلة ومحامين، كلهم شعروا بوقع الصدمة، فانتكأت من جديد جراح كان يظن أنها التأمت، والتهبت جذوة نار كان يظن أنها خمدت، وتحرك تاريخ كان يظن أنه قبر ودفن إلى غير رجعة.

لم يشعر الأوروبيون بالنار الكامنة تحت الرماد، ولم يتنبهوا إلى أن عددًا من عناصر النخبة التى ثقفتها مدارسهم قد تمثلوا وهضموا إيجابيات الثقافة الفرنسية، فطوعوها واستعملوها فى مخاطبة المستعمر، يطالبونه بتطبيق القوانين التى وضعتها فرنسا نفسها، مثل فصل الدين عن الدولة، ومثل المساواة إلخ.. وتوجهوا فى الوقت نفسه إلى الجماهير الجزائرية، يكشفون عن التاريخ الذى أريد تغييبه حتى غاب فعلاً عند البعض: وبذلك استنهضوا الهمم وأيقظوا النُّوَّم، وخلصوها من تخدير الخرافات والأساطير ومن تأثير المشعوذين الذين كانوا يصورون الاستعمار فى صورة القدر المفروض بالإرادة الإلهية، فيجب انتظار تدخل تلك القدرة كى تخرجهم كما أدخلتهم. كما استوحى الجزائريون من الثقافة الفرنسية كيفيات تنظيم الجماهير، وتشكيل الأحزاب، فعملوا تدريجيًا على مخاطبة الناس بما يفهمون ليدخلوا تغييرات على الأفكار والنفسيات يتجاوب معها الشعب، حتى يسترجع الثقة فى نفسه ويعتمد على مقدراته وإمكانياته الذاتية.

إلا أن الإدارة الفرنسية صمّت آذانها عن سماع الأصوات المحتشمة التى كانت تنذرها بأوخم العواقب إن هى لم تستجب للمطالب المرفوعة، واحتقرت حتى أكثر المطالب اعتدالاً.

إذا كانت صدمة ١٨٣٠ أحدثت مقاومة عسكرية فى معركة غير متكافئة، فإن صدمة ١٩٣٠ أيقظت ماردًا ضاعف من قوته أنه قضى عقودًا من السنين فاقد الوعى، مخنوق الأنفاس.. راح بتأثير الحركات الوطنية، يتمطط متمهلاً مثل جان سليمان، لكنه اتعظ هذه المرة من درس الأمس، فراح يفتح عينًا ويغمض أخرى، وقد يرفع عبر العين المغمضة شعارًا يخدع، إذ حفظ من دروس التاريخ أن «الحرب خداع»، بوصفها مقولة تحوصل جزءًا من الاستراتيجية التى يريد صاحبها أن يؤمِّن لمشروعه أسباب النجاح خصوصًا إذا كان ضعيفًا يواجه قويًا.

لم يكن هناك على الضفة المقابلة، بين الفرنسيين الذين يملكون الحل والعقد من لاحظ تململ المارد. لم يوجد من ترجم - إلا قليلاً منهم - الهمهمة الخافتة والغمزة المحتشمة.

إذ لم يكن هناك ما يدفع الأوروبيين إلى القلق، فمستقبل الجزائر الفرنسية واعد.. الأهالى؟ لا خوف منهم: لقد قبلوا بالأمر الواقع واستسلموا للقدر المحتوم. أليس دينهم يعلمهم الاستكانة للقدر والرضا بقسمة الله؟ أليس فى مشايخهم من لقَّنهم شعار «وافق أو نافق أو فارق».. وافق على وجود الاستعمار، وإن لم يعجبك واقع الاحتلال فتظاهر بأنه يعجبك وأنك له مرتاح، وإن لم تستطع فما عليك إلا أن تسلك مسالك الاغتراب، حيث لا يوجد فرنسيون.

المستقبل بالنسبة للأهالى؟ ألا تعبِّر عنه مدينة الجزائر؟ انظر جيدًا حولك يا من أتاح له الحظ أن يعيش كفرنسى، أسعد أيام الجزائر الفرنسية، خلال الأسبوع الأول من يوليو ١٩٣٠.. هاهى القصبة مقر حكم الدايات بالأمس تضيق بمن فيها وتختنق بالوافدين عليها من داخل البلاد، أهالى انتزعت منهم أراضيهم فصاروا يتكدسون فى بناءات آيلة للسقوط، حشودًا متراصة قادمة من زمن غابر، ترنو بعيون جامدة إلى مستقبل كله ظلام ويأس وقنوط.

أما الحياة الحقة فلا تبدأ إلا حيث تنتهى تلك اللاحياة؛ وإذا كان «باب عزون» نهجًا غير واسع مثل الأنهج التى استحدثت فى القرن التاسع عشر، فإنه يربط بين «ساحة العود» و«الجنينة» حيث تنطلق المدينة الأوروبية، بمحلاتها الفخمة ومقاهيها الجذابة، وملاهيها المخملية، وفنادقها النظيفة، تصعد نحو «التليملى» و«الأبيار» أى تحاذى البحر حتى تتصل جنوبًا وشمالاً «بمصطفى» و«سانت أوجيه».



ترى لو جمعنا بعض المسنين المعمرين الذين حضروا احتفالات ذكرى القرن مع ممثلي الأجيال الجديدة الذين ولدوا بعد استقلال الجزائر، فماذا يقول بعضهم لبعض، أي ما الحوار الذي يمكن أن يجريه الطرفان؟

وإذا كان هناك أوروبيون قليلو الإمكانيات، لم يحصلوا بعد على موقع في «ديمون دورفيل» أو «إيزلي» أو «ميشلي» فإن لهم في «باب الواد» و«بلكور» مرتعًا يشبعون فيه نهمهم إلى الشمس، وحاجتهم إلى الضجيج، ويستطيعون أن يمارسوا هناك لعبتهم المفضلة: التسلط على ابن البلد بصورة أو بأخرى، إن لم يكونوا من الليبيراليين الذين يتعاطفون مع الأهالي، وهؤلاء قلة لحسن الحظ. إن إشباع شهوة التفوق وممارسة هواية التسلط على ابن البلد لا تحتاج دائمًا إلى سوط.. يكفي في تحقيقها أن تشعر بأن من يصادفك من العرب والقبائل، يخشاك ويرهبك، ابتسامته المكرهة قد تحمل للأوروبي من المتعة ما قد يضاهي المتعة التي تحملها أنات المتألم تحت سياط الجلاد الذي تعود على التلذذ بأنات المعذبين في أرضهم.

كانت الاحتفالات بالذكرى المئوية فرصة لتنظيم رحلات لأبناء فرنسا الأم تسمح لهم أن يتعرفوا على هذه البلاد التي قد لا يكونون عرفوها إلا من خلال حكايات مثل مغامرات «طارطاران دي طاراسكون» للأديب المعروف (ألفونس دوديه) وبطله الذي كان يتصور أنه يستطيع اصطياد الأسود في حقول المتيجة.

الواقع أن تلك الاحتفالات انطلقت منذ شهر مايو عندما استقبلت «الجزائر الفرنسية» في موكب مشهود، رئيس الجمهورية «جاستون دوميرج» (١٨٦٣ - ١٩٣٧) وقد استصحب معه أركان النظام: رئيس مجلس الشيوخ، ورئيس مجلس النواب، وعددًا من الوزراء والنواب، جابوا الأرض من العاصمة إلى «بوفاريك» ومن هناك إلى قسنطينة وعنابة ووهران.

في «بوفاريك» استقبله رئيس بلديتها «أميدي فروجي»، أحد أساطين الجزائر الفرنسية، فألقى هذا خطابًا جاء فيه:

«عندما قرر الماريشال درووي ديرلان أن يحتل بوفاريك، لم يكن هناك أي عمران مهم: مجرد سوق أسبوعي يسمى «سوق الاثنين».. مكان مشؤوم اشتهر ببئر أسطورية، وأشجاره المنتصبة كأنها مشانق.. وسط مستنقعات، راكدة مياهها، كثيفة أوحالها. تسيطر عليها عزلة خانقة ورتابة رهيبة.. كانت الأدغال تخفي قطّاع طرق يهددون العابرين الذين يتعرضون أيضًا لجراثيم المستنقعات.

عندما يصل إلى قسنطينة، يستقبله واحد من أبرز أعيانها، محمد مصطفى بن باديس، يختم خطابه، بعد أن طرح مطالب معتدلة: «سيدي الرئيس احملوا هذه المطامح واعملوا على ألا تخيب آمالنا فيكم».

وفي العاصمة لا يجد (جاك دورو) أية غضاضة في أن يقول: «إن مرسوم فبراير ١٩١٩ قد حدد النواب الجزائريين في المجالس الجهوية بنسبة الربع من مجموع نواب الجزائر (ثلاثة الأرباع من الأوروبيين) وذلك يعني سيدي الرئيس أنه لا يوجد هنا أي تمييز بين الفرنسيين الأصليين والفرنسيين الأهالي في مجالسنا التي تمثل خلاصة حية لمستعمرتنا الجميلة».

بدايات مبكرة لمشاعر الإحباط

بعد أن تصفحت بعض ما قيل في وصف احتفالات القرن في ذكرى القرن، رجعت إلى الحاضر، يوليو ٢٠٠٢، ذكرى مرور أربعين سنة على الاستقلال.

ترى لو جمعنا بعض المسنين المعمَّرين الذين حضروا احتفالات ذكرى القرن مع ممثلي الأجيال الجديدة الذين ولدوا بعد الاستقلال، فماذا يقول بعضهم لبعض، أي ما الحوار الذي يمكن أن يجريه الطرفان؟

لقد تشكلت عناصر الجيل القديم في غمرة الصراع ضد استعمار استيطاني أعمى، بدت معاركه، في وقت من الأوقات، كان الانتصار فيها مستحيل، لذا كان انتصارهم في معركة الاستقلال عاملاً أساسيًا في تشكّل شخصيتهم: فماداموا قد انتصروا في تلك المعركة ونجحوا في انتزاع الاستقلال فلماذا لا ينجحون في كسب معارك التنمية.

إلا أن الاختلاف في الرؤى بين قيادات الجيل القديم انعكس سلبًا على المشهد السياسي، خصوصًا مع ما بدا لكثيرين أنه مجرد صراع على السلطة، ينبع من رغبة كل فريق في احتكار الحكم والانفراد به دون الآخرين. وهذا ما جعل بعضًا قليلاً من المثقفين والمناضلين يتكهنون بمصير قاتم يقف على طرفي نقيض من المستقبل الزاهر الذي يبشر به الخطاب الرسمي وتتجاوب معه الجماهير غير المطلعة على الخبايا.

أذكر أن وزيرة خارجية فيتنام الجنوبية زارت الجزائر عام ١٩٦٦ ولم يكن بلدها قد استقل بعد. أثناء جلسة عمل في مقر حزب جبهة التحرير، تحدثت بإسهاب عن مشاكل الحرب ومصاعب الكفاح ومشاريع المستقبل.. أعجب الحاضرون، رجالاً ونساء، ببلاغتها وتصميمها وتفاؤلها. أراد رئيس الوفد الجزائري إثر الجلسة أن يعرف رأي إحدى الحاضرات كانت ضمن الوفد الجزائري.. فسألها: ما رأيك؟ أجابته زينب فرحات، فالسؤال كان موجهًا لها، دون أن تتمهل:

- خسارة أن «تتعرض» هذه المرأة ومثيلاتها وأمثالها للاستقلال وتصاب بخيبة الأمل واغتيال الحلم. كانت اللهجة التي نطقت بها حمالة أوجه كما يقال: فهم منها البعض أنها مجرد نكتة، وفهم آخرون وهم القلة أنها قصدت أن الاستقلال يكون في بعض الحالات امتحانًا وبلوى وخيبة أمل نتيجة ممارسات تناقض قيم التحرر.

وأذكر أني التقيت بعد ذلك ببضعة أشهر مع صديق كنا نعمل سويًا ضمن الفريق المشرف على صحيفة «المقاومة الجزائرية» خلال عامي ١٩٥٦ و١٩٥٧: كانت أخباره قد انقطعت عني، سألته، وقد عرفت أن آراءه تختلف عادة عن الآراء السائدة.. ما رأيك في الأوضاع الراهنة؟ أجاب: لست متفائلاً، لأن «الركبة مايلة». وهو مثل شعبي يضرب لمن يركب الخيل دون دراية بفن قيادتها، وكيفية امتطائها، فهو مدعو للسقوط، ولن يتمكن من إكمال المشوار، ثم حاول ترجمتها إلى الفرنسية قائلاً: «on est mal parti»، مستعيرًا عنوان كتاب صدر عام ١٩٦٢ بعنوان: «L'Afrique est mal Partie» للعالم «روين دوموند».

صدمني آنذاك تشاؤمه. والواقع أن كلا الموقفين لم يكونا يعبران عن رأي شائع، كل منهما يعتبر شاذًا لا يقاس عليه ولا يؤخذ به، الفكر السائد آنذاك كان لا يزال متأثرًا بما تعودت عليه قيادات الجبهة أثناء حرب التحرير من ممارسات لم تكن تسمح بظهور رأي مخالف، كانت الخلافات تسوى بالسلاح والتصفية البدنية. منطق المعركة المسلحة كان يعتبر أن كل صوت نشاز ورأي مخالف يصب في خانة العدو.

ساعد على سيادة هذا المنطق عدد من العوامل يصعب حصرها لكن يمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً: لم يتمكن الفكر الوطني ولا منطق المعركة المسلحة بعده أن يقضي على العقلية القبلية والعصبية الجهوية، خصوصًا إذا كانت هذه وُظّفت قبل ذلك لتعزيز مطلب الاستقلال، وتغذية الثورة، أو استعملت من طرف الأعداء لإجهاض الثورة المسلحة.

وقد ظهر أثر هذا العامل في بعض التسميات التي أطلقت على هذه الكتلة أو تلك من الكتل المتصارعة على الحكم مثل «كتلة وجدة» و«كتلة الأوراس» و«كتلة القبائل» وفي نفس السياق ظهرت تصنيفات مثل «السنتراليست» (أي أعضاء اللجنة المركزية لحزب الانتصار) و«الميصاليست» (أتباع مصالي الحاج» و«العلاميست» (أتباع جمعية العلماء) إلخ.. وتجدر الإشارة إلى أن هذه التصنيفات لم تظهر في إطار دراسة علمية تصوِّر خريطة الجزائر السياسية وتضاريسها الفكرية، ولكنها استعملت غالبًا من أجل الطعن في ثوريتها وإخلاصها وبالتالي تهميشها وإبعادها عن مراكز القرار، هذا إن لم تتهم بالتخاذل أو الخيانة.

ثانيًا: إن الحركة الوطنية بجميع فصائلها وتياراتها كانت قد استعملت الهامش القليل الذي كان موجودًا زمن الاستعمار، مما يسمح به القانون في مجال تكوين الجمعيات والأحزاب، لكنها لم تستخلص من ذلك ما يمكن تسميته بـ «ثقافة ديمقراطية» فضلاً عن أن تفكر في العمل على ترسيخ «دولة القانون» عندما تأخذ الحكم خصوصًا أن منطق الاستعمار كان يعطل الاحتكام إلى القانون عندما يكون لفائدة الحركات الوطنية ويلجأ إليه عندما يتعلق الأمر بتطبيق إجراءات قانونية قمعية ضبطت خصيصًا لخدمة الوجود الاستعماري.

يضاف لذلك أن المنافسة بين فصائل الحركة الوطنية خلال العهد الاستعماري لم تكن تعتمد دائمًا على النقاش الفكري؛ كان كل منها ينطلق من منطلق أنه هو وحده الذي يملك الحقيقة و«الصواب». وبناء على ذلك كانت تلك الفصائل تلجأ أحيانًا إلى «العنف» للتغلب على خصومها.

ثالثًا: حَسْمُ الموقف بالنسبة للمعركة المسلحة والتي كان من ينادون بها أقلية (كما هو الشأن في كل حركة طليعية) والنجاح الذي حققوه، عزز منطق امتلاك الحقيقة من طرفهم. لم يهتموا بالبحث عن العوامل العميقة التي أدت إلى تقبل الجماهير لفكرة المقاومة المسلحة ضد الاستعمار، فالمناخ الذي سمح بتقبل الفكرة على نطاق شعبي واسع، ساهم في تهيئة كل الحركات الوطنية على اختلاف أطروحاتها وفصائلها، كما ساعد عليه موقف الاستعمار نفسه الذي كان يرفض أي حوار خارج إطار «الجزائر الفرنسية»، بنفس القوة التي يرفض بها النقاش داخل إطار «الجزائر الفرنسية» إذا كان ذلك يؤدي إلى الحد من صلاحيات وتسلط الأقلية الأوروبية واحتكارها لكل شيء.

رابعًا: استعمال العنف من طرف جبهة التحرير «لإقناع» المترددين وتصفية المخالفين في الرأي، عزز منطق «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة».

خامسًا: الظروف الصعبة التي حفت بالكفاح المسلح، وقوة البطش الاستعماري، والقوات الضخمة التي جندت لتصفية جيش التحرير، تسببت في مزيد من الإقبال على الالتحاق بصفوف الثورة سواء من طرف الطلبة والمثقفين أي من ممثلي الشرائح الاجتماعية المحرومة. ونظرًا لكثرة الذين استشهدوا من الإطارات العليا والكوادر المتوسطة، فقد خلفهم مناضلون، أكثرهم أميون أي محدودي الثقافة وقليل منهم مثقفون. على أن حاجة الثورة إلى دعاة يبشرون برسالتها في الخارج، وخاصة في البلدان الأوروبية والأمريكية والأسيوية والأفريقية دفعتها إلى تكليف الطلبة والمثقفين بتلك المهمة. وكان من نتائج ذلك صعود عدد من الأميين أو محدودي الثقافة إلى مواقع حساسة في الولايات الداخلية، تولد عن هذه الظاهرة انتشار فكرة أن الرجل الأمي أو شبه الأمي هو الذي أنجح الثورة التي ما كانت لتحقق ذلك النجاح لو اعتمدت على المثقفين.

ساعد ذلك كله على تعطيل العمل الفكري وتعقيد المثقف، حتى أصبح تمجيد الأمي على حساب المثقف شبه مسلمة لا ينازع فيها الناس.

في هذا السياق ظهرت بعد الاستقلال فكرة غريبة خلاصتها أن «الفكر في كل ثورة يسبق الفعل والعمل، ماعدا الثورة الجزائرية فقد سبق فيها الفعل والعمل وتقدم على الفكر».

إن طرح هذه الفكرة لم يكن بريئـًا، اى أن الذين رفعوها كانوا متأكدين أنها غير صحيحة، وأن الفكر كان أسبق من العمل فى ثورة نوفمبر ١٩٥٤. لكنهم كانوا يدافعون عن رأيهم لأنهم كانوا يملكون زمام الحكم أولاً، ولأنهم كانوا يسعون ثانيًا إلى تغييب دور القيادات الوطنية قبل نوفمبر ١٩٥٤، حتى يحتكروا التاريخ الوطنى، ويحتكروا ما سمى بـ «الشرعية الثورية» التى تبرر تعطيل المؤسسات وتعطيل الديمقراطية، وكل ما تستلزمه هذه وتلك من نقاش فى العمق.

على ذكر احتقار الثقافة، تجدر الإشارة إلى أن هذه الظاهرة اختفت مع انتشار التعليم بعد الاستقلال، لتظهر من جديد وتتدعم فى ظل الاقتصاد المهمش أو تجارة الترابندو التى تدر أرباحًا طائلة، ولا تتطلب مستوى عاليًا من التعليم، لأن الشهادة الجامعية لم تعد تفيد صاحبها فى ظل الأوضاع التى عرفتها الجزائر فى التسعينيات.

تعطيل الديمقراطية وتشرذم المجتمع وتجميد النمو

ذلك بعض ما يفسر الانصراف بعد الاستقلال عن تعبئة كل الطاقات النضالية والعزوف عن استثمار كل المشارب الفكرية، فى حين أن الأوضاع الموروثة عن الاستعمار ومخلفات الحرب، والفراغ الذى أحدثته هجرة الأقلية الأوروبية يتطلب اللجوء إلى كل القوى النضالية والاعتماد على كل التيارات الفكرية.

إن الشعار الذى رفعته الجماهير فى مدينة الجزائر خلال صيف ١٩٦٢، عندما ظهرت نذر الصراع على الحكم، والاحتكام إلى القوة العسكرية، وهو شعار «سبع سنين بركات»، اى يكفينا سنوات الحرب السبع، كان يتضمن الدعوة إلى الخروج من دائرة تحكيم القوة والعنف لحسم الخلافات.

وليس من محض الصدفة أن يصف أحد قادة الثورة ذلك الشعار بأنه «مناهض للثورة» لأنه يعنى نبذ العنف لحل الخلافات.

والواقع أن مبدأ «أولوية السياسى على العسكرى» الذى وضعه مؤتمر الصومال فى ١٩٥٦، كان مبدأ سليمًا بقطع النظر عن التأويلات التى أعطيت له آنذاك، إلا أن تعطيل هذا المبدأ فى ١٩٥٧ استمر بعد ذلك فى صيغ مختلفة. بل لقد تسبب تعطيله فى ضرب الذين أوقفوا العمل به لأن الذين تزعموا مطلب تعطيله عام ١٩٥٧ تمت تنحيتهم عام ١٩٦٢ وبعد ١٩٦٢ اعتمادًا على تعطيل ذلك المبدأ.

إن الذرائع التى يلجأ إليها كل حكم فى بلداننا من أجل تعطيل المؤسسات الديمقراطية، تتشابه وإن اختلفت صيغها.

فأوضاع الأزمة التى تفجرت عام ١٩٨٨، وتعقدت ابتداء من عام ١٩٩٠ كانت تفرض - ومازالت - تعبئة كل الطاقات الفكرية والإرادات الطيبة والاجتهادات المختلفة للخروج من الأزمة، عبر معالجة أسبابها العميقة، وعدم الاقتصار على معالجة الظواهر الطافية على السطح.

يجب أن نعترف أن كل مرحلة من المراحل التى مرت بها مسيرة الحركة المسلحة أو شهدها مسار التنمية بعد الاستقلال وجدت من مثقفين وأشباه مثقفين من يدافع عن تعطيل الديمقراطية، بعضهم يفعل ذلك عن حسن نية، وبعضهم تدفعه الانتهازية. وقليل هم الذين عبروا عن رأى مخالف وكانت لديهم الشجاعة لكى يجاهروا بالمعارضة.

استمرار الجيل الحاكم عبر الاستنساخ

إن انسداد آفاق الحل وتردى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وسياسة احتقار المواطن، لم تؤد فقط إلى انبعاث فكر غيبى متخلف، بل حالت دون تحقيق الانسجام الاجتماعى الذى يتوقف عليه استئناف مسيرة التقدم، لأن تعطيل الديمقراطية يؤدى إلى تشرذم المجتمع ويحكم عليه بالعقم والجمود والتوقف عن النمو.

لا عجب إذن أن تكون أجيال اليوم نهبًا للشك والإحباط، مما يدفع بعض ممثليها لأن يتساءلوا: ما جدوى التضحيات التى بذلها الجيل القديم، وما فائدة الاستقلال إذا كانت النتيجة هى ما نعيشه اليوم من حرمان، كان من أبرز مظاهره سحق الطبقة الوسطى؟ ما فائدة ذلك كله إذا كانت نفسياتنا ممزقة، وعقولنا حيرى، وبطوننا خاوية ولا نرى بصيص نور وسط هذا النفق المظلم الذى أطبق علينا من كل جهة؟



هكذا تبدو الهوة سحيقة بين ممثلى الأجيال الصاعدة وبين ممثلى الأجيال الماضية وبقايا الحرس القديم، سواء كانوا كبارًا فى السن، أو شبابًا مستنسخًا.

أىُّ حوار يمكن أن يقوم بين أولئك وهؤلاء؟

ممثلو الجيل القديم يتهمون جيل اليوم بأنهم لا يقدرون تضحيات من سبقوهم، ولا تهمهم إلا مشاكل السكن والخبز والماء.. يقول القدامى للجدد: تجرون فقط وراء المادة، وتتحللون من الأخلاق، ولا ترتبطون بقيم الأمة وثوابت الوطن.

يرد عليهم أبناء الجيل الراهن: أى مكاسب تحققت لنا من إنجازكم الذى تصفونه بالمعجزة (تحقيق الاستقلال) وأى رفاهية لمسناها من تضحياتكم التى تصفونها بـ «الخارقة»، وأى خير رأيناه بفعل انتصاراتكم على الاستعمار التى تسبغون عليها طابع القداسة؟ وقد يضيف بعضهم - وإن كانوا قلة -: لقد استفدتم من رياح التاريخ التى أصبحت تجرى بما لا تشتهيه سفن الاستعمار، فتصورتم أنكم صنعتم المعجزة وأنكم تحكمتم فى توجيه الرياح.

وقد يضيف بعض مثقفيهم: - إن الثوار الصينيين، كما قال مؤرخ دقيق الملاحظة، قاموا بثورة ضد العالم من أجل أن يندمجوا فى العالم، تمردوا على الماضى من أجل أن يمتلكوه، ومن ثم يكون فى مقدرتهم أن يواصلوا السير إلى الأمام، بعد أن كيفوا نفسياتهم وعقولهم بما يتطلبه العصر والمستقبل. وأنتم خضتم ثورة عظيمة ضد ماضى وحاضر الاستعمار من أجل أن تظلوا فى ماضيكم قابعين، ولأمجاده مجترين، حتى تبرروا بذلك احتكاركم للثروة. بحجة أن الاستقلال قد تحقق بفضل سواعدكم. إنكم إذ تمكنتم من شراء السلام الاجتماعى بفضل عوائد البترول تصورتم أنكم وضعتم أسس دولة مستقرة. إن الأجيال التى سبقتكم كانت تكدح وتناقش، وتقدح زناد الأفكار وتجتهد، وأنتم تفبركون جملاً وتلقون خطبًا خالية من الروح وتنمقون مواعظ لا يؤمن بها حتى من يصفقون لها.

ولو أطلقنا العنان للخيال، لتعددت المآخذ من هنا وهناك. علمًا بأن ممثلى الجيل الجديد لا يتحدثون لغة واحدة: فقد يوجد فيه من يبالغ فى الدعوة إلى التغريب والفرنسة، كما قد يوجد فيه من يتزمت فى الدين ويحكم بتكفير من يخالفه فى الرأى إن لم يستحل دمه.

ومهما يكن من شىء فإن انشغال الجيل الجديد بمشاكل الحياة اليومية وتطرفه فى هذا الاتجاه أو ذاك يفرض على ممثلى الجيل القديم أن يسائلوا أنفسهم: من المسئول؟ أى فضاء للحرية أتحناه لهم فى الإبان حتى يشعروا بقوة الأفكار المنبثقة عن النقاش الحر والجدل السليم وأهمية التسليم بحق المحاور فى الاختلاف.

إن طموح الجيل الجديد لأن يعيش عصره أمر طبيعى.

فمن العبث مخاطبته بلهجة وعظية.

ليس معقولاً ولا واقعيًا أن يجبر على الالتفات دائمًا إلى الخلف ليعرف أنه يتقدم. السرعة الشديدة التى يتقدم بها العصر تجعله يتصور عن حق أنه يتراجع بسرعة حتى عندما يتيقن أنه يتقدم ويسير إلى الأمام.

مثله فى ذلك مثل سيارة جديدة شديدة السرعة، تجتاز أخرى قديمة أقل سرعة، فإن سائق السيارة الجديدة المسرعة، عندما يلقى نظرة على المرآة أمامه، تعكس له صورة السيارة القديمة التى تجاوزها وتبدو له هذه كأنها تجرى بسرعة إلى الخلف.

ماذا ينتظر ممثلو الجيل القديم ومن يحوم فى رحابهم ممن كونوهم على صورتهم واستنسخوهم على شاكلتهم، كى يجروا قراءة نقدية فى الماضى، ماضيهم بعيدًا عن التبرير الأرعن والتمجيد الأعمى؟ هل ينتظرون أن يستيقظ المارد الذى يبدو نائمًا مستكينًا، فيفاجئهم كما فاجأ مارد ١٩٥٤ جيل المحتفين بمرور قرن على ١٨٣٠.

ألا يبصرون النذر فى الأفق التى تبدو قاصرة على منطقة القبائل فى حين أنها تشكل إرهاصات تنبئ عن تململ كل الفئات المحرومة فى سائر أرجاء الوطن المترامى الأطراف؟ متى يتبين أصحاب الحل والعقد أن الرعود التى تشق سماء تيزى أوزو وبجاية تنبئ فى الواقع عن عواصف تختمر فى مناطق أخرى؟

خرائط البؤس والحرمان

لقد أعطت مدينة الجزائر اسمها لبلد كامل منذ بدايات القرن السادس عشر الميلادى، أى فى زمن كان فيه البحر الأبيض المتوسط هو مركز الدنيا وسرة العالم، أى قبل أن يحتل العالم الجديد مكانة غيرت خريطة العالم ونقلت مركز الثقل القديم إلى نيويورك وواشنطن.

إن الخطر الذى يهدد الجميع فى جزائر اليوم، وليس فى الجزائر وحدها، الخطر الذى يهدد أجيال الأمس القدامى، وأجيال اليوم الجدد هو أن يؤدى الوضع الراهن، لو استمر إلى تغييب كل من التاريخ والجغرافيا، فى حين أن العصر الراهن أى العصر الذى يعيش فيه بعض قليل فوق إمكانيات البلد، وتتعرض فيه الأغلبية الساحقة لموت بطئ، يُلَقِّن المحرومين دروسًا لإتقان صنف جديد من الجغرافيا تصورها خرائط البؤس والفقر والحرمان من جهة والثروة والغنى والتخمة من جهة أخرى.

إن الناس «اللى فوق» إذا تجاهلوا هذه الجغرافيا الجديدة، فإنهم لن يعرفوا أين يكونون ولا على أى بركان أو رمال متحركة يقفون. لأن الجغرافيا فى جوهرها تستجيب لأبسط أنواع المعرفة: تحديد الموقع، معرفة طبيعته، تحديد مكان المرء من الموقع، لُبُّ الجغرافيا هو تشخيص الموقع وفهم المكان، أى معرفة الوسط الذى يعيش فيه الإنسان المسئول والوسط الذى يحيا فيه الآخرون أو لا يحيون.

إن قطعة الأرض التى نقف فوقها تتحدد وتتغير بحكم الاقتصاد وبحكم الاجتماع وبحكم التوزيع المجحف للثروة؛ من هنا موجات الهجرة، وحركة الطموحات وخريطة الحرمان والأحقاد.

إن الجغرافيا بهذا المفهوم تخضع للتاريخ الذى يشارك فى إنتاجها وتكييفها، كما تشارك هى أيضًا فى صنع التاريخ وتوجيه أحداثه.

من هنا ضرورة أن يفكر الناس «اللى فوق» فى تعقيدات المواقع الجديدة التى أوجدوها أو تسبب فى إيجادها غيرهم.. ضرورة أن يسعوا لإعادة صياغة جغرافيا جديدة، بما يعيد رسم خريطة تتراجع فيها مساحات العداء والبغضاء والحقد، إن أرادوا ألا تتزلزل الأرض تحت الأقدام، وألا تهوى السماء على الرؤوس.

إذا كانت الحداثة مرتبطة بالتاريخ، كما يقول بعضهم، فإن ما بعد الحداثة مرتبط بالفضاءات الجغرافية الجديدة، أى بإعادة صياغة خرائط العواطف والأحاسيس والمشاعر. ■

الهوامش

(١) Ferdinand Braudel, (Les ambitions de l'histoire) T. (2) Paris: Fallois, 1997.

(٢) الكتب وجهات نظر، العدد رقم (١٤)، يناير ٢٠٠٠).

(٣) Ferdinand Braudel, (Outour de la Mediteraine), Paris: Fallois, 1996 - P 47).

(٤) Pelissier de Reynaud, (Autrement. N: 55. Mars 1999. p.13)

أمريكا وقمة الأرض

ينعقد فى جوهانسبرج بجنوب أفريقيا خلال الفترة من ٢٦ أغسطس حتى ٤ سبتمبر ٢٠٠٢ ما يطلق عليه قمة الأرض الثانية للتنمية المستدامة Sustainable Development (SD). وكانت القمة الأولى قد انعقدت فى ريو دى جانيرو بالبرازيل عام ١٩٩٢ فى إطار مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية UNCED والذى أقر أجندة القرن الواحد والعشرين Agenda 21. وتتكون التنمية المستدامة من ثلاثة أنشطة محورية، تتسم بالتكامل والمساندة المتبادلة، بمعنى أن كلا منها يغذى الآخر ويتغذى منه. وهذه الأنشطة هى التنمية الاقتصادية، والتنمية الاجتماعية، وحماية البيئة. وفى إطار تلك الأنشطة يوجد العديد من الأهداف الإنسانية الكبرى مثل خفض حدة الفقر، وتغيير الأساليب غير المستدامة للإنتاج والاستهلاك (أى التى لا تتسم بالكفاءة والترشيد)، وحماية الموارد الطبيعية وحسن إدارتها. كذلك يرتبط بتلك الأهداف الكبرى العديد من الأساليب الكفيلة بتحقيقها مثل رفع كفاءة الحكم والادارة على المستوى المحلى فى كل دولة وأيضا على المستوى العالمى Good governance، وتوفير المناخ المشجع للاستثمار وخاصة بعد أن صار للعوامل الخارجية تاثير عميق على اقتصاد الدول النامية فى ظل العولمة التى تحمل لواءها منظمة التجارة العالمية واتفاقيات جات.

وقد أنشئ فى إطار الأمم المتحدة لجنة التنمية المستدامة وعهد إليها - بين أمور أخرى - بالتحضير لقمة جوهانسبرج. وكان آخر اجتماع لهذه اللجنة على المستوى الوزارى فى بالى بإندونيسيا خلال الفترة من ٢٧ مايو حتى ٧ يونيو ٢٠٠٢ حيث جرى التفاوض على الوثيقة الشاملة التى ستطرح أمام قمة جوهانسبرج والتى يتوقع أن يشارك فيها عشرات الألاف من كافة المهن والأجناس، ومن بينهم رؤساء دول وحكومات، ممن يعنيهم الحفاظ على الموارد الطبيعية لكوكب الأرض ومواجهة التحديات التى يفرضها النمو المتسارع للسكان وبالتالى ازدياد حاجتهم للغذاء والمياه والمأوى والطاقة والخدمات الصحية والأمن الاقتصادى.

ويتوقع أن يصدر عن قمة جوهانسبرج بيان قمة سياسى وبرامج عمل تستهدف المزيد من تفعيل أجندة القرن ٢١ ومواصلة وتعميق التنفيذ الفعلى للأهداف التى أقرتها القمة الأولى (١٩٩٢) وما تلاها مما أقرته الأمم المتحدة ومن أبرزها إعلان التنمية الألفية Millennium Development Declaration التى تستهدف خفض نسبة الفقراء والمحرومين من وسائل المعيشة الصحية على كوكب الأرض إلى النصف بحلول ٢٠١٥. وسوف تنقسم قرارات قمة جوهانسبرج إلى نوعين: الأول Type(1) وينطوى تحته كل ما تم التفاوض عليه وأقرته الدول بتوافق الآراء، أما النوع الثانى Type(2) فيشمل المبادرات التى ترى بعض الدول الالتزام بها اختيارا وتتضمن خطوات أكثر تقدما لتحقيق أهداف أجندة القرن ٢١، وهذه لا تحتاج إلى مفاوضات وإنما يكفى أن تتطوع الدول الراغبة بالإعلان عنها.

مؤتمر الأمم المتحدة لحماية البيئة

وبينما ينشغل العالم بوضع نظام دولى جماعى للتنمية المستدامة، متضمنا كأحد عناصره الأساسية حماية البيئة الكوكبية والحيلولة دون وقوع كارثة بيئية نتيجة للزيادة المطردة فى حرارة الغلاف الجوى، اختارت الولايات المتحدة الانفراد وحدها بموقف مستقل، إذ رفض رئيسها بوش عقب توليه الرئاسة التصديق على بروتوكول كيوتو، وأعلن فى منتصف فبراير ٢٠٠٢ برنامجه المستقل لمكافحة التغير المناخى مدعيا أنه يخصص لهذا الغرض من التمويل أكثر مما تخصصه أية دولة أخرى، ومتناسيا أن أمريكا هى الدولة الأكثر تلويثًا فى العالم إذ تبث فى الغلاف الجوى ربع الغازات الملوثة.

وفى تبريره لعدم الانضمام إلى بروتوكول كيوتو، يقول بوش أن الالتزام بأهداف البروتوكول يحمل الاقتصاد الأمريكى خسائر كبيرة ويفقدها الملايين من فرص العمل، كما يؤكد أن النمو الاقتصادى يعتبر الحل لقضية التغير المناخى وليس سببا لها، إذ يوفر الأموال التى يمكن استثمارها فى تنمية واستخدام التقنيات الصديقة للبيئة وتقديم حوافز ضريبية لتشجيع الشركات والأفراد على تبنى تلك التقنيات مما يؤدى إلى خفض الملوثات اختيارًا وليس بالإلزام. كذلك يعد بوش بتقديم معونات مالية وتقنية للدول النامية لتمكينها من استخدام تقنيات حميدة للبيئة. غير أنه يعترض على إعفاء الدول النامية فى ظل بروتوكول كيوتو من الالتزام بأهداف محددة ويطالب الصين والهند بتحمل نصيبهما من تلك الالتزامات باعتبارهما من كبريات الدول الملوثة. ويؤكد بوش أنه على الرغم من انسحابه من بروتوكول كيوتو إلا أنه لا يعارض انضمام دول أخرى إليه.

وقد تركز الاهتمام العالمى بالبيئة، بصفة أساسية، فيما تم إنجازه بإشراف الفريق الحكومى الدولى للتغير المناخى UN Intergovernmental Panel on Climate Chang (IPCC) الذى تاسس فى إطار الأمم المتحدة عام ١٩٨٨ وعهد إليه بمهمة تقويم المعلومات المتعلقة بالتغير المناخى من الزوايا العلمية والفنية والاقتصادية والاجتماعية. ومن تلك الإنجازات وضع الاتفاقية الإطارية للتغير المناخى Framework Convention of Climate Change (FCCC) التى اعتمدتها الأمم المتحدة يوم ٩ مايو ١٩٩٢ وعرضت لتوقيع ممثلى الدول أثناء انعقاد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية (قمة الأرض Earth Summit) الذى انعقد فى ريو دى جانيرو بالبرازيل يوم ٤ يونيو ١٩٩٢. وتستهدف الاتفاقية الإطارية بصفة أساسية تحجيم مبتعثات Emissions غازات البيت الزجاجى أو الاحتباس الحرارى Greenhouse gases (GHGs) وأهمها غاز ثانى أكسيد الكربون Carbon Dioxide (Co2) مع العمل على استقرار تركز تلك الغازات فى الغلاف الجوى عند مستوى يحول دون وقوع الآثار الضارة بالنظام المناخى. فغاز ثانى أكسيد الكربون ينطلق إلى الغلاف الجوى بمعدلات كبيرة كنتيجة لعوامل طبيعية. ولكن المبتعث من ذلك الغاز بفعل الطبيعة تمتصه عوامل طبيعية كالأشجار والنباتات وبذلك يتحقق التوازن فى المدى الطويل. غير أن النشاط البشرى يطلق أيضا كميات متزايدة من ذلك الغاز مما يؤدى إلى زيادة تركزه فى الغلاف الجوى محدثا ما يعرف بظاهرة البيت الزجاجى أو ما يشبه عمل الصوبة اللازمة لبعض المنتجات الزراعية، وهو ما يؤدى بدوره إلى ارتفاع درجة حرارة الغلاف الجوى المحيط بالكرة الأرضية أو ما يعرف بظاهرة احترار الغلاف الجوى Global warming. ويرى أنصار حماية البيئة أن ذلك التطور من شأنه أن يذيب الغطاء الجليدى فى القطبين الشمالى والجنوبى فيرتفع مستوى المياه فى البحار والمحيطات لكى يغرق الأراضى الواطئة فى الكرة الأرضية. ومن هنا اتجه أنصار حماية البيئة إلى الربط بين ما ينبعث نتيجة للنشاط البشرى من تلك الغازات وبين هذه الظواهر التى تهدد نوعية الحياة على كوكب الأرض.

وقد تعهد الموقعون على الاتفاقية الإطارية FCCC ويبلغ عددهم الأن نحو ١٧٨ دولة بوضع برامج لمواجهة التغير المناخى وتبنى سياسات محلية فى كل دولة لتحجيم GHGs عند مستوى عام ١٩٩٠، وذلك باستثناء الغازات التى تضمنها بروتوكول مونتريال (١٩٨٧) الذى اختص بمعالجة المواد المؤثرة على طبقة الأوزون.

اختارت الولايات المتحدة الانفراد بموقف مستقل، إذ رفض رئيسها بوش التصديق على بروتوكول كيوتو، وأعلن برنامجه المستقل لمكافحة التغير المناخى مدعيا أنه يخصص لهذا الغرض من التمويل أكثر مما تخصصه أية دولة أخرى، ومتناسيا أن أمريكا هى الدولة الأكثر تلويثًا فى العالم إذ تبث فى الغلاف الجوى ربع الغازات الملوثة

المتابعة الميدانية للتغير المناخى

يصدر الفريق الحكومى الدولى IPCC تقارير متابعة تستهدف تحسين مستوى الدراسات العلمية والتدقيق فى حساب القياسات التى يتم على أساسها متابعة تطورات التغير المناخى. وقد صدر التقرير الثالث فى يناير ٢٠٠١ بعنوان «Climate Change 2001» حيث استغرق إعداده ٣ سنوات وشارك فى كتابته ١٢٣ من كبار الخبراء يساندهم ٥١٦ خبيرا معاونا وتمت الموافقة عليه بإجماع ١٥٠ مندوبا يمثلون ١٠٠ دولة. ويعتبر التقرير أشمل وثيقة صدرت حتى الآن حول قضية التغير المناخى. وقد تضمن التقرير أحدث ما توصلت إليه الدراسات الجارية من نتائج نوجز أهمها فيما يلى:

(١) إن درجة تركز GHGs فى الغلاف الجوى استمرت فى الازدياد نتيجة للنشاط البشرى وبخاصة التوسع فى استهلاك الوقود الحفرى، إذ ارتفع تركز ثانى أكسيد الكربون وهو أهم تلك الغازات من نحو ٢٦٨ جزءا بالمليون عام ١٧٥٠ إلى نحو ٣٦٥ جزءا عام ١٩٩٨ وهو ما يمثل زيادة مطلقة بنحو ٣١٪ خلال الفترة ١٧٥٠–٢٠٠٠ كذلك دلت القياسات الحديثة على أن هذا التركز قد ارتفع بمعدل ١,٥٪ سنويا فى المتوسط خلال الفترة ١٩٩٠–١٩٩٩.

(٢) إن قوة الإشعاع الحرارى Radiative forcing الناتج من ازدياد GHGs خلال الفترة ١٧٥٠–٢٠٠٠ تقدر بنحو ٢,٤٣ وات Watt لكل متر مربع منها ١,٤٦ وات لازدياد ثانى أكسيد الكربون وحده.

(٣) قدر ما انطلق من ثانى اكسيد الكربون Co2 إلى الغلاف الجوى خلال عام ٢٠٠٠ نتيجة لعوامل طبيعية بنحو ٢١٠ مليار طن كربون مكافىء (طن كربون = ٣,٦٧ طن Co2). وقدر ما أطلق من ذلك الغاز نتيجة للنشاط البشرى فى العام المذكور بنحو ٦,٣ مليار طن كربون مكافىء (أى ٢٣ مليار طن Co2) بلغ نصيب الولايات المتحدة منه ١,٥٨ مليار طن كربون أو ما يعادل ٢٥٪ من إجمالى العالم. وبذلك بلغ إجمالى مبتعثات ثانى أكسيد الكربون نحو ٢١٦,٣ مليار طن كربون مكافىء. أما ما تم امتصاصه بعوامل طبيعية كالأشجار والنباتات فى العام المذكور فلم يتجاوز نحو ٢١٣,١ مليار طن كربون.

(٤) ارتفعت حرارة الغلاف الجوى خلال القرن العشرين بنحو ٠,٦ درجة مئوية (مع احتمال ٠,٢ درجة زيادة أو نقصا).

(٥) ارتفعت حرارة الكيلومترات الثمانية السفلى من الغلاف الجوى بنحو ٠,٤ درجة مئوية خلال العقود الأربعة التى انقضت منذ أواخر عقد الخمسينيات حتى عام ٢٠٠٠.

(٦) وفقا للسيناريوهات المختلفة وعددها ٣٥ يتوقع استمرار ارتفاع حرارة الغلاف الجوى بما يتراوح بين ١,٤ و٥,٨ درجة مئوية خلال الفترة ١٩٩٠–٢١٠٠ تبعا لافتراضات السيناريو.

(٧) كذلك تشير السيناريوهات الـ ٣٥ إلى توقع ارتفاع مستوى المياه فى البحار والمحيطات بما يتراوح بين ٩ و٨٨ سنتيمترًا خلال الفترة المذكورة تبعا لافتراضات السيناريو.

(٨) كشفت البيانات المستقاة من الأقمار الصناعية عن احتمال قوى لتقلص طبقة الثلج

الاقتصاد قبل البيئة!

حسين عبد الله

كشفت البيانات المستقاة من الأقمار الصناعية عن احتمال قوى لتقلص طبقة الثلج المتساقط مطرا منذ أواخر عقد الستينيات، كما أن الفترة التى يستغرقها ذوبان الجليد الذى يغطى البحيرات والأنهار فى النصف الشمالى من الكرة الأرضية قد قصرت بنحو أسبوعين خلال القرن العشرين



المتساقط مطرا Snow منذ أواخر عقد الستينيات. كما تشير القياسات السطحية إلى أن الفترة التى يستغرقها ذوبان الجليد الذى يغطى البحيرات والأنهار فى النصف الشمالى من الكرة الأرضية قد قصرت بنحو أسبوعين خلال القرن العشرين.

(٩) ويخلص التقرير إلى أنه إذا نجح العالم فى تثبيت الناتج عن النشاط البشرى من مبتعثات GHGs عند مستوى مناسب، فإن الزيادة التى يمكن أن تطرأ على حرارة الغلاف الجوى على مدى قرن كامل لن تتجاوز أجزاء عشرية قليلة من الدرجة المئوية. أما إذا ترك الأمر دون ضوابط فإن ما تقدم ذكره من أضرار سوف يصبح واقعا محققا.

بروتوكول كيوتو

عقد فى كيوتو باليابان على مدى الفترة ١-١١ ديسمبر ١٩٩٧ بحضور ممثلى ١٦٠ دولة حيث تقرر - فيما تقرر - وضع قيود ملزمة للدول المتقدمة Developed لتحجيم GHGs. وانتهى المؤتمر باعتماد بروتوكول كيوتو Kyoto Protocol الذى وضع أهدافا محددة كميا لمبتعثات الكربون فى الدول المتقدمة ودعى لاتخاذ التدابير الكفيلة بتحقيقها خلال فترة محددة.

وعقد مؤتمر الأعضاء الرابع COP4 فى الأرجنتين نوفمبر ١٩٩٨ كما عقد الخامس فى بون نوفمبر ١٩٩٩ وعقد السادس على دورتين الأولى فى لاهاى نوفمبر ٢٠٠٠ والثانية فى بون يوليو ٢٠٠١ حيث تم بحضور ١٧٨ دولة الموقعة على FCCC إصدار اتفاق بون Bonn Agreement متضمنا ما يعرف بكتاب الإجراءات التنفيذية للبروتوكول Operational rulebook. وقد شاركت فى هذا المؤتمر رئيسة وكالة البيئة الأمريكية محاطة بالتخاذل الأمريكى الذى سبقها بإعلان بوش أنه ينسحب من بروتوكول كيوتو، ولم يسعفها البيت الأبيض بالإجابة عن الأسئلة التى وجهت إليها مما زاد فى حدة الحرج الأمريكى.

ويقضى اتفاق بون بإنشاء صندوقين يستخدم أحدهما لمعاونة الدول النامية على تبنى سياسات لمكافحة التغير المناخى والحصول على تكنولوجيات نظيفة. كما تضمن الاتفاق السماح للدول المتقدمة باستخدام التشجير والتخضير Carbon sink الذى يمتص جانبا من المبتعثات الكربونية للوفاء بجانب من التزاماتها. كذلك وضع اتفاق بون الإجراءات التنفيذية لما تضمنه البروتوكول من آليات مرنة تساعد أعضاءه على الوفاء بالتزاماتهم وهى ما سوف نوضحها بعد قليل. ولكن اتفاق بون اشترط أن تمثل الجهود المحلية الجانب الأساسى فى تحقيق أهداف البروتوكول وأن يكون استخدام الآليات المرنة عنصرا مكملا. كذلك أنشأ اتفاق بون لجنة لمراقبة مدى التزام الدول بتنفيذ أهداف البروتوكول وزودت اللجنة بالإمكانيات الملزمة بما فى ذلك إلزام الدولة التى تتقاعس فى خفض طن من التزاماتها بالتعويض عنه بخفض ١,٣ طن خلال المرحلة الثانية التى تبدأ عام ٢٠١٣. وقد

عقد مؤتمر الأعضاء السابع في مدينة مراكش بالمغرب في نوفمبر ٢٠٠١ حيث أصدر ما يعرف بمواثيق مراكش Accords التي استكملت بعض ما لم يستكمل في اتفاق بون، ويتوقع أن يستمر استكمال الباقي أثناء انعقاد المؤتمر الثامن في الهند خلال نوفمبر ٢٠٠٢.

أما الآليات المرنة، وهي من أهم ما تضمنه بروتوكول كيوتو، فتشمل ما نصت عليه المادة ١٧ التي تجيز التبادل التجاري في المبتعثات Emission trading بين دول الملحق الأول وإصدار تراخيص كربونية Carbon permits يتم تبادلها بين الدول. كذلك تضمن البروتوكول نظام المشروعات المشتركة Joint Implementation projects الذي نصت عليه المادة ٦ ويسمح بموجبه لدولة من دول الملحق الأول بالاستفادة مما يتم تحقيقه بصورة مشتركة في دولة أخرى من دول الملحق الأول من مشروعات تحقق خفضا في المبتعثات، أو امتصاص جانب منها كمشروعات التشجير والتخضير. ووفقا لنظام المشروعات المشتركة يمكن للدولة المستفيدة، في مقابل ما تقدمه من دعم للدولة التي يتم على أرضها المشروع، وبالاتفاق فيما بينهما، أن تحصل على رخصة موثقة تعفيها من الالتزام بخفض مماثل في مبتعثاتها وتتيح لها فرصة الاستمرار في استهلاك الطاقة الحفرية بقدر ما تعفى منه. وفي تلك الحالة لا تستفيد الدولة التي تحقق المشروع على أرضها بالخفض الذي استفادت به الدولة التي حصلت على الترخيص.

وقد وقعت ٨٤ دولة على بروتوكول كيوتو خلال الفترة المتاحة للتوقيع والتي انتهت يوم ١٥ مارس ١٩٩٩. غير أن البروتوكول لن يصبح نافذا إلا عندما يقوم بالتصديق عليه ٥٥ عضوا من بينهم أعضاء من الملحق الأول (الإلزامي) يبلغ حجم مبتعثاتهم ٥٥٪ من إجمالي مبتعثات أعضاء هذا الملحق عام ١٩٩٠. وحتى نهاية أكتوبر ٢٠٠١ لم يصدق على البروتوكول من أعضاء الملحق الأول سوى رومانيا، وذلك بالإضافة إلى ٤٢ دولة من غير أعضاء الملحق الأول، أي ممن لا يلتزمون بتحقيق أهداف معينة. ومع أن أغلب دول الملحق الأول وبخاصة أوروبا واليابان تتحمس لتنفيذ البروتوكول، إلا أن انسحاب الولايات المتحدة الذي أعلنه بوش عقب توليه الرئاسة جعل باقي المجموعة تتوقف في انتظار ما تسفر عنه المحاولات المبذولة لتغيير موقف الرئيس الأمريكي الذي ما زال يصر على الانسحاب. ومما يذكر في هذا المجال أن مبتعثات الولايات المتحدة لا تتجاوز ٣٥٪ من مبتعثات دول الملحق الأول عام ١٩٩٠ ولذلك يبقى نحو ٦٥٪ من تلك المبتعثات وهو ما يمكن أن يغطي نسبة الـ ٥٥٪ المطلوبة لجعل البروتوكول نافذا.

وسواء صار البروتوكول نافذا أم لم ينفذ، فإن أغلب المؤشرات تؤكد أن العالم لن يقف مكتوف الأيدي إزاء التغير المناخي الحاصل والذي يزداد تأكيده بما تسفر عنه نتائج الأبحاث العلمية الجارية ومن أهمها ما يقوم به الفريق الحكومي الدولي ويقدمه في صورة تقارير متابعة كان آخرها التقرير الثالث الذي عرضنا أهم نتائجه فيما سبق.



أمريكا
رقمة الأرض

سواء صار البروتوكول نافذا أم لم ينفذ، فإن أغلب المؤشرات تؤكد أن العالم لن يقف مكتوف الأيدي إزاء التغير المناخي الحاصل والذي يزداد تأكيده بما تسفر عنه نتائج الأبحاث العلمية الجارية

مدى تأثر أنماط الطاقة

يتوقع أن تتأثر أنماط استهلاك الطاقة خلال المستقبل المنظور تأثرا جوهريا بما يتخذ على المستوى العالمي من تدابير لحماية البيئة، ذلك لأن حجم مبتعثات الكربون المرتبطة باستهلاك الطاقة يعتمد أساسا على حجم النشاط الاقتصادي معبرا عنه بالناتج المحلي الإجمالي GDP، كما يعتمد على طبيعة خليط الطاقة المستخدمة. وتقاس العلاقة الأولى بحجم ما يستهلك من الطاقة لإنتاج وحدة من الناتج المحلي الإجمالي ويطلق على هذا المقياس «كثافة الطاقة». كما يستدل على طبيعة خليط الطاقة المستهلكة، والذي يضم وقودًا حفريًا إلى جانب وقود غير حفري، بما يعرف «بكثافة الكربون». ومن مؤدى ذلك الارتباط أن محاولة تثبيت حجم مبتعثات GHGs أو خفضها على المستوى العالمي لابد أن يتحقق إما بخفض كثافة الطاقة أي تحسين كفاءتها، أو خفض كثافة الكربون بإحلال وقود ذي محتوى كربوني منخفض محل وقود ذي محتوى كربوني مرتفع، أو بكليهما معا.

ومن المعلوم أن كثافة الكربون، التي تقاس بمقدار ما يتخلف من الكربون عن إنتاج وحدة من الطاقة، تختلف تبعا لاختلاف المكان والزمان. ففيما قبل عام ١٩٩٠ كانت كثافة الكربون في شمال أمريكا هي الأقل بين المناطق الصناعية. أما خلال الفترة ١٩٩٠-١٩٩٩ فقد استطاعت أوروبا الغربية أن تقلص اعتمادها على الفحم من نحو ٨٩٤ مليون طن إلى نحو ٥٤٦ مليون طن، وذلك بإغلاق مناجم الفحم البني في ألمانيا والفحم الصلب في المملكة المتحدة، كما حلت الطاقة النووية والغاز الطبيعي بدرجة كثيفة محل الفحم في فرنسا. وقد نتج عن ذلك التطور أن أصبحت أمريكا الشمالية في الوقت الحاضر المنطقة الأعلى في كثافة الكربون بين المجموعة الصناعية الغربية، ويتوقع أن يستمر الحال على ذلك حتى عام ٢٠٢٠، ولعل مما يؤكد هذا التطور ما يتوقع من تقلص استخدام الطاقة النووية في الولايات المتحدة وإحلال مصادر الوقود الحفري محلها في توليد الكهرباء. وبالمثل، إذا تقلص بدرجة كبيرة حجم الطاقة النووية المستخدمة في أوروبا الغربية فسوف يتعذر الاستمرار في خفض كثافة الكربون. أما المنطقة الصناعية في جنوب شرق آسيا فتشهد تطورا مماثلا لمنطقة أوروبا الغربية فيما يتعلق بانخفاض كثافة الكربون. فاليابان رغم توسعها في استخدام الغاز الطبيعي، مما يؤدي إلى خفض كثافة الكربون، إلا أن تلك الإمكانية ستظل محدودة نتيجة لارتفاع كلفة الغاز الطبيعي الذي تستورده اليابان مسالا. ويبقى الأمل في خفض كثافة الكربون باليابان معلقا بصفة أساسية على التوسع في استخدام الطاقة النووية وهو ما يتوقع زيادته بالفعل.

وبصفة عامة، يعتبر الغاز الطبيعي المنافس الأقوى بين ما سوف يحل من مصادر الطاقة محل الطاقة النووية في مختلف المناطق الصناعية، وذلك لما يتمتع به من صفات بيئية حميدة إذ يعتبر الأقل في محتواه الكربوني يليه البترول السائل ثم الفحم الذي يحتوي على نسبة أكبر من الكربون.

ومع أن الطاقة الكهرومائية، ومن أمثلتها كهرباء السد العالي، تلعب دورا مهما في خفض كثافة الكربون في مختلف الدول إلا أن إمكانياتها ستظل محدودة، لأن أغلب المواقع التي تصلح لاستغلال تلك الطاقة في الدول الصناعية قد تم استغلالها بالفعل. وعلى أية حال، فإن نصيبها من الاستهلاك العالمي للطاقة خلال المستقبل المنظور لا يتوقع أن يرتفع فوق نصيبها الحالي والذي لا يتجاوز ٨٪.

ولا يبقى من مصادر الطاقة المتجددة التي يمكن التوسع في استخدامها مستقبلا سوى طاقة الرياح والطاقة الشمسية، وطاقة الكتلة الحيوية. ومع أن استخدام تلك المصادر، التي لا يتخلف عنها كربون، لم يحقق سوى نمو محدود خلال السنوات الأخيرة، إلا أن الالتزام بأهداف بروتوكول كيوتو -متى صار نافذا- أو بأية اتفاقيات بيئية أخرى، يمكن أن يساند اقتصادياتها وأن يدفعها دفعة قوية خلال المستقبل المنظور.

وتختلف التحديات التي تواجهها الدول الصناعية، في مجال مكافحة الأضرار البيئية الناتجة من استهلاك الطاقة، عن نظائرها التي تواجه الدول النامية. فالدول المتقدمة استطاعت أن تحقق ما حققته من نمو اقتصادي بفضل ما أتيح لها من مصادر رخيصة نسبيا من الوقود الحفري. وبالنظر لضخامة المستثمر في المعدات الرأسمالية التي تستخدم ذلك الوقود، فإن تلك الدول سوف تحتاج لوقت أطول حتى تتمكن من إحلال مصادر للوقود ذات محتوى كربوني منخفض محل المصادر ذات المحتوى الكربوني المرتفع، وحتى تتمكن أيضا من استبدال الأجهزة والمعدات اللازمة لذلك الإحلال. ومن هنا يتمثل التحدي الذي تواجهه الدول الصناعية المتقدمة في استنباط سياسات تستهدف حماية البيئة على المستوى العالمي، وتوفر لها، في نفس الوقت، المرونة الزمنية التي يتطلبها تعديل نظم الطاقة فيها بما يحقق تلك الأهداف.

أما بالنسبة للدول النامية، فسوف يتطلب الأمر أن تواصل كفاحها لتحقيق أهدافها التنموية، وإن كان في مقدورها الاستفادة من التجارب التي مرت بها الدول الصناعية في مجال التنمية الاقتصادية والاجتماعية. فالكثير مما يوجد الآن في الدول الصناعية من بنية صناعية ومعدات رأسمالية مستهلكة للطاقة لا يزال نظيره في طور البناء في الدول النامية. وفي ذلك ما يعتبر ميزة ينبغي أن تستغلها الدول النامية لكي تحسن اختيارها منذ البداية فيما تقتنيه من تلك المعدات ومن مصادر الطاقة الأكثر مناسبة لتحقيق الأهداف البيئية والتنموية في آن واحد.

السياسة الأمريكية الجديدة

كما حدث في التجربة الأمريكية السابقة التي بدأت عام ١٩٩٣ بوضع خطة عمل CCAP تتضمن ٤٤ نشاطا لخفض GHGs وانتهت بالفشل وازدياد المبتعثات زيادة كبيرة كما أوضحنا، قدم بوش للعالم برنامجه الجديد في إطار مبهر نوجز فيما يلي أهم معالمه ونتبعه بما نراه من نقاط الضعف:

(١) في تبريره لعدم الانضمام إلى بروتوكول كيوتو، يقول بوش إن الالتزام بأهداف البروتوكول يحمل الاقتصاد الأمريكي خسائر تقدر بنحو ٤٠٠ مليار دولار ويفقدها نحو ٤,٩ مليون فرصة عمل وهو ما يعقد مشكلة البطالة. وبدلا من ذلك يؤكد بوش أنه سوف يطلب في موازنة العام الجديد ٢٠٠٣ رصد اعتمادات تصل إلى ٤,٥ مليار دولار بزيادة ٧٠٠ مليون دولار عن العام السابق. ثم يتجدد طلب الاعتمادات عاما بعد آخر إلى أن يتحقق هدف البرنامج الذي حددت مدته بعشر سنوات. وسوف يخصص الجانب الأكبر من تلك الاعتمادات لتشجيع الاستثمار في تحسين وتطبيق التقنيات الصديقة للبيئة، وبذلك يستمر الاقتصاد الأمريكي في النمو. ويؤكد بوش أن النمو الاقتصادي يعتبر الحل الأمثل لقضية حماية البيئة وليس سببا من أسبابها، إذ يساعد على توفير الأموال اللازمة للإنفاق على الاستثمارات المطلوبة لتنمية التقنيات الصديقة للبيئة. وبمعنى آخر، فإنه بدلا من أن يكون الاختيار بين تحقيق أحد الهدفين على حساب الآخر، إما حماية البيئة أو نمو الاقتصاد، فإن البرنامج الأمريكي يستهدف تحقيق الهدفين معا.

(٢) يستهدف البرنامج الأمريكي خفض كثافة المبتعثات GHGs في الاقتصاد الأمريكي بنحو ١٨٪ خلال السنوات العشر المقبلة. وعلى خلاف بروتوكول كيوتو الذي يستهدف خفض المبتعثات الأمريكية خفضا مطلقا بنحو ٧٪ تحت مستواها عام ١٩٩٠، فإن المعيار الذي يتبناه البرنامج الأمريكي يستهدف خفض كثافة المبتعثات GHGs intensity وهي نسبة ما يطلق في الغلاف الجوي من تلك المبتعثات لكل

دولار من الناتج المحلى الإجمالى .GDP وبمعنى آخر فإن البرنامج الأمريكى يسمح بنمو الدخل والمبتعثات معا، ولكنه يعمل على أن يكون نمو المبتعثات بمعدل أبطأ من معدل نمو الدخل بحيث تقل نسبة المبتعثات إلى الدخل.

وبترجمة هذا الهدف إلى أرقام فإن البرنامج يستهدف خفض ما تطلقه الولايات المتحدة سنويا فى الغلاف الجوى من GHGs لكل مليون دولار GDP من نحو ١٨٣ طن مترى كربون مكافئ إلى ١٥١ طن مترى بحلول ٢٠١٢، كما يتوقع أن يبلغ الخفض الإجمالى المتراكم خلال السنوات العشر نحو ٥٠٠ مليون طن كربون مكافئ.

ويؤكد أنصار البرنامج الأمريكى أن الخفض المستهدف يقدر بنحو ٤,٥٪ مما يمكن أن تصل إليه مبتعثات GHGs إذا ظل الحال على ما هو عليه فى الوقت الحاضر، وهو خفض يقبل المقارنة بمتوسط الخفض الذى يستلزمه بروتوكول كيوتو بالنسبة لجميع أعضائه.

(٣) يكافئ البرنامج الأمريكى الشركات والأفراد الذين يبذلون جهدا اختياريا لخفض المبتعثات. ولكى يكون هذا الجهد قابلا للقياس فإن البرنامج يتضمن تحسينا على نظام القياس وإعداد التقارير Reporting المعمول به فى ظل النظام القائم. ويمثل الاختيار لا الإلزام الفكرة المحورية فى البرنامج الأمريكى وأن تكون المشروعات المنفذة يبررها السوق والتكلفة market-based and cost-effective.

(٤) تتضمن الاعتمادات التى سيطلبها بوش ١,٧ مليار دولار للإنفاق على تنمية الأبحاث الأساسية فى مجال التغير المناخى، كما تتضمن ١,٣ مليار دولار لتنمية وتطوير تقنيات الطاقة الصديقة للبيئة.

(٥) يستهدف البرنامج الأمريكى منح حوافز ضريبية لتشجيع مصادر الطاقة الصديقة للبيئة (وأهمها الطاقة الشمسية والرياح والكتلة الحيوية والمركبات العاملة بخلايا الطاقة وتوليد الكهرباء بنظام الدورة المركبة..إلخ). وسوف يطلب لهذا الغرض اعتماد ٧,١ مليار دولار على مدى السنوات العشر المقبلة منها ٤,٦ مليار دولار للسنوات الخمس الأولى يخصص منها للعام الأول (٢٠٠٣) مبلغ ٥٥٥ مليون دولار.

(٦) يتضمن البرنامج أيضا طلب اعتمادات متفرقة لتمويل برامج قائمة بالفعل فى مجالات أخرى لا تخاطب قضية التغير المناخى مباشرة ولكنها تعكس عليها تأثيرا إيجابيا بطريقة غير مباشرة.

أهم الانتقادات الموجهة للبرنامج الأمريكى

اوضحنا فيما تقدم أهم معالم البرنامج الأمريكى الذى أعلنه بوش فى منتصف فبراير ٢٠٠٢ للتعامل مع قضية التغير المناخى. وفيما يلى نوجز أهم ما يؤخذ عليه من نقاط الضعف:

(١) استخدم البرنامج معيارا لقياس المبتعثات يختلف عن المعيار الذى استخدمه بروتوكول كيوتو. فبينما يلزم البروتوكول الولايات المتحدة بخفض المبتعثات خلال عشر سنوات خفضا مطلقا بنحو ٧٪ من مستواها عام ١٩٩٠، فإن المعيار الذى اختاره بوش يستهدف خفض ما تمثله تلك المبتعثات كنسبة من الناتج المحلى الإجمالى ولكنه يسمح بزيادتها زيادة مطلقة كما سنوضح فى الفقرة التالية.

(٢) اختار بوش لسيناريو الوضع القائم بدون تطبيق برنامجه «business-as-usual" معدلات مرتفعة لنمو مبتعثات GHGs بل وتزيد عن التقديرات التى وضعتها وزارة الطاقة الأمريكية، وذلك بغية إثبات أن برنامجه سوف يؤدى إلى تحقيق خفض فى كثافة المبتعثات يصل إلى ١٨٪ فى نهاية السنوات العشر. ومع ذلك فإن تلك المبتعثات، وعلى أساس نفس الأرقام التى اختارها البرنامج، يتوقع أن تحقق زيادة مطلقة بعد الخفض المذكور تقدر بنحو ١٤٪ وهو ما يقرب من الزيادة التى تحققت خلال السنوات العشر الماضية (من ١٦٧٨ إلى ١٩٠٦ مليون طن كربون مكافئ بمعدل ١٣,٦٪).

(٣) انهالت الانتقادات على البرنامج الأمريكى فور إعلانه. ففى فرنسا قيل أن الطابع الاختيارى للبرنامج الأمريكى يدعو للقلق، وأنه بدون وجود روادع ملزمة يفتقر للمصداقية إذ يستهدف تحقيق التغيير المطلوب بدون تكلفة وبدون أن يغير المواطن الأمريكى من أسلوب حياته. ومن ناحية أخرى فإن البرنامج لا يعدو أن يكون وسيلة تجميل ظاهرية window dressing وإن كان لن يغير صورة بوش أمام العالم باعتباره خادما لصناعة البترول الأمريكية. وفى بروكسل أبدت المتحدثة باسم المفوضية الأوروبية أن النظام المتعدد الأطراف (أى كيوتو) يعتبر أفضل الوسائل لمواجهة التحدى الكبير، ولذلك فإن الاتحاد الأوروبى ما زال يأمل أن يعود بوش إليه. وفى بريطانيا انتقد البرنامج على أنه غير كاف وأن التجربة البريطانية أثبتت أنه من الممكن التوفيق بين خفض المبتعثات وبين الاحتفاظ باقتصاد متعاف. وفى اليابان قال وزير البيئة الجديد إن الأفضل للولايات المتحدة العودة إلى كيوتو. أما فى ألمانيا فقد امتدح البرنامج الأمريكى لاحتوائه أحكاما تلزم بخفض مبتعثات الزئبق وثانى أكسيد الكبريت وأكاسيد النيتروجين وهى مبتعثات ملوثة للهواء، ولكن البرنامج انتقد على أساس أن تنقية الهواء لا تعالج قضية التغير المناخى الذى يلعب الدور الرئيسى فيها مبتعثات الكربون معبرا عنها بثانى أكسيد الكربون. ولذلك وصف بأنه برنامج عظيم لتحقيق هدف خطأ.

(٤) كذلك صدر من داخل الولايات المتحدة العديد من أصوات الانتقاد، ومنها أن الكونجرس سوف يتردد فى تغيير النظام القانونى القائم الذى يطلب بوش إحلال برنامجه محله. ولذلك قيل إن الكونجرس لا يمكن أن يضحى بنظام قانونى قائم فى مقابل وعود يقدمها الرئيس ومعاونوه.

وقد قام مؤخرا علماء من ست وكالات فيدرالية أمريكية بإعداد تقرير يعترف بأن النشاط الإنسانى يتسبب بدرجة كبيرة فى احترار الغلاف الجوى وأن الولايات المتحدة ذاتها تواجه مخاطر كبيرة فى هذا المجال. غير أن الرئيس بوش اكتفى فى مستهل يونيو ٢٠٠٢ بقوله «قرأت التقرير الذى وضعه البيروقراطيون» ثم عاد يؤكد رفضه التصديق على بروتوكول كيوتو. بذلك تظل الإدارة الأمريكية متمسكة بالبرنامج البديل الذى أعلنه بوش فى فبراير ٢٠٠٢ وسبق شرحه، كما يظل الموقف الأمريكى الرسمى على نقيض من مواقف الحلفاء الغربيين فى أوروبا واليابان، بل ومناقضا أيضا للتيار المتزايد داخل الولايات المتحدة والذى ينادى باتخاذ إجراءات فعالة للحد من احترار الغلاف الجوى. ■

كتاب الزاوية

حرب النهر
تاريخ الثورة المهدية

يعد هذا الكتاب هو الثانى الذى ألفه ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطانى الراحل. وقد كتبه وعمره خمسة وعشرون عامًا.

ولم تشأ المقادير أن يشارك تشرشل فى معركة أم درمان للقضاء على امبراطورية الدراويش والثورة المهدية، لكنه استطاع تسجيل تفاصيل الحرب ومعاركها العديدة. وبالرغم من اشتراكه فى نهايات المعركة إلا أن وصف تشرشل للاستعدادات لهذه المعركة فاق وصف المعركة ذاتها حسب رأى المؤرخين.

الكتاب يقدم رؤية تشرشل لفترة صاخبة فى حياة وادى النيل وهى نهايات القرن التاسع عشر وهو لا يخفى أطماع بريطانيا الاستعمارية فى السيطرة على وادى النيل وأطماع الدول الأوروبية الأخرى وخاصة فرنسا فى محاولة تقاسم الكعكة مع بريطانيا وهو ما ظهر جليّاً فى حادثة فاشودة الشهيرة التى جرت تسويتها عام ١٨٩٩.

ولد تشرشل عام ١٨٧٤ وتعلم فى كلية ساند هيرست العسكرية وحارب فى السودان وانتخب ممثلاً لحزب المحافظين فى البرلمان وتولى العديد من الوظائف الوزارية طيلة النصف الأول للقرن العشرين توجها برئاسة الحكومة خلال الحرب العالمية الثانية وتوفى عام ١٩٦٥.

وقد قام بترجمة الكتاب الأستاذ عز الدين محمود حفيد القائد السودانى الراحل الأمير أرباب الذى أشار إليه تشرشل فى ثنايا الكتاب وصدر الكتاب ضمن سلسلة تاريخ المصريين التابعة للهيئة المصرية العامة للكتاب.

الشيوعيون المصريون

محمد سيد أحمد

ليس هذا تاريخا، ولا هو سرد للأحداث في تتابعها الزمني، وإنما هو وجهة نظر، تحتمل الصواب والخطأ، من منظور مشارك في الأحداث كان له موقعه وظروفه، في موضوع خلافي لا يمتّ إلى الماضي فقط.

كثيرون ـ بالذات في الغرب ـ اتهموا عبد الناصر بأنه انتهج سياسة حيال الشيوعية والاتحاد السوفيتي أفقدته بالتدريج استقلاليته ومصداقيته. وحتى لو سلمنا بأن هناك قوى أحاطت به وناهضت مثل هذا «الانزلاق»، فإن ما جرى من عمليات «تصحيحية» بعد رحيله لم يكن أمرا من المقرر حدوثه حتما. كان من الممكن أن يفشل أنور السادات في إزاحة ما عُرف بـ «مراكز القوى». إلى أين كانت ستتجه مصر لو كانت هذه «المراكز» قد انتصرت على السادات في مايو ١٩٧١؟

غير أن تجربة عبد الناصر مع اليسار الشيوعي في مصر تدحض هذا الافتراض دحضا كاملا.

كان عبد الناصر ضد الشيوعية. وكان الشيوعيون ضده. وكان الوضع ملتبسا عندما استولى عبد الناصر على السلطة في يوليو ١٩٥٢. كان الشيوعيون منقسمين إلى عدة منظمات. وانعكس الانقسام على حكمهم على عبد الناصر. كان منهم من اتهموا حركة الجيش بالفاشية، وقارنوها بالانقلابات العسكرية التي تكررت كثيرا في أمريكا اللاتينية. وكان منهم من ناصروا حركة الجيش منذ أول يوم، من منظور أناس كانوا على صلة مباشرة ببعض الضباط الأحرار. وكان لعبد الناصر شخصيا قبل الثورة، ولو من باب الاستطلاع، صلة بتنظيمات سرية عديدة ذات توجهات أيديولوجية مختلفة، منها تنظيم شيوعي، «الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني» («حدتو»)، وكان له فيه اسم حركي هو «موريس». ولكن تصدّي حركة الجيش في نهاية عام ١٩٥٢ لإضراب عمالي في كفر الدوار، وتنفيذ حكم الإعدام في عاملين شاركا في الإضراب هما «الخميسي» و«البقري»، حدث وحّد الشيوعيين في ترجيح كفة التفسيرات السلبية لحركة الضباط. واجتمعت كلمة المنظمات الشيوعية على تشخيصها بالفاشية. فاعتقل الشيوعيون بالجملة، على اختلاف تقييمهم للسلطة الجديدة.

كانت حركة الضباط الأحرار في بداياتها موضع عطف الولايات المتحدة. ورمز ظهور السفير الأمريكي «جيفرسون كافري» بجانب الملك فاروق وهو يصطحبه إلى يخت «المحروسة» لضمان عدم المساس به وهو يغادر لآخر مرة الإسكندرية، إلى حقيقة أن واشنطن لم تكن ضد الحركة وقت قيامها، بل تعاطفت معها بادئ الأمر. وربما نظر عبد الناصر إلى الولايات المتحدة الأمريكية بصفتها النموذج الجدير بأن يحتذى. ولكن تطلعه هذا لم يتحقق أبدا. وربما كان السبب الرئيسي في الفشل هو مناصرة الإدارة الأمريكية بشدة لإسرائيل في مختلف العهود.

وبدأ موقف الشيوعيين يتغير من حركة الجيش مع مشاركة عبد الناصر في قمة باندونج، وبالذات عقب العلاقة التي توثقت بينه وبين شو إين لاي هناك، وتدخل هذا الأخير لدى السوفييت ـ وقتذاك ـ لطلب مدّ مصر بالسلاح بعد أن رفضت أمريكا تلبية طلبات القيادة المصرية الجديدة في هذا الصدد. لقد نسب إلى تشرشل تدخله لدى الرئيس الأمريكي أيزنهاور لحثه على عدم تسليح الجيش المصري بدعوى أن هذه الأسلحة سوف يستخدمها «ناصر» ضد الجنود البريطانيين المرابطين بالقناة، والذين عملوا تحت إمرة أيزنهاور إبان الحرب العالمية الثانية. فكانت صفقة الأسلحة «التشيكية» (حقيقتها أسلحة سوفيتية). ثم تسلسلت خطوات بعد ذلك أخرجت مصر بشكل زاد وضوحا على مألوف سياساتها قبل الثورة، من أبرزها الاعتراف بالصين الشعبية، ورفض حلف بغداد، ثم انتظار خروج آخر جندي بريطاني من منطقة القناة بمقتضى «اتفاقية الجلاء» عام ١٩٥٤ لإصدار قرار بتأميم شركة القناة، ردا على رفض البنك الدولي تمويل مشروع السد العالي، استجابة لطلب أمريكا.

لقد أخذ موقف الشيوعيين من الثورة يتحوّل بالتدريج من المعارضة إلى التأييد. بل بلغ التأييد حد توحيد الحركة الشيوعية التي ظلت حتى ذاك الوقت منقسمة إلى منظمات متعددة. إذ كان من المستحيل أن تتجه هذه المنظمات إلى المطالبة بإقامة جبهة وطيدة الأركان مع عبد الناصر، الزعيم الوطني ـ «البرجوازي» ـ بينما ظلت هي عاجزة عن تحقيق الوحدة فيما بينها! وقد بلغ التأييد لعبد الناصر الذروة يوم إعلانه تأميم القناة. كان مصدق في إيران قد سبق وحاول تأميم شركة البترول الإيرانية، ولكنه فشل في النهاية. ذلك بينما نجح عبد الناصر في تأميم قناة السويس. بل وفي الصمود في وجه العدوان الثلاثي. كان ذلك انتصارا غير مسبوق في وجه الإمبريالية العالمية. وعندما أطلقت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل عدوانها الثلاثي ضد مصر، نهض الشيوعيون بدور مشهود لهم في حركة المقاومة الشعبية في بورسعيد.

لم تكن حركة الجيش وقت ظهورها على ساحة السياسة المصرية الحركة الوحيدة المتسمة ـ من حيث هويتها ـ بأوجه التباس، بل ربما اتسمت الحركة الشيوعية المصرية هي الأخرى بالسمة ذاتها. من مبررات ادعائي هذا، السؤال المحوري التالي: لماذا ظلت الحركة الشيوعية في مصر في جل مراحل تاريخها منقسمة إلى عدة منظمات (خلافا للحال في معظم الدول)، ولم تتحد منظماتها، في صورة «حزب شيوعي مصري» مندمج الكيان، سوى مرة واحدة، ولمدة ٩ أشهر فقط، عام ١٩٥٨، ثم انقسمت من جديد؟ كان التعثر في وحدة التنظيم مؤشرا عن خلل في الهوية ربما يقبل أكثر من تفسير. ولي في هذا الصدد تفسيري الخاص طرحته في مناسبات شتى خلال العقد الأخير، ولكن لم تحرص الأطراف التي يعنيها الأمر على مناقشتي بشكل جدّي في هذا المضمار.

والواقع أن المجتمع المصري كان يعج قبل قيام ثورة يوليو بحركات سرية أو شبه سرية متعددة، ذات سمات متنوعة تماما. وكما كانت هناك حركات داخل الجيش قبل استيلاء الضباط الأحرار على السلطة (منها حركات مناصرة لألمانيا، من منطلق أن «عدو عدوى صديقى»)، كانت هناك أيضا حركات داخل الجالية اليهودية في مصر قبل قيام دولة إسرائيل. وجاز لنا القول بأن هذه الجالية، بقدر ما تسيّست، لم تتجه أيديولوجيا فقط إلى الصهيونية، وإنما أيضا إلى الشيوعية.

لم يكن بغريب أن أبدى يهود كثيرون، مقيمون في مصر، تعاطفا مع الحركة الصهيونية وقتذاك. ولم تكن الصهيونية، كعقيدة، مجرّمة بعد. غير أن الجاذب للانتباه أن معظم مؤسسي المنظمات الشيوعية في مصر كانوا شخصيات يهودية، بعضهم عادى بحزم العقيدة الصهيونية. وهذه ظاهرة بحاجة إلى تفسير.

لقد اقتصرت الشيوعية في مصر طوال الثلاثينيات من القرن العشرين على أفراد معدودين، ولم يتحقق لها وجود في صورة حركة أطلقها مثقفون (أبرزهم يهود) إلا في بداية الأربعينيات، وبالذات عام ١٩٤٢، وقت وصول رومل إلى العلمين، وتهديد اليهود في مصر، وربما أيضا في فلسطين، بمصير أقرانهم في أوروبا، لو كان قد قدّر لروميل أن ينتصر في معركة العلمين. كان اليهود بالبداهة مناصرين للحلفاء ضد هتلر. غير أن الحركة الوطنية المصرية كانت ترى، وخاصة بعد حادث ٤ فبراير ١٩٤٢، حيث فرض المندوب السامي البريطاني على الملك فاروق تشكيل حكومة برئاسة النحاس باشا، أن «عدو عدوى» وارد أن يكون «صديقي». وخرجت المظاهرات ترحب بقدوم رومل.

إن تعرّض الجالية اليهودية لتهديد نال من صميم وجودها برر سعي بعض من تطوعوا لحماية كيانها إلى الترويج لأيديولوجية كفيلة بالنهوض بهذا الدور. وفي ١٩٤٢، سنة انتصار الاتحاد السوفيتي في معركة «ستالينجراد» المصيرية، كان واردا أن تزاحم الأيديولوجية الشيوعية الأيديولوجية الصهيونية في هذا الصدد عند الجاليات اليهودية، على الأقل في تلك اللحظة من التاريخ تحديدا، كتعبير عن الأيديولوجية الأكثر قدرة وقتذاك على حفظ هويتهم وتحقيق حاجتهم إلى ملاذ. غير أن هذا أوجد في مصر (وربما أيضا في غير مصر) وضعا شاذا. ذلك أن بروز حركة شيوعية في مصر يقرر مصائرها يهود، الكثير منهم ليسوا مصريين (بل متمصرون، وحتى أجانب) لم يكن بوسعها، بالبداهة، امتطاء المد الوطني الصاعد بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، واستثماره الاستثمار الأمثل.

وعندما أسّست إسرائيل في ١٩٤٨، راحت السلطات تضع في سلة واحدة، الشيوعيين المصريين المنتمين إلى منظمات شيوعية شملت قياداتها البارزة يهودا، واليهود المنتمين إلى منظمات صهيونية. إن كوادر المصريين الذين جُندوا للحركة الشيوعية في مناخ المد الوطني الذي أعقب الحرب العالمية الثانية، قد وجدوا أنفسهم معامَلين من قبل الدولة معاملة الصهاينة، واعتقلوا مثلهم. وقد حفزهم ذلك للتمرد بقوة ضد أوضاع أفسحت المجال لاتهامهم بموقف غير وطني متواطئ مع الصهيونية، بصرف النظر عن بطلان الاتهام، ذلك أنه لم يكن هناك مجال للتشكيك (على الأقل في ضوء تجربتي الشخصية في هذا الصدد) في صدق نيّات هؤلاء اليهود الذين التحقوا في مصر بمنظمات شيوعية، وناهضوا الصهيونية.

لقد فجرت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ الحركة الشيوعية المصرية من الداخل. وأسفرت الأزمة عن طلب العديد من كوادرها المصريين بضرورة «تمصير» الحركة، بمعنى إحلال قيادات مصرية خالصة محل القيادات اليهودية. ومؤكد أن هذا المطلب لم يكن منفصلا عن الاتهامات التي وجهت إلى الحركة بشأن تركيبها، وتولّي يهود مناصب قيادية فيها، بغض النظر عن صدق نيات هذه القيادات. فكانت مصر في حالة حرب مع إسرائيل. وكانت إسرائيل قد عرّفت نفسها بأنها الدولة ـ الملاذ لكل اليهود، أينما وجدوا. فكيف يمكن إفحام خصوم الشيوعية، وإقناع الجماهير باستقامة النضال الوطني (ناهيك عن النضال القومي) للشيوعيين المصريين ضد إسرائيل، بينما تضم قياداتهم عناصر يهودية، حتى مع التسليم بحسن نيات هؤلاء ومعاداتهم فعلا للصهيونية، وتحملهم في كفاحهم تضحيات جسيمة؟

بدت الحركة الشيوعية وكأنما أريد منها أن تحل مشكلة تعلقت بهوية الطائفة اليهودية في مصر، بينما أسّست إسرائيل للسبب ذاته، وبتعبير أدق، لحل مشكلة اليهود بوجه عام، وهذا تضمن بالتبعية اليهود المصريين، في

> **كان الوضع ملتبسًا عندما استولى عبد الناصر على السلطة في يوليو ١٩٥٢. كان الشيوعيون منقسمين إلى عدة منظمات. وانعكس الانقسام على حكمهم على عبد الناصر. كان منهم من اتهموا حركة الجيش بالفاشية، وقارنوها بالانقلابات العسكرية التي تكررت كثيرًا في أمريكا اللاتينية. وكان منهم من ناصروا حركة الجيش منذ أول يوم**

وثورة يوليو

ظرف كانت فيه إسرائيل فى حالة حرب مع مصر، ومع الحركة الوطنية المصرية. بل إن محاربة الجيش المصرى لإسرائيل قد نمّت وعيه القومى، فضلا عن وعيه الوطنى. أى الوعى بأن التصدى لإسرائيل، إنما يمثل «قضية وجود»، وليس فقط «قضية حدود». فكيف الجمع بين محاربة إسرائيل بصفتها قضية وجود وقضية هوية، ثم التواجد معا فى حركة يتبناها يهود فى مصر بوصفها تخدمهم هم أيضا فى وجودهم وهويتهم؟! وكان ذلك سر انفجار «حدتو» بمجرد اندلاع حرب فلسطين الأولى، بغض النظر عن المنعرجات التى اتخذتها الأزمة، وتفصيل ما وقع من صراعات بين الشيوعيين أنفسهم.

لم يعترف عبد الناصر أبدا بالحركة الشيوعية المصرية كحركة منظمة تحظى بوجود مستقل، تنظيميا وسياسيا. ولما بلغت الأزمة بينه وبين الشيوعيين المصريين ذروة فى أعقاب قيام حركة قومية فى العراق تحالفت مع الحزب الشيوعى العراقى فى أعقاب ثورة تموز عام ١٩٥٨، قبض عبد الناصر على الشيوعيين المصريين بالجملة، وعوملوا فى السجون والمعتقلات معاملة بالغة القسوة، واتهموا بـ «العمالة». وكان المقصود العمالة للسوفييت. ولم يطرح على أى نحو الالتباس الذى شاب الحركة الشيوعية المصرية نتيجة وجود عناصر يهودية فى قيادتها.

والحقيقة أنه لم تكن توجد دواع قط لاتهام الحركة الشيوعية المصرية بالعمالة. لم تكن الحركة الشيوعية المصرية ممولة أبدا طوال سنوات وجودها من الاتحاد السوفيتى، أو من أى مصدر خارجى غيره. أستطيع أن أشهد بذلك، استنادا إلى ظروف خاصة أحاطتنى علما بجوانب التمويل. وأقول: لم يكن ذلك موقفا مبدئيا، ولكن حدث بسبب عجز الحركة الشيوعية المصرية عن تحقيق وحدتها، ورفض الحركة الشيوعية العالمية تأييد فريق على حساب فريق آخر.

وكما انقسم المتسيّسون من الطائفة اليهودية فى مصر إلى صهاينة وشيوعيين، انقسمت البرجوازية الوطنية المصرية إلى تيارات متباينة ومتضاربة: إلى قوى برزت فى المجتمع المدنى، وقوى برزت فى صفوف القوات المسلحة؛ بل وأضيف: إلى قوى شديدة التباين فى المجتمع المدنى (تيار وطنى ليبرالى مثله الوفد أساسا؛ تيار دينى إسلامى مثله الإخوان المسلمون أساسا؛ ثم حركة استرشدت بالمذهب الماركسى وأنشأت الحركة الشيوعية المصرية، إلخ). ولا شك فى أن التيارات التى عمّت الساحات المدنية كانت لها امتدادات وتأثيرات فى صفوف القوات المسلحة. وإذا ركزنا على الحركة الشيوعية بالذات، فكانت هناك حركة صهيونية وحركة شيوعية داخل الطائفة اليهودية فى مصر؛ وكانت هناك حركة وطنية وحركة شيوعية على نطاق أوسع داخل إطار المجتمع المصرى ككل.

وفى هذه الظروف، أعلن فى مايو ١٩٤٨ تأسيس دولة إسرائيل، واندلعت حرب فلسطين الأولى. كيف أثّر هذا الحدث المفاجئ فى أوضاع مصر الداخلية، فى ضوء ما سبق سرده؟ لقد اعتُقل العديد من اليهود الصهاينة. وكان من شأنِ تأسيس إسرائيل هجرتهم بالجملة إلى خارج مصر، ليستقروا فى إسرائيل، أو فى أقطار أخرى. أما الذين اعتنقوا منهم الشيوعية، وكان منهم من تبنوا صراحة مواقف معادية للصهيونية، فربما آمنوا بأن ما جرى لم يكن يعنيهم ولا يمس هويتهم وموقعهم الفكرى والسلوكى فى شىء. ذلك أن الشيوعى أممى، ولا يرى نفسه من حيث المبدأ متأثرا بوضعه الدينى، أو القومى، أو العرقى، أو الجنسى، أو العنصرى (كان شحاتة هارون الذى توفى قبل شهور نموذجا لهذا اليهودى). وإن كان لا يملك إغفال البيئة المحيطة وتأثيراتها على كيانه إغفالا تاما. غير أن السلطات لم تكن تميز بين اليهود الشيوعيين واليهود الصهاينة. بل اعتقلت شيوعيين من غير اليهود، هم مصريون اجتذبتهم الحركة الشيوعية مع انتعاش الحركة الوطنية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية (عام ١٩٤٦ بالذات)، وأيضا بفضل انتصارات الاتحاد السوفيتى الحاسمة فى الحرب، وهو الدولة العظمى، الجديدة فى الساحة الدولية وقتذاك، المعادية للإمبريالية العالمية (وبالتالى للمحتل البريطانى)، والتى لم يعد من الممكن عزلها عن الحركة السياسية فى مصر.

ولكن إذا صح أن الشيوعيين اليهود فى مصر لم يتأثروا بنشأة إسرائيل (وهذا افتراض قد يحتاج إلى تدقيق)، فإن المصريين الذين جندهم هؤلاء اليهود للحركة الشيوعية لابد أن يكونوا قد تأثروا. إذ تساءلوا: هل من سبب يبرر اعتقالنا غير أن منظماتنا الشيوعية قد ضمّت كوادر يهودا نهضوا فيها بأدوار بارزة؟ صحيح أن الصورة وقتذاك لم تكن تخلو من لبس. فالاتحاد السوفيتى قد اعترف بإسرائيل بمجرد تأسيسها، تماما كما فعلت الولايات المتحدة، وإن كان لأسباب مختلفة. وربما راهن السوفييت - بمنظور أممى - على أن فرص إسرائيل فى أن تصبح بؤرة للقوى التقدمية فى المنطقة فاقت فرص أى من الدول العربية، لأن هذه الدول كانت فى أغلبها وقتذاك ما زالت أسيرة التخلف والإقطاع والاستعمار. ولم يكن العالم قد شهد بعد تجارب قادها ضباط جيش وتحولت إلى حركات «ماركسية لينينية».

على أى الأحوال، طرحت معضلة لم يعد من الممكن إغفالها، حول مدى «أهلية أن يقود يهودٌ الحركة الشيوعية المصرية». خاصة إذا صح أن هؤلاء اليهود قد جذبتهم إلى الشيوعية قضية تعلقت بهويتهم كيهود قبل أن يكون مبعث انجذابهم هو صراع الطبقة العاملة المصرية والانتماء إلى هذا الصراع انتماء عضويا. ولا شك فى أن تأسيس إسرائيل قد زاد من تعقيد المشكلة. ذلك أن إسرائيل قد أسست، على حد قول أنصارها، من أجل حل المشكلة اليهودية. فكيف الارتياح إلى استقامة هؤلاء اليهود وهم مطالبون بخوض النضال ضد دولة تعرُف نفسها بأنها ملاذ اليهود الأخير؟

لم تطرح المشكلة على هذا النحو وقتذاك. لم يكن مدركا أن هناك «مسألة يهودية» داخل الحركة الشيوعية المصرية ذات أثر بالغ فى تقرير ملامح هذه الحركة. لقد أرجعت حركة الجيش احتكاكها مع الشيوعيين، وعدم مسايرتهم للحركة الوطنية (حسب تصور الضباط الأحرار لها) إلى مسألة «عمالة» تجاه السوفييت، ولم ترجع التوتر بين الجانبين إلى «مشكلة يهودية». مشكلة لم يكن مصدرها مشكلة «عمالة» قط. ولم تكن أيضا «مشكلة صهيونية»، بل مشكلة هوية عائمة، تائهة. مشكلة انتساب إلى عقيدة - هى الشيوعية - دون توافر المقومات التى تجعل هذا الانتساب سلسا، «طبيعيا»، خاصة مع اختفاء ظروف عام ١٩٤٢ (ظروف وجود روِمل على أبواب الإسكندرية) التى بررت أصلا التوجه إلى الشيوعية.

لم يكن مصدر قوة الحركة الشيوعية هو اندماجها العضوى مع نضال الطبقة العاملة. وعلى نطاق أوسع، مع النضال الوطنى لمختلف الفئات الشعبية. أى مع الحركة الجماهيرية فى الشارع، المتجاوزة قدرة السلطات على استئناسها واستئصالها. وإنما تمثل الوجود الشيوعى فى المجتمع فى صورة «أفكار» جمعتها أدبيات الماركسية، كتابات ماركس وإنجلز ولينين وستالين. وقد أسهمت الحركة فى الترويج لهذه الأفكار حتى أصبحت بالتدريج مألوفة وشائعة فى الفكر السياسى الجارى التعاطى معه فى الشارع السياسى المصرى.

والحقيقة أيضا أن القيادات اليهودية قد تعاملت مع الماركسية وكأنما هى «حزمة أفكار وأدبيات»، مسجلة فى كتب، استوردتها من خارج المجتمع لتطعيم المجتمع بها، وليست «حالة حركية» منبثقة من الصراعات التى تفرزها حياة المجتمع بشكل طبيعى، فيستعان بالماركسية، بصفتها «النظرية الثورية»، لإكساب حركة المجتمع ملامح وغايات محددة. وهذا قد ترتب عليه أن حركة الضباط الأحرار، الأكثر تغلغلا فى واقع المجتمع المصرى، وذات العلاقات الوثيقة بالمواقع الأكثر فعالية فى تقرير أمور السياسة، فضلا عن القوة المستمدة من صفة الجيش ككيان منظم، قد أثبتت أنها أكثر كفاءة وأهلية للنهوض بالخطوة الحاسمة فى أية عملية ثورية، هى الاستيلاء على السلطة، والاستعانة بالدولة لإنجاز عمليات تغيير.

لقد تميز الانفجار الذى أصاب «حدتو» عام ١٩٤٨ بإفقاد الحركة هيكلها التنظيمى، وباختفاء الفواصل التنظيمية التى يقتضى الأمان احترامها فى أية حركة سرية، وبتحولها إلى تكتلات تدير حلقات نقاش عامة، يلتقى الكل فيها مع الكل، رغم أن الدولة كانت قد فرضت الأحكام العرفية، وكان الكادر الشيوعى ملاحَقًا من قبل أجهزة الدولة، والمعتقلات مفتوحة، وتستقبل الشيوعيين بالجملة.

لم يكن لـ «حدتو» خلال أزمتها عام اندلاع حرب فلسطين الأولى نشاط خارجى ملموس، بل كان الجهد كله منصبًا على داخل الحركة، وعلى مناقشات مدرسية دارت حول «الخطوط السياسية» التى كانت موضع صراع التكتلات المختلفة. مناقشات دارت حول مدى تطابق هذه «الخطوط» - أو تعارضها - مع التعاليم المعترف بها المسجلة فى أدبيات الماركسية، أو فى ممارسات الأحزاب الشيوعية المعتمدة. وليس هنا مجال تناول ما



جرى خلال تلك الأزمة تفصيلا. وربما لم تجر مناقشة صريحة وقتذاك حول مدى ملاءمة أن تقود عناصر يهودية الحركة. غير أن منظمة واحدة على الأقل هي «الحزب الشيوعي المصري» (وقد اشتهرت باسم «حزب الراية») قد نادت منذ تأسيسها عام ١٩٤٩ باستبعاد اليهود تماما من صفوفها. والحقيقة أن كونها قد استباحت لنفسها أن تُقْدِم على مثل هذه الخطوة التي عرّضتها للاتهام بتبنّي موقف عنصري، إنما هو تعبير عن مدى جدية المشكلة، واحتلالها موقعا مركزيا في الصراع الذي دار وقتذاك، رغم تحاشي التصدي لها على المكشوف.

إن حرب فلسطين الأولى قد هزت النظام الملكي في مصر هزة عنيفة. وأصبحت تعج الساحة السياسية المصرية، كما سبق وأشرنا، بقوى سياسية مختلفة، تعمل داخل إطار المجتمع المدني وفي القوات المسلحة على حد سواء. لقد شهد عام ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ عودة الوفد إلى الحكم، وتصاعد الحركة الوطنية حتى بلغت عام ١٩٥١ حدّ إلغاء معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا، واندلاع معركة رجال الشرطة المصريين مع جيش الاحتلال البريطاني في الإسماعيلية يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢، وقد أشعلت هذه المعركة مظاهرات عارمة، أفضت إلى حريق القاهرة، فإقالة حكومة الوفد وإعلان الأحكام العرفية. لقد كانت الظروف ناضجة لتجاوز النظام إلى نظام غيره، حتى في نظر بعض عواصم الغرب، التي باتت تساورها شكوك أن الإحجام عن التفكير في نظام بديل قد يترك المجال فسيحًا لتحول يستثمره الشيوعيون لغير صالح العالم الغربي.

غير أن الحركة الشيوعية لم تكن جاهزة لامتطاء المد الوطني البالغ حد الغليان. كانت الحركة ما زالت تعاني من الانقسامات المتخلفة عن أزمة ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩، فاستولى «الضباط الأحرار» على السلطة.

من أبرز سمات حركة الضباط الأحرار أنها حركة كانت معادية للاستعمار، وأيضا للشيوعية، عدو الاستعمار الأبرز. صحيح أن هؤلاء الضباط قد أقاموا نظاما راح يبتعد تدريجيا، خلال منعرجات شتى، من الاستعمار الغربي، ولكن هذا لم يكن يعني الاقتراب من الشيوعية. بل ربما بدا الخطر الشيوعي خطرًا زاد تفاقمًا كلما زادت «ثورة يوليو» ابتعادًا من الاستعمار وبدت بوضوح خارج المعسكر الغربي، وفاقدة ثقة العالم الغربي فيها. وهكذا بدت وكأنما هي بين خطرين شأنهما أن يتفاقما معا: خطر مؤامرات الاستعمار، ومحاولاته للإطاحة بها، كما باتت في الوقت ذاته تشعر بأن المعسكر الشيوعي العالمي متربص بها أيضًا، ويراها محكومًا عليها بالاقتراب منه، ومعرضة بالتالي لما قد يبذله من جهود لاحتوائها، وفي حالة تعذر ذلك ـ السعي إلى الإطاحة بها هو الآخر! ومن هنا، ظهور الشيوعيين المحليين، وكأنما يمثلون خطرا كامنا، نتيجة أن «حركة الثورة» قد تجد نفسها ـ شاءت أم أبت ـ أسيرة للشيوعية من الخارج والداخل معا. ومن هنا، الحاجة لابتكار وسيلة تبطل مفعول الحركة الشيوعية المحلية، وبالذات مع صعوبة الحد من مفعول الحركة الشيوعية العالمية، ذات الوجود (والإشعاع) المستقل عما يجرى في ساحات مصر الداخلية.

وقد تداعى من هذا المنطق الكثير. أولا، صعوبة توفير شرط الديموقراطية. فإن النظام بين نارين: المؤامرات التي يحيكها الاستعمار، والصراع المتزايد مع الشيوعيين كلما زاد النظام قربا منهم، وكلما تأكدت صفاته «الاشتراكية». كان لابد إذن من اشتراكية تفتقر إلى الديمقراطية، وليست اشتراكية تعززها الديمقراطية. وقد ترتب على افتقار «الثورة» إلى الديموقراطية أن حل مصطلح «الحرية الاجتماعية» محل «الحرية السياسية» وأصبحت عملية الإحلال هذه غطاء لطبقة جديدة منتفعة من غياب الديموقراطية، ما عرف في البلدان الاشتراكية بالـ «نوميتكلاتورا».

من هنا، استبدت بثورة يوليو، ومنذ عهد مبكر، فكرة «التنظيم السياسي الواحد». والجدير بالملاحظة أننا عندما نقصر التنظيم على تنظيم واحد، فإننا لا نقيم تنظيمًا حقيقيًا، وإنما نقيم من التنظيم ما يكفي للحيلولة دون بروز تنظيم آخر. إن التنظيم «الرسمي» يصبح مصيدة. يصبح تنظيمًا صوريًا، والقدر الضروري للحيلولة دون قيام تنظيم سياسي حقيقي.

وهكذا ظل النظام علويًا، بغير مسعى لتنظيم الجماهير، وإقامة حركة ذات جذور عضوية داخلها.



لقد حظرت قيادة الثورة كل أنواع التنظيم، طبعا باستثناء التنظيم الذي خلقته هي («جبهة التحرير»، فـ «الاتحاد القومي»، فـ«الاتحاد الاشتراكي»). وقد استجابت الأحزاب المحافظة لمطلب الحلّ دون مقاومة. كانت عملية خروجها من الساحة ميسرة. أما الأحزاب الجماهيرية، فلقد قاومت إلى حد أو آخر. صحيح أن الإخوان المسلمين قاوموا. صحيح أن الوفد قاوم. غير أن الشيوعيين هم الذين ذهبوا في مقاومتهم إلى الحد الأبعد. لقد حافظوا على تنظيماتهم، بغض النظر عن مدى جماهيريتها، من منطلق أن هذا قضية مبدأ. وكان مطلب «الثورة» الرسمي، ابتداء من نهاية الخمسينيات أن يحل الشيوعيون الحزب الشيوعي، وأن ينضم أعضاؤه كأفراد «للاتحاد القومي». غير أن الشيوعيين رفضوا. فأعيد اعتقالهم بالجملة، ابتداء من أول يناير ١٩٥٩، وظلوا معتقلين لأجل غير مسمى، بغض النظر عن الأحكام التي صدرت في حقهم، حتى سلمت الأطراف المعنية بضرورة معالجة هذه المشكلة على نحو آخر.

وبمناسبة هذه التركيبة للنظام الحزبي، أثيرت إشكالية أخرى. إشكالية «الجبهة». كان النظام الحزبي الناصري يقوم على المركزية. على قاعدة الشمولية. لم يكن يقبل بفكرة الجبهة. بينما كان الشيوعيون يطالبون بالجبهة. والجبهة تعني تحالفًا يجمع عددًا من التنظيمات المتميزة، المستقلة، حول برنامج مشترك، وتحرك مشترك. إن صيغة الجبهة كانت تبدو لعبد الناصر وكأنما تعني تقليص سلطته. وكلما زاد النظام توجها إلى اليسار، برزت حاجة متزايدة لدى قائد المسيرة إلى تأكيد المركزية، لا الديموقراطية. وهذا قد ترجم إلى شعار آخر: إن المطروح هو بلوغ، «وحدة شاملة» تحت قيادة قطب واحد، لا «وحدة في صورة جبهة»، تضم أكثر من قيادة، وتطرح كضرورة تعايش هذه القيادات في نظام ينطوي على قدر أو آخر من الديموقراطية.

ثم ما طرح بشأن فكرة «الجبهة» في الداخل، عُمِّم لبلورة إشكالية ثالثة تمثلت في هل تكون الوحدة «شاملة» أم «فيدرالية» بين القوى «التقدمية» المختلفة العاملة على الصعيد الإقليمي. وقد تحمّل الشيوعيون المصريون آثار مواجهة حادة نشبت بين عبد الناصر والحزب الشيوعي السوري في هذا الصدد، عقب الوحدة بين مصر وسوريا في فبراير عام ١٩٥٨، لقد نشب خلاف بين عبد الناصر من جانب، والشيوعيين العرب، ومنهم الشيوعيون المصريون، من الجانب الآخر. لقد نادى عبد الناصر بالوحدة «الكلية»، «الشاملة»، بينما نادى الشيوعيون بالوحدة «الفيدرالية». والواقع أننا كنا بصدد صورة أخرى ـ إقليمية ـ للإشكالية التي طرحت على صعيد الوضع الداخلي المصري، المتمثلة في شعار عبد الناصر عن «الوحدة الشاملة» (المفترضة حل التنظيمات الأخرى، بما فيها التنظيم الشيوعي) من جانب، وفكرة «الجبهة» (مع عدم حل التنظيمات الأخرى) كما طرحها الشيوعيون من الجانب الآخر. لقد تمسك عبد الناصر بالنظام المركزي، الشمولي، بينما تمسك الشيوعيون، في الحالتين، بفكرة «المركزية الديمقراطية»، المنصوص عليها في أدبيات اللينينية بصفتها الأساس الإجرائي، التنظيمي، الذي ينبغي أن يحكم العمل السياسي، والقائم على فكرة تعدد التيارات الفكرية في داخل تنظيم جبهوي شامل. قد يقال إن التعددية التي نادى بها الشيوعيون في ظل الأنظمة الجبهوية ظلت محدودة وقاصرة. ولكن كان خلاف الشيوعيين المصريين مع عبد الناصر حول وجود تعددية أصلا.

لماذا ظلت الحركة الشيوعية في مصر
في جل مراحل تاريخها منقسمة إلى عدة منظمات
(خلافًا للحال في معظم الدول)، ولم تتحد
منظماتها، في صورة «حزب شيوعي مصري»
مندمج الكيان، سوى مرة واحدة، ولمدة ٩ أشهر
فقط، عام ١٩٥٨، ثم انقسمت من جديد؟

أما فيما كان يتعلق بجانب «المضمون»، فكانت فكرة التنظيم المركزي (اللا ـ ديمقراطي) هي فكرة افترضت عدم التبعية لأي قطب خارجي ـ تماما كما كان ينبغي مقاومة التبعية لأي قطب بديل داخلي، قائم أو محتمل. ومن هنا جاءت إشكالية رابعة هي فكرة «عدم الانحياز»، أي رفض الانتماء إلى معسكر الاستعمار من جانب، وإلى معسكر الشيوعية من الجانب الآخر. واتسعت العملية لتسفر عن إشكالية خامسة، هي أن عدم الانحياز للاستعمار والشيوعية إنما قد ترتب عليه امتداد المعارضة على الصعيد القومي لأحزاب ذات أيديولوجية مماثلة لأيديولوجية عبد الناصر، مثل حزبي «البعث» و«القوميين العرب».

والحقيقة أن فكرة عدم الانحياز إنما كانت تنطوي على أوجه التباس كثيرة. لقد أشار خروتشوف إلى وجه منها. فلقد اعتبر ممارسة عبد الناصر لسياسة عدم الانحياز على أنها خطوة إيجابية، تقدمية، ذلك أن عبد الناصر انتقل من موقع التبعية للاستعمار إلى موقع التحرر من الاستعمار، وإن ظل ملتبسا فيما تعلق بعلاقته بالشيوعية، إذ اقترب من الاتحاد السوفيتي على الصعيد الدولي، ولكنه ظل يناهض الشيوعيين في الداخل وعلى الصعيد العربي. أما عن حكم خروتشوف بشأن تيتو، فقد اعتبر تبني هذا الأخير لعدم الانحياز خطوة سلبية، ارتدادية، ذلك أن تيتو قد انتقل من موقع الانحياز للمعسكر الشيوعي إلى موقع عدم الانحياز بين المعسكرين. ومعنى ذلك الابتعاد عن الشيوعية بدلا من الاقتراب منها.

إن خروتشوف، خلافا لستالين، عامل من هو ليس شيوعيًا على انه ليس بالضرورة في معسكر الإمبريالية العالمية. كان ستالين ينطلق من أن من ليس مع الشيوعية، فإنه بالضرورة في التحليل الأخير مع الإمبريالية. أما خروتشوف، فقد انطلق من أن من ليس مع الإمبريالية، فإنه من الممكن أن يصبح مع الشيوعية، بمعنى أن الشيوعية وحركات التحرر الوطني في العالم الثالث كفيلة بأن تتقارب وأن تتلاشى الفروق بينهما في ظل موازين القوى الدولية الجديدة التي سادت وقتذاك بين المعسكرين العالميين.

أما الشيوعيون المصريون، فقد كان موقفهم من عدم الانحياز وثيق الارتباط بمواقفهم من عبد الناصر التي اتجهت للتباين إلى ثلاث مدارس متميزة، برزت بالذات في المراحل التي أبعِدوا فيها عن النشاط الجماهيري ـ مراحل حبسهم في السجون والمعتقلات، وهي المراحل التي انفصل فيها التنظير عن ممارسة السياسة في الشارع، واختبار ما يفرزه الفكر من تحليلات وتوجهات. فكانت هناك المدرسة القائلة بأن نظام عبد الناصر كان تعبيرا عن «رأسمالية الدولة الاحتكارية» أي أن عبد الناصر لم يكن غير منحاز، وإنما كان ينتمي إلى أقصى اليمين (بينما كانت هذه المدرسة تنتمي هي إلى أقصى اليسار). وكانت هناك مدرسة قائلة بأن نظام عبد الناصر إنما تقوده «مجموعة اشتراكية على رأس السلطة». وقد شكلت هذه المدرسة، على نقيض المدرسة السابقة، أقصى يمين الحركة. وكانت هناك مدرسة عارضت التطرف، يمينا ويسارا، وقالت إن عبد الناصر، بانتهاجه سياسة عدم الانحياز، عبر عن اتجاه غالب في البرجوازية الوطنية المصرية، بما تنطوي عليه مواقفها من أوجه تضارب والتباس.

غير أن تجارب معينة، وربما بالذات تجربة كاسترو في كوبا، قد شجعت القيادة

السوفيتية، وبالذات خروتشوف، على ابتداع نظرية جديدة، ذهبت إلى أبعد من مجرد اعتبار بعض القيادات الوطنية فى العالم الثالث أصحاب موقف سياسى غير منحاز. لقد أثبت كاسترو أن قائدا وطنيا كفيل بالتحول إلى قائد اشتراكى، بل إلى قائد ماركسى لينينى. وخرج المنظر السوفيتى «أوليانوفسكى»، المقرب إلى خروتشوف، بنظرية «الطريق غير الرأسمالى إلى الاشتراكية» التى استخلصت دروس تجربة كوبا وغيرها من التجارب فى أفريقيا وآسيا، وحددت الشروط التى يتعين توافرها لتحقيق هذا التحول.

وقد رؤى فى عبد الناصر النموذج الأمثل فى هذا الصدد. فربما كان قاسيا مع الشيوعيين المحليين. ولكنه كان أيضا بالغ القسوة والجرأة مع الإمبريالية العالمية. فكانت هناك تجربة تأميم القناة، ونجاحه فى التغلب على كل الصعاب التى وقفت فى وجه إتمام التأميم فعلا. وكان هناك بناء السد العالى، استنادا إلى تعاون مع الاتحاد السوفيتى. وربما كان الدرس الأهم الذى رأى خروتشوف ضرورة استخلاصه من التجربة المصرية هو ضرورة العمل من أجل إسقاط أى مبرر لاستمرار وجود نفور بين عبد الناصر والشيوعيين المصريين، ولتشكك عبد الناصر فى نواياهم حيال السلطة، وفى ولائهم لمن، وضرورة أن يذهبوا إلى حد حل الحزب الشيوعى المستقل، لو كان الحل كفيلا بضمان كسبهم ثقة عبد الناصر وتبوئهم وظائف مهمة فى الدولة والمجتمع.

ولا أعلم تفاصيل «الصفقة» التى عقدت بين الأطراف المعنية فى هذا الصدد. ما أعلمه أن جميع الشيوعيين قد أفرج عنهم من السجون والمعتقلات، ودونما نظر إلى الأحكام التى صدرت فى حقهم، قبيل وصول خروتشوف بالباخرة إلى الإسكندرية لافتتاح السد العالى فى أغسطس ١٩٦٤، وأعلم أن الخلافات فى الرأى التى أفضت إلى انقسام الشيوعيين فى السجن إلى منظمتين رئيسيتين لم تكن سببا فى خلاف بين المنظمتين بشأن ضرورة حل الحزب، وقد أقدمتا على هذه الخطوة فى وقت واحد تقريبًا. لقد تمت هذه الخطوة بعد خروج الشيوعيين جميعًا من السجن، مما أسقط أية شبهة بأن الحل قد تم نتيجة ضغط. ثم أعلن أن أغلب القيادات الشيوعية قد ضُمت إلى «التنظيم الطليعى»، وهو التنظيم السرى الذى أنشأه عبد الناصر فى قلب الاتحاد الاشتراكى. وهذا كله ينمُّ عن أن حل الحزب قد أنجز نتيجة اتفاق جرى بين قيادة الجانبين السوفيتى والمصرى على أعلى مستوى.

والجدير بالملاحظة أن موقف النظام الناصرى من الشيوعيين المصريين ظل عدائيا مادام للشيوعيين تنظيمهم الشيوعى المستقل. كان هناك من قال لى بدهشة بالغة ذات يوم: «كيف أيدتموه بعد أن عوملتم هذه المعاملة المهينة فى السجون؟ أليست لديكم كرامة؟» قلت وقتذاك: «من منطلق التسليم بضرورة الاعتراف بالقيادة التى تثبت أنها الأكثر قدرة على مواكبة مقتضيات التاريخ»! والحقيقة أن سنوات كثيرة مضت قبل أن أدرك أنه كان من حقى أن تحترم آدميتى وإنسانيتى، حتى لو كنت مخطئًا فى رؤيتى للتاريخ.

وأذكر ذات مرة أيضا أننى سألت على صبرى بعد خروجه هو من السجن، وقبل وفاته بفترة وجيزة: «لماذا عاملتمونا بهذه القسوة فى السجون؟ كنا نؤيدكم». وكان رده: «ليس صحيحًا أنكم كنتم تؤيدوننا. ذلك أنه عندما اعتقلنا السادات فى مايو ١٩٧١، عين اثنين منكم ليصبحا وزيرين. لقد قبلتم أن تكونوا وزراء فى وقت اتهمنا نحن فيه بالخيانة. معنى ذلك أن العداء كان متبادلاً، ولم يكن من جانب واحد»! طبعا جعلتنى هذه الملاحظة التى تفوه بها على صبرى أفكر كثيرًا. فرغم ما بذل من مساع للتقارب، ظل الانطلاق من مواقع متعارضة عقبة فى وجه التصالح، وحال دون تجاوزه حدًا معينًا.

ومع ذلك، أقول: إن هذا هو الذى يدعونى إلى الجزم بأن حل الحزب كان يقتضى اتفاقًا كان خروتشوف شخصيًا طرفًا فيه. كان حل الحزب منطلقًا يتمشى مع فكرة توسيع دائرة الشيوعية، كى تضم حركات التحرر الوطنى. كان خروتشوف يؤمن بأن موازين القوى الدولية بصدد أن تتحول من هيمنة الاستعمار عالميًا إلى أن تكتشف الشيوعية طريقها إلى هيمنتها هى ولو بالتدريج. ولذلك، فلا ينبغى تخويف القوى الوطنية التى تحمل فى طياتها إمكانية التحول إلى الماركسية اللينينية، ولو فى الأمد الطويل. هكذا حدث مع كوبا. حدث مع كاسترو الذى تحول من قائد وطنى إلى ماركسى - لينينى. وكان الأمل معقودًا على أن يحدث شىء مماثل مع عبد الناصر كذلك.



صحيح أن عبد الناصر كان مناهضًا قويًا للشيوعية فى الداخل. ولكن عبد الناصر كان قائدًا لا يقل عن ذلك جرأة فيما تعلق بالمواجهة مع الاستعمار والإمبريالية. كان تأميم القناة، والتعرض لهذا التحدى، والانتصار حيثما فشل غيره من قبل، إنما دعا خروتشوف إلى أن يرى فى عبد الناصر مرشحًا بارزًا لهذا التحول، بغض النظر عن عدائه للشيوعية.

وبالفعل تحسنت العلاقات بين النظام الناصرى والماركسيين المصريين بشكل ملموس بعد حل الحزب. وأصبحت مجلة «الطليعة» لسان حال هذه المصالحة. وأصبح الشيوعيون يستعان بهم فى الإعلام، وفى الاتصالات الدولية، وفى الصحافة والإذاعة، وفى مواقع كثيرة لا يملكون فيها القرار. لقد تمسك عبد الناصر دائمًا بفكرة مركزية القرار، وقد تمثلت هذه الفكرة فى عبارته: «الماركسية عنصر إثراء وتصحيح»، «تصحيح» بمعنى أنه ينطوى على عنصر «تنبيه» لأخطاء يتعين تجنبها، و«إثراء» بمعنى أنه يثرى الحوار «القومى» بإكسابه بعدًا «أمميًا». والحقيقة أن عبارة عبد الناصر كانت تحمل أيضًا - ضمنيًا - معنى أن الماركسية لا ينبغى أن تكون، فى أى الأحوال، «عنصر قيادة». أى ينبغى أن تكون «أفكارًا» لتصحيح المسار وترشيده فقط، وألا تتجسد هذه الأفكار فى صورة «تنظيم مستقل» يوجه الصراع الطبقى، ويحوله إلى قوة فعالة تزاحم قيادة الدولة فى تقرير مصير المجتمع.

ومع ذلك، ينبغى لنا أن نقول إن قاعدة «الثورة» الحقيقية ظلت المؤسسة العسكرية التى بقيت هى المهيمنة. غير أن مؤسسة الضباط، مع تعاظم شأن مقامها فى المجتمع، نالها الضمور كجيش محترف. وحدث ما حدث فى حرب ١٩٦٧. وأصبح عبد الناصر بعد ذلك مطالبًا بإزالة آثار العدوان، قبل الانشغال بأن يكون نموذجًا لنوعية جديدة من القيادة التقدمية فى البلدان النامية. وظهر شيوعيون جدد، انتموا إلى جيل آخر من اليساريين الشباب. وبدا الجيل السابق وكأنما قد سلم لعبد الناصر زمام القيادة، وتخلى عن رسالته التاريخية. وأصبحنا بصدد معطيات جديدة، مختلفة. ولم تعد هناك قضية مواجهة بين الشيوعية والثورة، وإنما أصبحنا بصدد ثورة لم تعد ثورة، وشيوعية لم تعد شيوعية.

أما بعد..

فقد اتهم الشيوعيون من جيل الأربعينيات والخمسينيات بالرضوخ لعبد الناصر قبيل هزيمة ١٩٦٧. وبدا هذا الجيل وكأنما كان له دور أكثر بروزًا فى طمس شخصية الشيوعية المصرية من دوره فى إعلاء شأن هذه الشخصية وتقرير ملامح باقية لها. لقد وظفته قياداته اليهودية فى مرحلة أولى، ثم وظفته حركة الجيش فى مرحلة تالية. وهكذا فاته القطار، رغم تفانى الكثير من كوادره فى تضحيات، بلغت حد الاستشهاد فى أكثر من مناسبة.

أقول: ربما قام جيل آخر، فى نهاية الستينيات وبداية السبعينيات، بمحاولة إعادة رفع الراية. فإن حالة ما بعد هزيمة ٦٧ كانت حالة «ثورية» واجبة الاستثمار، لا النظر إليها على أنها حالة شاذة واجبة الاحتواء فى أسرع وقت ممكن.. وقد تعددت الأسباب لمناهضة سياسات السادات، لا فى معركة «عبور القناة» عام ١٩٧٣، وقد التفت حوله الأمة بحذافيرها وقتذاك، وإنما عندما ذهب بالعبور - فى نوفمبر ١٩٧٧ - إلى حد الهبوط فى مطار بن جوريون! فلقد قامت، فى مواجهة زيارة القدس، معارضة من منطلق وطنى، وأخرى من منطلق قومى، وأخرى من منطلق دينى.. وأخرى من منطلق شيوعى. وقد التقت وقتذاك رموز لهذه المنطلقات فى لقاءات «جبهوية» شتى، وأيضًا فى صورة حزب هو «التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى» المعارض. لقد واصل التجمع التقليد الذى أرسته مجلة «الطليعة» فى عهد عبد الناصر، وهو السعى إلى تجميع القوى التقدمية تحت راية الماركسية لا راية الشيوعية، استثمارًا للقدرات «التصحيحية» و«الإثرائية» للفكر الماركسى، بعيدًا عن تنظيم يكون مقصورًا على الشيوعيين وحدهم. غير أن المكوِّن الشيوعى فى هذا التجمع الأوسع حرص على إبراز نقاط الالتقاء مع القوى الأخرى المناهضة لسياسات السادات. وبالتالى لم يسهم كثيرًا فى إبراز ما هو متميز للشيوعيين فى جبهة قوى المعارضة، وبالذات البعد الأممى كأحد مرتكزات أى فكر شيوعى.

غير أن مرجعية الشيوعية قد أصابتها ضربة قاصمة بانهيار الاتحاد السوفيتى. كانت «بيريسترويكا» جورباتشوف قد كشفت عن ثغرات كثيرة فى البناء الشيوعى العالمى، وعن الحاجة إلى مواكبة متطلبات العصر من خلال مراجعة شاملة لوضع بلغ - مع زوال الدولة السوفيتية - حد محو النظام العالمى الثنائى القطبية من الوجود. وكان من أثر هذا التحول الأساسى أن فقدت الماركسية موقعها المركزى كفكر خليق بالتأثير فى المدارس الفكرية الأخرى، كفكر لا مناص من التسليم بمرجعيته.

ومع ذلك، فإن للتجربة الشيوعية فى مصر (التى تعرضنا لها) أثرًا باقيًا إلى اليوم. أثرًا قد لا يكون مدركًا تمام الإدراك حتى فى وعى الذين ما زال يستبدّ بهم هذا التأثير. فإن البعض ممن كرسوا حياتهم للتجربة قد يتجه حنينهم - وأكاد أقول ولاؤهم - إلى المرحلة الأولى فى تاريخ الحركة الشيوعية، المرحلة التى كان للقيادات اليهودية فيها دور بارز، ليكون لهم تفهم لمتطلبات عملية السلام مع إسرائيل قد لا يدركها على نحو مماثل من يظل حنينه للمرحلة الثانية، مرحلة تأثر الحركة الشيوعية المصرية بالفكر القومى العربى. لقد أظهرت الخلافات التى أبرزها ما عرف بعملية «كوبنهاجن» أن للماركسيين المصريين مرجعيتين على طرفى نقيض: مرجعية أكثر تأثرًا بالفكر الذى ساد فيما وصفناه بمرحلة القيادات «اليهودية» فى تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، وأنصار هذا الاتجاه يحبذون حوارات مفتوحة مع اليسار الإسرائيلى. ومرجعية ربما عكست تجربة الذين أحسوا بأن وجود قيادات يهودية على رأس المنظمات الشيوعية فى مرحلة تأسيسها قد أجهض التجربة برمتها، الأمر الذى يستدعى حيطة وحذرًا إزاء اليسار الإسرائيلى عمومًا، حتى لا تصبح عملية السلام مع إسرائيل سببًا مستجداً للوقوع فى «فخ الشيوعية اليهودية».

هذه المشكلة التى لم تختف رغم اختفاء المنظمات التى ولدت هذا الخلاف منذ أكثر من ثلث قرن إنما تؤذن بأن الخلاف ستكون له امتدادات ومضاعفات فى المستقبل. ذلك أنها مشكلة ستلازم محاولات التوصل إلى تسوية فى الشرق الأوسط، حتى بعد رحيل جيل الشيوعيين المصريين الذين خاضوا التجربة. ■

> استبدت بثورة يوليو، ومنذ عهد مبكر، فكرة «التنظيم السياسى الواحد». والجدير بالملاحظة أننا عندما نقصر التنظيم على تنظيم واحد، فإننا لا نقيم تنظيمًا حقيقيًا، وإنما نقيم من التنظيم ما يكفى للحيلولة دون بروز تنظيم آخر

الرحالة العرب

كلمة أوروبا لم يعرفها العرب المسيحيون
أو المسلمون قديما لكن كان هناك فضول بشأن الروم
وهو الاسم الذى ذكره القرآن الكريم إشارة إلى البيزنطيين وغيرهم من الأوروبيين
وقد ظهر مفهوم أوروبا عند العرب منذ الغزو الصليبى
حيث أصبح هناك صراع ومعاملات وتجارة متبادلة

«سافر تعرف الناس»
مجدوب (١٥٠٣-١٥٦٥) [رباعيات مجدوب، تحقيق ج سيل ميلى (باريس ١٩٦٦) ص٤١]

«قال تعالى لموسى عليه السلام، اتخذ نعلين من حديد وعصا من حديد ثم سح فى الأرض حتى تنكسر العصا وتخترق النعلان»
محمد بن السراج (١٦٣٠) أنس السارى والسارب، تحقيق محمد الفاسى (فاس ١٩٦٨) ص٧

دأب المؤرخون الغربيون ونقاد الأدب على النظر إلى تاريخ الرحلات والاستكشافات الحديثة باعتباره مقصورًا على المسيحيين الأوروبيين ومظهرًا من مظاهر حداثتهم وتفوقهم وتقدمهم. فكان الرحالة الإنجليز فى الإمبراطورية العثمانية والإيطاليون فى فلسطين والألمان فى مصر والبرتغاليون فى شبه الجزيرة العربية والفرنسيون فى المغرب يمثلون فى نظر هؤلاء النقاد بشائر القوى الفكرية والاقتصادية التى مهدت الطريق لعصر النهضة ولصعود القوة الأوروبية الغربية وسيادتها.

فى تلك الأثناء، كان هناك إغفال تام لرحلات العرب المسلمين إلى الحد الذى يذكرنا بملاحظة أبداها أحد الهولنديين للمبعوث المغربى أحمد بن قاسم فى عام ١٦١١: «تعجبنا منك تحفظ الألسن وتقرأ الكتب، وسرت فى المدن وأقطار الدنيا ومع هذا تكون مسلمًا!» بالنسبة لهذا المتحدث الذى ينتمى لعصر النهضة ويجهل تراث العرب المسلمين فى الجغرافيا وعلم الخرائط يبدو الرحالة المسلم خروجًا على المألوف.

ومازالت مثل هذه الآراء سائدة فى الدراسات الحديثة. فعلى سبيل المثال فى «رؤية العالم لأوروبا ورؤية أوروبا للعالم»، وهذا هو العنوان الفرعى لكتاب أنطونى باجدن (مواجهة الآخر ٢٠٠٠)، لا يوجد مدخل واحد يخص «رؤية» أى من حضارات الإسلام، سواء فى حوض البحر المتوسط أو وسط آسيا أو شبه القارة الهندية، وكان الإسلام الذى تفاعلت معه أوروبا فى صورته العربية والعثمانية منذ الحملات الصليبية لم يوجد على الإطلاق. قبل ذلك زعم برنارد لويس فى كتابه الإسلام والغرب (١٩٩٣) أن العرب أبدوا نفس الإهمال (إزاء أوروبا) كما كان الحال فى العصور الوسطى، وفى كتابه «اكتشاف المسلمين لأوروبا» (١٩٨٢) اتهم لويس المسلمين بانعدام «فضولهم» تجاه الأوروبيين. وهو ينكر أفضال المسلمين فى عصر النهضة إنكارًا تامًا حتى أنه يرى انفتاح الإمبراطورية العثمانية على المؤسسات الغربية فى القرن التاسع عشر باعتباره اكتشافًا لا يقل عن اكتشاف كولومبس لأمريكا.

لكن العثمانيين كان لهم تاريخ فى الرحلات وعلم الخرائط، وكثير من المؤلفين العرب وجدوا أنفسهم أثناء دراستهم لتاريخهم يقرأون عن العديد من الشعوب الأوروبية التى احتك بها الفاتحون العثمانيون. فقد كتب محمد بن أبى السرور (البكرى الوارثى، المولود عام ١٦٧٦) عن تاريخ الروم والبيزنطيين حتى ظهور الإسلام، وأدرك على نحو صائب أنه بعد مجيء الإسلام أصبح التاريخ يُصنع فى العالم الإسلامى وليس العالم المسيحى. أما بقية رسالته فقد ركزت على الحكام العثمانيين وفتوحاتهم. وخلال دراسته للعرب الأقدمين ثم للإمبراطورية العثمانية درس الإمبراطوريات المسيحية والأوروبية التى سبقتهم. فى نفس الوقت قام التونسى، حسين خوجة (المتوفى عام ١٧٣٢) بترجمة المصادر التركية والفارسية إلى العربية كما امتدح فى تصدير كتابه كتاب بشاير أهل الإيمان فى فتوحات العثمان الذى انتهى من كتابته حوالى عام ١٧٢٦ السلاطين العثمانيين وغزواتهم فى أوروبا ومواجهاتهم مع الشعوب الأوروبية وجيوشها وثقافاتها وسعى خوجة إلى جمع المعلومات عن العالم الذى استقر فيه العثمانيون والشعوب التى واجهوها أو هزموها.

من الواضح أن أوروبا لم تكن «اكتشافًا» مفاجئًا للعرب. فالمعلومات التى قدمها المؤلفون من العرب وغيرهم عن بقاع العالم المسيحى وشعوبه كانت متوافرة وقابلة للانتشار اعتمادًا على الترجمة والبحث والرحلات. ومما لاشك فيه أن كثيرًا من هذه المعلومات عرف طريقه إلى العالم الناطق بالعربية فى شمال أفريقيا وبلاد الشام من خلال عالم الرحلات. فقد قام الرحالة والتجار والمبعوثون والسفراء ورجال الدين بزيارات متكررة للندن وروما وقادس ومالطا ومدريد وموسكو. ففى تسعينيات القرن السادس عشر كتب أبو فارس القشتالى، كاتب مولاى المنصور، إلى والى الجزائر يشكره على مساعدة المبعوثين الكثيرين الذين كانوا يسافرون إلى البندقية «خلال موسم الشتاء عندما تجعل أمواج البحر الطرق خطرة». وتبرز السيرة الذاتية لأحمد بن غانم مدى أسفار المؤلف والمعلومات التى جمعها عن التكنولوجيا الأسبانية و(الأوروبية):

(بعد طردنا من غرناطة) سكنا بمدينة إشبيلية، أصبحت مولعًا بالسفر فى البحر المحيط فسافرت فيه مرارًا، ثم سافرت فى السفن الكبار المسماة بالقيلونية، بالأعجمية، التى تاتى بالفضة من الهند الغربية البعيدة؛ فكانت تمشى عمارةً كما هى من عاداتهم، وفيها جيش ورجال عارفون بآلات الحرب البارودية؛ وكانوا يجتمعون مع أكابر القوم للكلام فى تلك الصناعة وتارة يأتون بالكتب المؤلفة فى ذلك الفن وهى كثيرة، لأن العارفين بالعلم المباشرين للعمل وغيرهما لما رأوا أن ملوكهم يعظمون أهل ذلك الفن ومن يؤلف فيه اعتنوا به.

وكنت أجالسهم وأحفظ ما يتفقون عليه وأشتغل بيدى فى المدافع، وجميعهم لا يظنون أننى أندلسى: وفى الزمن الذى أمر فيه سلطان النصارى بإخراج جميع الأندلس (كذا) من بلاده، كنت مسجونًا من أجل ما وقع لى مع بعض النصارى على أمور راجعة إلى دعوى النفس بالشجاعة، وكان لى من أكابرهم من يعتنى بى ويصاحبنى، حتى خلصنى الله من السجن: فأردت الخروج من تلك البلاد إلى بلاد المسلمين مع جملة الأندلس (كذا) ومنعونى من ذلك، فعملت بينة باننى من الأندلس لأخرج معهم، ولم ينفعنى شيء من ذلك؛ ثم أنفقت دراهم فى الرشاوى وخرجت من بينهم وجئت إلى مدينة تونس ـ حرسها الله ـ ...... والأمير يوسف داى أمرنى بالقعود فى حصن حلق الوادى، ونحن من أهل الجيش فى المراتب؛ وفيها كملت معرفة آلات المدافع بالاشتغال بيدى فيها وبالقراءة فى كتب الفن؛ ولما رأيت الطائفة المسماة بالمدافعين المرتبين لا معرفة لهم بالعمل وأنهم لا يعمرون ولا يرمون بما يقتضيه العمل، عزمت على تصنيف هذا الكتاب لأن كل مدفع له قيمة مال (وتلقى) تعبًا فى إيجاده، ثم يوكل على تسخيره والرمى به من يكسره ويفنيه.

وكانت النتيجة كتاب العز والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع، الذى كتبه بالإسبانية وقام بترجمته أحمد بن قاسم بعد ذلك إلى العربية.

وخلال عامى ١٦١١-١٦١٢ سافر أحمد بن قاسم إلى فرنسا وهولندا ووقع فى غرام امرأة فرنسية وجلس إلى موائد الأمراء والعلماء، ونادم النبلاء، وشارك فى المناظرات والمناقشات، وأجرى مفاوضات حساسة بشان إمكانية إقامة تحالف هولندى مغربى ضد أسبانيا. وقد روى رحلته هذه فى كتاب (مفقود الآن) وظل يردد قصته لعقود ثلث. وخلال زيارة له لمصر شرع فى كتابة ملخص لكتابه المطول وأتمه فى تونس. وأصبحت روايته عن رحلته ذائعة حتى أن كاتبًا من أقاصى السودان طلب منه نسخة. وفى ١٦٥٤-١٦٥٥ رافق رحالة آخر، وهو قس أرثوذوكسى من حلب، بطريركه فى رحلة إلى بلاد الفرنجة، وهى فى هذه الحالة روسيا وكتب عن الكنائس، والعادات الغريبة، وعن السياسة وعن شتى الأجانب الذين قابلهم هناك، وفيهم من أخبره عن قبائل لها وجوه كالكلاب تأكل لحوم البشر. وفى نفس الوقت تقريبًا وصل «عربيان» كانا قد تحولا إلى البروتستانتية إلى باريس، وسكنا فى «منزل بروتستانتى». وبعد ذلك بثمانى سنوات، وصل قس كاثوليكى سريانى من العراق، هو إلياس حنا الموصلى، إلى مدينة البندقية على متن سفينة إنجليزية من الإسكندرونة وراح يتجول على مدار السنوات السبع التالية فى «بلاد النصارى» من إيطاليا إلى إسبانيا، ومن البرتغال إلى صقلية. وفى عام ١٦٧٥ ركب سفينة إسبانية من قادس إلى أمريكا الجنوبية وكتب أول كتاب عن العالم الجديد باللغة العربية هو كتاب سياحة الخورى إلياس بن القسيس حنا الموصلى، تحقيق أنطون رباط اليسوعى (بيروت، ١٩٠٦) وخلال عامى ١٦٨١-١٦٨٢م استقر شخص يدعى بطرس الحلبى (بيير ديبى) فى فرنسا وخدم كمترجم للمبعوثين والزائرين الوافدين من شمال أفريقيا، كما كان حال حلبى آخر خدم كمترجم فى إسبانيا خلال زيادة السفير المغربى، الغسانى، عام ١٦٩٠م. قام الغسانى، ترافقه حاشية تتراوح بين خمسة عشر وعشرين رجلاً، بزيارة مدريد ووصف قصر الأسكوريال، والصيد الملكى، التزلج على الأنهار، والمستشفيات، وقوانين الميراث، والصوم الكبير، واحتفالات أحد السعف وعيد الفصح، كما سجل الأحداث المعاصرة، مثل وفاة البابا وعلق على الأدوار الاجتماعية والدينية للنساء. وكانت زيارة أسبانيا بمثابة نافذة على بقية الأحوال الأوروبية.

قبل ذلك بعام واحد، فى ١٦٨٦، قام التونسى حسين خوجة بزيارة «أرض الإفرنج» (ربما كانت إيطاليا) حيث قابل كثيرًا من الأطباء وتعلم على أيديهم بعض العلاجات التى حملها معه إلى وطنه تونس. وبعد عودته كتب إلى الأطباء الأوروبيين وغيرهم ممن عرف يطلب منهم تقريرًا تاريخيًا عن هذا الدواء. وفى كتيبة الأسرار الكامنة ذكر خوجة مرارًا كيف قابل الأطباء فى أرض الإفرنج وفى «مدينتنا تونس» وكيف استفاد منهم كثيرًا.

أجزاء من مقدمة كتاب:
In the Lands of Christians: Arab Travelers to Europe and America (1611-1700)
فى بلاد المسيحيين: الرحالة العرب إلى أوروبا وأمريكا
(Introd and Trans. Nabil Mater)
يصدر قريبًا عن دار روتلدج

فـــــــــى أرض الفــــــــرنجــــــــة

نبيـــــل مطـــــــر



بعد بضع سنوات ذهب السفير المغربى عبد الله بن عائشة إلى فرنسا وأقام صداقات وطيدة مع رجال من البلاط الفرنسى وشركات التجارة، ووقع هناك فى الحب. وعند عودته للمغرب روى لعائلته وأصدقائه عن فرنسا وقدم وصفًا مفصلاً للغاية عن رحلته لواليه مولاى إسماعيل ولرجال الحاشية. وقام مغاربة آخرون أيضًا بزيارة أوروبا وتحدثوا عنها، ففى عام ١٧٢٩ كتب القبطان الإنجليزى جون بريثويت عن «الحاج لوكاس» الذى سافر إلى إنجلترا مرتين واصفًا إياه بأنه «كان رحالة عظيمًا»؛ وأنه «كان يتحدث الأسبانية بشكل متقن للغاية، ويتمتع بكياسة كبيرة فى تعامله مع الأجانب». ويعلق بريثويت مرارًا على ألفة المغاربة بالعالم المسيحى: «ونجد أهل (تطوان) يتمتعون بالكياسة واللياقة فى كل مكان من جراء تجارتهم وكثرة تعاملهم مع المسيحيين»؛ «فكثير من المغاربة الذين جاءوا إلى إنجلترا بصحبة سفيرهم السابق كانوا يترددون على منزلنا». وفى عام ١٧٤٧ سافر محمود مقديش إلى المشرق الأوروبى ودخل إحدى الكنائس حيث رأى رسمًا يصور معركة بين السفن الإسبانية وسفن من موطنه صفاقص».

وعلى الرغم من أن مفهوم «أوروبا» ذاته لم يوجد بين العرب المسيحيين أو المسلمين، إلا انه كان هناك فضول بشأن الروم (وهذا هو الاسم الذى ذكره القرآن فى الإشارة إلى البيزنطيين وغيرهم من الأوروبيين)، والإفرنج (الفرنسيين) والعجم (الإسبان)، وهذا يرجع إلى أنه منذ الغزو الصليبى أصبح هناك صراع ومعاملات وتجارة متبادلة معهم. فركب تجار المغرب والأندلس والشام البحر على متن سفن من جنوة والبندقية وسافروا عبر البحر المتوسط يروجون تجارتهم؛ بل بلغ بعضهم إنجلترا فى عمليات وساطة من أجل دفع فدية الأسرى المسيحيين والمسلمين: ففى التماس كتبه أحد الآباء نيابة عن ابنه الأسير فى مدينة بلايموث عام ١٦٨٨ «من فضل الله أن كان هناك تاجر جزائرى فى بلدة بلايموث المذكورة آنفًا وعد بأن يسعى فى شأن فديته» وفى حين قام كثير من المغاربة بزيارة الأراضى الأوروبية بغرض التجارة، كان لآخرين أهداف عسكرية: ففى عام ١٥٧٣ عندما كان الجزائريون يستعدون لمهاجمة تونس، أبحروا إلى مالطا واستكشفوا الساحل وقاموا بقطع الأشجار من أجل عمليات الحصار. فى نفس الوقت كان الموريسكيون فى إسبانيا يستعلمون عن المدن الأوروبية وطرق المسافرين وذلك بغية الهروب عن طريق فرنسا

كتاب الزاوية

حرب النهر
السودان

إن الربع الشمالي الشرقي للقارة الأفريقية يجف ويروى بالنيل، وبين مصادر منابع هذا النيل العظيم وفروعه تقع المديريات ذات الأراضى الواسعة الخصبة التى تعرف بالسودان المصرى، موقعها فى أواسط البلاد تمامًا، يحدها من كل جانب حوالى ٥٠٠ ميل من البحر تتوسطها الجبال، والمستنقعات، والصحراء. إن النهر العظيم المصدر الوحيد للنمو وقناتهم الوحيدة للتقدم. بالنيل وحده يمكن لتجارتهم أن تصل إلى الأسواق الخارجية، وهو الممر الوحيد للحضارة الأوروبية لاختراق المناطق النائية الداخلية المظلمة. إن السودان يرتبط بمصر عن طريق النيل كالغواص الذى يرتبط بالسطح بأنبوبة الأكسجين، بدونها ليس هنالك سوى الاختناق، لا حياة بدون النيل «لا نيل. لا حياة».

إن السودان الحقيقى المعروف لدى رجل الدولة أو المستكشف يقع فى أقصى نقطة جنوبًا وهو رطب ملئ بالأحراش، لكن هناك سودانًا آخر وهو الذى يعتبره البعض السودان الحقيقى الذى يغطى حدوده نهر النيل من الحدود المصرية شمالاً حتى أم درمان جنوبًا، هذا هو «سودان الجندى» بلا ثروة، ولكنه غنى بالتاريخ.

إن أسماء قراه المتناثرة على امتداد البلاد معروفة ومعلومة لرجال وأناس كثيرين مهتمين بأصول الحضارات فى بلاد بعيدة، وإن المساحات الخالية قد تم رسمها بأقلام جيدة وقديرة.

لقد ذاقت صحاريها الواسعة دماء الرجال الشجعان. أما حجارتها الصلبة السوداء الحادة فتقف شاهدًا على مآس مشهورة. إنه «مسرح الحرب».



والمانيا (كما حدث مع شخصية ريكوت فى رواية دون كيشوت) وإيطاليا إلى شمال أفريقيا وتركيا.

وبالنسبة لبعض العرب المسيحيين فى بلاد الشام كانت اللغة والتعليم من الأسباب التى دفعتهم للسفر إلى الدول الأوروبية فمنذ عام ١٥٨٤ اعتاد حوالى خمسة عشر صبيًا مسيحيًا أن يذهبوا كل عام إلى روما للدراسة فى المعهد المارونى، ثم يعودون إلى بلادهم بمعرفة واسعة عن تاريخ أوروبا وفنونها وعن اللاهوت والمذهب الكاثوليكى. كما سافر مسيحيون آخرون فى رحلات حج لزيارة المراكز التى تتمتع بسلطة كنسية فذهب الكاثوليك إلى روما والأرثوذكس إلى موسكو. وفى عام ١٦٠٧ ذهب أحد المسيحيين المارونيين ويدعى ميخائيل قرى إلى دوق توسكانيا الأعظم الذى عينه كمبعوث للتفاوض مع الزعماء المناهضين للعثمانيين فى لبنان. وفى عام ١٦١١ أرسل فخر الدين الثانى، الزعيم الدرزى اللبنانى الذى تحول إلى المسيحية، البطريرك المارونى جرجس مارون إلى بلاط توسكانيا؛ وفى عام ١٦٢٣ قام البطريرك بزيارة إسبانيا. وفى عام ١٦١٣ قام فخر الدين بزيارة ليفرن ثم فلورنسا وكانت تصحبه زوجته وسبعون مرافقًا. كما قام بزيارة الفاتيكان وقابل البابا بول الخامس. وفى عام ١٦١٥ رحل إلى صقلية حيث أقام حتى عام ١٦١٨ ثم عاد إلى لبنان. وفى عام ١٦٣٠ كتب إلى دوق توسكانيا طالبًا معماريًا وطبيبًا ونجارًا ونحاتًا وخبازًا (لتعليم صناعة البسكويت)، وستة مزارعين بصحبة أسرهم وذلك لتعليم تقنيات الزراعة المستخدمة فى توسكانيا. واستقر هؤلاء الأوروبيون فى لبنان حتى عام ١٦٣٣ وتركوا أثرًا دائمًا على معمار البيوت اللبنانية.

وبعد طرد الموريسكيين من الأندلس فى عام ١٦٠٩، ظل الكثير منهم على اتصال ببنى جلدتهم من التجار الذين استقروا فى مالطا وباليرمو ومرسيليا وليفرن وغيرها من المدن الأوروبية التى كانوا يترددون عليها. وكان أحد الأسباب الرئيسية لهذا الاتصال هو تأسيس مراكز مالية لتحويل الأموال - سواء بغرض تسديد الديون للبنوك الأوروبية، أو لدفع أثمان المراكب والسفن الصغيرة التى كان يصنعها بناءو السفن الفرنسيون والهولنديون والإيطاليون أو لإنهاء إجراءات دفع الفدية للأسرى. وكان التبغ إحدى السلع المهمة التى دفعت المسلمين إلى السفر لأوروبا أو الثغور الواقعة تحت الحماية الأوروبية فى شمال أفريقيا. وكانت تجارة التبغ واسعة الانتشار حتى إن فقهاء المسلمين حرموها لأنها تعلم المسلمين العادات الأوروبية المرذولة، وتستنزف الموارد القومية من العملة الصعبة الشحيحة. يصف أبو سالم إبراهيم الكلالى باستفاضة رحلات التجار المسلمين ومعاملاتهم مع التجار الأوروبيين وكثرة سعيهم بحثًا عن التبغ والكثير مما علموه عن النصارى.. وعن إخوانهم فى الدين أيضًا:

وأما ما يفعله سفلة التجار من سفرهم إلى أرض الحرب والدخول تحت حكمهم.. وهى أعمال للسفر لبلادهم والدخول تحت قهرهم وحكمهم، بالنقود الجيدة: الذهب الخالص، والفضة الخالصة، وأنواع السلاح وما يؤول إليه ودفع ذلك فى أعشاب الأرض يسمونه بالنار والدخان.. ومن أغرب ما حدثنى به بعض الثقات من أصحابنا التجار، بعد أن سألته عن الذهب الجيد الذى كان يتبايع به المسلمون، وأين ذهب، وهل هو باق عند الناس فى ذخائرهم، وأين صار؟ فقال لى: إن التاجر لا يختزن الدينار ولا الدرهم لعدم انتفاعه بفضل ذلك، وإنما يختزن ما يكون له فيه ربح فقلت له أين ذهب المغرب كله، قال لى: عند النصارى دمرهم الله فى سلعة الدخان المشموم، فاستغربت ذلك من قوله، فقال لى: أحدثك بالواقع لى، وذلك أنى سافرت إلى مدينة سبتة، أعادها الله دار إسلام، فأقمت بها قريبًا من عشرين يومًا أنتظر سلعة الهند، لعلى أجد ما اشترى، فلم أجد شيئًا، فبينما نحن فى انتظار ما يظهر من أغراضى، فإذا بسفن قدمت من عدوة النصارى، ففرحت، فلما أرست لم نجد فيها عدا الدخان، فما كان من صبيحة الغد، حتى كانت كلها موزونة على ذمة مشتر، فيها خمس عشرة مائة قنطار، لم يدفع فى ثمنها إلا الذهب الجيد، وبقيت بعد ذلك من خمسة عشر يومًا مقيمًا أنتظر ما نشترى فقضيت بعض أغراضى ولم أستكملها بذلة ومهانة، ورجعت لثغر تطوان فوجدت دخانها كله قد نفد، وصار إلى من سخط الله عليه، فنفدت نقود المسلمين كلها فى دخان لا أصل له ولا حقيقة.

لا عجب من ثم أن أمر مولاى أحمد «بحرق هذا العشب الخبيث الذى بحوزة النصارى فى فاس الجديدة». مثلما حدث فى إنجلترا عندما حرم الملك جيمز الأول التبغ باعتباره عشبًا مستوردًا غريبًا يتعاطاه «العبيد الهنود المصابون بالجدرى» (مكافحة التبغ، ١٦٠٤). وفى عام ١٦٠٧ حرم الفقيه المغربى الثائر أبو محالى «الشجرة التى جاءت من أرض الكفرة» مثلما فعل الفقيه على بن أحمد عام ١٦٧١ الذى حرم التبغ لأنه سلعة مستوردة من «أرض الكفار» وكثيرًا ما التقى الأوروبيون وأهل شمال أفريقيا فى سياق التبغ. ومن هنا جاءت شخصيتا «المغربيين اللذين يتعاطيان التبغ» فى بداية مسرحية توماس ذكر سطوة الشهوة (حوالى عام ١٥٩٩-١٦٠٠).

ونتيجة لرحلاتهم إلى أوروبا أصبح «المغاربة» و«العرب» و«الأتراك» (وهو الاسم الذى كان يطلق عامة على المسلمين) شخوصًا بارزة فى الأدب الأوروبى وفى المخيلة الفنية (فى مجال التصوير)، واحتشد بهم الشعر والنثر فى عصر النهضة: فنجد الأمير المغربى

كان التبغ إحدى السلع المهمة التى دفعت المسلمين إلى السفر لأوروبا أو الثغور الواقعة تحت الحماية الأوروبية فى شمال أفريقيا. وكانت تجارة التبغ واسعة الانتشار حتى إن فقهاء المسلمين حرموها لأنها تعلم المسلمين العادات الأوروبية المرذولة، وتستنزف الموارد القومية من العملة الصعبة الشحيحة

فى مسرحية شكسبير تاجر البندقية؛ والمغاربة (الذين اعتنقوا المسيحية على أيدى التجار الإنجليز) فى بلاط الملك جيمس الأول فى مسرحية ميدلتون انتصار الحقيقة؛ و«الأتراك» فى الأدب الإسبانى؛ والمغاربة الذين تعج بهم مسرحيات وروايات سرفانتيس ودى فيجا. فى عام ١٦٨٢ كتب أحد الشعراء الإنجليز المجهولين يصف المغربى:

الذى ظل حبيسًا أمدًا طويلاً
فى القارة المظلمة أفريقيا الظلماى
يداه الغريرتان قلما لمستا المجداف
مرتعشًا دائمًا وهو يزحف على الشطآن
تضرم شهرة الأرض البريطانية فيه النيران
وتانف روحه المتوثبة الرمال الكسلى
فينطلق ماخرًا عباب الأطلنطى،
مناضلاً بشجاعة صوب القطب الشمالى
ليصل إلى أرض الثلج والمطر العجيبة.

وهنا نجد أنه بالرغم من مزاعم الشاعر الإنجليزى المتباهية إلا أنه يقر بان المغاربة كانوا مغرمين بالأسفار والتعلم.

فمن المشرق والمغرب قرأ العرب المسلمون والمسيحيون عن العالم من حولهم وترجموا وكتبوا من خبرتهم المباشرة عنه. وكان الفضول والرغبة فى المعرفة وراء أسفارهم. ففى روايته عن رحلته إلى مكة فى الفترة ١٦٣٠ - ١٦٣٣ ينصح ابن مليح من ينوى الترحال والسياحة فى «أرض الله». أن ينظر ويعتبر فى اختلاف الأرض وبقعها، سهلها وجبالها ووعرها، تفجر الأنهار منها، جريانها، آثار الأمم الماضية وما جرى لهم وكيف صاروا خبرًا وأثرًا، بعد أن كانوا رؤية ونظرًا، وكذلك ينظر باعتبار إلى اختلاف الخلق والألوان واللغات المختلفة والمآكل والمشارب والملابس والعوائد والعجائب.

ومع أن الحجيج كانوا يقصدون وجهة دينية إلا أنه كان ينبغى عليهم أن ينفتحوا على الأفكار والظواهر والروائح والأذواق والألوان الجديدة، وكذلك كل ما هو مبتدع ومختلف. وعليهم أن يشبعوا فضولهم خلال الرحلة التى يتوق لها الكثيرون. ويمثل شهاب الدين المقرى نموذجًا كاشفًا لشهوة العرب المحدثين الأوائل فى الترحال. ففى عام ١٦٠٠ رحل إلى فاس ثم عاد إلى تلمسان، ثم عاد إلى فاس، وبعد ذلك توجه إلى مصر عام ١٦١٨ ثم إلى الحجاز ثم عاد إلى القاهرة عام ١٦٢٣، ثم سافر إلى القدس، وعاد إلى القاهرة، ثم إلى الحجاز ثم القاهرة والقدس مرة أخرى وأخيرًا سافر إلى دمشق حيث مات عام ١٦٣١. وعلى عكس نظرائه الأوروبيين الذين كان عليهم توخى الحذر عند السفر إلى الأقطار المجاورة ذات الملل المسيحية المختلفة، كان لدى الرحالة العربى (أو التركى) من شمال أفريقيا أو بلاد الشام إمبراطورية شاسعة يحكمها أمير المؤمنين فى إسطنبول؛ فبينما كان الأوروبيون فى كثير من الأحيان مقيدين بحدودهم القومية وطوائفهم الدينية ويخشون عبور الحدود البروتستانتية أو الكاثوليكية، كان العرب (والأتراك، كما فى حالة إيليا شليبى الشهيرة) يستكشفون إمبراطورية باكملها.

فى يناير عام ١٦٨٢ قام السفير المغربى، محمد تميم، يصحبه سبعة أعضاء من حاشيته بزيارة فرنسا واكتشاف إبداعاتها الاجتماعية والفنية والفكرية. وحضر السفير أوبرا «أتيس» لدى لولى حيث أبدى «دهشة عظيمة»، ربما إزاء المشاهد المسرحية المذهلة التى اشتملت على «جبل مكرس للإلهة سيبيل»، ومعبد وقصر وحدائق. كما حضر حفل باليه فى الأكاديمية الملكية للموسيقى. وبعد ذلك بأسبوع ذهب إلى كاتدرائية نوتر دام واستمع إلى عزف على الأرغن ثم زار المرصد الفلكى ومنزل أحد أساتذة علم الفلك حيث أعجب بنماذج للكرة الأرضية وخرائط لمدارات الكواكب وتلسكوبات وبناديل (جمع بندول). وقد علق أحد الفرنسيين المرافقين له قائلاً: «إن هذا السفير لديه فضول شديد إزاء كل ما يتعلق بالعلوم والفنون». وكانت هذه الزيارة ناجحة للغاية حتى إنه عند مغادرة السفير يوم ٢٥ فبراير تلقى هو وحاشيته هدايا تذكارية رائعة من ملك فرنسا.

وقد لوحظ عنصر الفضول هذا مرة أخرى مع عبد الله بن عائشة، والوفد التونسى الذى زار فرنسا عام ١٧٤٣. فقد قال المبعوث الأعظم، على أغا، فى حضرة مساعده محمد خوجة وأعضاء الوفد السبعة الآخرين (الذى ضم إمامًا وطباخًا وثلاثة حراس وخادمين) «إنه لمن دواعى سرورنا أن نزور مملكة طالما تقنا لرؤيتها». ومن ثم حرص المضيفون الفرنسيون على إشباع «فضول» الضيوف، فاخذوهم إلى الأوبرا وشرحوا لهم الفرق بين نظام كوبرنيكوس ونظام بطليموس، ودعوهم لاحتفالات أشبعت «فضولهم» كما قال المرافقون الفرنسيون.

لقد كان الرحالة العرب والمبعوثون والسفراء والتجار ورجال الدين شديدى الحرص على طرح الأسئلة عن بلاد النصارى وعلى تسجيل الإجابات - ومن ثم على تحويل انطباعاتهم إلى وثائق. فجاءت كتاباتهم جميعًا متميزة بالدقة والفطنة، وأثمرت معلومات مفصلة للغاية تستند إلى الخبرة العملية حول الكيفية التى كان ينظر بها غير الأوروبيين للأوروبيين فى بدايات العصر الحديث. فلم تترك لنا حضارة من الحضارات غير المسيحية - لا الحضارة الهندية الأمريكية ولا الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى ولا الآسيوية - وصفًا موسعًا للأوروبيين ولبلاد النصارى، سواء فى القارة الأوروبية أو أمريكا، مثلما خلفه العرب. ■

ترجمة: هانى حلمى حنفى

كتاب الزاوية

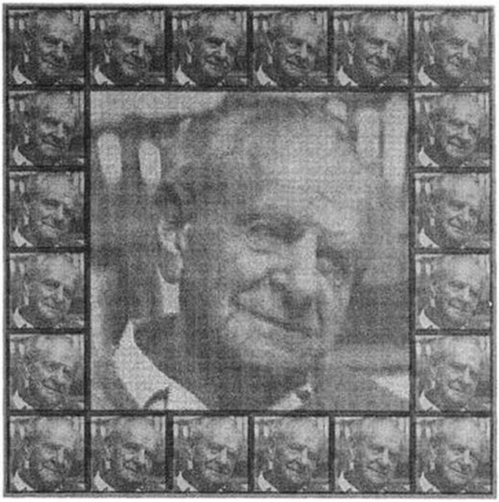
حرب النهر المهدى

قبل عام ١٨٨١ لم تكن هنالك أية حركات تعصب فى السودان. بسبب البؤس هجر الناس عبادتهم ووصلوا حالة من اليأس كانوا مستعدين لأية مغامرة يمكن أن تخلصهم من عبودية الغاصبين، كانوا فقط فى انتظار القائد الملهم الذى يستطيع جمع الشمل والكلمة ورفع الروح المنكسرة. وفى صيف ١٨٨١ ظهر القائد.

ولد الرجل الذى كان السبب المباشر لحرب النهر على ضفاف النيل، فى مكان لا يبعد كثيرًا عن دنقلة. كان والده رجل دين متواضعًا، ومع ذلك فقد جاهد ليوفر لابنه قدرًا من التعليم فى الممارسات الدينية ومبادئ القرآن وفن الكتابة.

برز محمد أحمد منذ الصغر فى علوم الدين وطاعة الله وخدمته، وبدون عناء وجد شيخًا يتتلمذ على يديه حيث يندر وجود أشخاص أذكياء ومملوئين حماسًا فى قطر كالسودان! وبمجرد انتهاء فترة دراسته أصبح تلميذًا على يد الشيخ محمد شريف.

بعد حادثة شهيرة، بينه وبين شيخه ظل الناس فى السودان يتداولونها إذ كان نادرًا أن يشق فتى عصا الطاعة على شيخه، فسر الناس هذا الأمر بأن محمد أحمد كان يدافع عن الإيمان والعقيدة، وأنه أخيرًا جاء من يطهر الدين ويرفع كلمته ويصلح حال الناس. بدأت مشاعر الناس تتجه نحوه لعله يكون المنقذ الذى يفك أسر رقاب القبائل من استعباد الأتراك. ذاعت شهرة محمد أحمد، وبدا فى كل بقاع البلاد التفكير بأنه فى يوم من الأيام سوف يظهر نبى ثان عظيم «المهدى المنتظر» الذى سوف يقود الناس إلى الإيمان والقرب من الله.



مئوية كارل بوبر.. قرن توهج

نشهد الآن مرور مائة عام على ميلاد فيلسوف العلم الأكبر كارل بوبر Karl R. Popper (٢٨ يوليو ١٩٠٢ ـ ١٧ سبتمبر ١٩٩٤)، امتدت حياته حتى استوعبت القرن العشرين إلا قليلاً وظل حتى آخر لحظة فيها فاعلاً منتجاً متألقاً، وامتدت آفاق عقليته المتوثبة وقدراته المنطقية الرصينة حتى استوعبت مضامين ودلالات التقدم العلمي المتوهج والمتسارع في ذلك القرن. فجاءت فلسفة كارل بوبر خير انعكاس لهذا التوهج، في قدرتها على تعيين وتنضيد إيجابيات التفكير العلمي وإمكانياته التقدمية وطرحها كفعالية مفطورة في صلب الحضارة الإنسانية، بل وفي صلب الحياة على سطح الأرض.

والأجمل أن يعلمنا بوبر كيف نتمثل تلك الإيجابيات المستقاة من التفكير العلمي ونستفيد منها في التصورات السياسية والاجتماعية: فتأتي عاصفة بأصول الصهيونية، في حين أنه ولد لأبوين يهوديين اعتنقا المسيحية البروتستانتية قبل إنجاب أي من أبنائهما فقط ليخرجا من وضع الأقلية ويندمجا في أغلبية المجتمع النمساوي في فيينا.

المنهج آية العلم

وانتهى القرن العشرون لنستطيع ـ بثقة ـ الحكم بأن كارل بوبر أهم فلاسفة العلم فيه، وأعمقهم تأثيراً في اتجاهات فلسفة العلم في النصف الثاني منه ومساراتها الراهنة في مطالع القرن الحادي والعشرين. ودائماً يظل المحور المركزي في هذه المساهمة البوبرية أنها أقوى تجسيد لإيجابيات العلم وأصول التفكير العلمي والروح العلمية.

وكما أشار أستاذ الجيل الدكتور زكي نجيب محمود، إذا كانت منجزات العلم بمثابة فرائد القلائد التي تزين صدر الحضارة الحديثة، فإن المنهج العلمي هو المنجم الذي نستخرج منه الفرائد تلو الفرائد. وفي هذا تتفق الأطراف المعنية على أن كارل بوبر فيلسوف المنهج العلمي الأول وبغير منازع على هذه الأولوية: وبتعبير بليغ حقاً يقول عالم الفيزياء الرياضية في جامعة كمبردج جون بولكين هورن Polkinghorn: "إن كارل بوبر هو المفرد العلم الذي يشار إليه بالبنان حين طرح السؤال عن المنهج العلمي». هذا بخلاف علماء حصلوا على جائزة نوبل، أمثال جاك مونو وبيتر مدور وسير جون إكسلز، أكدوا على أهمية الاسترشاد بفلسفة بوبر للمنهج العلمي، وكانت نصيحتهم للعلماء الشبان أن يقرأوا ويتدبروا كتابات بوبر في فلسفة العلم.

على أن المنهج العلمي ـ كما يعلمنا الطرح البوبري ـ ليس محض تقنية خاصة بذوي الاحتراف، أو أصوليات حرفة جليلة تمتهنها فئة من ذوي العقول المتميزة الجيدة الإعداد هي فئة العلماء، بل إن المنهج العلمي أسلوب فعال في التعامل مع الواقع والوقائع، آلية مثمرة يمتلكها الإنسان في كل موقف لينتقل من المشكلات إلى حلولها في متواليات تصاعدية لا تتوقف ولا تنتهي أبداً.

ينظر بوبر إلى العلم والمعرفة نظرة واحدة، ليس العلم إلا مرحلة متقدمة من المعرفة، بل من علاقة الكائن الحي بالبيئة، حتى أننا لو كشفنا القصة كلها مرة واحدة منذ الأميبا حتى أينشتين لوجدناها تعرض النمط نفسه: حل المشكلات عن طريق آلية المحاولة والخطأ التي تفسر ما يفعله العالم في قلب المعمل، مثلما تفسر أي سلوك إيجابي مثمر على وجه الأرض، أنماط السلوك أياً كانت، سلوك العالم في معمله أو سلوك الكائن الحي في صراعه مع البيئة من أجل البقاء، أو ما بين هذا وذاك، أي سلوك هادف ليس إلا محاولة لحل مشكلة معينة. والمعرفة بدورها ليست إلا نشاطاً لحل مشاكل معرفية.

وما يفعله العالم هو أن يبدأ من مشكلة معينة (لتكن م١) لتأتي محاولة حلها (ح ح) أي كائن حي يحاول حل مشاكله، والعالم بدوره يطرح فرضاً لحل المشكلة، لابد من اختبار محاولة الحل، هنا دور النقد سر التقدم الذي يتجلى أكثر ما يتجلى في العلم، في دأب العلماء على اختبار الفروض اختباراً عسيراً ومحاولة تكذيبها بعزم أكيد على اكتشاف الأخطاء وتصويبها. في كل حال لابد من استبعاد الخطأ (أأ) وإلا لن تستمر الحياة. بعد حذف الخطأ يبرز موقف جديد، وأي موقف جديد يحتوي على مشاكل، لينتهي إلى مشكلة جديدة (م٢). هكذا نجد الصورة المنهجية لأية محاولة، لأي سلوك إيجابي هادف:

مشكلة أولى	محاولة حلها	استبعاد الخطأ	مشكلة جديدة
م١ ←	ح ح ←	أأ ←	م٢

هذه الصياغة من أخصب أفكار بوبر، توضح كيف أن المعرفة تسير في حلقات متتالية، لكنها ليست دائرية، فهي لا تنتهي من حيث بدأت، بل تنتهي بموقف جديد ومشاكل جديدة. هذه الجدة هي التي تكفل التقدم المستمر. الخطأ داخل في صميم كل محاولة ويستحيل تجنبه، الخطأ هو ذاته طريق التقدم المستمر بواسطة تصويبه واستبعاده والاقتراب أكثر من الصدق. معنى هذا أن الصياغة قادرة على تجسيد منطق التقدم، ومنطق الكشف العلمي.

المتواتر المتدفق مثل كارل بوبر علامة فارقة ونقطة تحول في مسار فلسفة العلم، فانتقلت من منطق تبرير المعرفة العلمية وتعيين مسوغات وثوقها ومصداقيتها إلى منطق التقدم العلمي.

ذلك أن فلسفة العلم حين نشأت في أواسط القرن التاسع عشر كانت امتداداً لسؤال فلسفة المعرفة (الإبستمولوجيا) العريق حول ماذا يمكن أن يعرف الإنسان.. ما شروط المعرفة وما وسائلها.. وما طبيعتها وما حدودها...؟ وقد استقام نسق العلم الحديث عملاقاً، ليتصدر بامتياز واقتدار مسيرة المعرفة الإنسانية، ويمثل حالة فريدة لنجاح المشروع المعرفي للإنسان. فأصبح سؤال الإبستمولوجيا المتمثل في فلسفة العلم هو سؤال حول عوامل هذا النجاح وحيثياته ومبرراته. من هنا نشأت فلسفة العلم وهي معنية بتبرير المعرفة العلمية كمحصلة جاهزة ومعطاة، أي تبرير نسق العلم كمنجز راهن، يمكن أن يستوعب تقدماً أبعد. استند هذا التبرير أساساً إلى إحكام العلاقة بين الوقائع التجريبية وبين النظرية العلمية أو القانون، في صورة المنهج العلمي ـ صلب فلسفة العلم. هكذا تمثل المنهج العلمي تبريراً لنجاح المعرفة العلمية. وذلك في المرحلة الأسبق من فلسفة العلم التي تعرف بالمرحلة الوضعية.

حتى جاء كارل بوبر حاملاً لواء المرحلة «البعد ـ وضعية»؛ لينتقل بفلسفة العلم من منطق التبرير إلى منطق التقدم، إلى منطق الكشف العلمي والمعالجة المنهجية له على أساس من قابليته المستمرة للاختبار التجريبي والتكذيب، قابليته لتعيين الخطأ كي يحل محله كشف أفضل وأكفأ وأقرب إلى الصدق؛

فلسفة العلم.. فلسفة التقدم؛

بشكل عام أجاد كارل بوبر تمثل وتمثيل روح العلم بوصفه أنضر وجوه الحضارة وأثمن إيجابيات العقل والأقدر على تجسيد الهم الإنساني والفعالية الإنسانية.. العلم بوصفه أكثر حيوية وإنسانية من أي منشط آخر، قضاياه قابلة دوماً للتكذيب والتطوير والتعديل، الميتافيزيقا أفقه الرحيب الذي يلهم بالفروض الخصيبة، يلعب الخيال الخلاق والعبقرية المبدعة للفروض العلمية دوراً أساسياً في خلق قصة العلم المثيرة التي علمت الإنسان المعنى الحقيقي للتقدم. والتقدم العلمي ـ كما سنرى ـ لا تفسره إلا الثورة، بمعنى التغير الجذري لبدء دورة معرفية جديدة.

أول أعمال بوبر وأخطرها «منطق البحث العلمي» صدر بالألمانية في فيينا العام ١٩٣٣، ثم صدرت له ترجمة إنجليزية العام ١٩٥٩ بعنوان «منطق الكشف العلمي» ليظل من أبرز الكلاسيكيات الرائدة الموجهة لمسارات فلسفة العلوم. وتوالت أعمال بوبر؛ حتى صدر آخرها وأسلسها وأمتعها «خرافة الإطار: دفاع عن العلم والعقلانية» قبيل وفاته في العقد الأخير من القرن العشرين. بذاك العطاء

فيه التفكير العلمى

يُمنى طريف الخولى

حتى أن الكشف يكون علمياً بقدر ما يكون قابلاً للاختبار الحقيقى الهادف إلى التكذيب، أى بقدر ما يفتح طريقاً لتقدم أعلى.

هكذا يوضح بوبر أن معيار العلم أو الخاصة المنطقية المميزة لقضاياه هى القابلية للاختبار التجريبى الحقيقى الذى يمكن أن يفضى إلى التكذيب: فيقف على اللحظة الدراماتيكية الكبرى فى حركية العلم التقدمية، لحظة التكذيب والتفنيد، تكذيب النظرية المقبولة المعمول بها، واكتشاف الجديد الأقدر منها والأجدر. ليس منطق الكشف العلمى منطق لبنة جديدة تضاف إلى صرح العلم، بقدر ما هو منطق فتح جديد للتقدم العلمى. إنه فلسفة التقدم المستمر.

ومن منطلق التقدم الذى صاغته فلسفة بوبر كإمكانية مقطورة فى صلب طبيعة العلم والمعرفة ثم الحضارة والحياة على السواء، ترسمت الفلسفة البوبرية كاتجاه قوى مترامى الأطراف متسق الأبعاد، شديد الولاء لمنطلقاته العلمية، يوسم بالعقلانية النقدية، ويعد من أهم تيارات الفلسفة المعاصرة وأكثرها إبداعاً وخصوبة، أدلى بدلوه فى ميادين حضارية شتى ومجالات فلسفية عديدة ترك فيها بصماته: فكانت المساهمة البوبرية قوية فى تشكيل معالم الفكر الغربى فى النصف الثانى من القرن العشرين.

ولا غرو أن تكتسب فلسفة العلم مع فيلسوفها كارل بوبر مثل هذا الثراء والخصوبة، فكما أشرنا امتدت حياة هذا الفيلسوف (١٩٠٢ - ١٩٩٤) حتى شملت القرن العشرين إلا قليلاً. فكانت انعكاساً له، لدفقة التقدم المهيبة التى أحدثها، انعكاساً لحقبة فريدة من التوهج العلمى.

قـــرن ثـورى:

يظل المعلم المميز للقرن العشرين المنصرم - بكل ما يسجل له ويسجل عليه - أنه قرن توهج فيه العلم والتفكير العلمى وتطبيقات العلم وفعالياته وعمق تأثيراته الإيجابية والسلبية على بنية الفكر وبنية الواقع على السواء. ويحق لهذا القرن أن يتيه على القرون أجمعين بأن تفجرت فيه الطاقة التقدمية للعلوم، حتى فاقت كل نسبها البسيطة والمركبة المعهودة من قبل. وبمجرد أن انتصف القرن، قيل إن أكثر من ثلاثة أرباع علم الفيزياء - وهو العلم الطبيعى الأم ذو الموقع الإستراتيجى فى نسق العلم - قد أنتجه هذا القرن العشرون، وفى نصفه الثانى تضاعف هذا النتاج ولا يزال، ولحقت بالفيزياء العلوم الحيوية والإنسانية، ونشأت علوم أخرى، واستجدت تخصصات فرعية وعلاقات بينية ومنطلقات تنظيرية ومناهج للبحث...... وبطبيعة الحال ارتد كل هذا فى الفلسفة فغدت فلسفة العلم أبرز فروع الفلسفة والمعبر عن روح القرن العشرين وطبيعة المد العقلى فيه.

> تميز القرن العشرون ببداية حاسمة جعلته بمثابة وحدة فريدة ونقطة تحول فى مسار العلم والتفكير العلمى. ذلك أنه منذ عامه الأول، وبالتحديد فى السابع عشر من شهر ديسمبر العام ١٩٠٠، طرح ماكس بلانك فرض الكوانتم العبقرى، ولحقت به نظرية النسبية لأينشتين بعد خمس سنوات

ولم يكن الأمر مجرد إنجازات وإضافات علمية مهيبة ومتراكمة، بل تميز القرن العشرون ببداية حاسمة جعلته بمثابة وحدة فريدة ونقطة تحول فى مسار العلم والتفكير العلمى. ذلك أنه منذ عامه الأول، وبالتحديد فى السابع عشر من شهر ديسمبر العام ١٩٠٠، طرح ماكس بلانك فرض الكوانتم العبقرى، ولحقت به نظرية النسبية لأينشتين بعد خمس سنوات إنهما الأساس البحت للفيزياء الحديثة والإطار العام للعلم فى القرن العشرين، منطلق ثورته العلمية الكبرى، ثورة الكوانتم والنسبية . وهما بهذا يمثلان أعظم وأجرأ انقلاب ثورى أنجزه العقل الإنسانى.

كانت نظرية نيوتن من قبل هى النظرية الفيزيائية البحتة والإطار العام للعلم. وهى تصور الكون كآلة ميكانيكية مغلقة خاضعة للسببية والحتمية الشاملة؛ تتسلسل الأحداث فى اتجاه واحد محتوم من مطلق الماضى إلى مطلق المستقبل، ويمكن التنبؤ بها جميعاً، إذ تكفى ملاحظتها وتعميمها لنصل إلى قوانين العلم المصاغة باللغة الرياضية، وبحكم الحتمية الشاملة تغدو قوانين العلم يقينية ضرورية مطلقة الصدق، لا احتمال فيها ولا جواز ولا إمكان ولا مصادفة. فى إطار هذا التصور الأليف المريح تواترت نجاحات العلم الكلاسيكى المبهرة، حتى استقر فى الروع أن نيوتن اكتشف سر الخلق وحقيقة هذا الكون فى أنه صيغ على هيئة آلة ميكانيكية مغلقة.

حتى كان اقتحام عالم الذرة وما دون الذرة، فأطاحت ثورة النسبية والكوانتم بهذا اليقين وهذا التصور الأليف المريح لطبيعة العلم وطبيعة العالم. كشفت قصوراً فى تصور الكلاسيكيين العينى لمفاهيم الكتلة والطاقة والسرعة والأبعاد الثلاثية الثابتة والجامعة المانعة، وفى مطلب الدقة المتناهية فى تحديد موضع وسرعة كل جسيم والتنبؤ بتفاصيل حركته. وانهدم التصور الميكانيكى للكون العاجز عن اقتحام عالم الذرة. وبات واضحاً أن فرض نيوتن العبقرى محاولة ناجحة فى مجالها، تم استيعابها فى إطار أشمل، أما الزعم بأنه اكتشف حقيقة الوجود وسر الخلق فغير ذى معنى، أقل ما يوصف به هذا الزعم أنه لاعقلانى.

الحقيقة المطلقة لن يعلمها إلا خالق الكون، وليس على الإنسان إلا أن يحاول، وليس العلم إلا محاولات لحل مشاكل نظرية وتطبيقية، محاولات ناجحة، تفتح الطريق لمحاولات أخرى أنجح. كل إجابة يطرحها العلم يطرح معها تساؤلات أبعد، فيؤدى كل تقدم إلى تقدم أبعد، ومهما علونا فى مدارج التقدم لن تغلق المعامل أبوابها ولن ينتهى البحث العلمى أبداً؛ بل يزداد حمية ونشاطاً فى سعيه المتواصل، فى متوالية لتقدم لا يتوقف أبداً حتى قيام الساعة. وقد رأينا كيف أجادت فلسفة بوبر تمثل وتمثيل هذه الطاقة التقدمية.

هكذا نجد ثورة الكوانتم والنسبية قد هدمت ثوابت وأقامت العقل العلمى على أسس ومفاهيم مختلفة، سرعان ما بوركت بالتطورات والنجاحات المتلاحقة، حتى كانت العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين أزهى حقب العقل العلمى طراً.

وربما يشهد القرن الحادى والعشرون الآن ثورات أخرى تتصدر المشهد وتبرر الزعم بأن عصر سيادة الفيزياء انتهى. فقد انبثق عصر البيولوجيا بخطاه التقدمية المتسارعة وقفزاته التى تزلزل ثوابت فى العلم وفى الحياة على السواء. ويبدو ماثلاً عملاق العصر وعصور أخرى تالية، أى الكومبيوتر وثورة المعلوماتية.... وسواء أكنا فى عصر المعلوماتية أم ثورة الاتصالات أم عصر الفضاء أم الهندسة الوراثية... إلخ.. فإن هذه المنجزات وسواها من نواتج ثورة الفيزياء الكبرى، ثورة النسبية والكوانتم. لولا تملك ناصية الإلكترون بفضل الكوانتم لما تطورت فيزياء الموصلات التى حولت ماكينة تورينج النظرية البحتة إلى هذا العملاق الماثل أى الكومبيوتر. ولولاه لما استطاع العقل البشرى أن يتعامل مع عشرات الآلاف من المورثات ويشيد عصر الهندسة الوراثية... وفى كل حال لا يزال العلم محتفظاً بدماء الثورة والقوة التقدمية المتقدة، وهذا التوهج الساطع الخاطف للأبصار، الذى تبلور فى مقولة الثورة.

هكذا قدر للقرن العشرين أن يبدأ بثورة الفيزياء الكبرى، ثورة الكوانتم والنسبية، وينتهى بثورة، بل ثورات الكومبيوتر والمعلومات والاتصالات والهندسة الوراثية...الخ. والثورة تعنى نمطاً من التغير المفاجئ السريع، مغايراً لمجرد النمو أو حتى التطور.

وعلينا الآن أن نلاحظ تفاوتاً بين دلالة المصطلح الأوروبى Revolution وبين المقابل العربى: ثورة. إذ تعود ثورة إلى (ثار الغبار: سطع، وأثاره: غيَّره، وتثويراً: هيجه، وثوراناً: هاج). ومنه قيل للفتنة ثارت وأثارها العدو، وثار الغضب احتد. وثار إلى الشر نهض وثور الشر تثويراً. فنجد (الثورة) فى النهاية مردودة إلى (ثار) بمعنى يفيد هاج وماج. فيأتى الرفض والتغيير الجذرى بفعل قوى انفعالية. وليس هذا مقصوداً تماماً. أما فى الإنجليزية فنجد : Revolutionary ثورى، جذرى، متطرف وأيضاً دوّار، لأنه مأخوذ من Revolution التى تعنى ثورة، وتعنى أيضاً بل أصلاً إتمام دورة كاملة. ويمكن أن نلاحظ أواصر القربى اللغوية بين Revolution (ثورة) وبين Evolution (نماء أو تطور). أصل كلمة revolution من المقطع القبلى re الذى يفيد الإعادة والتكرار و volution التى تعنى فى أصولها دورة. من هنا كان مفهوم الثورة revolution فى أصله مفهوماً فلكياً، أول من اشتقه وصاغه علماء الفلك فى القرن السابع عشر بعد صياغة قوانين الفلك الجديد، ليعنى بدء الجرم السماوى لدورة جديدة، لزمان جديد وعهد جديد، وسرعان ما تم سحبه من المجال الفلكى إلى المجال الأرضى ليغدو لافتة يرفعها كل راغب فى تغيير جذرى من شأنه أن يبدأ زماناً



جديداً. على أن المصطلح الإنجليزى فى أصوله اللغوية لا يجعل الرفض هياجاً مفاجئاً، بل هو تقدم مكثف شديد الفعالية، انتقال جذرى لمرحلة أعلى آن أوانها لانتهاء المرحلة السابقة أو استنفاد مقتضياتها.

ولنعد بمفهوم الثورة إلى موطنه الأصيل، إلى العلم. وقد أدركنا أن المفهوم يعنى عهداً جديداً أو على الأقل دورة جديدة. وكارل بوبر بالذات يرفض تماماً النظر إلى التقدم العلمى كمحض تراكم كمى، وكأن النسق العلمى مخزن بضائع تتكاثر أو مكتبة تتزايد محتوياتها. ينفرد بوبر بنظرة ثورية متطرفة ترى أن كل تقدم علمى مهما كان محدود النطاق إنما يمثل ثورة/دورة جديدة فى مجاله.

هذا الفيلسوف الثورى المتطرف قد عاش فى إطار القرن العشرين؛ فكان فيلسوف علم جيد الاستيعاب لدلالة ومضامين ثورات هذا القرن التى بدأت - كما أشرنا - بثورة علمية كبرى طبقت الخافقين وعدت أجرأ ثورة أنجزها الإنسان ،وأجرأ انقلابة عقلية فى تاريخه وهى ثورة النسبية والكوانتم، وانتهى بثورات توالدت عنها ومازالت تتلاهث وراءها أنفاسنا، بل إن ثورة الكومبيوتر عدت الانقلابة الثالثة الكبرى فى تاريخ البشرية طراً، بعد ثورة الزراعة وثورة الصناعة.

هكذا يتبدى أمامنا أن العلم - وخصوصاً بفضل تطوراته اللافتة فى القرن العشرين - هو الذى يعلم البشرية المعنى الحقيقى للتقدم، والمعنى الحقيقى للثورة. وتلك هى خلاصة الفلسفة البوبرية: ومن ثم رأيناها فلسفة النقد، الاختبار ومحاولة التكذيب والتصويب والتعديل، وبالتالى الاقتراب الأكثر من الصدق، فلسفة التقدم والحركية الدافقة والثورة... هذا من حيث هى فلسفة للعلم، فلسفة للمعرفة.. إبستمولوجيا.

وليست المعرفة بناءً سرمديًا أو ميتافيزيقيًا متعاليًا سابحًا فى الفضاء، بل هى عصب الجهاز الإدراكى والتصورى للإنسان. ومن هنا سهل أن تنتقل هذه الحركية النقدية التقدمية الدافقة إلى الرؤى السياسية والاجتماعية مع كارل بوبر، وهو يحدثنا عن أخصب تصوراته الفلسفية.. عن المجتمع المفتوح وخصومه.

المجتمع المفتوح.. أصول ديمقراطية:

ينتمى بوبر - كما أشرنا فى الافتتاحية - إلى أصول يهودية؛ لذلك اضطر إثر الغزو النازى للنمسا فى العام ١٩٣٦ أن يفر منها إلى نيوزيلندا حيث قضى سنى الحرب وقام بتدريس الفلسفة فى جامعتها، ثم انتقل إلى إنجلترا حيث استقر نهائياً وحاز لقب سير ورتبة شرف من الملكة، مثلما حصل على خمس عشرة دكتوراه فخرية من جامعات أمريكا وبريطانيا والنمسا وكندا، والميدالية الذهبية للخدمة المتميزة للعلم.. والعديد من الجوائز والمناصب الأكاديمية والعلمية والفخرية.

إبان إقامته بنيوزيلندا قام بتأليف كتابه «المجتمع المفتوح وخصومه» فى جزءين - ١٩٤٥. وعلى الرغم من أن بوبر أساسًا فيلسوف علم، فإنه - نظرًا لسعة مجال السياسة وشيوع جمهورها - قد حاز شهرته من هذا الكتاب الذى طبق الخافقين وتُرجم إلى أكثر من عشرين لغة، ولقى اهتماماً واسع النطاق فى مجالات ومستويات مختلفة.

اقترن اسم بوبر بالمجتمع المفتوح وصار عنواناً لفلسفته السياسية والاجتماعية، حيث التمثيل العينى لتطبيق منهج العلم العقلانى النقدى على مشكلات السياسة والاجتماع.. حيث ممارسة العقلانية النقدية فى الفلسفة السياسية كى تكفل للمجتمع طريقاً للتقدم مثلما تكفل للعلم تقدماً مطرداً.

تنعكس إيجابيات المنهج العلمى هاهنا فى صورة مجتمع مفتوح للرأى والرأى الآخر، ليفوز الحل الأقدر والرأى الأرجح، ويكون الانتقال من المشكلات إلى حلولها فى إطار ديموقراطى. تعلمنا الصياغة (م١ ح ح أأ م٢) أن خطأ ما كامن فى كل محاولة، مما يعنى أن أحداً لا يمكنه الزعم بامتلاك الحقيقة؛ ليصب المجتمع داخل إطارها ويقود الآخرين كالقطيع.. لابد من إفساح كل مجال للرأى والرأى الآخر، ليتغلب الرأى الأقدر على حل المشكلة. وهذا يستلزم الديموقراطية والتعددية والمناقشات النقدية والعقلانية والتسامح.. باختصار المجتمع المفتوح، وينقض كل دعاوى الديكتاتورية والانفراد بالرأى والتعصب والتطرف ويستحيل معه صب المجتمع داخل الإطار الشمولى والنسق الموحد، لأن هذا مجافٍ لمنطق العلم ومنطق الواقع ومنطق التاريخ، سواء أكان هذا النسق الشمولى الموحد هو الماركسية أو سواها.

لقد قضى بوبر إبان مراهقته ثلاثة أشهر ماركسياً، ثم انقلب بحماس للاشتراكية الديموقراطية وليبرالية النصف الثانى من القرن العشرين المعدلة. وأخرج «المجتمع المفتوح وخصومه» فى عز أوان ازدهار الماركسية جاعلاً نقدها وتقويضها من مراميه الأساسية. استبصر ذلك المآل للأنظمة الشمولية المغلقة فى شرق أوروبا، وبمجرد انهيار الاتحاد السوفيتى صدرت العام ١٩٩٢ ترجمة «المجتمع المفتوح وخصومه» إلى الروسية فى خمسين ألف نسخة، نفدت فور صدورها.

المجتمع المغلق.. أصول صهيونية:

تعقب بوبر جذور الاتجاه الشمولى إلى ما قبل ماركس وأستاذه هيجل، حتى أرسطو وأفلاطون، بل وما قبل أفلاطون، محيطاً بخصوم المجتمع المفتوح وأعدائه. إنهم دعاة المجتمع المغلق الممثلين للقوى المناهضة للعقلانية والحرية والمساواة. انتهى بوبر إلى أن هذه القوى المناهضة للتقدم هم رواسب موقف لم يشف تماماً من صدمة ميلاد الحضارة المدنية والخروج من النظام القبلى المغلق فى وجه النقد والتكذيب والتعديل.

وعبر مسار الحضارة الطويل وصولاً إلى المراحل المعاصرة كان حاملو الرواسب القبلية، دعاة المجتمع المغلق، يرتكزون على ما يسميه بوبر بالنزعة التاريخانية historicism أى الزعم بمسار محتوم للتاريخ، يمكن التنبؤ به، وبالتالى قولبة المجتمع والدولة والسياسة فى إطاره، فيكون المجتمع المغلق.

أعقب بوبر «المجتمع المفتوح» بكتابه «عقم النزعة التاريخانية: دراسة فى مناهج العلوم الاجتماعية - ١٩٥٧» حيث ينقض بوبر كل حجج الاتجاه الفلسفى المعتقد فى مسار محتوم للتاريخ، ويرى وظيفة العلوم الاجتماعية فى التنبؤ بهذا المسار. إنه اتجاه عريق موغل فى القدم، أصوله فى الأساطير القديمة، وعرفه الإغريق فقال به هيزيود وهيرقليطس وأفلاطون... ثم أوغسطين وابن خلدون وفيكو وبوسويه وكوندرسيه وأوجست كونت... وغيرهم، تحدثوا عن أنماط أو إيقاعات أو مراحل تاريخية لابد حتماً أن تحدث. وكانت أقوى وأمضى صور التاريخانية مع ماركس الذى حاول أن يجعل التاريخ علماً، فقدم الحتمية التاريخية - حتمية مجئ المجتمع الشيوعى اللاطبقى - فى صورة علمية جدلية تضاهى حتمية نيوتن الميكانيكية. فقد كان عصر ماركس - القرن التاسع عشر - العصر الذهبى للحتمية العلمية.

وكما أوضحنا آنفاً، أتت ثورة الفيزياء الكبرى فى القرن العشرين ثورة على حتمية نيوتن الميكانيكية، ثورة لاحتمية، وبوبر المتمثل لهذه الثورة حتى النخاع هو بطبيعة الحال لاحتمى، يدافع عن اللاحتمية فى كل موضع، حتى أخرج العام ١٩٨٢ كتابه العميق «الكون المفتوح: حجة من أجل اللاحتمية». هذا فى مجال العلوم الطبيعية، فما بالنا بالتاريخ؟! حمل بوبر على عاتقه طوال سنوات عطائه المديدة تفنيد أى زعم بالحتمية التاريخية. ولم يتساهل فى هذا أبداً. وفى كتابه «عقم النزعة التاريخانية» يفند كل حجج الزعم بمسار محتوم للتاريخ، سواء أكانت مستقاة من النزعة الطبيعية والتوجه العلمى أم معارضة لهذا.

كان من الطبيعى أن يحارب بوبر النزعة التاريخانية بهذه الشراسة، مادام قد أوضح لنا كيف أن الزعم بالحتمية التاريخية أساس مكين للمجتمع المغلق. ولئن كانت الماركسية أمضى صورها، فإن بوبر - ذا الأصول اليهودية - يحرص على إيضاح أن أولى صورها هى الزعم بحتمية إياب اليهود إلى أرض الميعاد، هى الصهيونية، إذن تحمل الصهيونية بجدارة مغبة إلقاء الأسس الغائرة للمجتمع المغلق. ليس فحسب، بل يجاهر بوبر بأن وضع اليهود فى معظم دول أوروبا - طبعاً باستبعاد المد النازى - كان الوضع العادى للأقليات، ولم تكن ثمة مشكلة يهودية حقيقية. ثم يعلن بوبر صراحةً فى سيرته الذاتية إن:

«كل الدعاوى العرقية والعنصرية شر مستطير، والصهيونية لا تُستثنى من هذا».

ولو أن بوبر قد امتد به العمر ليرى مذبحة جنين وما تلاها ويتلوها حتى لحظة كتابة هذه السطور؛ لكان سيوافقنا على أن الصهيونية ليست شراً مستطيراً فحسب، بل هى أشر الشرور.

يهوديان صادقان مع النفس:

على الرغم من غزارة كتابات بوبر فى مسائل السياسة والاجتماع، وكثرة استشهاده بالوقائع والأمثلة الحية والحالات الدالة بحكم منزعه العلمى، فإنه لا يتطرق فى كتاباته لدولة إسرائيل ذاتها أبداً لا سلباً ولا إيجاباً، ولا آمن

ليس العلم إلا مرحلة متقدمة من المعرفة، بل من علاقة الكائن الحى بالبيئة، حتى أننا لو كشفنا القصة كلها مرة واحدة منذ الأميبا حتى آينشتين لوجدناها تعرض النمط نفسه: حل المشكلات عن طريق آلية المحاولة والخطأ التى تفسر ما يفعله العالم فى قلب المعمل



بها لحظة واحدة، ولا تبدو له الصهيونية حلاً لأية مشكلة، بل مجرد دعوة عنصرية، أى شرّا مستطيرًا - بتعبيره الحرفي - مادامت العنصرية من أقصر الطرق للمجتمع المغلق الرافض للآخر، فضلاً عن الرأى الآخر.

يذكرنا بوبر بمعاصره ومواطنه اليهودى آرثر كوستلر (١٩٠٥-١٩٨٣) الذى جاهر بأن كتاب «عقم النزعة التاريخانية» لبوبر هو العمل الوحيد فى مناهج العلوم الاجتماعية الذى سوف يخلد إلى ما بعد القرن العشرين.

ولد بوبر فى فيينا عاصمة النمسا، وولد كوستلر فى بودابست عاصمة المجر، وذلك فى عصر الإمبراطورية النمساوية / المجرية، وشهدا معاً أفولها وتفككها وهما فى صدر الشباب. كلاهما درس فى جامعة فيينا، ولكن لم يواصل كوستلر دراسته ليحصل على شهادة تخصصية، بينما واصل بوبر دراساته حتى حصل على درجة الدكتوراه من جامعة فيينا فى الفلسفة. كلاهما هاجر فى أواسط العمر إلى إنجلترا حيث استقر حتى وافته المنية.

كوستلر يهودى، لكنه بعكس بوبر استهوته الصهيونية وهو فى أوج صباه، كان لا يزال فى التاسعة عشرة من عمره حين عمل سكرتيراً لإمام الصهيونية المتطرف جابوتنسكى أستاذ مناحم بيجين الذى علمه أصول الإرهاب. ومن فرط إيمان كوستلر بالصهيونية سافر إلى فلسطين العام ١٩٢٦ ليشهد ويشارك عن كثب فى تأسيس المشروع الصهيونى الأثيم. أقام كوستلر فى مستوطنة يهودية بوادى الأردن، وشهد ما شهده عن كثب لمدة عام واحد؛ كان كافياً ليكفر بالصهيونية كفراً بائناً وفر منها قافلاً إلى أوروبا. الخبرة التى مر بها فى فلسطين انعكست فى روايته «لصوص الليل» التى أثارت حنق اليهود لصراحتها وفجاجة القسوة التى تعرضها.

انقلب كوستلر بحماس إلى الشيوعية التى بدت طريق اليوتوبيا (المدينة الفاضلة) الموعودة. وفى العام ١٩٣٦ انخرط عضواً نشطاً فى الحزب الشيوعى، ومرة أخرى كفر بالشيوعية كفراً بائناً فى العام ١٩٣٨، بعد أن زار الاتحاد السوفيتى ولمس قهر الفردية وصخب الدعاية الجوفاء. وشارك زملاءه الآبقين من الشيوعية الماركسية فى تاليف كتاب «المعبود الذى هوى». وأيضاً انعكست خبرة كوستلر بزيف الشيوعية فى رواياته «المصارعون» و«ظلام فى الظهيرة» و«وصول ورحيل».

على أن أهم ما ينبغى أن يستوقفنا حقاً هو الكتاب الذى أخرجه كوستلر العام ١٩٧٦ بعنوان «القبيلة الثالثة عشرة» حيث يثبت أن يهود شرق أوروبا لا ينحدرون عن أصول سامية، بل هم نسل جماعات تركية كانت تعيش فى غرب آسيا ثم اعتنقت اليهودية فقط إبان العصور الوسطى. وبالطبع ثارت ثائرة اليهود عليه، فهل لهذا مات منتحراً هو وزوجته (الثالثة) فى مارس العام ١٩٨٣؟! (أحب بوبر زميلته فى الجامعة وزوجته الوحيدة وظل حتى آخر لحظة فى حياته ينوه بفضلها وفضل حبهما العظيم)

بوبر بلا شك رافض للصهيونية، بيد أنه لم يهاجمها صراحةً وجهاراً نهاراً على هذا النحو. هل اعتباراً لأخواله وأعمامه؟ أم بالأحرى لأنه فيلسوف، فوقف على الأعماق والأصول التاريخانية للصهيونية، وأبلى بلاء حسناً فى زعزعتها وتقويض حججها.

ويظل هذا الرفض الهادئ العميق للصهيونية من أجمل إشراقات فلسفة كارل بوبر، لكن لا نتوقع منه استئناف المسير ومناصرة قضيتنا؛ فهو لا ينتصر إلا لكل ما هو غربى خالص. إن بوبر ربيب المشروع الغربى وأسيره.. هو نموذج مثالى للعبقرية التى تنحصر فى قمقم الحضارة الغربية بألقه الوهاج. يندهش المرء لبصره النافذ كم هو حسير عما يتجاوز حدود العالم الغربى. ودون اعتبار للمراحل الأسبق من تاريخ العلم والحضارة، خصوصاً مرحلة الحضارات الشرقية القديمة الممهدة الملقية للأصول والمرحلة العربية من تاريخ العلم المفضية منطقياً وتاريخياً وجغرافياً إلى مرحلة العلم الحديث.. دون اعتبار لكل هذا، نجد الحضارة عند بوبر بدأت مع اليونان!! وعبر فجوة باهتة هى العصور الوسطى حطت رحالها فى غرب أوروبا حيث معجزة العلم الحديث ومعجزة النموذج الليبرالى الديمقراطى حتمى الانتصار على الشيوعية لأنها مجتمع مغلق. كل ما عدا هذا فراغات سوداء لا يعرفها بوبر أو لا يعترف بها، إلا كشواهد على التخلف والجمود والدكتاتورية والافتقار إلى النزعة النقدية. وإذ امتدت الحضارة الغربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، يجاهر بوبر بأنه أسعد الفلاسفة إذ عايش هذه الحضارة الرائعة التى أحرزت مجداً لم يحلم به الإنسان من قبل وهى تقضى على الفقر المدقع وتقاوم الأمراض والموت وتكفل الحرية ورفاهة الفرد وأمنه وكرامته.

هكذا نجد بوبر شوفونى الإعجاب بالحضارة الغربية. وقد كانت فلسفة التنوير فى القرن الثامن عشر تؤكد على طريق واحد ووحيد لتقدم الإنسانية هو طريق العقل والعلم وفصل الدين عن الدنيا، الطريق نفسه الذى قطعه الإنسان الغربى (أصبح اسمه الآن العولمة)، لتغدو مهمة الحضارة الغربية فرضه على الشعوب الأخرى المتخلفة لكى تلحق بمسيرة التقدم. وبهذا ألقت فلسفة التنوير الأساس الأيديولوجى العميق للاستعمار: جاعلةً الحضارة الأوروبية نوراً وناراً. هى نور التقدم والمدنية والعقلانية والديمقراطية ومنجزات العلم والتكنولوجيا وسائر حصائل الحداثة، ونار المستعمر المحتل المسيطر المستغل المستنزف للموارد الذى أسفر فى النهاية عن أسفل السافلين بتأسيس دولة إسرائيل ودعمها بغير حدود..

وبوبر من ناحيته يدافع عن الجانب الإيجابى.. عن الأنوار، عن العلم والعقلانية والمعرفة الموضوعية وقيم التقدم فى مواجهة تيارات ما بعد الحداثة التى تتجاوز فلسفة التنوير أو تنقضها، ويحلو لبوبر دائما التأكيد على أنه آخر التنويريين العظام. وبوضع إسرائيل بين قوسين لا مفر من الاعتراف بأن بوبر وبشكل ما أيضاً آخر الاستعماريين العظام، وإذ يرى الحضارة الغربية بما حققته من حرية وفردانية وتقليص للفقر والجهل والمرض أعلى مد بلغه الإنسان، فإن الحضارات الأخرى فى ناظريه بمثابة أطفال نفكر ألف مرة قبل إعطائهم أى قدر من الحرية والاستقلال!

الهندسة الاجتماعية الجزئية، طريق ثالث

ونعود مجدداً إلى مكمن النار وهيكل النور فى الفلسفة البوبرية، انعكاس إيجابيات التفكير العلمى على الرؤى السياسية والاجتماعية؛ لتستوقفنا أخيراً فكرة مثمرة للغاية.

ذلك أن بوبر فى إطار نقده للماركسية وللمجتمع المغلق إجمالاً. كانت أهم الجوانب التى حاربها بشراسة فيما تنطوى عليه الماركسية من نزعة يوتوبية كلية. النزعة الكلية تتناقض مع النزعة العلمية تناقضاً حاداً. وهى بصفة عامة مرتبطة بالتاريخانية. افترضت الماركسية أنها بضربة واحدة - هى الثورة الدموية - سوف تقلب التطور التاريخى إلى المرحلة اليوتوبية والجنة الموعودة للكادحين. وهذا فى جوهره مواصلة لمسيرة الفكر اليوتوبى الذى يطرح تخطيطاً كلياً للمدينة الفاضلة أو جلب السماء إلى الأرض، صارفاً الأبصار عن الطابع المرحلى لكل بناء معقد، وعن مشاكله التى يتولد عن حلولها مشاكل أخرى غير متوقعة (م٢) كما يعلمنا منهج العلم وأصول التفكير العلمى.

وإذا كان التفكير الرومانتيكى هو نقيض التفكير العلمى؛ فإن هذا المنزع الكلى نحو عالم أفضل إنما هو نوع من الرومانتيكية الصريحة، بحث عن المدينة المثالية ككل متكامل فى الماضى أو فى المستقبل.

ربما كان البحث عنها فى الماضى أكثر حضوراً فى واقعنا نحن. فى كلتا الحالتين يرى بوبر: «عودوا على الماضى المجيد» أو «سيروا نحو مجتمع العدالة الاجتماعية».. نداءات إلى العواطف أكثر منها إلى العقل، طابعها الكلى يستلزم إحكام قبضة الاتجاه الواحد والرأى الموحد على المجتمع بأسره، وغلق الأبواب أمام الرأى الآخر وإخماده، وبالتالى لا مندوحة عن أساليب القهر والقسر والعنف. ومع أخلص نواياهم بصنع جنة السماء على الأرض، لا يفلحون إلا فى جلب حدود الجحيم؛ لأنه الواقع المضطرم الحى الذى يأبى الانصياع بسائر جزئياته المتكثرة والصب فى إطار هندسة كلية شمولية أياً كانت، ليأتينا بكل ما نريد جملةً وتفصيلاً.

ولكن هل يعنى هذا أنه لا سبيل إلى البحث عن عالم أفضل؟

كلا بالطبع، بل يمكن القول إن البحث عن عالم أفضل هو حادى مجمل الجهد الواعى العاقل للإنسان (لبوبر كتاب عنوانه «بحثاً عن عالم أفضل»)، وينبغى أن يظل هكذا، وأن نعمل دائماً على تغيير الأوضاع من أجل درء المثالب وحل المشكلات التى تواجه المجتمع والاقتراب دوماً من الأهداف المنشودة والمثل العليا. ولكن لا يكون هذا بالأسلوب الكلى الشمولى، والتخطيط المركزى الذى يحكم قبضته على المجتمع المغلق، بل عن طريق ما أسماه بوبر بالهندسة الاجتماعية الجزئية المتسقة مع ليبراليته. فماذا عن هذا؟

الهندسة الاجتماعية على إطلاقها تعنى إنشاء النظم والمؤسسات الاجتماعية أو تكييفها وتعديلها وفقاً لخطة مرسومة قبلاً، أو بالمصطلح الأنيق نقول تبعاً لمخطوطات زرقاء blue prints على أن الخطة أو المخطوطة يمكن أن تكون شمولية تنحو إلى قلب المجتمع بأسره من وضع إلى وضع، بصورة حدية متطرفة.. بضربة واحدة، أو حتى

الحقيقة المطلقة لن يعلمها
إلا خالق الكون، وليس على الإنسان
إلا أن يحاول، وليس العلم إلا محاولات لحل
مشاكل نظرية وتطبيقية، محاولات ناجحة، تفتح
الطريق لمحاولات أخرى أنجح. كل إجابة يطرحها
العلم يطرح معها تساؤلات أبعد،
فيؤدى كل تقدم إلى تقدم أبعد

كتاب الزاوية

حرب النهر
نهاية غوردون

يصف تشرشل اللحظات الأخيرة فى حياة الجنرال البريطانى شارلى غوردون الذى أرسلته الحكومتان المصرية والبريطانية لإجلاء ما تبقى من قوات فى السودان وإنهاء الحكم المصرى هناك بشكل سلمى.

عند المساء عزفت الموسيقى كالمعتاد ورويداً عم الظلام.. وخلد سكان المدينة الجوعى إلى النوم. شعر القائد الذى لا يقهر بأن الأزمة على الأبواب، ولكنه عاجز عن تفاديها، وكان راضيًا عن نفسه لأنه عمل ما عليه، ربما خلد للنوم أيضًا. فى هدوء الليل تسلل العدو الوحشى إلى داخل المدينة. كان هنالك شك فى أن الجنود المتعبين. الجوعى المنهكين من الحرب قد أعدوا الحراسة اللازمة، انتهز العدو انحسار جزء من النيل الأبيض الذى ترك فراغًا بين النيل والحائط، ومع سماع دوى هائل نتيجة لانفجار البارود والصياح دخل آلاف الدراويش الخرطوم من خلال الأجزاء غير المؤمَّنة.

ذهب جزء من القوة إلى القصر، وظهر غوردون لملاقاتهم. امتلأ الجو بالرعب ولمعان الرماح، بادرهم بالسؤال: أين قائدكم المهدى؟ لقد ظن أن بإمكانه إنقاذ بعض السكان، كان يعرف مدى نفوذه بين الأهالى المحليين.

لم يتمكن من عمل شىء مع جنون الفرحة بالانتصار والاندفاع الدينى، هجموا عليه ولم يحاول حتى استعمال مسدسه، وانهالوا عليه طعنًا فى أجزاء مختلفة من جسمه، وقع على درجات السلم، هنالك أجهزوا عليه فقطعوا الرأس وحملوها للمهدى، وأعملوا فى باقى الجثة حتى لم يتبق منه شىء إلا أكوام لحم وخرق ممزقة مليئة بالدم.



بثورة دموية. وهذه هى الهندسة الاجتماعية الكلية التى رفضها بوبر بشدة كما سبق.

فى مقابل هذا، يمكن أن تكون الهندسة الاجتماعية جزئية: مخطوطات زرقاء أبسط وأضيق حدوداً، مخطوطة تنصب مثلاً على مكافحة البطالة أو مرض متوطن، أو تطوير نظام تعليمى...إلخ. ولما كانت كل محاولة فى واقع الإنسان لابد أن يشوبها خطأ ما كما يعلمنا التفكير العلمى، فإن مخطوطات الهندسة الجزئية المحدودة تجعل الخطأ بدوره محدوداً، درؤه أيسر، والخسران الناجم عنه أقل مخاطرة من المغامرة بتخطيط كلى.

إن الهندسة الاجتماعية الجزئية تتلمس الطريق خطوة خطوة، وتبحث عن أكثر المشكلات إلحاحاً. يتبارى الرأى والرأى الآخر للوصول إلى أفضل الحلول، فتحل الديمقراطية محل القمع والديكتاتورية، نقارن النتائج المتوقعة بالنتائج المتحققة فعلاً. نترقب على الدوام ظهور النتائج غير المرغوب فيها، والتى لا مفر منها فى كل إصلاح بل وفى كل محاولة إنسانية. هكذا يحل التناول العقلانى المرحلى محل التحمس المشبوب والعنف والقسر. ونرفض كل دعوى بحتمية التاريخ - ماضيه ومستقبله - ليُترك المجال مفتوحاً للتعديلات والتصويبات وفق أية مستجدات فى الواقع.

تلك هى الهندسة الاجتماعية القريبة حقاً من روح المنهج العلمى بل أيضاً من روح التقانة (التكنولوجيا)، حتى يمكن القول إنها الأسس العلمية للسياسة، فهى تتوقف على السياسة الواقعية الضرورية لتشييد أو تعديل أو تبديل المؤسسات الاجتماعية وفقاً لأهدافنا. سوف تخبرنا بأى الخطوات هى التى يجب اتخاذها فعلاً إذا رغبنا مثلاً فى تفادى الكساد لمؤسسة ما، أو عدالة توزيع الربح الناتج عن مؤسسة أخرى.

المهندس الاجتماعى هنا يتصور شيئاً ما يشبه التقانة الاجتماعية من قبيل تصميم النظم والمؤسسات الاجتماعية الجديدة، وتشغيل وإعادة تركيب ما هو موجود فعلاً. النظم الاجتماعية هنا تستعمل بمعنى واسع، فتشمل الهيئات الاجتماعية العامة والخاصة، أى عمل تجارى كبير أو صغير، شركات التأمين والمصارف، الشرطة، مؤسسات الخدمات التعليمية والصحية، الهيئات الدينية والقضائية والإعلامية...إلخ. كلها تتناولها الهندسة الاجتماعية الجزئية بوصفها وسائل علينا أن نجعلها تحقق أهدافاً معينة، ونحكم على كلٍّ منها على حدة تبعاً لملاءمتها وقدرتها على تحقيق الهدف منها.

طرح بوبر تصوره للهندسة الاجتماعية الجزئية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، فى محتدم الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية، فبدت كأسلوب ترقيع جزئى متواضع، عزف عنه المتحمسون من كلا الجانبين، التواقون للإصلاح والكمال ككل لا يقبل تجزئة. والآن اتضح أن طريقهم أكثر التواءً وأبعد منالاً، إن لم نقل مستحيل المنال.

لقد شهدت بدايات القرن العشرين انتهاء الرأسمالية المطلقة، رأسمالية «دعه يعمل.. دعه يمر.. إن العالم يسير من تلقاء نفسه» بلا أى تخطيط أو تدخل من الدولة. إنها الرأسمالية. التى كانت سائدة فى عصر الثورة الصناعية وحاربتها الاشتراكيات الصاعدة آنذاك، وتنبأ ماركس بأفولها، وهذه هى نبوءته الوحيدة التى تحققت وإن لم تحل محلها الشيوعية كما زعم. على أية حال كان اختفاء تلك الرأسمالية المتطرفة أو تكييفها أو تعديلها تقدماً إيجابياً بلا شك. وبوبر نفسه يعلن ارتياحه لانتهاء مثل هذه الرأسمالية.

ومثلما شهدت بدايات القرن العشرين انتهاءها، شهد العقد الأخير منه نهاية الاشتراكيات المتطرفة وانهيار الأنظمة الشمولية المغلقة باسم الاشتراكية فى شرق أوروبا. لقد ثبت فشل التطرف من كلا الاتجاهين. وتتقدم الهندسة الاجتماعية الجزئية حين تقنينها وصياغتها وتوجيهها وفق أهداف ومثل عليا، وتبدو حلاً فى متناول كل الأطراف، يصعب أن يستأثر بها أحد الطرفين. إنها فكرة عالجها فيلسوف ليبرالى اقترن اسمه بتطوير ليبرالية النصف الثانى من القرن العشرين فى اتجاه خطوط الاشتراكية الديمقراطية التى ما فتئ بوبر يثنى عليها، وقبل وفاته بعامين قال إنه دائماً اشتراكى، بمعنى إحساس العاقلين بالمسئولية تجاه الآخرين الأقل منهم حظاً ونصيباً فى الحياة، بيد أن البشر للأسف لا تحركهم مثل هذه الدوافع النبيلة.

لهذا نجد الهندسة الاجتماعية الجزئية التى عالجها فيلسوف ليبرالى قد أتت فى جوهرها أقرب إلى الاشتراكية الديمقراطية، بل والاشتراكية الفابية التى عرفت كيف تزرع القيم الاشتراكية فى صلب الحضارة الإنجليزية - معقل الرأسمالية، حيث ينازع حزب العمال حزب المحافظين ويتغلب عليه كثيراً ويمسك بزمام الحكم.

ونختتم رحلتنا فى بعض زوايا الفلسفة البوبرية بأن زعماء كلا الحزبين يقرون بأنهم متأثرون ببوبر أشهر وأهم فلاسفة إنجلترا المعاصرين، وبفلسفته السياسية والاجتماعية التى يرونها أول تطوير حقيقى وتغيير لمسار الليبرالية منذ وفاة جون ستيوارت مل، أيضاً فى انجلترا العام ١٨٧٣.

إنهم الآن يتحدثون كثيراً عن الطريق الثالث، بعد ما رأيناه من أفول التطرف الرأسمالى والتطرف الاشتراكى على السواء. وظهر مصطلح الطريق الثالث وكاد يفرض نفسه حتى ظهور مصطلح العولمة كغول ينذر بابتلاع كل ما عداه، وذى صخب عال يطغى على كل ما سواه. ودون أن ندور فى متاهات العولمة المفضية إلى لا شىء، نكتفى بإيجابيات التفكير العلمى وقد تمثلت فى الهندسة الاجتماعية الجزئية، كآلية فعالة فى صلب الطريق الثالث، الذى يبدو طريقاً مريحاً لكلا الجانبين. ■

الإبداع الفنى فعل ثورى

الوجه الآخر للمقاومة

عزالدين نجيب

■■ المقاومة الثورية فعل إبداعي، كما أن الإبداع الفني فعل ثوري!

إن الثوار العزل من أسلحة الجيوش النظامية لا يستطيعون مواصلة نضالهم ضد أعتى آلات الدمار، المزودة بشراسة لا تتمتع بها الجيوش، إلا بإيمان عظيم بالمستقبل، وحلم نبيل بالحق وانتصاره على البغي، وهو ما يغذي فيهم روح الإبداع الثوري.. إن عدوهم يدمر الحياة والجمال مدفوعًا بالخوف برغم تفوق القوة، لأنه لا يملك غيرها، وهم قادرون على إعادة بنائهما كل يوم، لأنهم يملكون الحلم، كما يملكون الحب والعزيمة لتحقيقه، قبل الحجر والمقلاع والبندقية!

كذلك فإن الإبداع خلق جديد لصور الجمال في مواجهة أشكال القبح، إنه الذي يعيد التوازن المفقود للحياة، ويقيم بالحلم نظامًا سويًا للنفس البشرية، يمنحها السلام واليقين في الغد وفي انتصار الحق، ويواكب بالخيال وتجليات البصيرة فعل الثورة.. كي يحرر طاقات الجماهير عندما ترى نفسها في الفن، لذا فلم يكتب الخلود قط لفن مجّد أفعال المعتدين والطغاة، فيما تحفل المتاحف والميادين والصروح المعمارية والحدائق والمطبوعات في كل الدنيا بأعمال فنية انتصرت للإنسان ومجّدت نضاله من أجل العدل والسلام والحرية.

المخيّم.. محطة الانطلاق!

ولم يكن معرض الفنان محمد حجي الأخير إلا تأكيدًا لهذا المعنى.. فعبر مائة لوحة، اتخذت جميعًا عنوان: شعب تحت الحصار، صاغ لنا حياة الشعب الفلسطيني البطل، ليس فقط وهو يخوض حربه المقدسة لتحرير أرضه من براثن الغاصب الإسرائيلي، بل كذلك وهو يمارس حياته العادية، ويضمد جراحه، ويزرع في نفوس أطفاله - مع عقيدة الحق وقدرية المقاومة وطلب الاستشهاد - حب العلم والبناء والتعمير، فيحيل المخيّم/ السجن - فوق كونه محطة انطلاق لحركة التحرر - إلى ساحة تتردد فيها أنغامه عبر الناي الذي يعزف عليه الصبي رغم نزيف جرحه، ولم تغب عن مسرح اللوحات الصور الشعرية الرفيعة ومحورها الوجه الآخر للمقاومة: مثل أم في لهفة اللقاء بولدها الفدائي الغائب، أو أخت صبية تتلقى رسالة تخبر باستشهاد أخيها، أو انبهار طفل غض وهو يتعلم - مع أولى الكلمات - كيف يستخدم البندقية، أوصبر صبي لا يجد من يشتري منه التفاح ليقتات هو وأسرته من ثمنه، وقد يكون أخوه في اللحظة ذاتها ممسكًا بحجر يتحدى به الدبابة.

وإذ تصطف الخيام المخروطية البيضاء على أرض المخيّم كمعسكر الاعتقال، تنكفئ أم داخل إحدى هذه الخيام على وعاء الغسيل لتنظف قميص ابنها المشبع بالدم، وفي خيمة أخرى تنهمك أم ثانية في إعداد الخبز لأسرتها أو للفدائيين، وتنتشر الأرغفة على الأرض في مشهد يفوح بعبق الحياة، وفي خيمة ثالثة ينكفئ تلميذ بالمرحلة الابتدائية على الأرض فوق كراريس واجبه المدرسي، ينهي الواجب قبل أن تفاجئه قذيفة تحول دون استكماله، ووسط انقاض منزل دمرته آلة العدوان يسارع الصبي - الذي صار رجلاً مسئولاً قبل أن يعرف لعب الطفولة - إلى إنقاذ شقيقه الصغير من الموت وجرحه ينزف.

شعب تحت الحصار

معرض الفنان محمد حجي

٤ يوليو - ٤ أغسطس - الإسكندرية قاعة متحف الفنون الجميلة

١٥ مايو إلى ١٥ يونية ٢٠٠٢

قاعة الأفق - الجيزة - مصر

مائة لوحة صغيرة نفذت، احتلت نصفها تقريبًا نماذج متعددة لأطفال - فرادى وجماعات - وهم يمارسون شتى الأدوار والنشاطات الإنسانية، بين المقاومة بالحجر والمقلاع وسط ألسنة اللهب وسحب الدخان وبين الجلوس لمشاهدة التليفزيون على أرض الخيمة المفروشة ببساط مخطط بخطوط ملونة متعاكسة، وبينهما مواقف عديدة.. مثل ذلك الطفل الذي يلصق أذنه بجهاز الراديو أمام جدار عتيق كتبت فوقه شعارات المقاومة، أو زميلتيه اللتين تملآن صفائح الماء من حنفية المخيّم وتنقلانها إلى الخيمة كي تستمر حياة أسرتيهما، أو الآخر الذي يسقي الزرع، أو غيره الذي يتسلق سورًا من الأحجار ليرفع العلم، أو هؤلاء الذين يعيدون بناء المنزل المهدّم، أو الآخرين الذين انهمكوا في تنظيف المدفع وتجهيزه للمعركة، أو أولئك الذين يشاركون في تشييع جنازة شهيد، أو يزورون مقبرة شهيد آخر أمست ضريحًا، أو هذا الطفل الذي يحتضن شقيقه الصغير بين حبه والخوف عليه.

قرابة خمسين لوحة حفلت بشتى أوجه الفعل الناضج للطفل الفلسطيني، ولنتخيل كيف يكون هذا الطفل بعد أن يصبح شابًا ورجلاً.. وهل بوسع قوة في الأرض أن تنتزع منه آنذاك جمرة الثورة والحرية، وقد ترسخت بداخله - مع قيم الثورة - قيمة التضحية بالروح كي تتحقق للوطن الحياة؟

كما احتلت شخصية الأم أو الأخت الكبرى عشرين لوحة أخرى، وهما ليستا من الشخصيات الباكية الملتاعة على ابنها أو أخيها أو المولولة على بيتها المدمر، بل هما أقرب إلى تلك الشخصية التي رسمها الأديب الروسي مكسيم جوركي في روايته الشهيرة «الأم»، لكن بملامح فلسطينية وسلوك عربي، تكبح آلامها لتشد أزر أبنائها لاستمرار المقاومة، ونراها جالسة تطرز الثوب أو تخيط الكساء أو تخبز العيش أو البسكويت للصغار، وكأنها تنسج بالخيال أملهم في الغد، ونراها تحتضن الابن أو الأخ بيد، وتحمل باليد الأخرى بندقية.. فمن يدافع عن بيتها في غيبته غير هذه البندقية؟ ونراها تحتضن العائد من المعركة بعد غياب، أو وهي تضمد جرحه، فتمنحه مع زاد الحب والحنان زادًا إضافيًا للصمود.

وإذا مضينا في هذا الإحصاء حول موضوعات اللوحات، فسوف نجدها موزعة بنسب تتراوح بين ٦٪ و١٠٪، من لوحات بطلها الأب في علاقته بأبنائه وهو يعلمهم كيف يستخدمون البندقية أو حتى كيف يضعون اللثام على أفواههم، إلى لوحات لأطفال عائدين من المدرسة أو جالسين يستذكرون دروسهم، وبين لوحات للمظاهرات والمواجهات مع العدو، إلى وجوه مقنّعة بقناع الثوار، إلى مشاهد الحياة اليومية في المخيّم أو الوقوف على أطلاله المنهارة.. فيما نجد ٢٠٪ على الأقل من اللوحات أبطالها هم أبطال المقاومة كبارًا وصغارًا في مختلف أوضاع المواجهة مع العدو.

شاعر الجماعة الشعبية

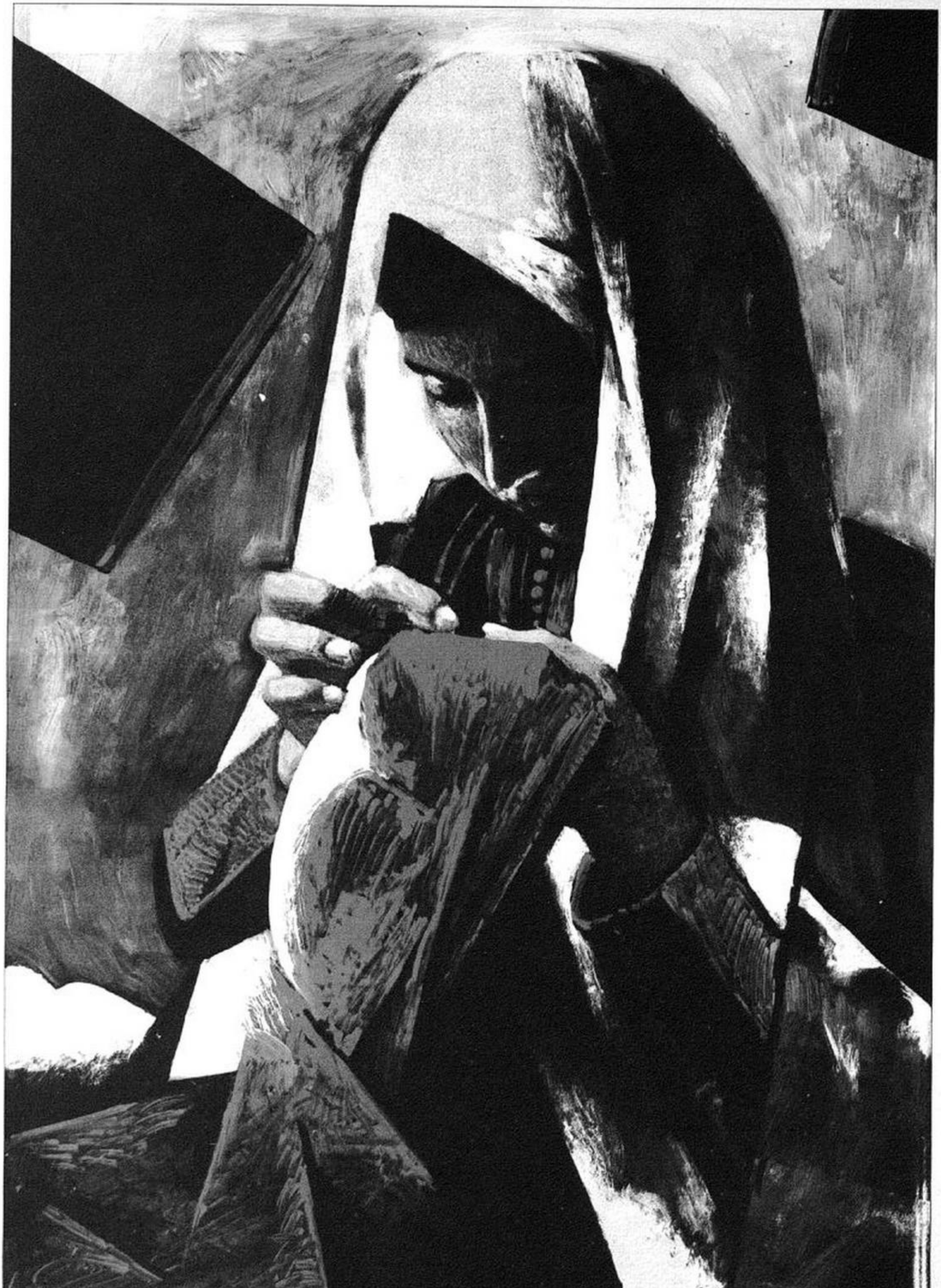
هي إذن معزوفة ملحمية ممتدة الحلقات عن الحياة والحب والمقاومة والموت، تعطى لمسيرة الحياة طاقة على الاستمرار.. إن الفنان يقوم بدور شاعر الجماعة الشعبية الذي يقوى روحها المعنوية في مواقف الخطوب الجسام، وهو يبدأ من سرد الحقيقة - أو الوقائع الجارية - لينتهي إلى روح الشاعر الخالص، مرورًا بالتعليق الحكيم على الأحداث وإضفاء البطولة على الشخصيات التي تقوم بصنعها.

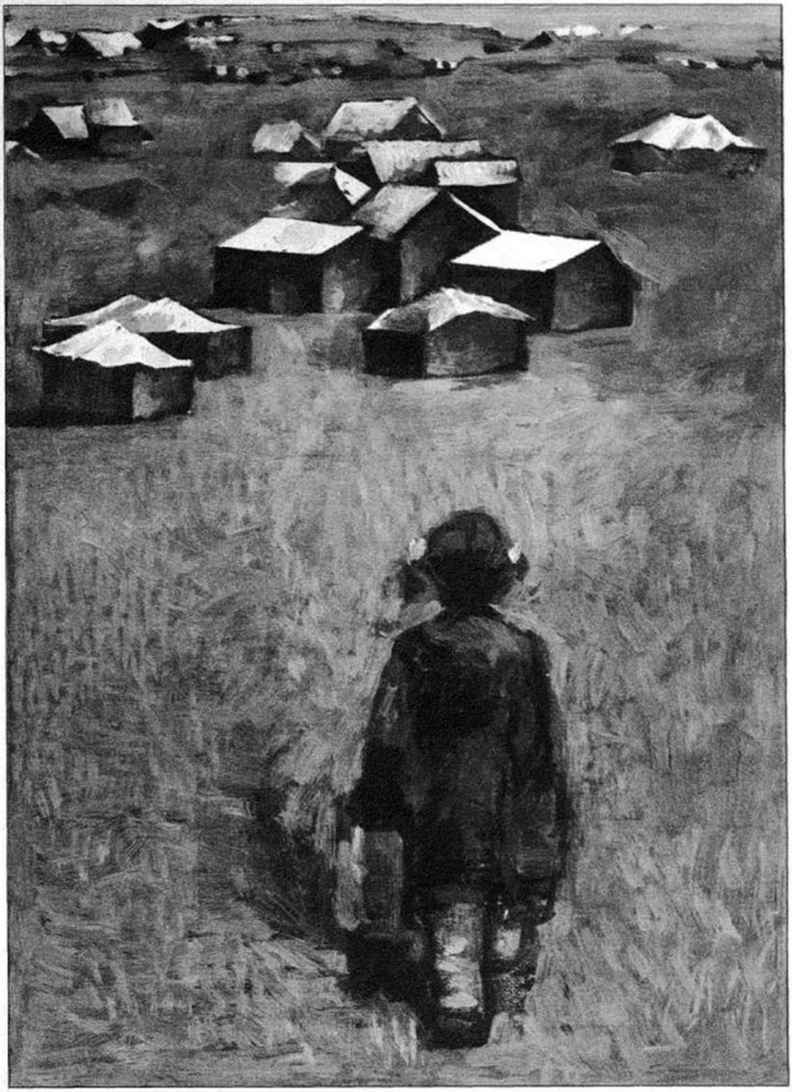
وإن شئنا مقارنة هذه التجربة بوسائط الفنون العصرية، فلعلها أقرب إلى الفيلم التسجيلي/ الدرامي، الذي يجمع بين التوثيق الفني للحدث، وبين النمو الدرامي المصاغ بعين الكاميرا ومن خلفها العين المبدعة للمخرج، التي تجعل من تتابع المشاهد وتراكمها شيئًا يتجاوز الموضوع والحدث نحو التعبير عن جوهر كُلّي للحياة أو الوجود، وفي اختياره للأحداث والمشاهد يتجنب فنان السينما المبدع كل ما هو مكرور ومألوف بالنسبة للجمهور من خلال أجهزة البث الإعلامي بوسائطها المختلفة، لأن إبراز البطولة له ألف زاوية للنظر، وليس منها بالضرورة مشاهد الالتحام بالعدو أو تصوير عملية استشهادية، فلعل مشهد أم تحتضن ابنها الفدائي العائد من عملية وجرحه ينزف، أبلغ بكثير من مشهد ذلك الفدائي وهو يقوم بعملية ضد العدو.



من هنا كان لجوء الفنان محمد حجي إلى الأسلوب الواقعي الذي يضاهي أحيانًا اللقطة الفوتوغرافية، وقد كان بوسعه التعبير بأسلوب حديث، مثل التعبيرية أو السريالية أو الحوشية أو حتى التجريدية والتكعيبية، وله في كل منها تجارب فنية متميزة، شاهدناها عبر رسومه المواكبة لمؤلفات نجيب محفوظ ومصطفى محمود وغيرهما، كما أن له كتبًا خاصة به وحده، تضم لوحاته كأعمال فنية في حد ذاتها، حتى وإن ارتبطت بقضية سياسية أو بيئية مثل: شمال/ يمين، رسام يقرأ القرآن، ذكريات ريفية، رباعيات عامية، ورسوم من ليبيا.. لكنه آثر اتخاذ هذا الأسلوب الواقعي المباشر لسببين: الأول أنه معنيّ بتوثيق ملامح الحياة اليومية لشعب تحت الحصار: كيف يعيش؟.. كيف يُغذي أطفاله بتلك العقيدة النضالية التي صنعت معجزة الانتفاضة ومعجزة الاستشهاد؟.. كيف يجمع بين طعم الحياة وطعم الموت دون شعور بالإحباط؟.. كيف يعزف الألحان وينشد الشعر والجرح ينزف؟.. كيف وكيف وكيف بغير نهاية.

والسبب الثاني هو أن قضية توصيل هذه الرسالة إلى جمهور آخر، يختلف تمامًا عن جمهور المثقفين ومرتادي المعارض.. إلى تلك الكتلة العريضة الساكتة المسكوت عنها من أبناء الشعب التي لا يخاطبها الفنانون والمثقفون.. وذلك هو مفتاح شخصية محمد حجي منذ عرفته عام ١٩٦٠.. طالبًا زميلاً بكلية الفنون الجميلة.. فلاحًا مصريًا حتى النخاع.. ملتحمًا بقريته سندوب قرب المنصورة، أثناء وبعد دراسته





وخلال رحلة حياته الممتدة مع العمل والفن، محرضًا سياسيًا متقوعا فى الأحداث، رافضًا فى الوقت ذاته أساليب السياسيين ومنابرهم الحزبية، لذا لم يلتحق باى تنظيم سياسى، ولم ينغمس فى أى حملة تقودها تلك الأحزاب.. بل كان له حزبه الخاص الذى يبدأ وينتهى عنده وحده، يتواصل مع جماهيره عبر قناة وحيدة وهى الفن، معطيًا ظهره لمجتمع الفنانين والمثقفين، بل ومقللاً من شأن قناة التواصل الإجبارية بين الفنانين والجمهور وهى قاعة العرض، لأنها فى نظره اختراع أوروبى وأداة لخدمة البرجوازية ولتكريس العزلة بين الفن والناس، وبسببها انعزل الفن عن المجتمع وتحول إلى طلاسم ورطانة أجنبية لا تعنى عامة الناس فى أى شيء. لذلك اختار حجى ـ منذ اللحظة الأولى لاتخاذ الفن مهنة ـ العمل كرسام صحفى، وحتى قبل أن يتاح له العمل بمجلة «روزاليوسف»، مارس هذا العمل فى مدينة المنصورة من خلال مجلة إقليمية محدودة، كانت مختبره الأول للإبداع والتعبير والتواصل مع عامة الناس وجموع البسطاء، لذلك أيضًا اتخذ أسلوبه سمتًا تعبيريًا يتسم بالصرامة والقوة ليصل إلى وجدان القارئ من أقصر طريق، فى الوقت الذى لم تكن رسومه قط نسخًا فوتوغرافيًا للواقع أو تجميلاً لصورته، بل صياغة جديدة مختلفة له، مليئة بشحنة العاطفة وقوة الإيحاء، عبر الاختزال للتفاصيل والتلقائية الخشنة والبنائية الهندسية التى تتشرب بمسحة من التكعيب والتجريد، وقد يبدو فى بعض الأحيان متأثرًا بمدرسة الواقعية الاشتراكية فى دول أوروبا الشرقية فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، خاصة فى الرسوم الجرافيكية باللون الأسود لأمهات الكتب الأوروبية التى ترجمت إلى العربية بغزارة فى سنوات الستينيات، لكنه سرعان ما بنى أسلوبه الذاتى مستقلاً عن ذلك الاتجاه، وإن بقى لديه بعض من رواسبه.

وجدير بالذكر أن خيار حجى فى الفن لم يكن الخيار الوحيد بين أبناء جيله، الذين خرجوا إلى معترك الحياة العملية فى أوائل الستينيات، بل شاركه فى ذلك كوكبة من الموهوبين تصادف أن تزاملوا فى الدراسة بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة وتخرجوا تباعًا فى دفعتين أو ثلاث، وشقوا طريقهم بنفس قناعة حجى وفى نفس الاتجاه الصحفى، رغم أنهم جميعًا يملكون قدرات إبداعية متميزة فى فن التصوير ولوحة الحائط، منهم نبيل تاج ومصطفى رمزى ومحيى اللباد وجودة خليفة، وقد أسس كل منهم لنفسه قنواته الاتصالية عبر الصحف ووسائط الطباعة، وترك بصمته الفنية الخاصة كل فى مجاله.

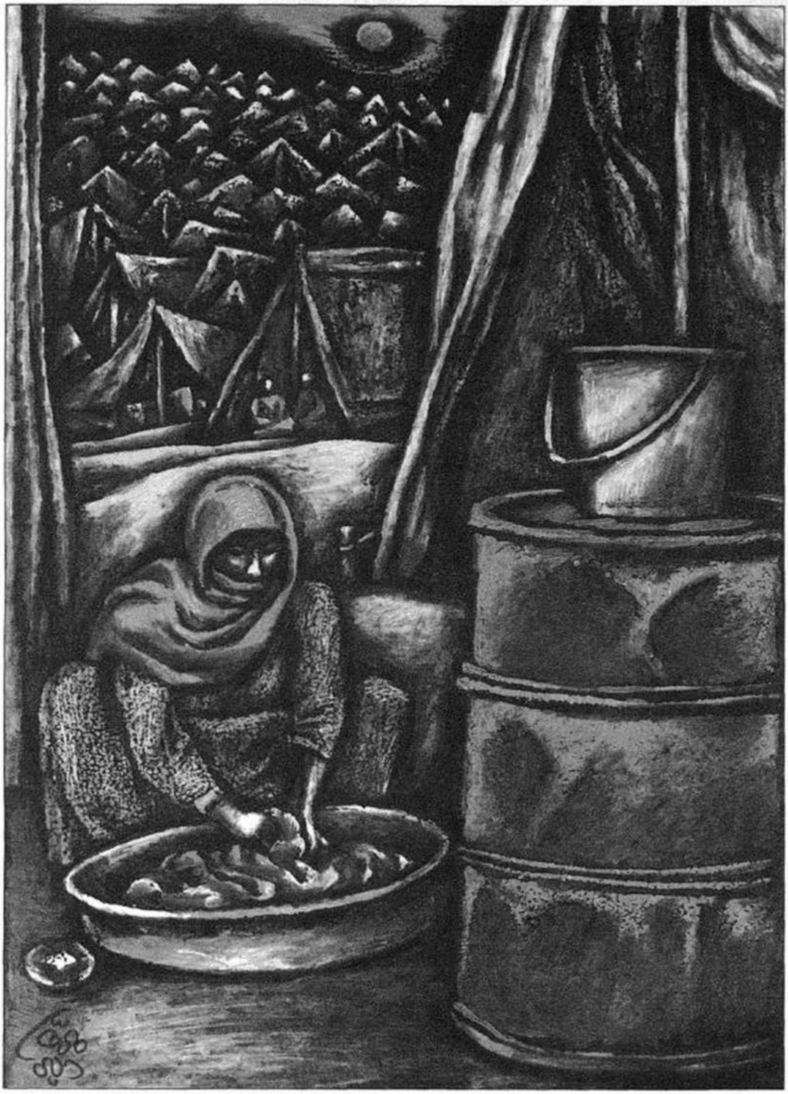




كانت تلك إذن رؤية جيل، في ظروف مد ثقافي وسياسي معين، حققتها على أرض الواقع مواهب خاصة تملك الاستعداد الفني والنفسي لهذا المسار.

خيار القاعة النخبوية!

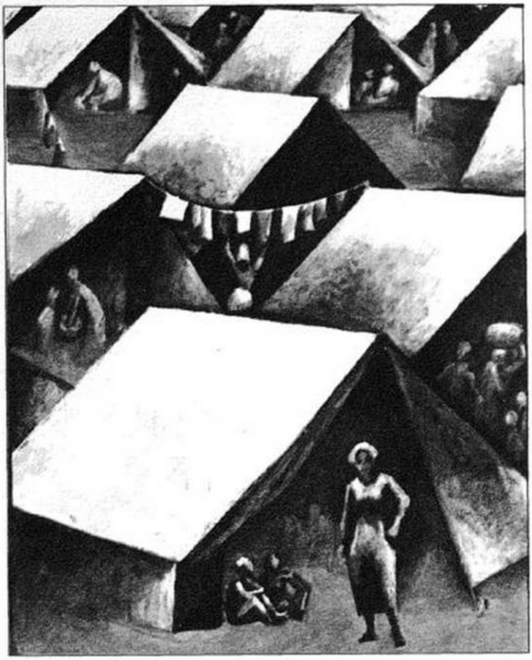
من هنا فإن خيار حجي بالنسبة لأسلوب لوحات هذا المعرض «خيار استراتيجي» إذا جاز التعبير، وقد نشر عددا غير قليل من لوحات المعرض عبر الصحافة، وربما كان - لهذا السبب - غير متحمس لإقامة معرض لها بإحدى القاعات التي يعتبرها نخبوية بلغة المثقفين، لكنه عاد فقبل، ربما لأنه أحس أنه في حاجة أيضًا إلى رأي هؤلاء المثقفين، وربما لأنه في حاجة إلى التغطية الإعلامية عبر قنوات التليفزيون والصحافة وغيرها للمعرض، مما ساعد على وصول رسالته إلى قاعدة أكبر من الجمهور، وفي كل الأحوال فهو لن يقدم تنازلاً ولم يغير جلده. وظلت قناعته كما هي بالنسبة لنوع الجمهور العام الذي يتطلع إلى التأثير في وعيه، وقد باتت قضية فلسطين جزءًا مهمًا من هذا الوعي في الفترة الأخيرة.. غير أن المفارقة هي أن ذلك الجمهور لم يحضر افتتاح معرضه بالرغم من أنه قد سلطت عليه أضواء الإعلام، وربما لم يحضر إلا القليل منه على امتداد فترة إقامته التي بلغت شهرًا كاملاً، والسبب معروف: وهو أن المكان الذي أقيم فيه - قاعة الأفق - كان مصممًا «كدشمة» عسكرية ملحقة بمنزل الرئيس الراحل أنور السادات، وبالرغم من أنها ألحقت بمتحف محمد محمود خليل وأعيد تجهيزها كقاعة فاخرة للمعارض، فمازالت الغربة قائمة بينها وبين الشعب، بل زادتها الإجراءات الأمنية المبالغ فيها - دون أي مبرر - رسوخًا.. ولكم أشفقت على الفنان حجي من أثر ذلك في نفسه، هو الذي ظل طوال مشواره الفني يهرب حتى من قاعات العرض المفتوحة نهارًا وليلاً بغير قيود، فإذا به يقدم معرضه الأول في مكان يشبه الموقع العسكري ويدخله الزائر مارًا بمعبر تفتيش إلكتروني ويغلق أبوابه في السادسة مساء!



ولا أستطيع أن أقيس مدى وصول رسالة المعرض إلى الناس وقد أقيم على فترتين (بالقاهرة ثم الإسكندرية) إلا من خلال الترحاب الذي قوبل به في الصحافة ومن خلال الندوة التي أقيمت في نهايته بمتحف محمد محمود خليل وشارك فيها الكاتب محمد عودة والممثل الفنان سامح الصريطي والشاعر الفلسطيني هارون هاشم رشيد والكاتبان الصحفيان أمين إسكندر وأسامة عقيفي وقدمها الناقد الفني محمد حمزة، وكما كان متوقعًا فقد غلبت







لغة الخطاب السياسي على لغة التحليل الفني، باستثناء كلمات لأسامة عفيفي وحلمي شعراوي وأحمد عبيد الذين أشاروا إلى بعض الجوانب الفنية في أعمال محمد حجي وربطوا بينها وبين منطلقات الحركة الوطنية وتجاربه الإبداعية السابقة بين الصحافة والكتب التي أصدرها، وأشار بعضهم إلى سمة الملحمية والجلال والاستلهام من التراث الشعبي والمزج بين الواقعية والرمزية، وصولاً إلى أن يصبح الرسم كالمنشور الفني الذي يصل مباشرة إلى القلب.

بين التوثيق والرمز

ولعل من المفيد أن ندخل إلى مدى أعمق نحو التعرف على الخصائص الأسلوبية التي تقيم أركان اللوحة عند الفنان حجي بعد مرور الحدث أو المناسبة التي أوجدت اللوحة، وذلك هو المعيار الحقيقي لتقييم أي عمل فني.

بالرغم من أن محمد حجي قد اختار الأسلوب الواقعي المباشر بهدف التوثيق الفني، فقد حرص على شيئين: الأول هو أن يضع الشكل الجمالي في صلب اهتمامه كقيمة تمثل غاية في حد ذاتها، والثاني هو التحليق بالموضوع والشكل معًا في فضاء الرمز، الذي يمنح شمولاً إنسانيًا يتجاوز الآني والسياسي المحدود. وسواء في هذا أو ذاك فإن مساحة اللوحة بكل أجزائها تحظى بنفس الحيوية البنائية، لا فرق بين بطل اللوحة الأمامي وخلفيتها البعيدة - وبعبارة أخرى فإن العناصر الخطية واللونية والملمسية تمتد لتشمل كل سنتيمتر في اللوحة، لتبدو كتلة نابضة بوهج الضوء وتفجر اللون وثراء الملمس وحيوية الخط، بل تبدو أحيانًا بعض العناصر التكميلية للأشخاص (من أحجار وأوان وخيام وجدران حجرية قديمة وقطع من القماش، أو من بسط مفروشة على الأرض وقطع من الملابس.. إلخ) تبدو وكأنها مجرد ذرائع فنية استغل الفنان وجودها لتحقيق تلك الحيوية، من خلال منظومة من التعشيقات والتوافقات والتقابلات والتبادلات اللونية والخطية والملمسية، مما يجعلنا نرى اللوحة عملاً «فوق واقعي»، لأنه يتخطى حدود «المشابهة» إلى «الموازاة» للواقع.

ومن ناحية أخرى فإن «الموضوع»، يمثل في كثير من اللوحات محطة الإقلاع إلى الهدف وليس محطة الوصول إليه، أي أن الفنان يبحث عما وراء الموضوع والحدث الجزئي، عن معنى كلي مجرد، يستخلص منه الدلالة والمثال «لمضمون» أشمل، يمكن أن يرتقي في بعض اللوحات إلى مستوى الرمز، لكن هذا قد ينطبق على نسبة في حدود ١٠٪ من مجموع اللوحات، على حين نجد نسبة ٢٥٪ أخرى تقف على مشارف الرمز، فيما يثقلها «الموضوع» ويرسيها عند مستوى الوثيقة، لتبقى النسبة الباقية من اللوحات كشهادات درامية حية نابضة بطزاجة التجربة الإنسانية وفعل المقاومة بأوجهها المختلفة.

فكيف يتجلى ذلك في الشق الأول، الخاص بالأسلوب والبناء الفني؟

* لننظر - مثلاً - إلى لوحة الأم التي تغسل قميص ابنها الملطخ بالدماء: لو كان الهدف هو إبراز درامية الموضوع وحدها لاقتصر التكوين على الأم وعلى فعل الغسيل، لكننا نرى الأم أصغر حجمًا من برميل الماء الأحمر على يمين اللوحة، وقد بدت فيه تجعدات بنفسجية متموجة وفوقه دلو الماء، كما أن وميض الإضاءة على الأم ووعاء الغسيل أقل من وميض الإضاءة على خيام المخيم وحواف الخيمة التي تجلس بداخلها والساحة الرملية الممتدة أعلى رأسها.. إن تلك العناصر تحولت إلى حركة إيقاعية ديناميكية تحدث حالة درامية شاملة تتجاوز الموضوع المباشر.

* وفي لوحة الصبي الذي ينقذ أخاه الصغير من بين حطام المنزل المهدم، نرى المساحة التي يشغلها الحطام حول الشخصين بتفاصيلها المعقدة وانعكاس الضوء فوقها بأسلوب أقرب إلى التكعيبية، إضافة إلى المساحة البيضاء للسقف المنهار خلف الطفلين، تمثلان محور الرؤية البصرية المبهرة للنظر والتي لا يخفت وهجها بخفوت وهج الموضوع.

* وفي لوحة الأطفال الخمسة المتراصين في حالة استغراق شديد، وهم يشاهدون التليفزيون نجد مساحة أجسامهم الصغيرة تحتل شريطًا معتمًا في الجزء الأعلى من اللوحة، فيما نجد الجزء الأسفل بأكمله مخصصا للكليم المفروش على الأرض بوحدات من النسيج الشعبي على شكل شرائط مائلة في قطاعات أفقية كل منها مخطط بخطوط مائلة في اتجاهات متعاكسة مع بقية القطاعات، ولو بحثنا عن ضرورة وظيفية لموضوع اللوحة في هذا البساط المخطط لما وجدنا، لكنه يمثل عنصر الحيوية «الجرافيكية» للشكل الفني التي تضفي عليها تميزًا.

أما عن الشق الرمزي، فيمكننا أن نشير إلى عدة نماذج..

* هناك لوحة الطفلة العائدة من المدرسة متجهة نحو المخيم، نجد أن حيويتها تنبع من تلك المقابلة بين المستطيل الرأسي للطفلة التي نراها من ظهرها في مقدمة اللوحة بأسلوب انطباعي غامض، وبين المستطيل الأفقي في الجزء الأعلى المكون من مجموعة خيام على هيئة مكعبات بأسقف مائلة، وقد بدت سطوحها كشرائح ضوئية مشعة تتقابل بحدة مع كثافة الظلال السوداء على جوانبها، فيما اكتست اللوحة بكم هائل من اللمسات التأثيرية الرمادية والخضراء، هنا يتسامى المشهد نحو آفاق رمزية وأبعاد مطلقة لو ابتعدنا قليلاً عن الموضوع المباشر.

* وهناك لوحة الفتاة التي تقوم بتطريز قطعة قماش حمراء، وقد نفذت بأسلوب تكعيبي هندسي متميز، ومثل آخر للوحة المظاهرة التي تضم زحامًا هائلاً من البشر بوجوه سمراء ترفرف فوقها الأعلام فتبدو كأجنحة سوداء خرافية، فيما تبدو خلفها بقعة ضوئية مستديرة.. إنها ترتقي فعلاً إلى مرتبة الشعر الملحمي والجو السريالي معًا.

* وهناك أيضًا لوحة الأم وأطفالها ومعهم حيواناتهم وهم ينزلون درجات السلم المنهار: إن الضوء هنا يلعب دورًا مدهشًا في خلق حالة الانهيار والمتاهة عبر مسطحات تكعيبية جريئة.

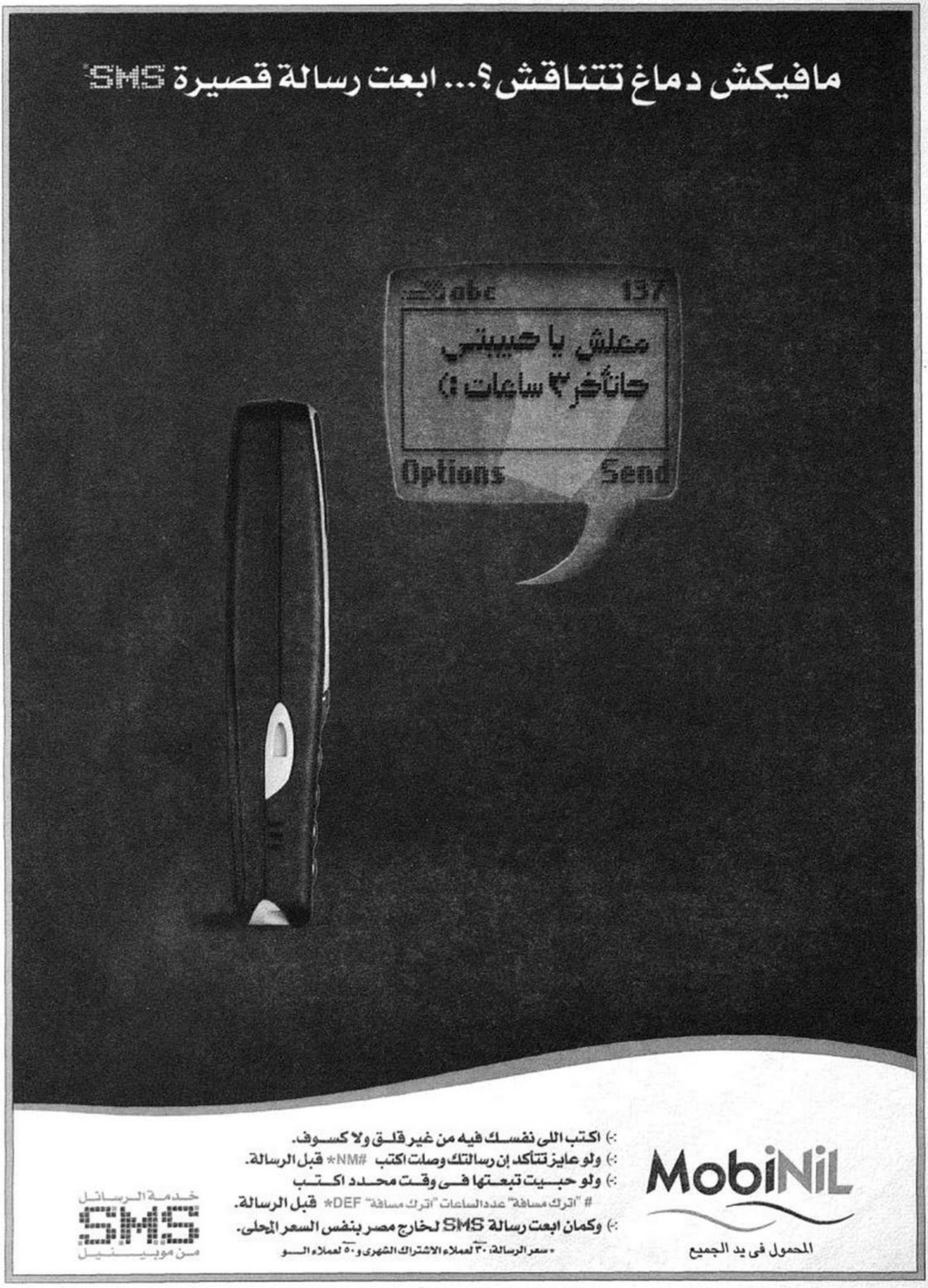
* كما نلاحظ بدهشة إرهاصات الرمزية/السريالية من خلال لوحاته التي يبدو الفدائيون فيها بوجوه مغطاة بالأقنعة، منها ما يتخذ شكل دب أو قط، ومنها ما يحاكي الأقنعة الأفريقية، وقد تشكل الفم على هيئة علم فلسطين.

* وهناك أخيرًا وليس آخرًا لوحة جنازة الشهيد، وقد تلاصقت فوق حافة النعش أيدي وأصابع المشيعين بإيقاع متواز فبدت كأصابع آلة البيانو، فيما يتوهج وجه الشهيد الذي نراه من منظور عكسي - من مؤخرة الرأس - بوشاحه الأرقش وشراشيبه المشعة في الضوء كهالة من النور وسط العتمة.



وقد يكون الفنان محقًا في نزوعه إلى الواقعية التسجيلية بالنسبة للجانب الأكبر من لوحات المعرض، وفي تصوره لأهمية ذلك لوصول الرسالة إلى قطاعات جماهيرية أوسع من المعتاد، غير أنني أرى أن أعماله التي اهتم فيها بالبناء الجمالي المتجاوز لذلك الأسلوب، جامعًا فيها بين الواقعية والحداثة، وأعماله الأخرى المحلقة في سماء الرمز، قد تكون أكثر نفاذًا إلى وجدان الجمهور، خاصة مع اعتياده على مشاهد الانتفاضة وأحداث المقاومة عبر الصور المألوفة من خلال التليفزيون والصحافة بصفة يومية، ما جعل منها أنماطًا مكررة تضعف من انبهاره بشبيهاتها عبر لوحات الفنان.

.. ومع ذلك فلتكن تلك شرارة البدء نحو رؤية جديدة، انطلاقًا من منصة إقلاع جمالية ورمزية فجرتها المقاومة الفلسطينية الباسلة. ■



مافيكش دماغ تتناقش؟... ابعت رسالة قصيرة SMS
abc 137
معلش يا حبيبتى
حاتأخر ٣ ساعات :(
Options Send
:-) اكتب اللى نفسك فيه من غير قلق ولا كسوف.
:-) ولو عايز تتأكد إن رسالتك وصلت اكتب *NM# قبل الرسالة.
:-) ولو حبيت تبعتها فى وقت محدد اكتب
*DEF "اترك مسافة" عدد الساعات "اترك مسافة" # قبل الرسالة.
:-) وكمان ابعت رسالة SMS لخارج مصر بنفس السعر المحلى.
* سعر الرسالة: ٣٠ لعملاء الاشتراك الشهرى و ٥٠ لعملاء الـ
MobiNiL
المحمول فى يد الجميع
خدمة الرسائل
SMS
من موبينيل


ISO 9001
QUALITY ASSURED FIRM
SGS
ماك
سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال
قطع موكيت
دواسات حمام
سجاد أطفال
مشايات
مطبوع
شرقى
ماك على الإنترنت
www.maccarpet.com

مراكز البيع:

مصر الجديدة: ١٢ ش محمد المهدى . نبيل الوقاد أرض الجولف ت: ٤١٤٧١١٢
مدينة نصر: أرض المعارض بوابة (٩) شارع الفنجرى ت: ٤٠١٦٢٣٠
الزيتون: ١٣ ش عين شمس . ميدان حلمية الزيتون ت: ٢٤١١٣٤٧
عين شمس : ش أحمد عرابى من أحمد عصمت أمام مزرعة الزهراء للخيول
ت: ٢٩٦٦٥٦٤
الشرابية: ٤٠ شارع الآلايلى ت: ٢٣١٤٣٤٦
المرج: ش ترعة السلطوحية عمارة سعيد شاهين ت: ٠١٠/٥٢٠٠١٩٠
الحرفيين: ميدان الحرفيين عمارة الربيع ت: ٢٨١٧٨٨٠
شبرا: ٦٤ ش روض الفرج . دوران شبرا ت: ٤٣٢٦٨١٠
ناهيا: ١٠٧ش ناهيا بولاق الدكرور ٠١٠/١٧١٠٣٨٩
الزاوية الحمراء: ٦ شارع منشية الجمل عمارة العمدة ٠١٠/١٤٥٥١٠٦
العمرانية: ٢ ش عبدالرحمن مطر ت: ٥٦٤٠٨٦٢
إمبابة: ٦٣ ش الوحدة ت: ٢١٠٧٧٢٦
الهرم: ٤٥٦ أول ش الملك فيصل ت:٧٧٥٧١٦٨
مصر القديمة: ٦ ش أثر النبى ت: ٥٣٤٠٩٨٧
المعادى: ٢ طريق مصر حلوان الزراعى محطة المطبعة ت: ٥٢٤٦١٦٥
حدائق القبة: ١٤٥ ش مصر والسودان . محطة الجراج ت: ٠١٠/١٤٥٥١٠٧
القلعة: ١ ش سوق السلاح ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٥
بهتيم: ٣٢٩ ش ١٥ مايو أمام حى شبرا الخيمة ٢٢٢٩٧٠٨
صفط اللبن: سنتر الصاوى . شارع التحرير ٧٢٠٧٦٩٢
مكرم عبيد : ٢٥ شارع أبو داود الظاهرى . مكرم عبيد ت: ٢٨٧٢٦٢١
فيصل التعاون: ٣٥٧ شارع الملك فيصل . محطة التعاون . الهرم٠١٠/١٧١٠٤٩٠
الصحفيين : ٣ ش النيل الأبيض متفرع من شارع أحمد عرابي ت: ٣٠٣٩٤١٢
السيدة زينب: ٣٨ شارع مراسينا ٠١٠/٦١٨٦٩٤٥
حلوان: ٢٧ ش أحمد بدوى من رايل ت: ٥٥٥٩٨٨٧
الأوبرا : ١٠ ميدان الأوبرا محلات إسماعيل علي ت: ٣٩١٤٩٩٩
المنزلة: شارع عبدالمنعم رياض عمارة الدكتور الخريبى
دار السلام: شارع الفيوم أمام مجمع المدارس
العباسية: ١٥ ش العباسية . ميدان الجيش ت: ٥٨٩٣٨٥٠

أرقام تليفونات معارض مدن القناه والوجه البحري

العاشر من رمضان: الحى الأول ت: ٣٦١٢٢٤
العاشر من رمضان: المجاورة ٩ ت: ٣٦٦٧٧٨
العاشر من رمضان: دوار العاشر . طريق الإسماعيلية
دكرنس: ش مجلس المدينة عمارة م التميمى ٠١٠/١٧١٠٣١٢
بلقاس: ش طريق الحرية . خلف المحكمة ٠١٠/٦٦٩٨٥٧٧
محرم بك: الإسكندرية ٦ شر أبيدوس من شارع مسجد الحضرى ت: ٠٣-٣٩١٨٤٧٠
دمنهور: ١٢ ش الشيخ عبدالكريم ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٦
ميت غمر: ٥٢ ش الحرية متفرع من ش بور سعيد ٠١٠/١٧١٠٤٧٠

بواقي التصدير والرواكد

القناطر الخيرية: ٢٥ ش البقلى متفرع من ش ١٤ ٠١٠/١٧١٠٤٧٩
شبين القناطر: ٩ ش الدلتا ٠١٣٧٢٢٠٣٣
بنها: ش الكوبرى ت: ٢٥٣٩٧٠
السويس: ٣٦٦شارع الجيش ٠١٠/١٧١٠٤٥١
المحلة الكبرى: ش شكرى القوتلى من ش الجيش ٠١٠/١٧١٠٤٦٨
طنطا: ٨٧ ش سعد الدين من ش النحاس ت: ٤٠٨٢٧٤
المنصورة: ش الجمهورية أمام كلية العلوم ت: ٣٧٢٦٤٧٤
كفر الشيخ: ٤ ش الشهيد محمد الدمرداش الشيتانى ت: ٢٢٣٠٨٥
الإسكندرية: ٥٠ ش مصطفى كامل أمام كلية التربية الرياضية . فلمنج ت: ٥٨٠٤٧٩٧
رمادا: برج رمادا بالإسكندرية ت: ٥٥٧٩٧٤٨
العصافرة : ش عثمان إبن عفان بجوار المعهد الديني ٠١٠١٠٠٤٧٣٩
الزنانيرى الإسكندرية ١٠٢ ش الزنانيرى - سيدى جابر ت: ٥٤٦٠٩٩٩
العامرية : ش مجمع سيدي مسعود الإستهلاكي عمارة خميس الهواري ٠١٢/٢٧٥٨٥٠٠
الزقازيق: ش المديرية عمارة العقدين الكبيرة المنتزة ت: ٣٢٢٣٢٩
منوف: ٨ ش ترعة الحشاشة . طريق التأمين الصحى ت: ٦٦٠٠٧٣
دسوق: ش الجيش . أمام عمر أفندى ٥٦٥١٥٣
الإسماعيلية: شارع شحتة - السكة الحديد سابقا ٣٥٥٧٦٥
شبين الكوم: ٣ شارع صلاح الدين أبو الخير من شارع الجلاء البحرى
بورسعيد : ميدان المسلة - برج المسلة ت: ٠١٠٥١٣٤١١٤
دمياط: ش جنينة سرور أمام الفرن الآلى ت: ٢٢٨٠١٢
كفر الدوار: ١ ش أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٤٣٦٠٧
أبو حماد : ٣٠ ش التحرير برج العزازى ت: ٢٤٠٩٥٤٤
السنبلاوين: ٦ الجيش المصرى ت: ٠٥٠/٦٩٨٥٧٧
كوم حمادة: ش مستشفى المواساة خلف مجلس المدينة ٠١٠/١٩٢٢٤٢٨
فاقوس: ش الساحة عمارة المتيم . خلف المحكمة ت: ٠١٠١٩٧٧٥٣٣
كفر الزيات: ش الجيش أمام نادى المعلمين ٠١٠/١٣٤٨٣٥٧
العريش: ش ٢٣ يولية أمام بنك القاهرة ٣٦٥٦٥٦

عناوين وأرقام تليفونات المعارض عن الوجه القبلي

سوهاج: ش النهضة بجوار عمر أفندى ت: ٠٩٣/٣٢٢٨٩٠
بنى سويف الجديدة: ٣ شارع أحمد عرابى ت: ٠١٢/٢٨٣٧٢٨
بنى سويف: ٥ ، ٦ ش أرض المحلج ت: ٣١٥٤١٦
قنا: ش كوبرى دندرة عمارة أحمد عامر ت: ٣٢٣٦٤٨
قنا الجديدة: ش جودى متفرع من ش الأقصر سوق ليبيا ٠١٠/١٦٦٦٨٩٥
الأقصر: ش مدرسة الصنايع . السوق التجارى ت: ٢٧٢٠٨٣
أسوان: هيميمى الجبلاوى متفرع من شارع قاضى الجداوى ٠١٠/٧٦١٨١٩
أسيوط: ١٢ ش المدينة المنورة الزهراء ٣٠٦٠٣١
المنيا: ١ ش الجمهورية ت: ٠٨٦/٣٥٣٦١٦
الفيوم: ش ٢٦ يوليو عدلى يكن سابقا ت: ٠٨٤/٣٤٤٣٢٢



السؤال الأول:

هل كانت الثورة لازمة؟

"٥"



محمد حسنين هيكل

عَصْرٌ

"١"

جيش مجروح وشعب موجوع

من الظواهر العصية على الفهم وغير القابلة للتصديق أن الجيش العائد من فلسطين مع بداية سنة ١٩٤٩ - كان بذاته علامة الاستفهام الكبرى التي ظهرت لأول مرة على الأفق السياسي. وكان بذاته العنصر المجهول الذي يحتمل أن يكون الأشد تأثيرا على معادلة السلطة في مصر ابتداءً من تلك اللحظة. ومع ذلك فإن علامة الاستفهام الكبرى لم تعثر على إجابة لها. كما أن العنصر المجهول الذي تخوف منه الجميع. وصل إلى حيث فعل فعله بعد ثلاث سنوات (يوليو ١٩٥٢) - دون عائق جدّى يعترض - أو يمنع!

ولم يكن ما هو حاصل في قلب الجيش العائد من فلسطين سرا خافيا على أحد. بل لعل التخوف منه بالتحديد كان الداعي الذي وصل بقلق السفارة البريطانية في مصر إلى الإلحاح بشدة لافتة على عودة حزب الوفد إلى السلطة. تحقيقا لنوع من الاستقرار الشرعي تتطلبه الظروف المستجدة. وكل ما فيها يدعو إلى التوجس ومن ثم التحوُّط المسبق. وهنا فإن التقارير البريطانية عن تلك الفترة تحفل كلها بطلب عودة الوفد إلى الحكم. وبعدها يمكن أن يتسع المجال للتفاوض في أمر معاهدة سنة ١٩٣٦ التي أصبحت قابلة للتعديل في جانبها السياسي منذ سنة ١٩٤٦ - أي بعد أربعة عشر عاما على توقيعها (ولم يكن جانب التحالف العسكري فيها قابلا للتغيير لأن سريان مفعوله كان مطلقا بغير أجل).

ولم يكن الملك «فاروق» غافلا عن خطر الجيش العائد من فلسطين واحتمالات اتصاله بالغضب المتراكم في مصر والشحنة الحرجة التي يمكن أن تتفاعل بهذا الاتصال بين جيش مجروح وشعب موجوع. حتى إذا لم يكن الاتصال مباشرا واقتصر على مجرد التواجد في نفس المناخ!



ضباط مصريون في حرب ٤٨

وفي الواقع (وكما يظهر في تقارير الحرس الملكي ضمن محفوظات قصر عابدين) - فإن الملك كانت لديه وسائل علم بما يجري داخل الجيش من ثلاثة مصادر يمكن الوثوق فيها:

● المصدر الأول هو «المخابرات العسكرية» للجيش المصري، وكانت تابعة للفريق «محمد حيدر» (باشا) مباشرة، وكان «حيدر» يرسل التقارير وافية إلى القصر، وكان الملك كما يبدو من بعض العلامات والإشارات على هوامش التقارير يهتم بالجزء الأمني فيها.

● والمصدر الثاني هو القلم المخصوص في وزارة الداخلية وهو المسئول عن متابعة النشاط السياسي في الداخل، وكان يكتب تقريرا يوميا للقصر تحت توقيع ومسئولية رئيسه اللواء «محمد إمام إبراهيم»، ولم يكن القلم المخصوص يكتب عن أمن الجيش عموما، فذلك ليس اختصاصه، ولكن اهتمامه بالتحديد تركز على نقط التلاقي بين عناصر عسكرية وعناصر مدنية (بالذات الإخوان المسلمين والشيوعيين)، وكانت تقارير القلم السياسي - للإنصاف - تدل على جهد كبير، يظهر فيها ما يدل على أن القلم المخصوص نُبِّه إلى خطر مؤكد من عودة جيش جريح في فلسطين إلى مناخ سياسي «مضطرب» في القاهرة. (نتيجة لكل ما وقع سنة ١٩٤٨ ابتداءً من إضراب البوليس، إلى حرب فلسطين، إلى حل الإخوان المسلمين - إلى اغتيال رئيس الوزراء «محمود فهمي النقراشي» - إلى اغتيال مرشد الإخوان المسلمين الشيخ «حسن البنا» بأمر مباشر من رئيس الوزراء وبواسطة هيئة مكتبه بما فيه حرس الوزارات).

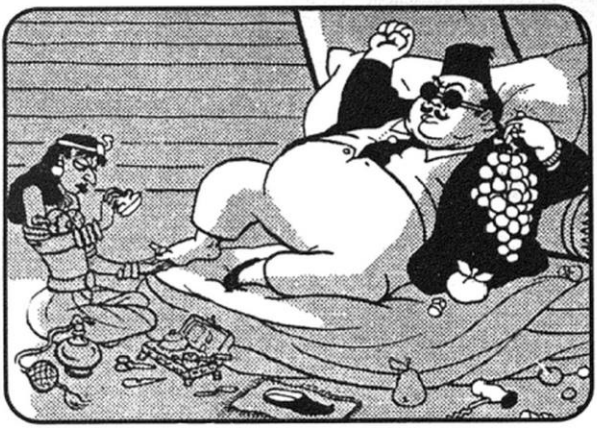
● وكان المصدر الثالث هو تنظيم «الحرس الحديدي» التابع للدكتور «يوسف رشاد» المقرب من الملك (والطبيب الخاص له) وهو تنظيم أقسم أفراده يمين الطاعة للملك والإخلاص غير محدود لذاته، إلى جانب تعهد بالانتقام من أعدائه السياسيين وتصفيتهم، ثم حماية شخصه بالأجساد والأرواح إذا اقتضت سلامته أو مصلحته، وكان على الدكتور «يوسف رشاد» أن يحوِّل هذا كله إلى توجيهات وخطط.

وكان ضباط الحرس الحديدي بطبيعة الأمور وسط الجيش، بل وكان بعضهم في فلسطين سواء بدافع الحماسة الوطنية أو بدافع جس نبض القوات المسلحة ومتابعة أحوالها، بما في ذلك «المزاج» السائد وسط سلك الضباط (وضباط الصف الذين ركز عليهم الشيوعيون في حين ركز الإخوان على الضباط).

....

....

[وقد اطلعت على تقرير من ورقتين بملاحظات كتبها اليوزباشي «مصطفى كمال صدقي» (من ضباط الحرس الحديدي المقربين في ذلك الوقت) - تعهدت له السيدة «ناهد رشاد» قرينة الدكتور «يوسف رشاد» بأنها



عن صنداى إكسبريس. ٢ سبتمبر ١٩٥١

يتَهَاوى

سوف تُسلمهما للملك بنفسها وفى يده، وأكدت هى لى فيما بعد (أكتوبر ١٩٥٢) ـ أنها انتهزت فرصة وجود الملك بمفرده مرة وسلمته مظروفا فيه ما كتبه «مصطفى» بخط يده، واستحلفته أن يقرأه بعناية ـ ووعدها!).

ومعنى ذلك أن الأطراف المشاركة فى معادلة السلطة المصرية (السفارة البريطانية ـ والقصر الملكى ـ والوفد) كانت ـ مع بداية سنة ١٩٤٩ ـ ترى «النُذُر» على الأفق وتدرك أن مجال الخطر المستجد بالظروف هو حالة «السخط» فى القوات المسلحة العائدة من فلسطين، وأن التهديد يحل حين يتلاقى السخط العائد من فلسطين مع الغضب المتراكم فى القاهرة.

ومع أن السفارة البريطانية كانت هى التى بدأت الاتصالات التمهيدية الأولى لتحقيق الائتلاف الكفيل بمواجهة المخاطر بين القصر (وهو رمز شرعية الدولة)، وبين الوفد (وهو ممثل أغلبية الشعب)، إلا أن الواقع الفعلى اقتضى تغييرا وتبديلا لتسهيل الحركة وتجنب الحساسيات. ومقتضى التغيير والتبديل أن يدخل القصر فيها مباشرة مع الوفد وتغيب السفارة البريطانية ـ مؤقتا. وكان ممثل القصر الذى تقدم لأداء الدور هو «كريم ثابت» (باشا) المستشار الصحفى للملك، معتمدا فى فتح الأبواب على علاقته بالمليونير «أحمد عبود» (باشا) ـ الذى كان يقوم وقتها بدور «الراعى الموجه» للاتصالات والترتيبات المؤدية إلى عودة الوفد. ومع أن «فؤاد سراج الدين» (باشا) كانت له آراء شديدة القسوة فى «كريم ثابت» أصلا وفصلا، شخصية ومسلكا ـ إلا أن «واقعية» «فؤاد سراج الدين» تغلبت على أحكامه، وكذلك وجد نفسه يشارك فى اتصالات وترتيبات انتقلت من «تشابمان أندروز» (الوزير المفوض للسفارة البريطانية) إلى «كريم ثابت» (المستشار الصحفى للملك فاروق) ـ وقصدها عودة الوفد إلى السلطة، ومطلبها إنشاء سد منيع أمام احتمالات مجهولة ناشئة من عودة جيش مجروح فى فلسطين إلى أحوال وطن موجوع بِعلل تراكمت على طول عشر سنوات ـ ثم خلفت هموما تناقضت مع آمال وتطلعات زحمت أجواء العالم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية!

وكان الملك «فاروق» وهو يتفاوض (عن طريق كريم ثابت) على صفقة يعود بها الوفد للمشاركة فى الحكم، يدرك أنه مقبل على التغيير (الانقلاب) الدستورى الرابع فى خمسة عشر عاما قضاها على العرش! (أى بمعدل تغيير («انقلاب») دستورى كل أربع سنوات تقريبا).

لكن ذلك التغيير (الانقلاب) الذى شرع يمهد ويرتب له الآن كان أصعبها على مشاعره «المؤسسة» على عداء الوفد، وكان عزاؤه أمام نفسه ـ وأمام الآخرين ـ أنه هو الذى يجىء بالوفد هذه المرة إلى الحكم وليس دبابات الجيش البريطانى.

● كان التغيير (الانقلاب) الدستورى الأول الذى قام به «فاروق» هو الإقالة الأولى فى عهده لوزارة «مصطفى النحاس» (باشا) أواخر سنة ١٩٣٧، ولم يكن قد مضى على توليه العرش غير شهور قليلة، وقد راح الملك «فاروق» بعد إقالة «النحاس» (باشا) ـ وهو وقتها صبى لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ـ يمارس سلطته عن طريق وزارات قصر ليس لها سند غيره ولا مصدر للشرعية خارج إرادته الملكية. وحدث أنه فى تلك الأوقات انتهز الفرصة ليعلن بنفسه وبصوته لأول مرة على موجات الإذاعة المصرية منهاجه فى الحكم ومذهبه، موجها الخطاب إلى: «شعبى العزيز» ـ قائلا:

«إننى مع إعجابى العظيم بوالدى طيب الله ثراه وتغمده برحمته، قد أكون خالفته فى بعض طباعه، لكنى قد احتفظت بأبرز هذه الطباع، فأنا مثله لا يستطيع أن يؤثر على أحد إذا تبينت صواب أمر، واعتمدت بعد تقليب وجوه الرأى أنه فى صالح شعبى أفرادا وجماعات. وأن ثقتى فى نفسى وتوكلى على الله هو الذى يلهمنى تصريف الأمور ويوجهنى الوجهة التى أختارها».

وفى تاريخه عن مقدمات الثورة المصرية، يرصد الأستاذ «عبد الرحمن الرافعى» هذا البيان ويعلق عليه بقوله «كان ذلك هو الإعلان عن انحراف «فاروق» نحو الدكتاتورية والغرور والطغيان»، فتلك لم تكن كلمات صبى فى التاسعة عشرة من عمره ـ وإنما كلمات وضعها على لسانه رجال من حاشيته الملكية راحوا يعلمونه احتقار الدستور واعتبار نفسه حاكما بأمره فوق شعب مصر!».

والواقع أنه تطبيقا لهذا البيان جاء الملك بوزارات يرأسها من اختارهم من رجاله: «على ماهر» ـ ثم «حسن صبرى» ـ ثم «حسين سرى».

وكانت تلك مرحلة حكم فيها القصر منفردا.

● كان التغيير (الانقلاب الدستورى) الثانى هو ٤ فبراير ١٩٤٢ حين تحركت الدبابات البريطانية من ثكنات قصر النيل، متوجهة لحصار قصر عابدين تفرض «مصطفى النحاس» (باشا) زعيم الوفد رئيسا لوزارة تجىء إلى الحكم رغم أنف الملك.

ثم كان أنه من ٤ فبراير ١٩٤٢ وحتى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ ـ حَكَمَ الوفد معتمدا على السفارة البريطانية وحدها، ومع أنه صاحب الأغلبية فى البرلمان، فقد كان درس التجربة الدستورية فى مصر ظاهرا للعيان، ومؤداه أن الأغلبية البرلمانية ليست كافية وحدها لإبقاء حزب فى الحكم ولا لإخراجه.

وكذلك لم يتردد الملك ـ حين رفعت السفارة البريطانية يدها عن حماية وزارة «النحاس» (باشا) ـ فى إقالة هذه الوزارة وملاحقة رئيسها وأعضائها بالتهم ـ والكثير من هذه التهم صحيح. ولم يتراجع الملك عن تقديم «النحاس» (باشا) إلى المحاكمة إلا أمام إنذار مباشر من رئيس الوزراء البريطانى «ونستون تشرشل» نفسه، الذى قال له صراحة «إن الخدمات التى قدمها «النحاس» (باشا) للجهد الحربى البريطانى

من ٤ فبراير ١٩٤٢ وحتى ٨ أكتوبر ١٩٤٤. حكمَ الوفد معتمدا على السفارة البريطانية وحدها، ومع أنه صاحب الأغلبية فى البرلمان، فقد كان درس التجربة الدستورية فى مصر ظاهرا للعيان، ومؤداه أن الأغلبية البرلمانية ليست كافية وحدها لإبقاء حزب فى الحكم ولا لإخراجه

سنوات الحرب الصعبة، تجعل حمايته واجبا أخلاقيا على الحكومة البريطانية».

● وكان التغيير (الانقلاب الدستورى) الثالث الذى قام به الملك «فاروق» هو إقالة وزارة «النحاس» (باشا) يوم ٨ أكتوبر ١٩٤٤، وفى هذه التجربة فإنه لم يحكم بوزارات قصر، وإنما حكم برؤساء وزارات من أحزاب الأقلية، أشهرهم ثلاثة من السعديين: «أحمد ماهر» (باشا) حتى اغتيل - ثم «محمود فهمى النقراشى» (باشا) حتى اغتيل هو الآخر - ثم «إبراهيم عبد الهادى» (باشا) حتى طُرد من الوزارة طردًا (مع فترة انقطاع فى رئاسة «النقراشى» (باشا) للوزارة جاء فيها «إسماعيل صدقى» (باشا) لم تطل عن سنة واحدة) - لكن السنوات الخمس من ١٩٤٤ وحتى سنة ١٩٤٩ كانت رعاية ملكية لوزارات أقلية من السعديين - والأحرار الدستوريين - وحزب الكتلة (مكرم عبيد) - والحزب الوطنى أحيانا.

وكانت عهود تلك الوزارات هى التى أوصلت الملك مباشرة إلى حافة الخطر، وعند هذه الحافة تخلى وابتعد - خاف وحاول أن يهرب.

● وفى مخاوف الملك على عرشه بعد توقف معارك حرب فلسطين، والاحتمالات الناشئة من عودة جيش مجروح إلى شعب موجوع، فإن الملك وجد أنه جرب كل توليفة ممكنة فى الحكم، ولم تبق أمامه غير وصفة واحدة.

جرب أن يحكم وحده ولم تكن النهاية سعيدة مساء يوم ٤ فبراير ١٩٤٢، وجرب أن يتخلى عن السلطة للوفد عامين ونصف العام، وكانت التجربة ذات مرارة لا تطاق من أول يوم فيها (٨ أكتوبر ١٩٤٤)، ثم جرب أن يعطى الحكم لوزارات أقلية (أواخر سنة ١٩٤٨) ثم نظر تحت قدميه ورأى الهاوية رأى العين.

ثم توصل إلى أن خياره الوحيد الباقى هو التعاون مع «الشيطان الوفدى»، وهنا كانت اتصالات ومفاوضات مستشاره الصحفى «كريم ثابت» مع سكرتير عام الوفد «فؤاد سراج الدين»، تحت إشراف «أحمد عبود» (باشا) ومعاونة «حسين سرى».

وفى المحصلة العملية تلك الأيام أن القصر كان مُرهقا خائفا ويريد أن يبتعد ويهرب.

وفى نفس الوقت فإن حزب الوفد كان مُرهقا هو الآخر - لكنه على عكس الملك يريد أن يقترب ويشتهى العودة للحكم بعد غياب خمس سنوات وجدها قاسية على زعامته وعلى قياداته وعلى أنصاره!

"٢"

الحسابات الملكية لا تتحقق!

كانت الاتصالات والترتيبات بين المستشار الصحفى للملك «كريم ثابت» (باشا) وبين السكرتير العام للوفد «فؤاد سراج الدين» (باشا) فى حضور «أحمد عبود» (باشا) ومشاركة صديقه «حسين سرى» (باشا) - تجرى على أرضية غير ممهدة بسبب تجارب تعيسة سبقت بين القصر والوفد، وكذلك فإن كلا من الطرفين راح يكتشف مشهدا بعد مشهد أن الطرف الآخر لديه «مستجدات» و«طوارئ» لم تكن معروفة لديه من قبل.

كان القصر قد رتب موقف مفاوضه الرئيسى «كريم ثابت» (باشا) درجة بعد درجة:

- نقطة البداية أن الملك «فاروق» لم يعد لديه مانع من مشاركة الوفد فى السلطة لمواجهة «مخاطر تهدد الجميع».

- وعلى هذا الأساس فإن الوفد مدعو للمشاركة فى وزارة ائتلافية ترأسها شخصية محايدة تحظى برضى «النحاس» (باشا)، ولتحقيق هذا الغرض فإن القصر على استعداد لطرح أسماء عدد من الساسة المستقلين تربطهم علاقة طيبة بالوفد أولهم «حسين سرى» (باشا).

- أن الملك لا يمانع فى إجراء انتخابات برلمانية، لكنه فى حالة حصول الوفد على أغلبية، يفضل أن يرى على رئاسة الوزراء شخصية وفدية غير «النحاس» (باشا)، والداعى أن علاقاته القديمة بالملك بعد ٤ فبراير تركت «ما لا تستطيع الأيام أن تمحوه»، فإذا عاد الآن إلى رئاسة الوزارة بعد انتخابات - لا يمانع الملك أن يحصل الوفد فيها على أغلبية - ثم وقعت أزمة بسيطة - فإن هذه الأزمة ربما استدعت مخزون المشاعر القديمة وهى بذلك تفتح الجراح التى التأمت، وفى ترويج القصر لهذا المنطق فقد جرى استدعاء سوابق لمجالس نيابية كانت للوفد فيها أغلبية برلمانية دون أن يكون رئيس الوفد بالضرورة رئيسا للوزراء، والمثال الأشهر على ذلك أن «سعد زغلول» (باشا) نفسه اكتفى برئاسة مجلس النواب فى برلمان له فيه أغلبية كاسحة.



فـاروق النحاس زينب الوكيل فؤاد سراج الدين

- وفى رغبة القصر لتسهيل الأمور أكثر وأكثر فإن «كريم ثابت» كان مخولا باقتراح أن القصر سوف يرحب - فى حالة حصول الوفد على أغلبية برلمانية - أن تكون الوزارة برئاسة «فؤاد سراج الدين» نفسه، وهو موضع الثقة من «النحاس» (باشا) وهو زعيم الحزب بلا منازع، وكذلك من السيدة قرينته (وهى الجهة الأقوى تأثيرا على الزعيم تلك الأيام).

على الناحية المقابلة عرض «فؤاد سراج الدين» موقف الوفد (وموقفه الشخصى) من عروض القصر بالترتيب التالى:

- نقطة البداية أن الوفد يتمنى أن يفتح الملك معه صفحة جديدة لا علاقة لها بكل ما سبق، وسوف يجد الملك من الوفد «إخلاصا حقيقيا» لا يستطيع أى حزب سياسى فى مصر أن يقدمه لـ «مولانا»: لأن الآخرين جميعا يحبون مصلحتهم أكثر مما يحبون «جلالته»، فإخلاصهم له نابع من اعتمادهم عليه كى يكلفهم بالحكم، وهم فى ذلك الوضع يحملونه بأخطائهم وأوزارهم لأنهم بلا سند أمام الناس غير «جلالة الملك».

- إن اقتراح تشكيل وزارة ائتلافية يدخل فيها الوفد، موضوع لا يستطيع «رفعة الباشا» قبوله، ليس فقط لأنه مخالف لكل تقاليد الوفد طول تاريخه، ولكن فوق ذلك لأن «النحاس» (باشا) يعرف أن أى وزارة ائتلافية هى محاولة للتوفيق، مؤدية لا محالة إلى الخلاف لأن طبيعة الحياة السياسية فى مصر لم تتوصل إلى توافق مقبول من الجميع على أهداف محددة يقوم عليها ائتلاف وزارى، ومعنى ذلك أن الوزارة الائتلافية سوف تكون باستمرار فى حالة احتكام إلى القصر، وذلك يقحم القصر فى الخلافات الوزارية، وقد يؤدى - كذلك - إلى استعادة أجواء قديمة شابت علاقات الوفد بالقصر، وذلك احتمال من المستحسن تجنبه، خصوصا أن «رفعة الباشا» جاهز لأن يثبت هذه المرة إخلاصه العميق للقصر، وهو يريد أن يتوج حياته السياسية «برابطة مقدسة» بين حزب الأغلبية وبين العرش - لم يسبق لها مثيل فى التاريخ السياسى المصرى.

- أن الوفد على استعداد للمشاركة فى وزارة ائتلافية إذا كانت مدتها محدودة وهدفها محددا، بإجراء انتخابات برلمانية حرة (يثق الوفد أنه سوف يحصل على الأغلبية فيها)، ولذلك فإن الحزب على استعداد للاشتراك فى وزارة يرأسها «حسين سرى» (باشا)، تكون مهمتها إجراء هذه الانتخابات فى ظرف ستة شهور، ثم تترك مكانها لوزارة أغلبية حزبية، والوفد يريد فى هذا الصدد ومرة أخرى أن يكرر أن «مولانا» لن يندم مطلقا على فرصة أخرى وأخيرة يثبت فيها أنه الأكثر إخلاصا للذات الملكية والأقدر على خدمته.

- وفى حالة فوز الوفد بالأغلبية فإن رئاسة الوزارة يصعب جدا أن تذهب إلى رجل آخر غير «مصطفى» (باشا) - فإن أى رجل غيره لا يستطيع أن يحصل على ولاء جميع الوفديين، ولا على المصداقية أمام جماهير الحزب، ولا حتى على ثقة «زينب هانم» كما ألمح «سرى» (باشا) أثناء كلامه.

وهنا كان سؤال «كريم ثابت» المباشر لفؤاد سراج الدين:

«هل تريد أن تقول لى أن «زينب هانم» لا تستطيع أن تقنع زوجها برئاستك أنت للوزارة؟».

ورد «فؤاد سراج الدين» - ودون مهلة يصوغ بها رده فى ألفاظ تُغطى أو تُزَوِّق:

«هى نفسها أول من يرفض أن يتولى الوزارة أحد غير «مصطفى» (باشا).

ويلح عليه «كريم ثابت»: «ولا حتى أنت»؟

ويرد «فؤاد سراج الدين» بنفس السرعة: «خصوصا أنا».

....

....

[فيما بعد (ديسمبر ١٩٥٣) روى لى «حسين سرى» (باشا) ونحن فى بيته - وكان ملاصقا لمسكنى فى شارع شجرة الدر فى الزمالك، وكنا عائدين معا فى نفس الاتجاه من حفل استقبال فى قصر الطاهرة بمناسبة زيارة

قام بها الملك «حسين» للقاهرة، وهى أول زياراته لمصر بعد ثورة يوليو ـ ما مؤداه «أنه ذلك اليوم فى بيت «أحمد عبود» فوجئ عندما سمع من «فؤاد سراج الدين» أن قرينة رئيس الوفد تعارض رئاسته للوزارة «خصوصا» على حد ما قال».

وروى «سرى» (باشا) تلك الليلة فى حديث دار بيننا حتى الثالثة صباحا «أنه بعد خروج «فؤاد» من بيت «عبود» (فى لقاء أوائل يناير ١٩٤٩) وفى حضور «كريم ثابت» جلس الثلاثة وانضم إليهم بعد نصف ساعة «تشابمان أندروز» الوزير البريطانى المفوض ـ وراحوا يتذاكرون ما سمعوه من «فؤاد سراج الدين» وانقسموا فيه إلى رأيين:

● رأى يرى أن «فؤاد سراج الدين» فيما قال يكشف عن حرص لا يريد أن يغامر بشىء، فهو بالتأكيد يتشوق إلى رئاسة الوزارة، لكنه يفضل أن يخلف «النحاس» (باشا) بطريقة طبيعية، بمعنى أن تجرى انتخابات برلمانية بالفعل تحت إشراف وزارة محايدة، ثم تجىء أغلبية برلمانية وفدية ـ وهذا أرجح الاحتمالات ـ ثم يرأس «النحاس» (باشا) الوزارة، وبالطبع يكون «فؤاد سراج الدين» أبرز أعضائها، وبعد شهور ـ خصوصا أن صحة «النحاس» (باشا) لا تساعده على الاستمرار ولا على التركيز ـ يكون «النحاس» (باشا) نفسه هو الذى يفتح الطريق لسراج الدين.

وكان ذلك رأى «تشابمان أندروز» وقد أفاض فى تفصيله ضمن تقريره إلى لندن قائلا: «إن «فؤاد سراج الدين» فى الأوضاع الحالية هو المرشح لرئاسة الوزارة ـ رغم أنه سياسى محلى وليس رجل دولة. وهو أقرب إلى عقلية «عمدة» (كتبها بالإنجليزية (Omda يعرف فنون التعامل بالمجاملة مع الناس أكثر مما يعرف عن مسئوليات المستوى الأعلى فى سلطة الدولة».

ويضيف «تشابمان أندروز» فى تقريره «إنه يظن أن إحجام «فؤاد سراج الدين» عن رئاسة الوزارة الآن ـ متعللا بأن رئيس الوفد وقرينته لا يقبلان بذلك ـ إنما هو تأمين مبكر لطموحه إلى رئاسة الوزارة، فهو يخشى أن قبوله بالرئاسة الآن قد يبدو صفقة على حساب زعيمه يتكشف أمرها فيما بعد وتظهره على هيئة لا يريد أن يظهر بها!».

● لكنه طبقا لرواية «حسين سرى» (باشا) تلك الليلة فى بيته ـ سنة ١٩٥٣ ـ فإن «كريم ثابت» كان له رأى آخر، فقد أحس بقرون استشعار مُدَرَّبة أن شيئا ما طرأ على الصداقة بين قرينة «النحاس» (باشا) وبين «فؤاد سراج الدين»، وقد راح «كريم» يستعرض استنتاجاته على أساس ما قاله «فؤاد سراج الدين»، والطريقة التى قاله بها.

وكانت الاستنتاجات التى عرضها «كريم»:

ـ أن «فؤاد» فى السنوات الأخيرة زاد نفوذه وأصبحت له دائرته المستقلة (Constituency) وهذا طبيعى.

ـ أن الصداقة بين الاثنين ـ السكرتير العام للوفد وقرينة زعيم الوفد ـ وقد بدأت فى قصور شمال الدلتا ومزارعها زمن الغارات الإيطالية والألمانية على القاهرة سنة ١٩٤١ ـ طالت حتى الآن ـ ١٩٤٩ ـ قرابة عشر سنوات، ولذلك فقد جرى عليها ما يجرى على العلاقات بين البشر من عوارض الحياة وطبائعها.

ـ والراجح أن ما يخشاه «فؤاد» هو أن «زينب هانم» قد تظن أنه برئاسة الوزارة سوف «يكبر» على الكل، وحينئذ يصبح «سيد نفسه» يتصرف كما يشاء.

وحين بلغت الاتصالات والترتيبات لعودة الوفد إلى السلطة نتائجها المتوقعة، فإن الملك «فاروق» مع من استشار من رجال القصر وبينهم «حسن يوسف» (باشا) ـ الذى قام باستقصاء لآراء عدد من الساسة الحزبيين والمستقلين ـ توصلوا إلى نتيجة مؤداها «أنه من الأوفق تكليف «حسين سرى» (باشا) بتشكيل وزارة ائتلافية يدخل فيها الوفد (بشخص فؤاد سراج الدين)، ثم تقوم هذه الوزارة بإجراء انتخابات، لكن «التوجيه السامى» يصدر لرئيس الوزراء بأن «يضبط الأمور» بحيث لا تتحقق للوفد (مهما كان) أغلبية برلمانية كاسحة (كما يحدث فى العادة)، وإنما ينبغى الحرص على أن تتواجد جميع الأحزاب السياسية (بالذات السعديين والأحرار الدستوريين) فى نتائج الانتخابات بطريقة تكفى لحفظ توازن بينها يمكن العمل على أساسه ـ بمعنى أنه لا مانع من أن يفوز الوفد بالنصيب الأوفر من المقاعد، ولكن دون الحصول على أغلبية تعطيه الحق فى تشكيل الوزارة وحده ـ وفدية بالكامل».

وكان خطاب الملك بتكليف «حسين سرى» (باشا) برئاسة الوزارة (٢٥ يونيو ١٩٤٩) معبرا عن مطالب الملك منه ومن وزارته ـ واضحا فيما يرمى إليه.

عزيزى «حسين سرى» (باشا):

«إن من أعز أمانينا ورغباتنا دائما إلى إسعاد شعبنا ورفاهيته، أن تقوم حكومة قومية تعمل ـ والبلاد مقبلة على انتخابات جديدة ـ على توحيد الصفوف وجمع الكلمة، وتضافر القوى، وتركيز الجهود فى هذه الظروف الدقيقة التى تواجهها بلادنا العزيزة فى الداخل والخارج».

وكان تقدير «حسن يوسف» (باشا) ـ وهو مسجل بصوته ـ لمطلب الملك أن الوفد مسموح له أن يحصل وحده حتى نسبة ٤٠٪ من المقاعد، والسعديون على ما بين ٢٠٪ ـ ٢٥٪، ويكون للأحرار الدستوريين ما يُقارب ١٥٪، والباقى يمكن أن تتقاسمه الأحزاب السياسية الأخرى ومعها المستقلون. وبذلك (وفق حسابات النسب المضبوطة!) فإن الوفد ـ مع أنه سوف يكون صاحب أكثر المقاعد ـ قد يجد نفسه مضطرا لتشكيل وزارة ائتلافية، وفى هذه الحالة فإن «النحاس» (باشا) قد لا يكون حريصا على رئاسته شخصيا لها، ومن ثم يتركها لفؤاد سراج الدين.

وفى رواية «حسن يوسف» (باشا) وهى مسجلة بصوته، وفى رواية «حسين سرى» (باشا) وقد سجلتها بخطى على أوراق مكتبى ـ يظهر الاتفاق على نقطة مهمة مؤداها أن السفارة البريطانية رأت مبكرا أن حسابات القصر الملكى فى الانتخابات ـ غير دقيقة، وأن فكرة تحديد نسبة الأحزاب المختلفة فى مقاعد مجلس النواب وصفة مؤكدة لحالة من التوتر، تثير من المخاطر أكثر مما تواجه، وكانت النصيحة الدائمة الصادرة عن السفارة البريطانية «أنه من الأنسب والأسلم إزاء احتمالات المستقبل أن تجىء وزارة وفدية بالكامل تحشد أغلبيتها المؤكدة فى مواجهة المخاطر المحتملة».

ومع أن تعليمات الملك إلى رئيس وزرائه «حسين سرى» (باشا) كانت قاطعة ـ فإن النتيجة جاءت أغلبية وفدية كاسحة، وكانت تلك مفاجأة للقصر دعت الملك إلى غضب شديد ضد رئيس وزرائه «حسين سرى»، وغضب أشد ضد وزير الداخلية «محمد هاشم» (باشا) وهو صهر رئيس الوزراء، الذى لم يقبل الملك إشرافه على الانتخابات إلا عندما أبلغه «سرى» (باشا) أنه اختاره بالذات لهذه المهمة حتى يضمن تنفيذ تعليماته بخصوص النسب بين الأحزاب (وتعليماته هى تعليمات الملك). وقد دافع «سرى» (باشا) عن نفسه وعن صهره وعما جرى قائلا للملك «إن الخلل فى الخطة كلها نشأ من حقيقة أن ضباط البوليس ـ وهم المشرفون بالاختصاص على العملية الانتخابية ـ كانوا على عداء مع أحزاب الأقلية التى أنكرت عليهم حقوقهم، ودعتهم إلى القيام بالإضراب (ما بين أواخر سنة ١٩٤٧ وبداية سنة ١٩٤٨)، ثم اضطرتهم إلى فضِّه بوسائل ملتوية ـ وهم لم ينسوا لهذه الأحزاب (السعديين والدستوريين الذين كانوا فى الحكم وقتها) ما فعلوه وقد ردوا لهم الجميل».

كان رأى «أندروز» ـ الوزير البريطانى المفوض ـ أن «فؤاد سراج الدين» فى الأوضاع الحالية هو المرشح لرئاسة الوزارة ـ رغم أنه سياسى محلى وليس رجل دولة، وهو أقرب إلى عقلية «عمدة» (كتبها بالإنجليزية Omda) يعرف فنون التعامل بالمجاملة مع الناس أكثر مما يعرف عن مسئوليات المستوى الأعلى فى سلطة الدولة»

ومع أن الملك لم يقنع بهذا التبرير فإن «سرى» (باشا) أصر عليه، ومع ذلك فقد كان ظاهرا للعيان أن هناك تفسيرات أخرى:

ـ أولا: أن «سرى» (باشا) (كذلك سمعت منه وسجلت) لم يشأ أن يأخذ على تاريخه تدخلا بالتزوير فى الانتخابات، خصوصا أن مثل هذا التدخل سوف يكون سافرا، لأن الملك جعلها «معضلة رياضية»!

ـ ثانيا: أن أصدقاءه جميعا (وأولهم أحمد عبود باشا) نصحوه، بل أقنعوه بأن حكاية التوازن بين الأحزاب قفزة إلى حالة من عدم الاستقرار تضر بمصالح البلاد.

ـ ثالثا: أن ذلك أيضا كان رأى السفارة البريطانية، وأن «تشابمان أندروز» أقنعه (إذا كان فى حاجة إلى إقناع) بأن مناورات الملك فى المجهول إزاء المخاطر المقبلة، وأولها جيش مجروح عائد إلى شعب موجوع ـ قد تساعد على تفاقم مناخ يتيح الفرص لمؤامرات عناصر شريرة أولها «الإخوان المسلمين» والشيوعيون»، كلٌ منهما بأساليبه ولأغراضه.

وقد ظلت تقارير السفارة البريطانية من القاهرة ـ حتى بعد إجراء انتخابات برلمانية مفتوحة، وحتى بعد أغلبية تحققت لحزب الوفد فيها ـ تشعل الأضواء الحمراء تلفت وتشد. وركزت تقارير السفارة تلك الفترة (فى أكثر من ثلاثمائة صفحة من الأرقام والتحليلات) ـ على تفسير ملخصه أن جماهير الشعب المصرى فى الواقع لم تشارك فى الانتخابات البرلمانية ثم توصلت إلى إثبات حقيقتين:

● الأولى: أن نسبة التصويت فى المدن (حيث الرأى العام المؤثر فى رأيها) ـ لم تزد على نسبة ١٥٪ ـ وهذه نسبة متدنية.

● الثانية: أن نسبة التصويت فى الريف (وهو الكتلة الضخمة المكشوفة أمام سطوة الإدارة) وصلت إلى ٧٠٪ (على أن تقارير السفارة البريطانية توصلت إلى أنه حتى لو كانت الأرقام صحيحة ـ فهذه النسبة العالية تشهد للبوليس والعُمد ومشايخ البلد بالنشاط وخفة الحركة، أكثر مما تعبر عن رأى أو تأييد شعبى لأى حزب).

ويضيف أحد تقارير السفارة البريطانية «أن وزارة الوفد القادمة عليها أن تتحرك بسرعة لمواجهة أوضاع خطرة تشبه «منجما من الكبريت» ينتظر شرارة طائرة فى الجو لينفجر».

ومن الملاحظات التى تسترعى النظر، أن أول تعليق ورد للسفارة من لندن على تقريرها ـ كان طلبا عاجلا من وزير الخارجية البريطانية يسأل «أريد أن أعرف حجم الأصوات التى حصل عليها مرشحو الإخوان المسلمين فى الانتخابات؟!».

«٣»

دموع ملك في حالة قلق!



فاروق — حسين سرى — عبود باشا

لم تتحقق مطالب الملك «فاروق» في نتيجة الانتخابات، وكان غضبه على «حسين سرى» (باشا) شديدا لأنه لم يستطع أن يضبط النتيجة وفق الحسابات الملكية. على أن الملك كان في حاجة إلى عازل بينه وبين رئيس الوفد، وهكذا فإنه طلب إلى «حسين سرى» (باشا) أن يظل قريبا منه يساعد على ضبط العلاقات مع الوفد مادام قد فشل في تحجيم أغلبيته في البرلمان الجديد. وروى «سرى» (باشا) أنه عندما قدم استقالته للملك بعد إعلان نتيجة الانتخابات، قال له الملك «أنت سوف تبقى هنا لتتعامل مع المشاكل التي تسببت فيها»، ثم أبلغه أنه سوف يعينه رئيسا للديوان الملكي، وكلفه بتسيير الأمور مع حكومة الوفد الجديدة: لأن «حسن» (يقصد وكيل الديوان «حسن يوسف» (باشا)) لا يقدر على الوفديين، في حين أنهم قادرون على «أكله»، ولذلك فإني أريدك هنا، وأضاف الملك «هنا في السراي»!

وقال «سرى» (باشا) إنه يلتمس من «مولانا» أن يعطيه مهلة ٢٤ ساعة للتفكير لأنه الآن وبعد ستة أشهر مضنية في رئاسة الوزارة جاءت خاتمتها هذه «الانتخابات المزعجة» - يجد نفسه في حالة إرهاق شديدة!

وقال الملك لسرى (باشا) (طبقا لروايته): «لا تقل هذا الكلام. المسئولية عليك وأنت لا تستطيع أن تتركني وتجرى!»، وهنا قدّر «سرى» (باشا) أن الفرصة متاحة «ليتعلم الملك درسا عن حقائق الأمور في بلاده وفي بيته»!

ويوم ١٤ فبراير ١٩٥٠، وكانت نتائج الانتخابات تعلن تباعا، كتب السير «رونالد كامبل» (السفير البريطاني في القاهرة) تقريرا بالغ الأهمية يستحق القراءة المتأنية، لأنه جاء أشبه ما يكون بوصف للأحوال في مصر عند ذلك المنعطف الهام في التاريخ المصري الحديث.

كان التقرير (٨٠٣٤٧/ ٣٧١ ملفات الخارجية البريطانية) على شكل خطاب موجه إلى السير «وليام سترانج» الوكيل الدائم لوزارة الخارجية، وقد تواصل على امتداد ست صفحات كاملة بدأها السير «رونالد كامبل» بقوله:

«ذهبت لمقابلة «سرى» (باشا) بعد إعلان نتائج الانتخابات في المرحلة الأولى. بدأ «سرى» (باشا) بلفت نظرى إلى أنه يتحدث معي بصراحة كصديق شخصي وموضع ثقة. قال لي «إن «فاروق» جاء إلى بيته أمس يلح عليه بضرورة أن يتولى رئاسة الديوان الملكي». قال «سرى»: «إنه قبل ولكنه اشترط أن يسمع منه الملك تقييمه للأوضاع دون تزويق». قال لي: «إنه جلس مع الملك طيلة أربع ساعات وأنه تكلم معه بطريقة لا يمكن لغيره أن يُجازف بها، وساعده عليها أنه عرف الملك منذ كان صبيا، وكذلك كان صهرا له، باعتباره زوج خالة الملكة فريدة التي طلقها الملك قبل أقل من عام. قال لي «سرى»: «إنه على يقين من أن الملك سوف يكرهه بسبب ما صارحه به، وأنه سوف يقصيه بعيدا عن دائرته الأقرب، ولكن ذلك ليس مهما في مثل هذه الظروف». قال لي «سرى» «إنه سوف يتصرف بمقتضى فهمه لمسئوليات منصبه، وأنه سوف يبتّ في كل المسائل بنفسه، ولن يعرض على الملك إلا ما يراه ضروريا، ويحتاج دستوريا إلى موافقته. قال لي أيضا: «إن الملك سوف يحاول بالتأكيد أن يتجاوزه ويتدخل في شتى الأمور، وذلك بنصيحة أفراد من الحاشية المحيطة به». قال «سرى»: «إن هذه الحاشية سوف تبذل جهدها في عزله عن الملك، وسوف يجيء يوم يسدون فيه الطرق عليه، بحيث لا يعود أمامه غير أن يكتب إلى الملك بما لديه مع علمه مسبقا أن ما قد يكتبه لن يصل إلى المرسل له في معظم الأحيان، وأكثر من ذلك فهو يتوقع أيضا أن لا يتمكن بسهولة من محادثة الملك تليفونيا، ولكنه عازم على أن يشق طريقه حتى لو اضطر إلى طلب لقاء الملك أو محاولة الاتصال به تليفونيا مرتين وثلاثا وأربعا وخمسا وستا، لأنه مصمم على القيام بأعمال مهمته كما يتصورها مادام هو باقيا في هذا المنصب». قال لي «سرى»: «إنه عدد أمام الملك قائمة بأخطاء «جلالته» بما في ذلك التصرفات المسيئة التي أقدم عليها في السنوات الأخيرة، وحدثه عن حياته الخاصة ولياليه في ملاهي القاهرة، مبينا أن ذلك ينتقص من كرامة الملك، وهيبته أمام شعبه». وأضاف يقول لفاروق: «إن الملكية مؤسسة مهمة ولازمة للبلاد وتصرفاته على هذا النحو المسيء إلى شعبه، قد تعرض العرش للخطر، وموقفه في البلد هو في الحقيقة مثل بالون منفوخ لا ينتظر غير لمسة من سن دبوس، ثم إذا هو فارغ حتى من الهواء».

قال لي «سرى»: «إن الملك حاول أن يناقش معه قائمة ما نسبه إليه «سرى» (باشا)، وسمح «سرى» (باشا) لنفسه أن يقول لفاروق «إنه لا يحتاج إلى دفاع عن نفسه، وإنما يحتاج بالدرجة الأولى إلى تصحيح تصرفاته دون أن ينخدع بحاشية السوء التي تحيط به - فكل أفرادها وبدون استثناء لا يساوون شيئا (Worthless). وقال لي «سرى» أنه فوجئ بتأثر الملك ولمح دموعه، ورأى أن يقوم من مجلسه ويتجه إلى نافذة يطل منها على حديقة بيته، وبحيث يترك للملك فرصة استعادة سيطرته على مشاعره. قال لي «سرى»: «إنه بعد أن هدأ الملك، قال له إنه يقبل المنصب لأنه يريد أن يخدمه بأمانة». ورد الملك بأن رئيس ديوانه الجديد سوف يكتشف بنفسه أنه (الملك) سوف يحاول جديا أن يكون على مستوى مسئولياته».

قال لي «سرى»: «إن قبوله للمنصب لم يكن مجرد استجابة لطلب «فاروق»، ولكنه استجابة لإحساسه بالواجب العام، وأن هذا القبول ينطوى على تضحيات جسيمة يقبلها برضى، فهو رجل لم يعد يطمع في منصب لأنه تولى رئاسة الوزارة أربع مرات حتى الآن، كذلك لا يطمع في شرف يُضاف إلى ما عنده، لأنه يحمل أرفع الأوسمة والألقاب».

قال لي «سرى»: «إنه بما قاله للملك أراد أن يصدمه لعله يفيق، وأنه يعلم مقدما أن مهمته صعبة، وأن الملك لن يستوعب درس الحقائق، وأنه في الغالب لن يصحح من سلوكه الشخصي ولا من قراراته غير المسئولة ولا من تدخله في شئون الدولة، لكنه أي «حسين سرى» سوف يحاول بأقصى ما يستطيع».

قال لي «سرى»: «إنه واثق أن الملك ذكي، ويمكن أن يكون معقولا وهو يستطيع أن يناقش موضوعا من المواضيع بجدية لمدة ثلاثة أرباع الساعة وفي بعض المرات لمدة ساعة، لكنه فجأة يتصرف كما لو أن موجة كهربائية اخترقت رأسه، فإذا مسلكه ينقلب وإذا هو يكابر ويعاند».

فيما يتعلق بالوفد قال لي «سرى» عندما سألته - «إنه لا يشعر لسوء الحظ أنهم جاهزون للمسئولية التي جاءت إليهم، فالنحاس (باشا) في «عالمه الخاص»، وأعضاء الوفد كلهم متلهفون بسرعة لاستعادة النفوذ والامتيازات التي يظنون أنها ضاعت عليهم جراء خمس سنوات خارج السلطة، وكلهم الآن في عجلة من أمرهم. أضاف «سرى»: «إنه تحدث إلى أصدقائه الوفديين مشيرا إلى ضرورة أن يتصرفوا بروية وإلا أساءوا إلى أنفسهم». قاطعت «سرى» وقلت له: «إنني آمل أن يستطيع الوفد دراسة الموقف الدولي بدقة، وأن تتفهم زعامته مقتضى الضرورات الاستراتيجية لهذا الموقف الدولي. ثم لا يطلبون منا على وجه العجلة أن نفتح باب التفاوض معهم في شأن تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦».

قال لي «سرى»: «إنه مستوعب لما قلت وطلب إليّ أن أساعده بما أقدمه من نصائح شخصية لمن أراهم من أقطاب الوزارة الجديدة».

قلت له: «إنني قمت بذلك فعلا وعلى أساس شخصي بحت، وأضفت أنني نصحت هؤلاء الأصدقاء فعلا أن ينتهزوا الفرصة، وأن يحسنوا التعامل مع الملك، وأن يتعاونوا معه في ما يخص مصلحة البلد». قال لي «سرى» (باشا): «إن ما فعلته شيء مفيد للغاية».

قال لي «سرى» (باشا) «أن الملك سوف يدعو «النحاس» ويكلفه بالوزارة، ومع أن الملك لم يكن يريد أن يرى نفسه في يوم من الأيام مرغما على مقابلة «النحاس» وتكليفه برئاسة الوزارة، إلا أنه الآن يدرك أن ذلك أمر لا مفر منه، مع العلم أنه تلقى تأكيدات بأن «النحاس» سوف يكون هذه المرة حسن السير والسلوك على نحو يفوق كل التوقعات».

....

....

[ينتقل سير «رونالد كامبل» في تقريره فيشير إلى لقاء له بعد ذلك مع الملك «فاروق»، كان الغرض منه تقديم زائر بريطاني مهم هو اللورد «ماك جوين»، ثم كان أن «فاروق» استبقى السفير بعد انصراف اللورد «ماك جوين» «لأنه - كما قال - يريد أن يتحدث معه عن بعض التطورات الأخيرة». وبدأ الملك فقال: «إنه مندهش من تركيبة مجلس النواب الجديد، فغالبية أعضائه كم مجهول لا يعرفهم أحد

وزير الدولة البريطاني ينصح سفيره بالقاهرة بأن ينسق خطاه مع «عبود» (المليونير أحمد عبود باشا)، رغم علمه بأنه: «نصاب (Crook)، ولكن ميزة الرجل أنه لا يخفي حقيقته سرا، ثم إنه رجل بارع جدا فيما يقوم به، ومع أن مصالحه هي التي تحركه، إلا أنه يبقى أنفع لنا وسط هذه الفوضى في القاهرة»

حتى بين جماهير حزب الوفد، رغم أنهم نجحوا فى الانتخابات على قوائمه». أشار الملك إلى «عبود» (باشا) بوصف: «إنه المهندس الحقيقى وراء نتائج الانتخابات وأسماه «الرجل الخفى وراء الستار». وقال إنه كان دافع كل الأموال التى صرفها الوفد على الانتخابات، وذكر الملك رقما ضخما فى تقديره لما صرفه «عبود» فى الانتخابات الأخيرة»، وأضاف بمرارة: «لكنه مهما كان المبلغ كبيرا - كذلك قال الملك - فإنه لا يزيد بالنسبة لثروة «عبود» عن سردينة استُخدمت لاصطياد حوت». وعلى هذا الأساس فإن الملك يتوقع أن يكون لعبود نفوذ هائل على الوزارة الوفدية المقبلة، وإلى حد يسمح له بتسخيرها حتى أقصى مدى لتحقيق مصالحه».]

....

....

[انتقل سير «رونالد كامبل» بعد ذلك فى تقريره إلى لقاء بينه وبين «إسماعيل صدقى» (باشا) وقال:

«قابلت «إسماعيل صدقى» (باشا) السياسى المصرى المخضرم على عشاء فى بيت أصدقاء مشتركين مصريين، وكان متشائما واعتقاده أن المستقبل مظلم وأن الوفد لن يعرف كيف يتصرف فى أوضاع تختلف عما تعود عليه فى ظروف سابقة، فالنحاس (باشا) ليست لديه إحاطة بالشئون الدولية، والراجح أن الأشد تأثيرا عليه سوف يكونون الأعلى صوتا بين وزرائه، فى حين أن العناصر العاقلة فى الحزب سوف تكتم آراءها أو تنأى بنفسها عما يجرى». قال «صدقى» «إنه لا يثق فى أى تعهدات يعطيها «فاروق» بالتزام حدوده الدستورية، فقد أدمن على تدخل القصر فى كل الشئون حتى فى تنقلات الموظفين». ختم «صدقى» (باشا) تقديره للموقف بأنه لا يستطيع تصور صيغة يمكن أن تستقيم بها الأمور]

....

....

[وأخيرا ينتقل السير «رونالد كامبل» فى تقريره إلى لقاء بينه وبين «كريم ثابت» جرى قبل ليلتين ويكتب: «سألت «كريم» عن مزاج الملك الحقيقى عندما تلقى نتائج الانتخابات، وأكد لى أن الملك استقبل النتيجة بروح رياضية، وبنفس هذه الروح فإنه كلف «النحاس» بتشكيل الوزارة، وكلف «سرى» برئاسة الديوان، ذكرت له بعض ما سمعته من الملك عن نتائج الانتخابات، ورجانى عدم نسيان أن الملك أحيانا يعبر عن مشاعره بطريقة عفوية، خصوصا مع الأصدقاء، ثم ذكر لى أنه من الضرورى علىَّ أن أقدر موقف «جلالته» إزاء زعيم الوفد، لأن «جلالته» لا يستطيع نسيان إهانة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢، لكن الملك فى الحقيقة على استعداد لأن ينسى ويفتح صفحة جديدة مع الوفد - على أن ذلك حتى من الناحية الإنسانية يتطلب وقتا!».]

وتُظهر ملفات وزارة الخارجية البريطانية (٥١٨٧ بتاريخ ٢١ يناير ١٩٥٠) - أن ذلك التقرير المستفيض من السفير البريطانى وصل إلى وزير الدولة البريطانى وقتها «هكتور ماكنيل» الذى علق عليه بخط يده يوم ٢٥ يناير بما نصه:

«إننى أشعر بالقلق وأنا أقرأ التقارير الأخيرة من سفيرنا فى القاهرة، خشية أن يبدو موقفنا وكأن لدينا شيئا من التعاطف مع الملك، إن عودة «النحاس» إلى الحكم تؤكد إلى جانب علامات أخرى شعورا لدى الناخبين معاديا للقصر، ومع اعتقادى بأن نسبة المشاركة فى التصويت ضئيلة جدا، فإن ما يمكن استخلاصه منها هو أن الطبقات ذات الوزن فى مصر لم تعد على استعداد لهضم تصرفات «فاروق» وهذه ظاهرة مهمة.

إننى أقترح ألا نقترب أكثر من اللازم من «النحاس» رغم كل ما قدمه لنا من خدمات، وأن نحتفظ لأنفسنا بمسافة عما يجرى، فضلا عن أننى أظن أن «النحاس» لن يستطيع بسهولة أن يتخلص من الشعارات الوطنية التى أطلقها رؤساء الوزارات الذين سبقوه فى السنوات الأخيرة، ومن المهم أن يفهم ذلك الملك الصغير «فاروق» دلالة نتائج التصويت الأخير، وإذا فهم فسوف يكون عليه أن يتواضع، وفى كل الأحوال فليست لدينا دموع نذرفها إشفاقا عليه».

ثم يضيف وزير الدولة «هكتور ماكنيل» إلى ما سبق فقرة شديدة الغرابة:

«إن السفير يحسن صنعا لو نسق خطاه مع «عبود» (المليونير أحمد عبود باشا)، نحن نعلم أن «عبود» نصاب (Crook)، ولكن ميزة الرجل أنه لا يخفى حقيقته سرا، ثم إنه رجل بارع جدا فيما يقوم به، ومع أن مصالحه هى التى تحركه، إلا أنه يبقى أنفع لنا وسط هذه الفوضى فى القاهرة، وفى كل الأحوال فإن علينا أن نبقى بعيدين لبعض الوقت، ونترك الأمور لتفاعلاتها فى مصر، ونقوم نحن بطى أشرعتنا Trim Our Sails.

إمضاء: هـ. ماكنيل!

٤

مشهد «الذروة» فى مأساة السياسة المصرية

بعد إجراء الانتخابات البرلمانية التى أشرفت عليها وزارة «حسين سرى» (باشا) فى أول يناير ١٩٥٠، وبعد ظهور نتائجها مؤكدة نجاح حزب الوفد فيما يشبه الاكتساح الكامل للدوائر - كانت الأحوال النفسية للملك «فاروق» تتقلب بسرعة على مسار متعرج:

فهو الغضب أولا على «حسين سرى» الذى عجز عن ضبط النتيجة - ثم هو القبول بما حدث لأنه أصبح أمرا واقعا يصعب تجاوزه - وبالطبع فقد كان الأفضل ألا يعود «النحاس» (باشا) إلى رئاسة الوزارة حتى ولو كان زعيما للأغلبية - لكنه فى نفس الوقت فإن المرشح البديل (فى تقدير حاشية الملك) وهو «فؤاد سراج الدين» ليس قادرا أو ليس جاهزا الآن لأسباب أقوى من طموحه - ثم إنه ليس هناك داخل الوفد بديل آخر جاهز للدور، خصوصا أنه ليس بمقدور أحد فى الوفد أن يقبل رئاسة الوزارة دون موافقة «النحاس» (باشا) - يزيد على ذلك أنه مما لا يقبل شكا أن «النحاس» (باشا) مصمم على حقه، وأن المؤثرين عليه وأولهم قرينته «زينب هانم الوكيل» أكثر منه تصميما - وإذن فليس أمام «فاروق» غير أن يستدعى «النحاس» (باشا) إلى قصر عابدين، ويكلفه مهما كان طعم المرارة فى حلقه - بتشكيل الوزارة الجديدة.

وكان أكثر ما يثير توقعات الملك «فاروق» أن



فاروق النحاس

كل الإشارات والتلميحات الواصلة إلى القصر - تؤكد أنه فى هذه المرة سوف يلتقى (بمصطفى باشا) لم يتعرف عليه من قبل، لأنه فى التجربة الراهنة رجل جديد تماما، مستعد للخدمة بغير تحفظات، مفتوح القلب، متخفف من كل أثقال الماضى ورواسبه.

وبعدها لم يعد الأمر مجرد إشارات وتلميحات، لأن قرينة رئيس الوفد انتهزت مناسبة اجتماعية التقت فيها مع «سعدية هانم» قرينة «حسن يوسف» (باشا)، وإذ هى تطلب منها توصيل رسالة إلى قرينها (وكيل الديوان) مؤداها أن جلالة الملك لن يندم إذا أتاح «لرفعة الباشا» فرصة جديدة يثبت فيها ولاءه للعرش وإخلاصه «لمولانا»، وأن صفحة بيضاء لابد أن تُفتح بين جلالة «الملك» و«مصطفى» (باشا) دون أن تترك مجالا «للدساسين» الذين عاشوا وحققوا مآربهم «باللعب» على الحبال بين القصر والوفد.

وفوجئت «سعدية هانم» بما سمعته من قرينة «زعيم الوفد»، لأنها على طول حياتها مع زوجها، لم تسمح لنفسها بالخروج عن دور الزوجة، وقد كانت تتمنى أن تجد «زينب هانم» أحدا غيرها لإبلاغ رسالتها، لكنه لم يكن فى وسعها «من باب الأدب والاحترام» لزينب هانم بدٌّ من أن تسمع الرسالة إلى الآخر.

وعندما نقل «حسن يوسف» (باشا) إلى الملك «فاروق» ما سمعته زوجته من «زينب هانم»، أبدى «فاروق» تشككه، وكان تعليقه: «ح يقول كلام النهارده ويرجع فيه بكره!».

على أن لحظة الحقيقة جاءت أخيرا عندما التقى الملك مع «النحاس» - وجاءت هذه اللحظة متفوقة على كل التوقعات والاحتمالات، متجاوزة كل الحدود سياسية وتاريخية فى العلاقات بين القصر والوفد.

عندما دخل «النحاس» (باشا) (وفق شهادة «حسن يوسف» (باشا) و«حسين سرى» (باشا) و«على رشيد» (باشا) الأمين الأول) إلى مكتب الملك ليتلقى التكليف، هَمَّ «فاروق» واقفا مبادرا بعبارة «مبروك يا باشا ثقة الناس فيك، وإن شاء الله تحقق لهم «هذه المرة» - ! - ما ينتظروه». ورد «النحاس» (باشا) إنه قبل أن يتكلم فى أى شىء - فإن لديه عند «مولانا» طلب هو مصمم عليه ولن يحيد عنه».

(وقال الملك «فاروق» بعد المقابلة لحسن يوسف (باشا) أنه توجس عندما سمع مقدمة «النحاس» وقال فى سره «ابتدينا»)!

وعلى أى حال فقد رد على «النحاس» بقوله: «خيرا يا باشا - تفضل). وقال «النحاس»: «إنه يريد أن يأذن له الملك بتقبيل يده الكريمة تأكيدا وتعزيزا لولائه للعرش وللملك فاروق».

وفوجئ الملك وكان رده بسرعة «العفو يارفعة الباشا» ـ لكن «النحاس» (باشا) أصر ومد يده وأمسك يد الملك الذى حاول أن يسحبها ولم يستطع بسبب حرصه على ألا يشتد فى المقاومة مع رئيس وزرائه «الشيخ»!

واستغرقت المقابلة ثلاثة أرباع الساعة عرض فيها «النحاس» (باشا) أفكاره عن تشكيل وزارته وعملها.

(لكن الملك «فاروق» قال بعد المقابلة «إنه لم يستوعب أى شيء مما قاله النحاس»، لأن فكره كان مشغولا بالمشهد الافتتاحى للقاء. وذكر «فاروق» ما معناه «إن فكره شرد لبعض اللحظات، وتمنى لو أن «روح» الوالد الملك «فؤاد» كانت موجودة فى المكتب لترى كيف نجح الابن فيما عجز عنه الأب طول سنوات جلوسه على العرش ـ فى «تأديب» زعيم الوفد «المشاكس» و«العنيد»)!

ولأيام بعد هذا المشهد الذى لا يُصدق كانت الدوائر السياسية والحزبية والدبلوماسية فى مصر مأخوذة بالصورة، كما تناقلتها الروايات والحكايات فى قصور العاصمة ومنتدياتها السياسية.

(وكان المشهد لسوء الحظ حقيقيا وليس ادعاءً من صحف دار أخبار اليوم لتشويه سمعة الوفد ورئيسه كما قيل فيما بعد)!

والسؤال الذى حير الجميع وقتها ـ بمن فيهم كثيرون فى القصر الملكى نفسه هو «لماذا تصرّف رئيس الوفد على هذا النحو؟!» ـ والحاصل أنه حتى هذه اللحظة لا يوجد تفسير كاف يتسع لحجم المعنى الرمزى «الهائل» لما وقع فى مكتب الملك «فاروق» ذلك اليوم.

وربما أن التفكير على مهل يستطيع أن يكشف عن أسباب ظاهرة تماما، ويومئ إلى أسباب أخرى غير ظاهرة تماما، لكن المشهد ـ فى حد ذاته وفى وقته ـ كان يغطى على كل الأسباب: مرئية أو محسوسة أو حتى خفية تطال بالظنون، مهما كان ما تعتمد عليه هذه الظنون من استنتاجات.

....

....

[وفى هذه الواقعة فقد سمعت وسجلت روايات كل من: «حسين سرى» (باشا) ـ و«نجيب الهلالى» (باشا) ـ و«حسن يوسف» (باشا) ـ و«كريم ثابت» (باشا) ـ و«مكرم عبيد» (باشا) الذى استبعدت شهادته عند كتابة هذا الحديث، فقد وجدتها ـ رغم إعجابى بكثير من مزايا «مكرم» (باشا) ـ متحيزة بقسوة ومعبأة بشحنة من الكراهية العميقة والعنيفة لقرينة «النحاس» (باشا) ولـ«فؤاد سراج الدين» (باشا)، لدرجة أن «مكرم» (باشا) روى عن تفاصيل مشهد وصل إليه خَبَرُه ـ وقع بين «مصطفى» (باشا) وبين «زوزو» (كما كان يسمى زينب هانم) ـ وهو مشهد بدا لى وقت سماعه ومازال كذلك حتى الآن ـ مستحيلا على التصديق]!

....

....

على أنه باستقراء الوقائع ومضاهاة الروايات يمكن تصور خلفية عامة لذلك المشهد الذى وقع فى مكتب الملك «فاروق» يوم جاءه «النحاس» (باشا) يتلقى منه تكليف تشكيل الوزارة ـ ثم إذا بالنحاس (باشا) (بكل ما يمثله) يبدأ المقابلة بطلب يتمسك به وهو تقبيل يد الملك (بكل ما يرمز إليه).



فاروق النحاس

والصورة التى يمكن اعتمادها لخلفية هذا المشهد ـ (وهو ليس مجرد مشهد ضعف إنسانى عابر، بل هو نقطة فصل فى السياسة المصرية، تجمعت فيها دواعى سقوط عصر بأكمله ما بين ثورة سنة ١٩١٩ وحتى ثورة سنة ١٩٥٢) ـ ترسم ملامح ظاهرة ومعقولة لما جرى:

● كان الوفد كحزب سياسى يملك الأغلبية الساحقة بين جماهير الشعب المصرى ـ يعتمد دائما على قيادة عُليا قوية، دورها أن تحرك وتلهم.

وفى بداية صعود الوفد، فقد كان على رأس الحزب رجلان: «سعد زغلول» (باشا) و«فتح الله بركات» (باشا): سعد يقود وبركات ينظم.

● وبعد رحيل «سعد» ظهرت فى الوفد قيادة أخرى: «مصطفى النحاس» (باشا) و«مكرم عبيد» (باشا): «النحاس» هو «الزعيم الجليل»، و«مكرم» هو «المجاهد الكبير» ـ مرة ثانية الأول يقود والثانى ينظم.

● وبعد خروج «مكرم عبيد» (باشا) وكان ذلك آخر وأخطر انشقاق فى الوفد ـ وقع على قيادة الوفد تغيير، فالأستاذ «صبرى أبو علم» الذى خلف «مكرم عبيد» على السكرتارية العامة للوفد كان محاميا من قلب الريف، وكان قديرا فى مهنته ـ لكن مشكلته كانت «شدة محليته» و«محدودية تجربته»، (فى حين أن «مكرم عبيد» جاء من جامعة أوكسفورد إلى قلب الشارع المصرى، ثم إنه حاز ثقافة عريضة أخذته من حفظ القرآن كاملا إلى استيعاب أفكار الجمعية «الفابية» بعمق، إلى جانب أنه كان خطيبا «ساحرا» لا يقرأ من خطب مكتوبة، مقبولة فى صياغتها وإلقائها ـ وإنما كلمات تتدفق لهبا وتتدحرج جمرا).

● يزيد على ذلك أنه فى فترة وزارة ٤ فبراير وما تلاها حتى إقالة وزارة الوفد (٨ أكتوبر ١٩٤٩) ـ كان الوفد فى السلطة، والإنجليز وراءه، والأحكام العُرفية مُعلنة، وظلام الحرب يحجب كل شيء ـ وبالتالى لم يكن الحزب فى حاجة إلى عمل سياسى جماهيرى، أى أنه ـ فى الواقع ـ لم يكن فى حاجة إلى قوة تحرك أو إلهام يستثير!

● لكن الأمور اختلفت بعد الإقالة (١٩٤٤) وهى لم تختلف فى الداخل وحده، وإنما فى «الإقليم المحيط بمصر» ـ وكذلك فى العالم الخارجى بعد خمس سنوات من نهاية الحرب العالمية ـ وهنا تبدت أزمة الوفد: فالنحاس (باشا) من ناحية كان مُرهقا بعبء سنوات طويلة من الكفاح إلى جانب أثقال المرض التى نزلت عليه ـ ومن ناحية أخرى فإن القوة الحقيقية تلك الفترة فى الحزب كانت قيادة ثنائية مؤجلة ـ لأنها كانت شراكة بين قرينة رئيس الوفد «زينب هانم الوكيل»، وبين السكرتير العام الصاعد فى الوفد «فؤاد سراج الدين» (باشا).

وإلى حد ما فإن فؤاد سراج الدين كان على نمط «صبرى أبو علم» (باشا) هو الآخر أسير «محليته» و«محدودية تجربته». (والفارق بين الرجلين أن «فؤاد سراج الدين» واثق من نفسه بحكم الطبقة التى جاء منها، ثم إنه أكثر نشاطا بحكم شبابه، وفوق ذلك فهو رجل يسهل على الذين يعرفونه أن يحبوه لمزاياه الشخصية، وفيه ذكاء فطرى لماح، وشهامة تجهد نفسها لإرضاء الجميع، وابتسامة حلوة غير متكلفة، حاضرة طول الوقت).

ومن الناحية الواقعية فإن هذه القيادة الثنائية فى قلب الحزب ـ لم تكن تستطيع أن تخرج إلى الناس كفريق عمل متكامل فيه من يقود وفيه من ينظم. والتقدير المنطقى لهذه القيادة الجديدة وقتها أنها كانت قوة تستطيع أن تؤدى دورها فى الصالونات، وفى الاجتماعات المغلقة، وتقدر على الاتصال والمناورة وتذليل العقبات وإجراء الاتصالات وعقد الصفقات ـ لكن تلك ليست روح الوفد، ولا هى حركته المؤثرة بين الجماهير المصرية.

● وعندما دب النشاط وسرى الدم فى العروق بمد جسور الاتصال تمهيدا لعودة الوفد إلى السلطة فى يناير سنة ١٩٥٠ ـ كان أول ما تكشَّف أن القوة الحقيقية داخل الوفد ممثلة فى التحالف بين قرينة رئيس الوفد والسكرتير العام للحزب ـ ليست كما كان العهد بها وكما كان متصورا!

كان التحالف بين الاثنين مازال قائما ـ لكنه لم يعد على تماسكه السابق، بمعنى أن ضرورات الواقع ظلت تضمه وتحافظ عليه، ولكن الطبائع الإنسانية على طول السنين واختلاف المقادير ومؤثرات المناخ ـ مضت تثير شكوكا بين الاثنين فيها المبرر وفيها المتوهم.

والمحصلة أنه حين تمت صفقة عودة الوفد إلى السلطة، وجرت الانتخابات، وفاز الوفد ـ كانت قرينة «النحاس» (باشا) فيما تقول به كل الشهادات الموثوق بها ـ «ترفض بشكل قاطع أن يجور أحد مهما كان على حق «رفعة الباشا» ومقامه».

كان إصرارها كما بدا لكل العارفين والمتابعين بمجرى الحوادث والمشاعر أيامها:

ـ أن أى كلام حول رئيس آخر غير «مصطفى» (باشا) مستحيل.

ـ أن «رفعة الباشا» لا يجب أن يترك اتصالاته وعلاقاته مع الملك لأى شخص آخر مهما كانت ثقته فيه.

ـ أن سنوات البُعْد عن السلطة (من ١٩٤٤ ـ ١٩٥٠) أضرت «بكل الناس»، ولابد أن يكون تفاهم «الباشا» هذه المرة مع «الملك» نهائيا وبدون رجعة، لأن الظروف وضعت سلطة تكليف رؤساء الوزارات وحل البرلمانات فى يد «فاروق» وحده، فلا إنجليز الآن فى القاهرة يفرضون بالدبابات، ولا «شارع سياسى» يتصدى لمعارضة إرادة الملك وهى معززة بسلطة أجهزة الدولة، وأما بعد ذلك فإنه كفانا كلاما يضر ولا ينفع!».

● وكانت «زينب هانم» قد سمعت بالتفصيل عن رغبة ملكية فى أن يحل وفدى آخر ـ «فؤاد سراج الدين» ـ بالذات محل «رفعة الباشا»، وقد علمت أن «فؤاد» رفض العرض فور سماعه، لكن شكوكها لم تهدأ وخشيتها أنه فى «ظرف محتمل» ـ فإن «فؤاد» قد يقبل غدًا ما اعتذر عنه اليوم، خصوصا وهو راغب فيه «داخل قلبه».

وبالتأكيد فإنه مما يمكن تصوره أن هواجس «زينب هانم» كانت «عميقة وقوية» إلى حد يسمح لكلامها أن يؤثر على زوجها صراحة أو إيحاء، والشاهد أن المنطق الذى تَبَنَّتْهُ «زينب» يمكن تَبَيُّنُهُ من خلال حوار على مائدة بيتها، حضره «نجيب الهلالى» (باشا) بعد مشهد التكليف وأثناء مشاورات تأليف الوزارة وتوزيع اختصاصاتها، فقد قالت قرينة رئيس الوفد للجميع ما مؤداه: «إن الباشا كان عليه أن يذهب مع الملك إلى أقصى حد «يطمئنه» و«يريح باله»، الرجل (تقصد الملك) يشعر بجرح فى كرامته بسبب إهانة ٤ فبراير ١٩٤٢، ولذلك فلابد من «حركة» غير عادية حتى يشعر الملك بصفاء نية «الباشا» ويطمئن ويستريح، الكلام وحده لم يكن كافيا وإنما لابد من «فعل»».

وأكدت قرينة «النحاس» (باشا) تحليلها بقولها ما معناه «إن قوة الوفد الحقيقية حين يكون فى الحكم وليس حين يكون معزولا فى «البيت» بلا حول ولا طول، وهو فى الحكم يستطيع أن يخدم الناس، وهو فى بيته لا يستطيع أن يخدم حتى نفسه». ■

عندما دب النشاط وسرى الدم فى العروق بمد جسور الاتصال تمهيدا لعودة الوفد إلى السلطة فى يناير سنة ١٩٥٠. كان أول ما تكشَّف أن القوة الحقيقية داخل الوفد ممثلة فى التحالف بين قرينة رئيس الوفد والسكرتير العام للحزب. ليست كما كان العهد بها وكما كان متصورا!

٥

حروب أهلية داخل الوفد

زينب الوكيل — فؤاد سراج الدين — محمد صلاح الدين — أحمد نجيب الهلالى



طه حسين — كريم ثابت — عبود باشا

لم تكن «زينب هانم الوكيل» وحدها المتشككة، وإنما كان هناك آخرون غيرها ساورتهم شكوك فى أن «فؤاد سراج الدين» (باشا) - وقد كان هو ممثل الوفد المتحدث باسمه فى صفقة عودة الحزب إلى الحكم سواء مع السفارة البريطانية ممثلة بالوزير المفوض «تشابمان أندروز» أو مع القصر الملكى (ممثلا بالمستشار الصحفى للملك «كريم ثابت» (باشا) (وبرعاية «أحمد عبود» باشا فى الحالتين) - سوف يكون هو المُمسك بكل المفاتيح يتصرف فى الأبواب كما يشاء، بمعنى انه يقدر أن يتأخر مرة عن رئاسة الوزارة (رغم تحريض ملكى) ويقدم «النحاس» (باشا) على نفسه، أو يتقدم مرة ثانية (بدافع طموحه الإنسانى) ويُرضى ضميره ويشترى سكوت آخرين بأن يرفع «النحاس» (باشا) إلى أعلى تاركا له لقب زعيم الأمة مدى الحياة ببيعة شعبية وربما رئاسة مجلس الشيوخ باعتباره نبع الحكمة (وكان ذلك تقدير «حافظ عفيفى» (باشا) رئيس الديوان الملكى فيما بعد).

ومعنى ذلك أن الشكوك كانت تساور الجميع فى بيت زعيم الوفد - وفى الحزب الذى يقوده.

وفى المحصلة النهائية فقد كانت «زينب هانم» فى البيت تشك بغريزة سيدة بلغت سن النضج وقاربت الأربعين من عمرها - ثم إنه فى الحزب كانت شكوك لدى القُدامى من رجال الوفد توسوس لهم أن «فؤاد سراج الدين» يسعى للسيطرة على الحزب ويتطلع أكيدا إلى رئاسة الوزارة.

وعلى أى حال فقد كانت عملية تشكيل الوزارة واختيار أعضائها هى المناسبة التى عبرت فيها كافة الشكوك عن نفسها، والظاهر أن «مصطفى النحاس» (باشا) نفسه كان لحظتها فى «نوبة يقظة» عادت فيها إليه ملكات السياسى «الواعى» الذى كانه ذات يوم، وقد لاحظ كثيرون - حتى فى القصر الملكى - أن «النحاس» (باشا) يمسك الزمام فى عملية تشكيل الوزارة، ويُصغى إلى كثيرين ويبحث وجهات نظر متعددة، ويبذل جهدا كى يقرر ويختار، وبعض الاختيارات محصلة لحسابات معقدة لا يبوح بها لأحد.

- وقد اختار «فؤاد سراج الدين» (باشا) لوزارة الداخلية - وهو منطقى.

- لكنه اختار معه «محمد صلاح الدين» (باشا) لوزارة الخارجية - وهو يعلم بما بين الاثنين من تنافر فى الشخصية وفى الرؤى.

- وفى شأن وزارة الحربية - وهى وزارة يعرف «النحاس» (باشا) أنها تهم القصر - فإن رئيس الوفد لم يأت معه لهذه الوزارة هذه المرة بوزير عسكرى كما كان يفعل عادة باختيار اللواء «حمدى سيف النصر»، وإنما اختار مهندسا مدنيا هو «مصطفى نصرت»، والإيحاء أن ذلك المهندس المدنى يستطيع التعاون دون تعقيدات (عسكرى ضد عسكرى) مع الفريق «محمد حيدر» (باشا) رجل القصر القوى الذى تعهد رئيس الوفد مقدما للملك، أنه سوف يقدم مرسوم تعيينه قائدا عاما للقوات المسلحة.

- وكانت المفاجأة الأهم فى التشكيل الوزارى أن «النحاس» (باشا) اختلى طويلا بأحمد نجيب الهلالى (باشا)، وظن بعضهم أن «رفعة الباشا» يعرض عليه مقعدا وزاريا، لكن هؤلاء اكتشفوا أن «نجيب الهلالى» اعتذر عن أى منصب، قائلا للنحاس (باشا) «إن دخوله الوزارة الآن قد يسبب مشكلة لأن الملك حتى هذه اللحظة لم يغفر له (للهلالى) - أنه الذى قاد حملة الرد على الكتاب الأسود (عريضة مكرم عبيد) فى مجلس النواب (١٩٤٣)، وانه فى معرض رده هاجم رئيس الديوان الملكى «أحمد حسنين» واتهمه باستغلال نفوذه. وكانت اللهجة التى استعملها «الهلالى» فى ذلك الوقت تتجاوز «حسنين» (باشا) إلى «فوق».

وفى الظروف المستجدة كان رأى «نجيب الهلالى» أن الأسلم بقاؤه بعيدا عن المناصب الوزارية ورضى «النحاس» (باشا)، على أن «الهلالى» فى نفس اللحظة استطاع إقناع «النحاس» (باشا) بأن الوقت قد حان لتغيير الأسماء التقليدية المتكررة فى تشكيل وزارات الوفد بحيث يحس الناس، وترى أجيال جديدة أن الوفد قابل للتطور. وفى تلك الخلوة الطويلة فإن «الهلالى» (باشا) قدم لزعيم الوفد قائمة برجال وصفهم «بأنهم وجود شابة - متعلمة - مجربة - تملك لو واتتها الفرصة أن تحصل على احترام الناس، بما يعيد للوفد صورته الأولى كـ: «مصنع قيادات».

وكانت القائمة تشمل أسماء لافتة للنظر، معظمهم أساتذة جامعات، ومع أن بعضهم كان دون «ماض» وفدى يدعم ويؤيد - فإن «النحاس» (باشا) وافق أن يعطيهم الفرصة. وكان أبرز هؤلاء: الدكتور «حامد زكى» (وزيرا للدولة فى رئاسة الوزارة بجانب «رفعة الباشا») - والدكتور «زكى عبد المتعال» (وزيرا للمالية بناءً على خدمة طويلة فى البنك الأهلى) - والدكتور «أحمد حسين» (وزيرا للشئون الاجتماعية وكان من قبل وكيلا لهذه الوزارة).

كانت الجائزة الكبرى التى عرضها «نجيب الهلالى» على «النحاس» (باشا) فى آخر الخلوة ترشيح الدكتور «طه حسين» وزيرا للمعارف، وقد تردد «النحاس» (باشا) لوهلة، مبديا تحسبه من أن «طه يمكن أن يشطح» - لكن زعيم الوفد لم يلبث أن غير موقفه على أساس أن «طه حسين» سوف يعطى للوزارة «رونقا» يعجب «المتعلمين فى البلد»

وكانت الجائزة الكبرى التى عرضها «نجيب الهلالى» على «النحاس» (باشا) فى آخر الخلوة ترشيح الدكتور «طه حسين» وزيرا للمعارف، وقد تردد «النحاس» (باشا) لوهلة، مبديا تحسبه من أن «طه يمكن أن يشطح» - لكن زعيم الوفد لم يلبث أن غير موقفه على أساس أن «طه حسين» سوف يعطى للوزارة «رونقا» يعجب «المتعلمين فى البلد».

وكان تعليق «فؤاد سراج الدين» عندما عرف بما وقع فى خلوة «النحاس» (باشا) مع «الهلالى» (باشا) قوله: «أصبح فى الوفد الآن حزب من الدكاترة» - وشاع وصف «حزب الدكاترة» بعد ذلك فى القاموس الوفدى. ومع أن «فؤاد سراج الدين» أحس بذكائه أنها محاولة لتطويقه - أو على الأقل لتحجيم دوره - فى الوزارة بما يشبه انقلابا دبره «الهلالى» فإنه لم يُبْدِ تبرما، واثقا - ربما - من قدرته على كسر الطوق، ومُراهنا على أن «الدكاترة» لا يعرفون ما فيه الكفاية عن ممارسة الحكم فى مصر، وكل ما لديهم مجرد «أحلام» و«نظريات» سوف تنتهى عاجزة أمام الواقع!

ويستحق الملاحظة هنا أن «فؤاد سراج الدين» (باشا) بدأ ينتهج سياسة خاصة به لمواجهة محاولات تطويقه، فعندما وجد أن الحزب ينقسم إلى مجموعات وكتل تتصادم مع بعضها أو تلغى إحداها تأثير الأخرى - رأى أن يلتفت إلى خارج الحزب باحثا لنفسه عن «قاعدة قوة» يستطيع الاستناد عليها أو على الأقل استغلال دورها أو نفوذها. وكان اختياره منطقيا ومتسقا مع طبيعته الشخصية ومع طبيعة الأحوال فى نفس الوقت - وهكذا التفت «فؤاد سراج الدين» (باشا) إلى البوليس، وخطته أن يكسب الشعور العام فى صفوف ضباطه أولا - ثم يعزز مركزه بحركة ترقيات وتعيينات واسعة تؤكد نفاذه عميقا داخل مؤسسة الأمن، وكان المنطق وراء هذه السياسة واضحا:

- فهو نفسه وزير الداخلية المكلف بالبوليس وعن مؤسسته المسئولة عن الأمن.

- وهو يعرف أن البوليس على علاقة سيئة من أيام الإضراب مع أحزاب الأقلية إلى درجة أن ضباطه اتهموا بالانحياز للوفد وإنجاحه اكتساحا فى انتخابات سنة ١٩٥٠ (رغم تعليمات القصر)، وإذن فهناك «ثأر قائم - ونائم»، ومثل هذا النوع من العلاقات والمناورات مجال يحفظه ويتقنه أى «عمدة» مجرب فى الريف.

- يُضاف إلى ذلك أنه إزاء إحساس عام بوجود أزمة فى «الأمن» بعد كل ما جرى فى السنوات الخمس ما بين انتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥) ومجيء وزارة الوفد الأخيرة (١٩٥٠) - فإن المجال مفتوح لوزير الداخلية لكى يحصل دون معارضة تُذْكَرْ على كل الاعتمادات اللازمة لـ «تحسين أحوال البوليس»، وهنا يتجلى نفوذه.

- وكذلك أنشأ «فؤاد سراج الدين» إدارة خاصة فى مكتبه من «نظاميين ومدنيين» مهمتهم القيام بحملة علاقات عامة بين مكتب الوزير وبين مؤسسة البوليس.

وقد لمحت ثلاث من السفارات الأجنبية فى القاهرة محاولة

«سراج الدين» بناء نوع من الولاء الشخصى له فى البوليس، وهى سفارات بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا ـ وسجلتها فى تقاريرها إلى عواصم بلادها، مشيرة إليها كظاهرة، بل إن سفير فرنسا كتب «إن وزير الداخلية وهو يعرف أن الملك هو القائد الأعلى للجيش ـ يريد أن يجعل نفسه «القوميسير» الأكبر للبوليس!».

ويقول السفير البريطانى السير «رالف ستيفنسون» فى تقرير علق به على نفس الظاهرة «إنه ليس واضحا لماذا يبنى «فؤاد سراج الدين» لنفسه هذه الشعبية الشخصية وسط البوليس، فهذا نفوذ يصعب تصور أن صاحبه يستطيع استعماله لحسابه الخاص إزاء أى تحد حزبى أو سياسى يواجهه، والغالب أنه منطق «ادخار» (تحويش) أدوات السلطة، بصرف النظر عما يمكن أن تستعمل فيه هذه الأدوات، وربما أنه تعبير عن «قلق» ذاتى لا يفصح عن نفسه!».

وخلال الأسابيع والشهور التالية لتشكيل الوزارة الوفدية الجديدة، فإن نفس تقارير السفارات البريطانية والأمريكية والفرنسية راحت تحفل بملاحظات ترسم صورة بدت متناقضة كلها مع الدافع الرئيسى الذى استوجب التقارب بين القصر والوفد ـ وهو بالتحديد مواجهة حالة نذير يوشك أن يتحقق نتيجة سوء الأحوال فى البلاد بعد سنوات طويلة من التخبط والفوضى، مع اتفاق بين الجميع على أن مصدر الخطر ـ هو التقاء جيش مجروح عائد من فلسطين، بشعب موجوع تكاثرت عليه الهموم الاقتصادية والاجتماعية ـ إلى جانب حالة توتر أمنى، خصوصا بعد سنوات دوت خلالها انفجارات القنابل فى الشوارع، ولعلع رصاص أودى بحياة رجال بارزين وساسة لهم شأن، واغتيال زعماء وراءهم جماهير. والشاهد أنه تبدى لكل المراقبين ـ وأولهم سفارات القوى الكبرى ـ أن الذين تمنوا أن يروا تعاونا بين القوتين الأكبر فى الداخل: القصر والوفد ـ لإيقاف حالة من التردى العامة أصابت الشأن المصرى وأضرت به ـ ما لبثوا أن اكتشفوا أن المحصلة النهائية لكل ما تمنوه وسعوا له أصبح اتفاقا بين الوفد والقصر يقسم السلطة بينهما، وفى الجوهر فإنه لم يكن اقتساما للسلطة وإنما كان توافقا على ألا يتعرض أحد الطرفين للآخر، وبدا لكل المراقبين على الأرض أن كلا من الطرفين انشغل بأحواله وتلهى بها!

وفى واحد من آخر التقارير التى كتبها السير «رونالد كامبل» قبل أن يترك السفارة البريطانية فى القاهرة إلى وزير الخارجية (أرنست بيفن ـ الزعيم العمالى المرموق)، قال السير «رونالد كامبل» (رقم ٥٠/٣٣/١٠١١):

ملاحظاتى على الموقف:

١ ـ قابلت «حسين سرى» (باشا) رئيس الديوان الملكى المُعيَّن أمس ٢٥ فبراير، وكان حديثه متشائما عن قدرة الحكومة الوفدية الجديدة على إنجاز شىء.

٢ ـ صحة «النحاس» (باشا) ساءت جدا، وإرهاقه أصبح باديا للعيان بعد ومضة نشاط ظهرت منه أثناء مشاورات تشكيل الوزارة.

٣ ـ فى الوزارة الجديدة ثلاث كتل متصارعة على النفوذ، الأولى: مجموعة تلتف حول «فؤاد سراج الدين» وأظهر من فيها «إبراهيم فرج» (وزير الشئون البلدية والقروية). والثانية: مجموعة محسوبة على «نجيب الهلالى» (باشا) وفيها الدكتور «طه حسين» والدكتور «زكى عبد المتعال» والدكتور «حامد زكى» والدكتور «أحمد حسين». والثالثة: مجموعة من الوفديين القُدامى يعتبرون أنفسهم على صلة برئيس الوفد له وحده ولاؤهم ـ ويُلاحظ أن وزير الخارجية «محمد صلاح الدين» يقف «مجموعة» وحده ويفضل أن يمارس الشئون الخارجية بمفرده بتفويض من «النحاس» (باشا) مباشرة.

٤ ـ يبدو واضحا أن «فؤاد سراج الدين» مازال الرجل الأقوى فى الحزب، وهو يتصرف باعتباره خليفة «النحاس» (باشا)، لكنه فى هذه الأيام يمشى متواريا بطىء الخطى حتى ينفى الأقاويل التى تتهمه بأنه متعجل لإقصاء «النحاس» (باشا) عن رئاسة الوزارة لكى يجلس مكانه.

٥ ـ والملحوظ أن «فؤاد سراج الدين» (باشا) يصرف جهدا كبيرا فى تنمية علاقاته مع القصر الملكى عن طريق «كريم ثابت» الذى يأمل فى مساعدته بسخاء أكثر حين يصل لرئاسة الوزارة.

٦ ـ هناك شعور بأن مجموعة الوزراء المحسوبين على «نجيب الهلالى» (باشا) ينتظرون فشل التركيبة الحالية للوزارة، ويلعبون مع «نجيب الهلالى» لعبة صبر وانتظار حتى يكون هو خلف «النحاس» (باشا) المفضل حين تجىء اللحظة المناسبة. ومع أن مجموعة «الهلالى» متماسكة ـ إلا أن خلافا بدأ يظهر بين الدكتور «زكى عبد المتعال» وزير المالية والدكتور «طه حسين» وزير المعارف الذى يُلِحّ فى طلب اعتمادات أكثر لمشروعات تعليمية أثيرة عليه.

٧ ـ ومن المحسوس به أن الملك «فاروق» غير راض عن مجموعة «الهلالى» لأن خطابهم مازال موجها إلى عناصر الوفد التقليدية المعادية للقصر فى صفوف الوفد، وقد لفت النظر أن الدكتور «حامد زكى» رفض عامدا أن يُقبِّل يد الملك كما فعل غيره. وقد علمت أن الملك قال للدكتور «طه حسين» مباشرة «قيل لى أنك شيوعى يا باشا»، وارتبك الدكتور «طه حسين» من المفاجأة.

٨ ـ الصراعات بين المجموعات المختلفة فى الوزارة ظهرت على السطح، فقد تناقضت



تصريحات الوزراء مع بعضها وخرجت جريدة يملكها شقيق لفؤاد سراج الدين تهاجم الدكتور «حامد زكى». وذهب الدكتور «محمد صلاح الدين» إلى «النحاس» (باشا) يطلب تدخله لتحديد اختصاصات كل وزير، لأنه يخشى أن بعض الوزراء تستهويهم القضية الوطنية فيصدرون بشأنها تصريحات لا ضرورة لها، بينما هو ـ بوصفه وزيرا للخارجية ـ يستعد لفتح باب المفاوضات معنا (مع الإنجليز).

٩ ـ وقد تأكد لى فعلا أن هناك تضاربا فى التصريحات بين الدكتور «حامد زكى» و«محمد صلاح الدين» و«فؤاد سراج الدين»، وخشيتى أن الوزارة الجديدة قد تعجز عن توفير الخبز للناس ثم يعوضون ذلك بتوفير الشعارات الحماسية.

١٠ ـ سألت «عبود» (باشا) عن الأوضاع، وأكد لى أن «فؤاد سراج الدين» مازال «الرجل الكبير» فى الوفد، وهو على وجه التأكيد خليفة «النحاس» على رئاسة الوزارة، وأبدى «عبود» تخوفه من تيار بين قُدامى الوفديين والجُدد ـ يحذر من التكالب على إرضاء القصر وكسب رضا الملك بأى ثمن!

وأبدى لى «عبود» أنه مع أن «النحاس» (باشا) يركب «حصان الدكاترة» إلا أن هؤلاء الدكاترة لن يحصلوا على الاعتمادات اللازمة لتحقيق مشروعاتهم وسوف ينكشف أمرهم أمام الجميع.

وعبر لى «عبود» (باشا) كذلك عن نقد صريح لفؤاد سراج الدين بسبب عدم قدرته على التعامل مع «مجموعة الدكاترة»، رغم أن فى استطاعته «مداراتهم حتى ينكشف أمرهم وتضيع هيبتهم، وعلى أى حال فهو يأمل أن يستطيع «فؤاد» بسرعة أن يتدارك ما فاته».

ومضت أسابيع وذهب سفير بريطانى هو السير «رونالد كامبل» وجاء سفير بريطانى آخر هو «رالف ستيفنسون»، الذى وقع الاختيار عليه ليمثل بريطانيا فى القاهرة، تحسبا لمرحلة خطيرة قادمة فيها احتمالات تفاوض بين مصر وبريطانيا! ـ وكتب السفير الجديد السير «رالف ستيفنسون» تقريره الافتتاحى (رقم ٥/١٠٠/١٠١١):

١ ـ «لقد مضت شهور قليلة على عودة الوفد للسلطة ويبدو للعيان الآن أن الحكومة الجديدة خيبت مبكرا توقعات الرأى العام إزاءها، بمن فيهم أنصار الوفد وأصدقاؤه. ومن الواضح أنها فشلت فى استيعاب دروس الماضى ولم تستطع الارتفاع إلى مستوى التوقعات المنتظرة منها.

وما يدعو أى مراقب إلى مثل ذلك الاستنتاج أن الحكومة الجديدة لم تستطع بعد أسابيع من تشكيلها أن تخلق فريق عمل ينسجم مع بعضه، يتحرك متعاونا لتحقيق برنامج مُتفق عليه.

٢ ـ ويجمع أكثر المهتمين بالشأن المصرى استقلالا وموضوعية، أنه قد تأكد الآن أن هدف الوفد الوحيد من الصفقة مع القصر كان الوصول إلى السلطة، والاحتفاظ بها، ولابد أن أقول أننى لا أجد تفسيرا آخر يقنعنى بما رأيته من هذا الخضوع الذى لا لزوم له من جانب «النحاس» (باشا) أمام الملك «فاروق». ومع أن «النحاس» (باشا) يرصع قصائد مديحه فى الملك بإشارات إلى الدستور ـ الذى كان الوفد دائما يستند عليه فى مقاومة تجاوزات العرش ـ فإن الإيحاء العام للمديح الزائد ثقيل على الأعصاب، ولو أن أحد المقربين من «النحاس» (باشا) ذكر لأحد أعضاء سفارتنا أن «النحاس» لم يتغير، لكنه يريد إذا وقع الصدام بينه وبين الملك أن يكون ذلك على أرضية يختارها هو ولا تُفرض عليه.

٣ ـ أن التجمع الأكثر تأثيرا فى السياسة المصرية الداخلية الآن هو ذلك التحالف الثلاثى الذى يجمع «فؤاد سراج الدين» (باشا) وزير الداخلية مع «كريم ثابت» (باشا) الرجل الأقوى فى حاشية الملك الآن، مع «أحمد عبود» (باشا) وهذا هو الثلاثى الذى رتب عودة الوفد إلى السلطة، وهو الذى مازال يمسك بدفة توجيه الشأن المصرى.

٤ ـ ومن الواضح أن «فؤاد سراج الدين» (باشا) يحاول أن يقوى علاقاته بالقصر، والانطباع العام أنه يأمل فى رئاسة الوزارة، لكنه لا يبدو أنه سوف ينجح فى مسعاه، فهو لا يملك مؤهلات رجل دولة، وما لديه هو أساليب عمدة قرية (كتبها السير رالف ستيفنسون ـ كذلك ـ من الإنجليزية والعربية بحروف لاتينية Village Omda)، ثم إن ممارسته للسياسة فى العاصمة أقرب ما تكون إلى ممارسات السماسرة المحليين فى السياسة الأمريكية تعتمد على الإغراء أو على التهديد.

وقد أكد لى «جلاد» (باشا) (صاحب جريدة الجورنال ديجبت ومن المقربين من القصر) وشقيقه هو «فيليب جلاد» (باشا) مدير الإدارة الإفرنجية فى قصر عابدين) ـ «أن الملك مستريح إلى «النحاس» (باشا)، وأن رئيس الوفد لن يترك رئاسة الوزارة لغيره مادام بقى لديه نَفس يتردد».

وحسب ما توقعت وزارة الخارجية البريطانية ـ وهو منطقى ـ فإن موضوع البدء فى مفاوضات مصرية ـ بريطانية كان يطرح نفسه بالضرورة على جدول أعمال الوزارة الجديدة، وكان ذلك ما استعدت له الخارجية

السفير البريطانى «رالف ستيفنسون» فى تقرير إلى الخارجية البريطانية: «مضت شهور قليلة على عودة الوفد للسلطة ويبدو للعيان الآن أن الحكومة الجديدة خيبت مبكرا توقعات الرأى العام إزاءها، بمن فيهم أنصار الوفد وأصدقاؤه. ومن الواضح أنها فشلت فى استيعاب دروس الماضى ولم تستطع الارتفاع إلى مستوى التوقعات المنتظرة منها»

البريطانية عندما اختارت لسفارتها في مصر رجلا بوزن السير «رالف ستيفنسون».

وفي تقريره التالي من القاهرة كتب «رالف ستيفنسون»:

«في أول لقاء لي مع «النحاس» (باشا) أثرت معه موضوع العلاقات بين بلدينا، وقد أشار على بأن أتحدث في الموضوع بصفة مبدئية مع وزير الخارجية «محمد صلاح الدين»، وبالفعل بدأت سلسلة اجتماعات مع «صلاح الدين» لم يظهر لي فيها شيء جديد».

وفي تقرير آخر قال السير «ستيفنسون»:

«إن «عبود» (باشا) أسر إلى بأن «فؤاد سراج الدين» يرغب في زيارة للعاصمة البريطانية يقدم بها نفسه إلى لندن حتى يتعرفوا عليه ويفهموه».

وعلى نحو ما فإن الاقتراح بسفر «فؤاد سراج الدين» تسرب إلى الدكتور «محمد صلاح الدين» وزير الخارجية، وكان أن ذهب الدكتور «محمد صلاح الدين» لمقابلة «النحاس» (باشا) في غرفة نومه يشكو إليه «أن سفر وزير الداخلية في هذه الأوقات إلى لندن قد يؤدي إلى «تشابك في الخطوط» لا لزوم له»، وكان أن اتصل «النحاس» (باشا) في حضور الدكتور «محمد صلاح الدين» بالسكرتير العام للوفد ووزير الداخلية «فؤاد سراج الدين» يؤنبه على مشروع زيارة لندن، ويكرر أكثر من مرة «دا موش كلام يا فؤاد»، وحاول «فؤاد سراج الدين» أن يشرح للنحاس (باشا) أن اقتراح الزيارة جاء لسبب طبي وعائلي، ولكن «النحاس» (باشا) قطع الحديث قائلا «موش وقته» (وكانت تلك رواية الدكتور «محمد صلاح الدين» بنفسه لنجيب الهلالي (باشا)).

ومع أن هذه كانت حكاية غريبة، فقد لحقها ما هو أغرب منها، ذلك أن «زينب هانم الوكيل» وبسبب حقيقة وجود «مصطفى» (باشا) معظم الوقت في البيت ملازما لغرفة نومه (وهو ما كان يعطيها فرصة كاملة لمتابعة ما يجري في الوزارة) - سمعت بما وقع من إشكال بين وزيري الداخلية والخارجية، وكان تعليقها: «إن موضوع العلاقات مع الإنجليز هو المشكلة التي يمكن أن «يلعب فيها من يريد اللعب»، وأضافت «ما صدقنا أن رسينا على بر مع الملك والآن يريدون «تبويظ» العلاقة مع الإنجليز». (رواية زينب هانم الوكيل لناهد هانم سري قرينة حسين سري باشا).

وتلا ذلك أنه بعد أسبوعين ظهرت في الوثائق البريطانية إشارة من الخارجية في لندن إلى سفارتها في القاهرة تسألها: «من هو توفيق مفرج؟».

ثم تمضي الإشارة فتقول «إن ذلك الرجل ظهر في لندن يطلب مقابلة مع وزير الخارجية أو مع مسئول كبير في الوزارة لا يقل عن مستوى الوكيل الدائم، وهو يقدم نفسه باعتباره مبعوثا من «النحاس» (باشا)، وأنه جاء لمهمة سرية دقيقة».

وراحت السفارة البريطانية تتحرى، واتضح أن «توفيق مفرج» رجل أعمال من أصل لبناني، تربطه علاقات عمل وثيقة مع السيد «أحمد الوكيل» شقيق قرينة «النحاس» (باشا)، كما أن زوجته (السيدة لمياء مفرج) صديقة مقربة من «زينب هانم»، ويظهر أن قرينة رئيس الوفد رأت «إنه إذا كان من الضروري لأحد أن يتكلم أو يسمع من لندن فالأفضل أن يكون ذلك من بيت «النحاس» (باشا) مباشرة».

وكتبت السفارة البريطانية في القاهرة إلى لندن تنصح بعدم استقبال «توفيق مفرج» في وزارة الخارجية من ناحية المبدأ، وكتب السير «رالف ستيفنسون» يقول «إنه لا يصح لحكومة صاحب الجلالة أن تدخل طرفا في هذا النوع من المناورات»! ■

"٦"

كل شيء مباح في القاهرة

■ ■ في واحد من أهم تقاريره إلى وزارة الخارجية البريطانية (١٥ يونيو سنة ١٩٥٠) كتب السفير في القاهرة السير «رالف ستيفنسون» عبارة لخص فيها أحوال الملك «فاروق» بعبارة بليغة في إيجازها وصادقة في إلمامها - قائلا «إن الملك داخل «فاروق» ينهزم بسرعة أمام الرجل».

والظاهر أن الملك كان قد اطمأن إلى صُلحه مع الوفد، وإلى أنه - حسب تعبيره - (لكريم ثابت) «كسر عين النحاس» حين أعطاه يده يقبلها، ونسي - أو تناسى - السبب الرئيسي الذي حدا به إلى فتح طريق عودة الوفد للسلطة، معتبرا أنه ألقى بالمسئولية على غيره - وإذن فإن من حقه أن يتفرغ بالكامل لما يحب ويهوى!



رالف ستيفنسون — نازلي — فتحية — رياض غالي — فايزة

● وكانت أولى قائمة شواغل الملك «أن مصاريفه تزيد» - بينما كثيرون من أغنياء الحرب الجدد الذين عملوا في المقاولات والتوريدات للمجهود العسكري، وتجارة السوق السوداء والتهريب - راكموا ثروات خرافية. وقد عرف بأمر بعض هؤلاء عندما تقدموا للقصر يسألون إذا كان في استطاعتهم أن يحصلوا على ألقاب البكوية والباشوية، حتى يجمعوا «الشرف» إلى جانب الثراء (يغطي ويستر!) - وكان هؤلاء الأغنياء الجُدد على استعداد لأن يدفعوا الثمن وفق أي توجيه ملكي.

● وتوافق ذلك مع جهد حثيث للخاصة الملكية نشط إلى ضم مساحات هائلة من أراضي الأوقاف الأهلية إلى الأوقاف الملكية، وفي صيف سنة ١٩٥٠، وطبقا لتقارير السفارة البريطانية - مدت «الخاصة الملكية» يدها إلى ثلاثة وستين ألف فدان موزعة بين الدلتا والصعيد.

● ثم جرت إضافة أخرى إلى أعمال الملك حين ظهر إلى جواره «مستشار مالي» هو «إلياس أندراوس» الذي ما لبث أن منح رتبة الباشوية، واختصاصه الحقيقي توفير أكبر قدر من السيولة النقدية للملك حتى بالمضاربة في بورصة القطن لحساب «الخاصة الملكية».

ومن المفارقات أنه في نفس الوقت الذي راح فيه «أندراوس» (باشا) يُضارب في بورصة القطن لحساب الخاصة الملكية - كان هناك سمسار آخر في بورصة القطن هو «روبير خوري» يُضارب لحساب «فؤاد سراج الدين» (باشا) (بوصفه مالكا كبيرا لأراض تنتج قطنا)، وكذلك كان «خوري» يُضارب لحساب الأستاذ «محمود ابو الفتح» وهو صاحب جريدة المصري، (وكان كبار تجار القطن أندرياس سرباكيس - ومحمد أحمد فرغلي (باشا) - وعلى أمين يحيى (باشا) يساعدون هنا مرة وهناك مرة أخرى!).

● ثم دخل الملك بنفسه إلى أعمال من نوع لا يخطر على البال، فقد كان من الأصل هاويا للاقتناء، وكانت لديه مجموعة نادرة من طوابع البريد، وأشار عليه بعض الإيطاليين في القصر (وبينهم أنطونيو بوللي (بك) مدير الشئون الخاصة) بأن هواة المقتنيات النادرة في العالم أكثر الناس استعدادا «للدفع». وهنا تعرض الملك لما لم يكن ينبغي أن يتعرض له، وفيه أن تاجر طوابع بريد نادرة (يهودي من تشيكوسلوفاكيا هاجر إلى لندن «جوزيف سميفسكي» ورفع على (الملك فاروق) قضية باسمه ولقبه الملكي، وأبلغ البوليس في لندن أن «فاروق» سرق منه طابعا نادرا قيمته خمسة آلاف جنيه إسترليني، وادعى أنه أرسل الطابع إلى الملك داخل رسالة خاصة، لكن سكرتير الملك أبلغه أنه عندما فتح «جلالته» المظروف بنفسه اهتماما بالطابع وتشوقا إلى إلقاء نظرة عليه، اكتشف أن المظروف كان خاليا. ومع أن التحقيق أثبت سوء نية المرسل في تقدير ثمن الطابع عندما استشير بعض الخبراء بواسطة السفارة المصرية في لندن - إلا أن الملك كان قد وضع سمعته في ساحة المحاكم الجنائية.

● وكان الأشد سوءًا أن الملك تصور أنه يقدر - بنفسه! - على زيادة ثروته بالقمار، وقد وجد كثيرين أمامه يخسرون عمدا ليحتفظوا بصحبته، ومع ذلك فإن البعض آثر الانسحاب عن مائدة الملك (في نادي السيارات المصري وغيره من أندية اللعب في

تلك الأيام) بعد أن تجاوزت خسائرهم ما كانوا مستعدين لدفعه مقابل صحبة الملك.

كان الشاغل الثانى لفاروق هو أحوال أمه الملكة «نازلى» التى ذهبت إلى الولايات المتحدة ولم تعد. وكان أكثر ما ضايق الملك، هو نوع الحياة الذى اختارته الملكة الأم لنفسها. فقد اختارت أن تسكن فى لوس أنجلوس وعلى مقربة من هوليوود (عاصمة السينما)، وتعرفت على كثيرين من نجومها، وأصبحوا زوارا لبيتها يحضرون حفلاتها إذا وجهت لأحد منهم أو منهن دعوة، لأن الكل يريد أن يكون فى «أجواء صاحبة الجلالة».

....

....

[واختارت الملكة لإقامتها فى البداية بيتا فى شارع قريب من هوليوود اسمه «تاور رود»، وقد زرتها فى هذا البيت، ولابد أن أقول أننى حين عبرت الحديقة مارا بحافة حمام السباحة مع «رياض غالى» (الذى كان فى الأصل سكرتيرا لها منتدبا لخدمتها من قنصلية مصر فى سان فرانسسكو) ـ كان رجاؤه وقد وصلنا إلى باب البيت ـ أن أنتظر فى الصالون قليلا لأن «جلالتها تؤدى صلاة الظهر حاضرا!.]

....

....

كان الملك يعرف أن والدته صادقت رجل بترول أمريكى اسمه «ريتشارد باولى»، وأن «باولى» أقنعها أن تبيع مجوهراتها وتستثمر أموالها فى حقل بترول كبير فى منطقة «جيتسبرج»، وبالفعل باعت الملكة مجوهرات بما قيمته «ثلاثة ملايين دولار» (وبقيمة النقود وقتها فإن ذلك كان مبلغا مهولا) ـ ثم إن «باولى» دفع للملكة مبالغ مما قال لها أنه أرباح «الحقل»، ثم «نفد الحقل» قبل الأوان، وكذلك زادت طلبات «نازلى» من مصر وراحت تتهم «الخاصة الملكية» بأنها تسرق إيراد أرضها وتستولى على دخلها من غير الأرض، ولا تبعث لها بشىء مما يتوافر لها من إيرادها، ثم راحت تتهم ابنها مباشرة بأنه يحاول «أكل حقها»، وهددته برفع قضايا مطالبة بمستحقاتها.

وزاد الطين بلة أن اثنتين من بناتها كانتا معها فى أمريكا ـ وهما الأميرتان «فائقة» و«فتحية» ـ وقعت كل منهما فى غرام لم يكن «فاروق» راضيا عنه: الأميرة «فائقة» مع دبلوماسى مصرى هو «فؤاد صادق» وقد تقدم بالفعل يطلب يدها من الملكة «نازلى»، والأميرة «فتحية» مع موظف السلك القنصلى «رياض غالى» الذى اعتنق الإسلام وتقدم لخطبتها هو الآخر من الملكة «نازلى».

وكان الملك «فاروق» قد تلقى تقارير من بعض أصدقائه فى الولايات المتحدة أن «رياض غالى» كان على علاقة مع الملكة «نازلى» نفسها، وأن تلك العلاقة هى التى مهدت له الاختلاط بـ«فتحية»!

وفقد الملك أعصابه وتقدم إلى مجلس البلاط يطلب الحجر على أمه ويدعو شقيقاته إلى المثول أمام المجلس، وأطاعت الأميرة «فائقة» وجاءت إلى مصر مع «فؤاد صادق» تضع نفسها ـ ومعها زوجها ـ تحت أمر الملك ومجلس البلاط.

....

....

[وقائع ووثائق قضية الحَجْر فى جزء مستقل من هذا الحديث.]

"٧"

حكاية زواج ملكى!



ناهد رشاد — ناريمان

كان الشاغل الثالث للملك هو تحقيق أمنية عمره بأن يكون له من صلبه ولى للعهد، وكان ضمن أسباب طلاقه من زوجته الأولى ـ فريدة ـ أنها إلى جانب كل ما أخذه عليها، أنجبت له بنات ولم تلد له ولدا ذكرا يرث العرش بعده (وكان يقول «أنه كلما رأى ولى عهده الرسمى الأمير «محمد على» وهو فى السبعين من عمره: يُصاب بالغم»).

وكانت للملك «فاروق» مواصفات «معينة» للزوجة الثانية حددها (طبقا لرواية السيدة ناهد رشاد):

ـ فهو يريد «بنتا خام» «يربيها» بـ«معرفته».

ـ وهو لا يريدها «نكدية» تتدخل فى حياته الخاصة حين لا يعجبها شىء!

ـ وهو يريدها من أسرة «ولّادة» للذكور حتى لا تتكرر «حكاية البنات».

ـ وهو يريدها جميلة فقط ـ وليست شديدة الجمال، ومن أسرة معقولة وليست بالضرورة من أسرة أرستقراطية، وهادئة الطبع تعرف كيف «تسمع الكلام»، و«ست بيت» تعرف كيف «تحاسب على المصاريف» ولا تطلب كل يوم «مائة فستان» كما تفعل بعض أميرات أسرته!

وكانت مواصفات الملك شائعة فى أوساط حاشيته، وعندما تصور جواهرجى الملك ـ «أحمد نجيب» (باشا) أنه عثر على فتاة تتوافر فيها هذه المواصفات ـ اتصل بمكتب الخدمة الخاصة للملك للإبلاغ بأنه «وجد طلب مولانا». وكانت المشكلة أن الفتاة التى اكتشفها «أحمد نجيب» مخطوبة، وقد ذهبت إلى محله (فى شارع ثروت وسط القاهرة) ـ تختار «شبكة زواجها» مع شاب من خيرة شباب مصر، كان يعمل وقتها فى مجلس الدولة، والمدهش أن الملك طلب من الجواهرجى الملكى أن يعمل على استدراج الفتاة وأمها إلى دُكانه مرة أخرى، بحجة أنه يريد أن يعرض عليها «غدا» شيئا أفضل يلقى الإعجاب أكثر من خاتم وقع اختيارها عليه. وعندما جاءت الفتاة وأمها وخطيبها(!) كان الملك واقفا من وراء ستارة يريد أن «يُعاين بنفسه»، وقد وافقه ما رأى، وكان تعليقه لأحمد نجيب (وفق رواية السيدة «ناهد رشاد»): «إن البنت تنفع».

وكانت المسألة المعلقة هى كيف يكون إبلاغ أسرة «ناريمان صادق» أن الملك اختار ابنتهم زوجة له، وكيف يتم فسخ خطبتها من خطيبها الأصلى مع الشرط عليه بأن «لا يتكلم» ـ وتقرر ترك هذه المهام لأحمد نجيب، وتفرغ الملك «لتصليح أحوال البنت» حتى تكون لائقة ـ ثم للبحث فى «كيفية إعلان النبأ للناس؟»!

وبالنسبة لبند «التصليح»، فقد جرى تكليف «عبد العزيز بدر» (باشا) ـ وكان من قبل واحدا من أمناء القصر ثم أصبح سفيرا لمصر فى روما ـ أن يستضيف «البنت» عنده، وأن تشرف زوجته على «توضيب» ناريمان من كل النواحى: اللبس والمشى وطريقة الأكل وقواعد البروتوكول، وإذا أمكن شيئا من اللغة الفرنسية أو الإنجليزية أو حتى الإيطالية «كخيار ثالث» إذا كان ذلك أسهل لها بحكم أنها سوف تبقى فى روما مدة لا تقل عن ستة شهور!

وأما بالنسبة لبند الإعلان عن الخطوبة، فقد عهد الملك إلى «النحاس» (باشا) بأن «يشتغل» فى هذه المسألة، كما اشتغل سابقا بمسالة الملكة «نازلى» (وكان زعيم الوفد قد اتصل بالملكة الأم قبل وأثناء قضية الحجر أكثر من عشر مرات ولم ينجح فى اتصالاته)، والآن كان «فاروق» ينتظر من «النحاس» (باشا) أن ينجح هذه المرة، وأن يتولى هو «إذاعة النبأ السعيد» على الشعب المصرى.

وأقام «مصطفى النحاس» (باشا) رئيس الوزراء حفلا باذخا فى قصر الزعفران، ألقى فيه خطابا عن الزواج الملكى السعيد استغرق سبعا وخمسين دقيقة، تزاحمت فيها العواطف تجاه «الملك الإنسان» و«قدراته السامية» و«حكمته العالية»، وفى الفقرة الثانية من الخطاب جاءت البُشرى تشكر الله أن السعادة فى الطريق إلى هذا الملك الحريص على رفاهية شعبه، والآن فإن واجب الشعب كله توفير أسباب السعادة «للسُدة العالية» و«المقام الكريم».

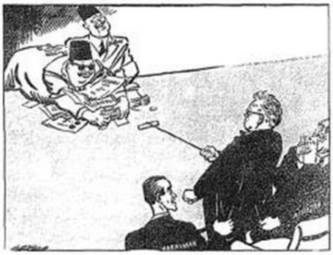
وفى هذا التوقيت بالضبط يكتب السفير البريطانى فى





نفس الكاريكاتير في نفس الصحيفة بعد تدخل رقابة الجيش البريطاني وحذف جزء من الرسم

في الرسم الكبير: الشعب المصرى يحمل صحيفة تنشر خبر تأييد روسيا لمصر يقول الشعب للملك.. كبادرة تقدير لحلفائنا العظام، «هل يتفضل مولاى بتفقد أحوال العمال في المصانع بدلا من الكباريهات؟!».
عن «صنداى اكسبريس» ٢ سبتمبر عام ١٩٥١



الملك فاروق على مائدة القمار وخلفه النحاس باشا
عن «الديلى هيرالد» ١١ أكتوبر ١٩٥١

THERE WON'T BE A FUSS? ASKS MAX ('FAROUK') BACON



Max BACON pictured in the "Farouk" costume he wore at the Royal Variety Show to join the court- liveried Crazy Gang in a warming-up sketeh- was wondering last night whether there would be a fuss about his fun.

"If I went to a faney- dress party nobody would say anythin, would they/" he asked.

"I shan't be sued for it, shall I? There won't be a row, will there?"

But already Max's Farouk joke is going round Europe. Pictured on the right, in a Paris night spot, is a woman complet. with a Bacon- Farouk moustache.



الممثل الهزلى «ماكس بيكون» يقدم «نمرة» في أحد الملاهى الليلية يقلد فيها الملك فاروق.. وفي الصورة الأخرى في أحد كباريهات باريس، سيدة تضع شوارب الملك بعد اشتهار «نمرة» ماكس بيكون.
عن «الديلى اكسبريس» ٣٠ أكتوبر عام ١٩٥١.

الملك فاروق في الصحافة البريطانية ١٩٥١

القاهرة السير «رالف ستيفنسون» ـ خطابا خاصا إلى «هربرت موريسون» وزير الخارجية العمالى الذى جاء إلى الوزارة خلفا «لارنست بيفن» الذى اعتلت صحته ـ وفيه يقول «رالف ستيفنسون»:

«إنني في غاية الدهشة من مسلك «النحاس» (باشا) إزاء الملك. فهو مسلك يختلف تماما عن كل المعهود من «زعيم الوفد» عندما كان في السلطة مرات من قبل. والحقيقة أن سلوكه يمكن وصفه «بالمهانة»، وأكثر من ذلك فهو سلوك يتناقض تماما مع الحقائق. فالملك لا يملك أى خيار لرئاسة الوزارة غير «النحاس» (باشا) الذى هو صاحب الأغلبية فى البرلمان وكذلك فى الشارع ـ لكن هذا الرجل الذى يُفترض أن يكون قويا بما لديه، يضع نفسه موضع الخضوع ويقبل الإهانة. ولا أعرف كيف يستطيع رجل مثل «النحاس» أن يشعر بالرضا عن نفسه وهو يسمح لفاروق أن يقول له وجها لوجه وفى مناسبة أحاط به فيها جمع من وزرائه «يا باشا: هل تعرف أن أغلبية وزرائك لصوص The Majority of your cabinet Ministers are Thieves كما ورد بالحرف فى خطاب السفير البريطانى لوزير خارجيته).

ويُلاحظ القائم بالأعمال الأمريكى فى نفس الفترة «أن رئيس الوزراء قد تحول إلى منظم لاحتفالات الزواج الملكى، وأنه يقوم بدور «مقدم الحفلة»، مع أن مناسبة الاحتفال فيها ما يستوجب التوقى والحذر، لأن مشروع الزواج كان «مشوبا» من اللحظة الأولى».

والواقع أن رجال القصر وفى مقدمتهم «حسن يوسف» (باشا) كانوا فى دهشة من المدى الذى ذهب إليه «النحاس» (باشا) فى إظهار سعادته بالزواج الملكى، على أن «حسين سرى» (باشا) ـ حسب قوله ـ لم يندهش لأنه يعرف حجم الضغوط الهائلة الواقعة على رئيس الوزراء حتى «يماشى ويجارى»!

وعندما بدأ الاستعداد لعقد القران، أوضح القصر لكل من يهمه الأمر أن الملك لا يريد أن يتلقى هدايا رمزية ـ وإنما هدايا حقيقية، ولا يريد من أحد أن يعبر عن تهنئته بالورود ـ لأن حدائق القصور مليئة بها على الآخر. ووصل ذلك الإخطار حتى إلى سفارات الدول الأجنبية، مع أن التقاليد جرت على أن هدايا الزواج للملوك تقتصر على أول مرة، فإذا تكرر الزواج أو تعددت زيجات رئيس دولة مسلم، فإن هدايا الدول الأجنبية لا تتكرر، لأن المقصود بها يكون قد عَبَّر عن نفسه فى المرة الأولى وذلك كاف. لكن السفارات الأجنبية هذه المرة لم يكن أمامها خيار وإلا بدا امتناع بلادها عن تقديم الهدايا لملك مصر ـ نوعا من «الإهمال المتعمد أو الإهانة المقصودة» ـ وكان ذلك هو التعبير الذى استعملته السفارة البريطانية فى مصر عندما بلغها أن الملكة «إليزابيث» ملكة بريطانيا (وهى إليزابيث الأم التى توفيت أخيرا عن ١٠١ عام) ـ أبدت اعتراضا على اقتراح وزارة الخارجية البريطانية بأن تقدم وزوجها الملك «جورج السادس» هدية لفاروق، وكان رأى «إليزابيث» أن «رجلا مُطلِّقا» يتزوج مرة أخرى لا يصح أن يتلقى «تهنئة»، ولا «هدية»!

على أن سفارات الدول فى إدراكها للأهمية التاريخية لمصر بصرف النظر عن أحوال أى نظام يحكمها فى لحظة معينة من الزمن ـ بادرت إلى تقديم الهدايا:

ـ فالاتحاد السوفيتى سارع بتقديم بالطو من الفراء النفيس للملكة الجديدة.

ـ والحكومة الهندية تقدمت بغطاء للفراش مطرز بالذهب ومرصع باللؤلؤ.

ـ وإيطاليا قدمت لوحة نسيج من صنع فينيسيا يعود تاريخها إلى القرن السابع عشر.

ـ والولايات المتحدة قدمت طاقما من الزجاج النادر مماثل لما قدمته فى طهران عندما تزوج شاه إيران من «ثريا» (قبلها بشهور).

ـ وفرنسا قدمت طاقما للطعام من الفضية المحفوفة بالذهب.

ـ وأثيوبيا قدمت باسم الإمبراطور هيلاسلاسى شخصيا إناءً كبيرا مرصعا بالجواهر.

ـ وسويسرا قدمت ساعة من نوع بالغ الدقة يُظهر الوقت فى أى مكان فى العالم بلمسة على زر.

ـ وتركيا قدمت سجادة نادرة من صنع القرن السادس عشر.

وهكذا وهكذا...

ولم تكن السفارات الأجنبية وحدها هى التى بادرت بالهدايا، وإنما تسابقت وزارات الدولة المصرية ومؤسساتها وهيئاتها حتى الجيش والبوليس ـ إلى تقديم هداياها، وكذلك الجاليات الأجنبية وحتى الجمعيات الخيرية رغم الطابع الخاص لمواردها ـ كان عليها جميعا أن تقدم الهدايا للملك، حقيقية وليست رمزية.

ويكتب السفير البريطانى السير «رالف ستيفنسون» إلى وزير الخارجية «هربرت موريسون» يقول له: «إن القاهرة لا حديث لها إلا عن وسائل الضغط القاسية (Brutal) التى جرى اتباعها حتى تكون الهدايا التى تُقدم للملك كثيرة وغالية!

كان مزاد الهدايا فضيحة داخل مصر ـ لكن شهر العسل عندما حل موعده كان فضيحة أمام العالم، فقد طال شهر العسل عشرة أسابيع (وقع وسطها شهر رمضان)، وطوال هذه الأسابيع فإن الفرح المتحرك الذى أقامه الملك «فاروق» فى أوربا تحول حسب تقرير



السفارة البريطانية فى العاصمة السويسرية إلى «سيرك متنقل».

كان «فاروق» قد تعود على رحلات صيف أوربية صاخبة من قبل، لكن مناسبة شهر العسل الجديد فاقت فى صخبها ما يمكن تصوره. وطبقا لوصف السفير البريطانى فى روما، فإن موكب الملك بدأ نزوله وعروسه ومرافقيهما من اليخت الملكى يوم ١٠ يوليو ١٩٥١ فى ميناء «تاورمينا» فى «صقلية» ثم أبحر الكل إلى «كابرى» ثم «نابولى» وتقدم الموكب بعرض الريفييرا الإيطالية والفرنسية ـ زاحفا فى قافلة طويلة تتقدمها «دستة وأكثر من سيارات الكاديلاك الكبيرة»، تسبقها سيارة حراسة تليها سيارة الملك وعروسه، ووراءها رجال ونساء من الحاشية، وعدد من «الجميلات الإيطاليات»(Glamour Girls)، ثم وراء ذلك جمع من أفراد الخدمة الشخصية للملك والملكة الجديدة رجالا ونساءً، وأُضيف إلى هذا الجمع (حسب تقرير السفارة البريطانية فى القاهرة) عدد من أصدقاء الملك على موائد القُمار دعاهم إلى اللحاق به، وكان الموكب حيث يصل يجد فى انتظاره مجموعة من رجال أشداء من الحرس الملكى فى الغالب يرتدون ملابس مدنية، ويتعاملون مع الجمهور المندهش بما يرى، بشدة وقسوة لا يعرفها جمهور أوربى، وقد شاهد السفير البريطانى فى إيطاليا موكب الملك يمر بسرعة خطرة على الطريق الساحلى ما بين «رابالو» و«بورتوفينو» فى الريفييرا الإيطالية متوجها نحو منطقة البحيرات!

....

....

(والملاحظ أنه فى نفس الفترة تواجد «النحاس» (باشا) وقرينته فى أوربا لمدة شهر للاستشفاء ما بين «فيشى» و«ايفيان» فى فرنسا ـ وكان «فؤاد سراج الدين» (باشا) قد صَحِبَ الاثنين عندما وصلا إلى أوربا يطمئن عليهما، وبقى معهما أسبوعا ثم عاد إلى مصر، ليرجع إليهما مرة أخرى فيقضى أسبوعا فى رفقتهما ثم يعود معهما. وفى تلك الفترة كان هناك وفد جاهز للخدمة وتلبية الطلبات يتقدمه الأستاذ «محمود أبو الفتح» صاحب جريدة المصرى الذى بادر بإرسال ثلاث سيارات لتكون تحت الطلب، أولاها سيارة من طراز «رولزرويس» خُصصت «لرفعة الباشا» (طبقا لرسالة بعث بها أحد رجال الحاشية الملكية «المكتب الخاص» وهو «إدمون جهلان» (بك) ـ وكانت هذه الرسالة ضمن محفوظات الديوان الملكى، ويظهر أن الملك أرسله أو أن «جهلان» (بك) تطوع لإلقاء نظرة على ما يجرى فى محيط رئيس الوزراء!).

ومرة ثانية كتب السفير البريطانى فى روما إلى وزارة الخارجية فى لندن (٥١/٤/١٠٣٢٣) ـ يقول «إن الملك «فاروق» تجنب زيارة روما بسبب خوفه من زحامها وجوها الحار والرطب فى الصيف»، لكن السفير البريطانى فى روما وكان قد رأى موكب الملك فى «راباللو» ـ تحدث فيما رأى مع السفير المصرى فى العاصمة الإيطالية «عبد العزيز بدر» (باشا)، وقد روى فى تقريره «أنه شعر بأن السفير المصرى (رغم أنه كان من أمناء القصر ورغم أن زوجته كانت مؤتمنة على «تأهيل» (تصليح) «ناريمان») ـ بدا محرجا، وكانت عيناه تعكسان نظرة بائسة وهو يسمع أحاديث المجتمع الإيطالى بمن فيه الدبلوماسيون عن مغامرات ملك بلاده دون تحرج من جانب أحد، لأن الصحف كانت مليئة بالصور والأخبار عن «السيرك الملكى المتنقل»، الذى قدرت الصحافة العالمية (وضمنها جريدة التيمس) مصاريفه كل يوم بمائة ألف جنيه إسترلينى (وهو مبلغ يساوى المليون جنيه استرلينى بسعر العملة هذه الأيام).

ويروى السفير البريطانى فى برقيته من روما (٦١ ـ ١٩٤١) ـ أن «عبد العزيز بدر» (باشا) السفير المصرى وزميله المُعْتَمَدْ لدى الدولة الإيطالية أخذه على جنب فى إحدى الحفلات وقال له: «إن زوجتى ليست عمة «ناريمان» كما كان يُشاع عندما جاءت إلينا هنا وأقامت معنا فى العام الماضى. والحقيقة أن ذلك كان غطاءً «وجدوه مناسبا» باعتبار أن زوجته من عائلة «صادق»، و«ناريمان» والدها اسمه صادق ـ لكنهما ليسا من نفس العائلة. وأصل المسألة أننى خدمت أمينا فى القصر وكنت موضع ثقة، ثم وجدوا أن تشابه الاسم العائلى بين زوجتى وعروس الملك ـ فرصة مناسبة للتغطية».

أضاف السفير المصرى:

«حاولنا معها بكل وسيلة وقد تعلمت أشياء، ولم تتعلم أشياء، وكانت مشكلتها الكبرى هى اللغات، وقد بقيت هنا ستة شهور ولم تلتقط كلمة من اللغة الإيطالية»!

وتسببت الأخبار المنشورة فى الصحف عن تصرفات الملك وضمنها سهراته حتى الفجر فى نوادى القمار ـ فى أزمات ومشاكل بلا حدود، فقد حاولت السفارات المصرية حيث ذهب الملك أن تدافع عن سمعته، وأن تكتب الاحتجاج تلو الاحتجاج، وبدت بعض الحكومات الأوربية محرجة، وعلى سبيل المثال فإن وزير الخارجية فى لندن «هربرت موريسون» تدخل لدى اللورد «بيفربروك» (أحد بارونات الصحافة الكبار وصاحب دار الإكسبرس)، لكى تخفف جرائده حملتها ـ وخصوصا رسومها الكاريكاتورية ـ على ملك مصر، ورفض «بيفربروك» قبول أى

فى خطاب السفير البريطانى لوزير خارجيته: «لا أعلم ولا أعرف كيف يستطيع رجل مثل «النحاس» أن يشعر بالرضا عن نفسه وهو يسمح لفاروق أن يقول له وجها لوجه وفى مناسبة أحاط به فيها جمع من وزرائه «يا باشا: هل تعرف أن أغلبية وزرائك لصوص؟!»

تدخل، ووجهة نظره «أنه مادام ملك مصر يتصرف «بدون حياء» - فإن الصحافة من حقها أن تتابعه دون عائق». وفى اليوم التالى أرسل اللورد «بيفربروك» إلى مكتب وزير الخارجية (طبقا لرسالة من مكتبه إلى السفارة فى القاهرة) مجموعة صور الْتُقطت للملك وهو يرتدى ملابس البحر ويستمع إلى عازف جيتار يقف بينه وبين «ناريمان»، وكان ذلك على الغداء فى مطعم «كانسونى دل مارى» (أغنية البحر) الذى تملكه المغنية «جراسى فيلدز» فى كابرى، وكانت الصور مثيرة من وجهة نظر صحفية، وكانت مع الصور بطاقة كتب عليها اللورد «بيفربروك» بخطه «كيف يمكن أن أحرم «الإكسبرس» من نشر مثل هذه الصور؟!».

والمدهش أن الغداء فى مطعم «جراسى فيلدز» فى كابرى تسبب فى مشكلة للصحف المصرية، فقد نشرته «الأهرام» بحُسن نية فى الطبعة الأولى، وتذكر أحدهم «أننا فى رمضان» ولا يُعقل أن يجلس الملك على مائدة غداء علنى فى الشهر الفضيل حتى ولو كان على سفر. وتم الاتصال فجرا بوزير الداخلية «فؤاد سراج الدين» (باشا) الذى أصدر أمره بمصادرة الجريدة - وكانت تلك الحادثة موضع تقرير من السفارة البريطانية فى القاهرة إلى وزارة الخارجية فى لندن!

وربما كان الأسوأ من ذلك أن وزير خارجية إيطاليا دعا إلى اجتماع لبعض رؤساء الصحف الإيطاليين يرجوهم أن يقللوا ما ينشرونه من أخبار عن ملك مصر، رعايةً للعلاقات بين البلدين. وكان بين ما قاله لهم «أن الصحافة الإيطالية لا يصح أن تعطى كل هذه المساحة لنشر الفضائح». ورد عليه رئيس تحرير الميساجيرو قائلا: «إذا كنت تصفها بالفضائح فلماذا تريدنا أن نكتم أخبارها عن قرائنا؟» - ورد عليه وزير خارجية إيطاليا «إن هذه كلها ليست أخبارا بل أمور عادية، طاغية شرقى يتصرف كطاغية شرقى، أى غرابة فى ذلك يمكن أن تمثل خبرا؟!».

وهكذا فإنه عند منتصف سنة ١٩٥١ كانت أهم المؤسسات المصرية السياسية والدستورية فى أزمة: القصر وهو المؤسسة الممثلة لسلطة السيادة، وحزب الوفد وهو المؤسسة الممثلة لأغلبية الشعب، وفى الواقع فإن القصر الملكى كان يتهاوى ويفقد مقامه وهيبته، وأن حزب الوفد كان يتصدع ويبدد احترامه لتاريخه وللدستور.

وفى ثلاثية السلطة الحاكمة فى مصر وهى: الإنجليز والقصر والوفد - فإن سلطة واحدة كانت لا تزال متماسكة تحاول المحافظة على موقعها (الإمبراطورى).

وكان على الأفق السياسى المرئى طارئ جديد تحسب له الجميع مبكرا وتنادوا للتعامل مع احتمالاته عندما يقع اللقاء بين جيش مجروح وشعب موجوع - لكن (المصريين فقط وليس الإنجليز) نسوا الأسباب والدواعى وهو ما يحدث للقوى السياسية عادة وحتى للأفراد حين تأخذهم مغريات الحياة ونزواتها وتُنسيهم حقائق الحياة ومسئولياتها!

وقـائـع ووثـائـق

أحـوال ملكيـة!

نازلى — فايزة



فتحية — رياض غالى

كانت دعوى الحجر التى تقدم بها الملك «فاروق» ضد والدته أمام مجلس البلاط - قضية مثيرة، وقد خرجت للعلن وأفلتت من الكتمان، عندما فقد الملك كل أمل فى عودة والدته من الولايات المتحدة، رغم دعوته لها ودعوته أيضا لشقيقتيه «فائقة» و«فتحية». وقد رفضت «فتحية» الدعوة - كما فعلت الملكة «نازلى». وصممت على الزواج من «رياض غالى»، لكن «فائقة» أعلنت أنها سوف تعود فور انتهاء شهر العسل فى جزر هاواى. وفى ذلك الوقت أوائل مايو ١٩٥٠ - سافرت والأستاذ «محمد يوسف» كبير مصورى أخبار اليوم - إلى روما. والتقدير أن نتحرى من هناك موعد عودة الأميرة «فائقة» وزوجها ونقابلهما فى روما ثم نعود معهما إلى القاهرة، وقد توافر لنا أكبر قدر من التفاصيل وأول لقطات من الصور وكذلك كان. وكانت الأميرة شديدة القلق مما ينتظرها فى القاهرة ولعلها قبلت - و«فؤاد صادق» معها - أن يتحدثا إلىَّ، لأن كليهما كان فى شوق إلى استطلاع الأجواء فى القاهرة. والذى حدث وقتها أننا قضينا ثلاثة أيام فى روما لا نكاد نفترق، وعدسة «محمد يوسف» تواصل ومضاتها، وقد تعهدت للأميرة وقبلت وعدى ألا أنشر شيئا سمعته منها أو صورة ظهرت فيها إلا بإذنها عندما ننتقل جميعا من آخر محطة أوربية وهى روما - متوجهين إلى القاهرة - وتحت السلطة المطلقة للملك «فاروق».

(وقد ساعدتنى الأميرة «فائقة» على فتح خط اتصال تليفونى مع والدتها (فى لوس أنجلوس)، وأجريت مع الملكة الأم عددا من الأحاديث التليفونية بوجهة نظرها، وتسببت هذه الأحاديث فى مصادرة «آخر ساعة»، وعلى أى حال فقد كانت تلك بداية تعرفى على الملكة «نازلى» صوتا فى البداية، ثم حقيقة فيما بعد).

وطوال رحلة طائرة T.W.A الأمريكية من روما إلى القاهرة، كانت الأميرة «فائقة» تزداد توترا كلما اقتربنا من مصر، وعندما ظهر الشاطئ المصرى كانت «فائقة» تبكى بحرقة وفى صمت، وحاولت أن أطمئنها، فأهديتها آية الكرسى محفورة على قطعة صغيرة من الذهب - كانت فى جيبى دائما.

وكان الأستاذ «محمد يوسف» قلقا - وكنت معه - على مجموعة الأفلام الأحد عشر التى التقطتها عدسته لفائقة و«فؤاد صادق» على خلفية مشاهد روما ومواقعها، وقد خطر له أن أفضل حماية للأفلام أن تحملها الأميرة فى حقيبة يدها، وتقديره أننا فى المطار سوف نتعرض للتفتيش، أما هى فسوف تُعامل كأميرة، وحسابه أنها وقد عادت إلى القاهرة استجابة لأمر من مجلس البلاط، فإن الملك سوف يسامحها، وحينئذ - وبعد أن تطمئن تستطيع أن تعيد لنا الأفلام، وكان تقدير «محمد يوسف» سليما. وفاتحت الأميرة «فائقة» فى اقتراحه وقَبِلَتْ. وحدث ما سبق وتصوره «محمد يوسف»، فقد كان «حسن يوسف» (باشا) وكيل الديوان الملكى فى انتظار الأميرة فى مطار القاهرة، وانصرف بها وحدها، تاركا «فؤاد صادق» لأحد أفراد أسرته. وأما الأستاذ «محمد يوسف» وأنا - فإن رئيس القلم المخصوص «الأميرالاى» «محمد إمام إبراهيم» (بك) أخذنا إلى غرفة جرى فيها تفتيشنا ومصادرة ما معنا من أفلام وأوراق (ولم يكن فيها ما نحرص عليه).

ولم تمض ثلاثة أيام حتى كانت الأميرة «فائقة» تتصل بى معتذرة وبرقة «إن المسألة والحمد لله سُوِّيَتْ، ورضى جلالة الملك عن زواجنا ووافق على عقد زواجها، العقد الذى أجراه شيخ مسجد سان فرانسسكو». ثم أضافت «أنه كان عليها أن تعرض الأفلام على الديوان الذى قام بتحميضها، وأنها استطاعت «إقناعهم» فى القصر بنشر خَمسْ صور تنتهى بها المسألة كلها وتُطوى الصفحة».

ثم تقابلنا بعد ذلك وجاءت مع زوجها - يحملان آية كرسى (ملكية) ترد هديتى السابقة، وقد حفرت عليها عبارة «للشكر والعرفان بالفضل»، والحرفان الأولان من اسم الأميرة، وكانت تلك بداية صداقة سعيدة دامت سنوات طويلة، حتى بعد الثورة وسقوط أسرة «محمد على»، وإلى أن توفيت الأميرة فى أوائل السبعينيات من القرن الأخير متأثرة بسرطان الثدى الذى اغتال حياتها وسعادتها!

لكن وقائع الحجر على الملكة «نازلى» لم تكن لها هذه النهاية السعيدة، وإنما كانت تجربة شديدة المرارة، ولعل وثائقها الرسمية أفضل ما يكشف ملابساتها.

رسالة فاروق إلى مجلس البلاط



نص الرسالة التى عرضها الديوان الملكى على مجلس البلاط يوم ١٢ مايو ١٩٥٠:

«جمع ديوان حضرة صاحب الجلالة الملك جميع المستندات التى تقوم مقام أدلة الإثبات فى القضايا العادلة، وهى عبارة عن التحريات الخاصة التى قامت بها السفارة المصرية فى الولايات المتحدة، فيما يتعلق بشخصية «رياض غالى» (أفندى)، والكيفية التى تعرف بها على جلالة الملكة «نازلى» وسمو الأميرتين منذ سنة ١٩٤٦، والطرق التى كان يستغل بها أموالهن، مع بيان الوسيلة التى كان يفرض بها نفسه عليهن، والتقارير التى تلقاها ديوان جلالة الملك من مختلف الجهات عن هذه المسألة، وفيها بيان شامل للمساعى التى قامت بها الحكومة المصرية والسفارة المصرية فى الولايات المتحدة.

وقد تفضل جلالة الملك مبالغة من جلالته فى العناية بهذه المسألة، فأعد مذكرة مستفيضة تتألف من صفحتين من الحجم الكبير وقعها باسمه الكريم، جاء فى مستهلها:

«رأى المغفور له جلالة والدنا الملك «فؤاد الأول» وضع نظام للأسرة المالكة، فأصدر بذلك القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٢، وقد راعى بثاقب فكره فى وضع هذا النظام أن الأسرة المالكة ركن من أركان الدولة لما بينها وبين الجالس على العرش من أواصر القرابة، وهى من جهة أخرى أكبر الأسر وأكرمها، والمثال الذى يُحتذى به فى ضبط النفس وكمال السلوك، واعتبر بحُسن تقديره أن مسائل الأحوال الشخصية مسائل عائلية محضة، وأن كرامة الأسرة ومركزها فى البلاد يقضيان بأن لا تتعرض مثل هذه المسائل الشخصية لأحاديث الناس، ولذلك فقد أراد والدنا إنشاء مجلس للبلاط وأن يصبح هذا المجلس فوق ما له من اختصاص قضائى، هيئة استشارية فى الأمور المهمة التى تهم الأسرة المالكة عندما يطلب إليها الرأى فيها».

وانتقلت مذكرة المقام السامى إلى أن ظروفا قد طرأت على جانب كبير من الأهمية والخطورة وتقتضى العرض على المجلس، إذ إن جلالة والدتنا الملكة قد سافرت إلى الخارج فى صيف سنة ١٩٤٦ للعلاج، وقد استصحبت معها شقيقتينا الأميرتين «فائقة» و«فتحية»، وأنهن يقمن الآن فى أمريكا، ونظرا إلى طول مدة إقامتهن بعيدا عن مصر وعنا، وإلى صغر سن شقيقتينا الأميرتين، وما عليه جلالة الملكة من حالة مرضية ونفسية قد وقعن تحت تأثير بعض المتصلين بهن، وقد دعوتهن مرارا بعد إتمام العلاج للعودة إلى مصر، فلم تقبلن، حتى كان من نتيجة ذلك زواج الأميرة «فائقة» في أمريكا قبل الحصول على موافقتنا، وكان من نتيجة ذلك أيضا أن اعتزمت جلالة الملكة الوالدة أن تُزَوِّج شقيقتنا الأميرة «فتحية» التى لم تبلغ سن الرشد بعد ولا تزال تحت الوصاية إلى الآن، بمن يُدعى «رياض غالى» المسيحي الذى دَلَّتْ التحريات على سوء سيرته.

ولما عَلِمْنا بما اعتزمته جلالة الملكة الوالدة، بذلنا جميع المساعى الممكنة لمنع هذا الزواج قبل وقوعه، وهى مساع عديدة كانت لدى جلالة الملكة الوالدة ولدى الأميرة «فتحية» نفسها، وقد قدمت لهما فيها النصيحة تلو النصيحة بوجوب المحافظة على كرامة الأسرة المالكة.

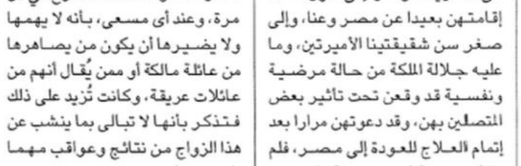
وقد ساهمت الحكومة كما ساهم سفيرنا في أمريكا بنصيب موفور في هذه المساعى، ولكنها كلها مع الأسف الشديد، لم تؤد إلى النتيجة المرجوة. وقد أبلغ سفيرنا فى أمريكا ديواننا تفصيلات مسعاه التى لم تزد جلالة الملكة إلا إصرارا على تنفيذ ما اعتزمته، وقد كانت تصرح في كل مرة، وعند أى مسعى، بأنه لا يهمها ولا يضيرها أن يكون من يصاهرها من عائلة مالكة أو ممن يُقال أنهم من عائلات عريقة، وكانت تُزيد على ذلك فتذكر بأنها لا تبالى بما ينشب عن هذا الزواج من نتائج وعواقب مهما يكن نوعها.

وقد أوضح جلالة الملك أن جلالته قد أرسل إلى جلالة الملكة الوالدة برقية مُطوَّلة مستفيضة يوضح فيها ما يساور جلالته من الألم المرير، ويناشدها أن تكف عن هذا الزواج، ويدعوها أن تقدر ما قد ينشأ عن إصرارها على ما اعتزمته من العواقب الوخيمة السيئة، ولكنها أصرت على موقفها، وردت على جلالته ببرقية قالت فيها «إن عاطفة الأمومة لديها مقدمة على كل اعتبار»، حتى وقعت المأساة مع الأسف البالغ، فتم الزواج مدنيا في يوم ١٠ من شهر مايو الحاضر.

وقد اشتملت هذه المذكرة السامية الكريمة على بيان تفصيلي بالمبالغ التى أُرسلت إلى جلالة الملكة «نازلى» والأميرتين في الفترة الواقعة من صيف سنة ١٩٤٦ حتى الآن، وهى تبلغ في مجموعها نحو أربعمائة وثلاثة وثمانين ألف جنيه ٤٨٣٠٠٠ جنيه.

وقد تبين من المعلومات الرسمية التى وصلت إلى ديوان جلالة الملك من مختلف المصادر أن «رياض غالى» (أفندى) قد استولى على نحو أربعين ألف جنيه ٤٠٠٠٠ جنيه من هذه المبالغ.

وقد ختم جلالته هذه المذكرة الكريمة بقوله «لهذا كله أود أن نقف على ما يشير به المجلس من إجراءات نحو هذا الزواج، وما يَصِح أن يُتَّبَع نحو جلالة الملكة».



نص طلب الحجر على الملكة نازلي



نص المذكرة التي قدمها رئيس الديوان الملكي «حسن يوسف» (باشا) بالنيابة إلى مجلس البلاط بتاريخ ٢٧ مايو ١٩٥١ بطلب الحجر على الملكة «نازلي» و«فتحية»، والإشارة بالعفو عن الأميرة «فائقة»:

وصل إلى ديوان جلالة الملك أن زواجا مدنيا عُقد في أمريكا بين حضرة صاحبة السمو الملكي الأميرة «فتحية» و«رياض غالي» المصري الجنسية المسيحي الديانة، وبما أن هذا الزواج باطل شرعا، إذ إن الشريعة الإسلامية لا تُجيز لمسلمة أن تتزوج من غير مسلم، فضلا عن عدم توافر شرط الكفاءة بينهما على افتراض أنه اعتنق الدين الإسلامي كما يزعُم. لذلك يطلب ديوان جلالة الملك الحكم ببطلان هذا الزواج.

وقد تقدم «محمد نجيب سالم» (باشا) ناظر خاصة جلالة الملك وجلالة الملكة «نازلي» بطلب النظر في الطلب المرفوع بتوقيع الحجر على جلالتها، وتعيين قيم عليها، وبعزلها من الوصاية على كريمتها «فتحية هانم»، وإقامة وصي آخر بدلا منها، وقد أعلنت بالتوقيع منها بالاستلام.

وقد وقع رفع مذكرة مجلس البلاط من سعادة «محمد نجيب سالم» (باشا) في هذا الصدد ما يأتي:

بناء على الأمر السامي الكريم، يتشرف ناظر خاصة جلالة الملك بأن يطلب إلى المجلس الموقر:

أولا: توقيع الحجر على حضرة صاحبة الجلالة الملكة «نازلي» وتعيين قيم على جلالتها.

ثانيا: عزل جلالتها من الوصاية على كريمتها «فتحية هانم».

وذلك للأسباب الموضحة بالطلب المؤرخ ١٢ مايو سنة ١٩٥٠، والمستندات المُرفقة به.

وبناءً عليه يتقدم حضرة صاحب السعادة «محمد حسن يوسف» (باشا) إلى المجلس بوصف كونه «كاتم سر مجلس بلاط الملك» يطلب النظر في الموضوعين الآتيين:

١ - إجازة صدور التصادق على زواج حضرة صاحبة السمو الملكي الأميرة «فائقة» من صاحب العزة «فؤاد صادق» (بك) أمام فضيلة وكيل الجامع الأزهر نيابة عن مجلس البلاط، والإذن بتسجيله في سجلات المجلس (وكان ذلك الزواج قد تم فعلا وقضى العروسان شهر العسل في جزر هاواي).

٢ - تعديل قرار المجلس الصادر في ٢٠ مارس سنة ١٩٤٥ الخاص بإنابة شيخ الجامع الأزهر عن المجلس في سماع إشهادات الزواج الخاصة بأمراء وأميرات ونبلاء ونبيلات الأسرة المالكة بإضافة نص يبين العضو الشرعي الذي يحل محل شيخ الجامع الأزهر عند غيابه، وذلك حسبما يراه المجلس في هذا الشأن.

وهذا وأتشرف بأن أرفع إلى المجلس الموقر أن حضرة صاحبة السمو الملكي الأميرة «فائقة» شقيقة حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم قد استجابت لرغبة المجلس التي أبداها في ١٦ مايو سنة ١٩٥٠، بشأن عودة سموها من أمريكا، فعادت فعلا إلى القاهرة في ٢١ مايو سنة ١٩٥٠.

وقد تفضل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم، فأذنَ بالتصادق على عقد زواج سموها من صاحب العزة «فؤاد صادق» (بك) الصادر بينهما في أبريل سنة ١٩٥٠ وفقا لأحكام الشريعة الغراء لدى إمام مسجد ساكرامنتو بكاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية. كما تعطف حفظه الله بقبول الوكالة عن سموها في إقرار التصادق والإقرار بقبض المهر. وبناء على هذا الإذن السامي الكريم صدر هذا التصادق في ٤ يونيو سنة ١٩٥٠ بقصر القبة العامر لدى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ «عبد الرحمن حسن» وكيل الجامع الأزهر نيابة عن مجلس البلاط، على اعتبار أن فضيلته يحل محل الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وفقا للمادة الأولى من القانون رقم ٤ لسنة ١٩٤٨، وعلى أن شيخ الجامع هو النائب عن مجلس البلاط في سماع إشهادات الزواج الخاصة بامراء وأميرات ونبلاء ونبيلات الأسرة المالكة بناء على قرار المجلس الصادر في ٢٠ مارس سنة ١٩٤٥.

وبمناسبة ما أُثير حول هذه الإنابة في سماع الإشهاد الخاص بالتصادق سالف الذكر، أرجو من المجلس الموقر التفضل بما يأتي:

أولا: إجازة صدور التصادق المذكور أمام وكيل الجامع الأزهر نيابة عن مجلس البلاط، والإذن باتخاذ اللازم نحو تسجيله في سجلات المجلس، وذلك منعا لكل شبهة في صدور الإشهاد أمام جهة غير مختصة.

ثانيا: تعديل القرار الصادر في ٢٠ مارس سنة ١٩٤٥ بإنابة شيخ الجامع الأزهر عن المجلس في سماع إشهادات الزواج الخاصة بالأمراء والأميرات والنبلاء والنبيلات، وإضافة نص الإنابة الذي يحل عن شيخ الجامع الأزهر عند غيابه حسبما يراه المجلس الموقر في هذا الشأن.

كاتم سر مجلس بلاط الملك

محمد حسن يوسف

يوليو ١٩٥٠

نص القرار بتوقيع الحجر على الملكة نازلي والتفريق بين فتحية وزوجها

اتخذ مجلس البلاط قرارات نصها كما يلي:

١ - من حيث إن زواج المسلمة من غير مسلم باطل بطلانا أصليا ولا يترتب عليه أي أثر من آثار الزوجية طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية.

ومن حيث أنه إذا أسلم شخص فعلا وتزوج بمسلمة عريقة في الإسلام فإن هذا العقد إذا حصل بغير رضاء الولي أو العاصب لا يصح.

لذلك قرر المجلس التفريق فورا بين حضرة صاحبة السمو الملكي الأميرة «فتحية» وبين «رياض غالي» (أفندي) بالحيلولة بينهما ووضعها تحت يد حضرة صاحب الجلالة الملك للمحافظة عليها إلى أن يفصل في الدعوى.

وعلى السلطات المختصة اتخاذ الإجراءات الكفيلة بتنفيذ ذلك.

٢ - قرر المجلس منع حضرة صاحبة الجلالة الملكة «نازلي» من التصرف في أموالها وتعيين حضرة صاحب السعادة «نجيب سالم» (باشا) ناظر خاصة جلالة الملك مديرا مؤقتا على جميع أموالها إلى أن يفصل في طلب الحجر.

٣ - قرر المجلس وقف حضرة صاحبة الجلالة الملكة «نازلي» عن أعمال الوصاية على حضرة صاحبة السمو الملكي الأميرة «فتحية» وتعيين سعادة «نجيب سالم» (باشا) ناظر خاصة جلالة الملك وصيا مؤقتا لإدارة أموالها إلى أن يفصل في طلب عزل جلالة الملكة «نازلي» عن الوصاية.

وقائع مؤتمر صحفي لنازلي و«فتحية» و«رياض غالي»







تحدثت الملكة «نازلي» والأميرة «فتحية» أمام الصحفيين للتعليق على القرارات الصادرة من مجلس البلاط في مصر إزاءهما. وقالت وكالة أنباء اليونايتد بوست إن الأميرة «فتحية» سُئلت عن رأيها في معارضة جلالة الملك «فاروق» لزواجها من «رياض غالي»، فقالت: «إن غايتي الوحيدة أن أجعل زوجي سعيدا، وأن أنجب له عددا كبيرا من الأطفال».

وسُئلت الأميرة تحديدا عن وقع قرارات مجلس البلاط في نفسها، قالت: «حسنا... هذا ما كنت أريده من زمن».

وكانت تبدو على وجود الملكة الوالدة و«فتحية» و«رياض غالي» دلائل الاستهتار وعدم المبالاة بقرارات مجلس البلاط، وعندما سُئلت جلالة الملكة «نازلي» عن رأيها في هذه القرارات، أجابت بقولها: «لقد كنت أتوقع هذا الأمر، لذلك فهو لا يهمني في شيء».

وسُئلَ «رياض غالي» في الموضوع فقال: «إن هذه القرارات لا تهمني، ولا تهم زوجتي في شيء، ولكن اهتمامنا الآن منصب على ما يمس جلالة الملكة «نازلي» من هذه القرارات»، (كانت الملكة «نازلي» قد اعتبرت أن «فاروق» قد انتهز الفرصة ليستولي على ثروتها من الأرض والعقارات والأثاث والتحف والأموال السائلة).

ومضى «رياض غالي»: «وعلى أي حال فإن لدينا من المال ما يكفينا بعض الوقت، أما فيما يتعلق بالزواج الديني، فإننا

وقائع مؤتمر صحفي

نعد العُدة الآن لإتمامه في خلال بضعة أيام».

هذا وقد أُشيع اليوم أن مكتب الهجرة الأمريكي في سان فرانسسكو طلب من «رياض غالي» أن يغادر الولايات المتحدة في مدة أقصاها ٢٥ مايو الحالي، دون أن يُعيِّن له الجهة التي يقصد إليها.

وكانت السفارة المصرية في واشنطون قد سحبت من «رياض غالي» جواز سفره الدبلوماسي منذ عامين عندما رفض الأوامر الصادرة إليه من وزارة الخارجية بالعودة إلى مصر، لذلك أصبحت إقامته في الولايات المتحدة في العامين الأخيرين غير قانونية.

ولما سُئل «رياض غالي» عما يعتزمه الآن بعد أن تلقى إنذار مكتب الهجرة بضرورة مغادرة البلاد في مدة لا تتجاوز ٢٥ مايو الحالي، قال إنه يفكر مع زوجته «فتحية» في السفر إلى جزر هاواي حيث لا تزال تقيم الأميرة «فائقة» مع زوجها «فؤاد صادق».

أما فيما يتعلق بقرار مجلس البلاط الخاص بالتفريق فورا بين «فتحية» و«رياض غالي» بوصف أن زواج المسلمة من غير المسلم باطل بطلانا أصليا ولا يترتب عليه أي أثر من آثار الزوجية طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية، فإن السلطات الأمريكية ترى أنه لا يمكن اتخاذ خطوة عملية في سبيل تنفيذه.

وفي رأي هذه السلطات أن كل ما تستطيع أن تفعله الحكومة الأمريكية أن تطلب إلى جلالة الملكة الوالدة و«فتحية» مغادرة البلاد - إذا طُلب إليها أن تفعل ذلك - ولكنها لا تستطيع تسليمهما رغم إرادتهما إلى السلطات المصرية أو حتى تعيين البلد الذي تسافران إليه عند مغادرتهما الولايات المتحدة.

... للقصة بقية

أحمد فؤاد — زوجته فضيلة — محمد رضا بهلوي



فيصل بن عبدالعزيز

كانت نتيجة هذه التصرفات جميعا مأساوية لفاروق، حتى وإن لم يعش ليراها.

والذي حدث فيما بعد أن الملكة الأم «نازلي» ارتدت عن الإسلام، واعتنقت المسيحية على المذهب الكاثوليكي، وكذلك فعلت ابنتها «فتحية» وأيضا «فائزة» التي انضمت إلى الاثنتين بعد خروجها من مصر سنة ١٩٥٥ بعد الثورة، وكانت «فائزة» قد نجحت في تهريب مجوهراتها عن طريق الحقيبة الدبلوماسية للملحق العسكري التركي الكولونيل «محمد نور الدين» - لكن الضابط الذي قام بتهريب مجوهرات الأميرة لم يسلمها لها في باريس كما كان مُتفقا عليه، ووجدت الأميرة «فائزة» نفسها مُفلسة في العاصمة الفرنسية، وأكملت رحلتها إلى كاليفورنيا تشارك والدتها حياتها - وكذلك تدخل معها في عقيدتها الدينية الجديدة (المسيحية الكاثوليكية) - وعانت الأميرة «فائزة» كثيرا في حياتها قبل أن تمرض وتلزم الفراش سنوات.

لكن مصير الأميرة «فتحية» كان أكثر مأساوية لأنها قُتلت بخمس رصاصات أطلقها عليها زوجها «رياض غالي» الذي تركت كل شيء من أجله. ذلك أن الغرام فتُر، ثم طرأت بين الزوجين خلافات وصلت إلى حد أن «رياض غالي» كما ورد في تحقيقات بوليس لوس أنجلوس «كان يضرب زوجته دائما ثم يضرب الملكة «نازلي» ويضرب الأميرة «فائزة» إذا حاولتا التدخل لمنعه من الاعتداء على زوجته». ومن المُحزن أن الملكة «نازلي» كانت لا تزال على قيد الحياة حين قام «رياض غالي» بقتل «فتحية»، وقد سارت في جنازة ابنتها تتوكأ على عصا.

ويظهر أن هناك لعنة تطارد الملك «فاروق» في أسرته من بداية صباه وحتى هذه اللحظة، ذلك أن ابنه «أحمد فؤاد» (ولي العهد الذي نودي به «ملكا تحت الوصاية» بعد تنازُل «فاروق» عن العرش بقرار من مجلس الثورة يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢، ثم جرى خلعه بإلغاء النظام سنة ١٩٥٣) - وسافر «أحمد فؤاد» رضيعا مع «فاروق» و«ناريمان»، لكن «ناريمان» (وكانت في حقيقة الأمر ضحية لظروفها) لم تستطع مجاراة «فاروق» في حياة المنفى، لأنها كانت أكثر صخبا من حياة المُلْك، وهكذا عادت وحدها إلى مصر، ثم واجه ابنها ظروفا صعبة. وعندما أصبح شابا فقد تزوج من فتاة يهودية فرنسية، وأنجب منها ابنا أسماه «محمد علي» - ثم سمح له الرئيس «أنور السادات» بالعودة إلى مصر بناء على وساطة من شاه إيران «محمد رضا بهلوي»، ومن ملك السعودية «فيصل بن عبد العزيز»، وكان كلاهما يتوهم أن النظام الملكي يمكن أن يعود إلى مصر في ظرف من الظروف بعد رحيل «جمال عبد الناصر». وهنا فإن «أحمد فؤاد» اختار لزوجته اليهودية اسم «فضيلة» (بداية بحرف الفاء المتوارث عن الملك فؤاد) - ثم اختلفت الوقائع عن النوايا، ذلك أن «فضيلة» التي تصورت أن عودة زوجها لعرش مصر يمكن أن تكون محتملة، لكنها لم تلبث أن فقدت الأمل، ثم تطورت علاقتها بزوجها إلى قضايا أمام المحاكم، ووصل الأمر إلى حد أنها رفعت عليه دعوى حجر أمام محكمة سويسرية في «لوزان» تتهمه بخلل في قواه العقلية، وبالفعل فإن «أحمد فؤاد» أودع في مصحة للأمراض النفسية في سويسرا، لم يخرج منها إلا قبل شهور قليلة، ولعل حالته مما ينطبق عليه المثل السائد المشهور: «إن الآباء يأكلون الحُصْرُم - والأبناء يضرسون!».

والواقع أن الملك «فاروق» لم يترك لورثته ثروة كبيرة حين مات، لأن حسابات سرية عديدة ضاعت أرقامها بوفاته، فقد شاء أن يحتفظ بها سرا لا يعرف به غيره، وفي حين أن ثروته حين خرج من مصر قُدرت بثلثمائة مليون جنيه، فإن ما تركه فعلا لم يزد على ثمانية عشر مليونا (ذهب أكثر من نصفها أتعابا للمحامين والخبراء الذين كلفهم الورثة بتعقب مواقع الثروة)، والباقي ضاع في حسابات البنوك!

كتاب الزاوية

حرب النهر
إمبراطورية الدراويش

كانت فضيلة إمبراطورية الدراويش هى الشجاعة، وهى صفة تنال الإعجاب وإن لم تكن نادرة، جاءت الثورة بالحرب، عاشت بالحرب وانتهت بالحرب.

ما إن بدأ يوم الاستيلاء على الخرطوم، حتى انتهى فجأة بعد ١٣ عامًا فى معركة أم درمان. تمامًا كبركان فرعى ثار بعد انفجار كبير، استمر يهدر أثناء الاضطرابات ثم خمد نتيجة لصدمة عنيفة.

بعد أن غادر الجيش البريطانى الخرطوم، أصبح المهدى هو حاكم السودان المطلق، كل طلباته مجابة، واختار مدينة أم درمان على الضفة الغربية للنيل، وبنى لنفسه مسكنًا وجامعًا ومخازن لأموال الدولة وأسلحتها فى منتصف شهر يونيو، ولم تمض خمسة أشهر على تلك الانتصارات حتى مرض المهدى ولزم الفراش، ولم يعد قادرًا على الظهور فى الجامع. وظل الخليفة عبدالله بجواره.

أعلن المهدى فى آخر نَفَس له خلافة عبدالله له، لكن عبدالله أراد أن يثبت أمر الخلافة بطريقة البيعة. جمع الناس فى الميدان الفسيح خارج الجامع، وألقى خطبة بليغة ومؤثرة فسارع الجميع لإعلان البيعة له.

انتصر الخليفة فى كل معاركه فى كل الجبهات تقريبًا على كل أعدائه. وشهدت الفترة من عام ١٨٨٥ حتى عام ١٨٩٨م أقوى فترة للسودان، هى نتاج قوة حكمه المتمكن رغم ظروف صعبة للغاية. ظل الخليفة يواجه الأخطار متخطيًا الصعاب، وجاهزًا لمواجهة كل تحد.

صفقة عادلة للعالم .. حاربوا الإرهاب ولكن

جوزيف ستيجليتز

> «سوروس ضمن فريق من الخبراء يتزايد أعضاؤه يعترف بقدرة العولمة على زيادة الثروة، فى الوقت الذى يعترف فيه كذلك بآثارها العكسية. والاتهام الذى يسوقه بسيط: فقد أضرت العولمة أناسًا كثيرين، وخاصة الفقراء فى العالم النامى. وشوهت العولمة تخصيص الموارد للمصالح الخاصة على حساب المصالح العامة

عالم المال والاقتصاد الدولى عالم مثير للدهشة. فما قد يبدو مبادئ أساسية - بل وواضحة - غالبًا ما تبدو لنا فى الوقت ذاته متناقضة. فربما يظن ظان أن المال يتدفق من البلاد الغنية إلى البلاد الفقيرة؛ ولكن ما يحدث العام تلو الآخر هو عكس ذلك تمامًا. وربما خطر على قلب شخص من الأشخاص أن البلاد الغنية - لكونها أقدر من غيرها بكثير على تحمل مخاطر تذبذب أسعار الفائدة وأسعار الصرف - قد تتحمل إلى حد كبير تلك المخاطر حين تقرض المال للدول الفقيرة. ولكن ما يحدث هو أن الفقراء يتركون لتحمل تلك الأعباء. وبطبيعة الحال لم يكن هناك من يتوقع أن يكون اقتصاد السوق العالمى عادلاً؛ إلا أنهم قالوا لنا إنه سيكون فعالاً على أقل تقدير. غير أن هذه الاتجاهات وغيرها تشير إلى أن هذا الاقتصاد لا هو بالعادل ولا الفعال.

وكتب جورج سوروس كتابًا رائعًا قويًا بعنوان: (On Globalization) عن العولمة أيمضى فيه إلى ما هو أبعد من مجرد وصف الفشل والترتيبات الدولية الحالية. ذلك أنه يقترح إصلاحات عملية ملموسة. ولأن سوروس حقق ثروته من أسواق رأس المال العالمية، فلا بد أنه يعلم عنها شيئًا. ولكن ما يجعل هذا الكتاب مؤثرًا بهذا القدر هو أن سوروس يربط هذا العلم بالإنسانية الموجودة فى كل شىء يعالجه.

وما يجعل بعض اقتراحاته على قدر كبير من الإقناع - وخاصة تلك المتعلقة بالمساعدات الأجنبية - هو أنه كان ولا يزال يعمل بناءً عليها. كما أنه كان ناجحًا كمستثمر اجتماعى بنفس القدر الذى حققه من نجاح كخبير فى الشئون المالية. فقد وضع ماله حيثما يكون فمه، كما يقولون، وكان لشبكته التى تضم مؤسسات المجتمع المفتوح تأثير ضخم، وخاصة فى أوروبا الشرقية - تأييدًا للمنشقين فى البداية ثم فى إقامة المؤسسات ما بعد الشيوعية مثل جامعة أوروبا الوسطى فى بودابست. وكان برنامجه فى مجمله أكثر نجاحًا بكثير من تلك البرامج الخاصة بمعظم الحكومات، بما فى ذلك الحكومة الأمريكية، وأكثر تأثيرًا منها بكثير.

ووضع سوروس فى عمله المبكر مفهوم المجتمع المفتوح الذى يلخصه كما يلى:

يقوم المجتمع المفتوح على الاعتراف بأننا نعمل على أساس من التفاهم المنقوص. فالكمال بعيد عن منالنا؛ ولا بد أن نرضى بالمجتمع المنقوص الذى ينفتح للتحسين. وقبول النقص المقترن بالبحث الدائم عن التحسين والاستعداد للخضوع للفحص النقدى هما المبدآن المرشدان لأى مجتمع مفتوح.

ما هو وجه الاختلاف بين الغطرسة والثقة الطاغية فى النفس التى تميز الكثير جدًا من مناقشات السياسة الاقتصادية، وخاصة على مستوى صندوق النقد الدولى وهو إحدى المؤسسات القوية التى يخصص لها فصل كامل. وحين يقارب سوروس كل قضية من القضايا، فإنه يقاربها بحرص وبحيدة وبهدوء. وهذا ما يضع هذا العمل من نواح كثيرة بعيدًا عن الكثير غيره مما كُتب عن العولمة. وهو حين يصف أشكال الظلم والجور الخاصة بالترتيبات الاقتصادية الدولية لا ينساق مع عاطفته. ذلك أن القصص تتحدث عن نفسها. وهو يترك القارئ - من خلال الإيجاز إلى حد كبير فى القول - وقد اقتنع بأن هناك ما ينبغى عمله ويمكن تحقيقه.

وسعيًا وراء توضيح ما فى العولمة من عيب، وخاصة فى المؤسسات الاقتصادية الدولية، يبحث سوروس فى هذا الكتاب الجديد عن الاقتراحات العملية والإصلاحات التى يمكن تبنيها بطريقة معقولة. وهو يعترف بكل تأكيد بأن هناك قوى سوف تعمل ضد التغييرات، وأن هناك مصالح خاصة فى الولايات المتحدة تستفيد من الترتيبات القائمة. ولكن إيمانه قوى بالمجتمع المدنى الكونى، وهو أحد أقوى مؤيديه. وقد تمكن المجتمع المدنى الكونى فى بعض الأحيان من التغلب على تلك القوى الراسخة. ففى عام ٢٠٠٠ دعت حركة اليوبيل، وهى ائتلاف دولى يضم النشطاء الاقتصاديين، إلى تخفيف ديون أكثر من عشرين من الدول الأكثر فقرًا فى العالم، ونجحت فى نيل ما أرادت.

ومن قبل وضع صندوق النقد الدولى عراقيل ضخمة فى سبيل تخفيف ديون الدول الفقيرة، بحيث لم يتمكن سوى عدد قليل منها من بلوغ المعايير التى وضعها. وكل من شاهد التغير فى المواقف، داخل المؤسسات ولدى الجمهور العام على مدى السنوات الخمس الماضية، لابد أن يعترف بقوة المجتمع المدنى الكونى. فمن الشائع الآن أن اتفاقيات التجارة الدولية التى كانت الولايات المتحدة تتباهى بها قبل بضع سنوات وحسب، تنطوى على ظلم كبير لدول العالم الثالث. وحيثما أذهب إلى اجتماعات لرجال الأعمال - سواء فى ندوات دافوس النخبوية أو الدوائر المالية فى نيويورك أو عالم وادى السيليكون للتكنولوجيا الفائقة - فإن الذين أراهم جميعًا يعترفون بظلم السياسات الحكومية الأمريكية ونفاقها. إلا أنهم أكثر انتقادًا لإساءة استغلال مصالح الآخرين الخاصة، سواء شملت الصلب أم المنسوجات أم الزراعة؛ وحين يتصل الأمر بمصالحهم هم فإنهم غالبًا ما يزعمون أن المعالجة الخاصة إما واجبة أو ضرورية.

وسوروس ضمن فريق من الخبراء يتزايد أعضاؤه يعترف بقدرة العولمة على زيادة الثروة، فى الوقت الذى يعترف فيه كذلك بآثارها العكسية. والاتهام الذى يسوقه بسيط: فقد أضرت العولمة أناسًا كثيرين، وخاصة الفقراء فى العالم النامى. وشوهت العولمة تخصيص الموارد للمصالح الخاصة على حساب المصالح العامة. كما أن الأسواق المالية الكونية عرضة للأزمات. ولم يختلف إنسان نظر نظرة محايدة إلى عملية العولمة على مدى السنوات الأخيرة مع أى من عناصر هذا الاتهام.

وكانت أشكال الظلم المرتبطة بالعولمة واضحة من زمن بعيد لمن اهتموا بالعدالة الاجتماعية الكونية. ومنذ الأزمة المالية الكونية فى ١٩٩٧-١٩٩٨ - على أقل تقدير - وعدم استقرار العولمة يمثل مصدرًا لكثير من القلق. إلا أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر أضافت بعدًا جديدًا لجدل العولمة. وليست السلع والخدمات وحدها هى التى تتحرك بسهولة عبر الحدود. فحسابات بنوك الأوفشور السرية تُستخدم من أجل العديد من التحويلات غير المشروعة وتستحق قدرًا خاصًا من التمحيص. وهى مسئولة عن جزء من عدم الشفافية الذى ربما خدم غرض المصالح المالية المهمة خدمة كبيرة. كما أنها تُستخدم لغسل الأموال الخاصة بتجارة المخدرات، وتوفر كذلك آلية للمسئولين الفاسدين ينقلون بها الأموال خارج بلادهم، إلى جانب أنها تمكن الأغنياء من التهرب من دفع الضرائب، وتساعد فى الوقت ذاته على توفير التمويل للإرهاب، كما علمنا مؤخرًا.

وقبل الحادى عشر من سبتمبر، اعترضت وزارة الخزانة الأمريكية على جهود منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية OECD للحد من السرية التى تحمى تلك الحسابات - ومن الواضح أنها تحمى بذلك مصالح وول ستريت حماية كبيرة، بغض النظر عن التكاليف المفروضة على الآخرين فى النظام الكونى. بل إن وزارة الخزانة الأمريكية اضطرت بعد الحادى عشر من سبتمبر لتغيير موقفها. وبينما تتسم العلاقة بين الفقر والإرهاب بالتعقيد، ينكر البعض أن الفقر - وخاصة ارتفاع معدل البطالة بين الشبان - يوفر أرضًا خصبة ينمو عليها الإرهاب. وبذلك يصبح ضمان كون العولمة أكثر عونًا للفقراء ليس مجرد ضرورة أخلاقية، بل كذلك أمرًا ينبغى النظر إليه على أنه مسألة تتعلق بالمصلحة الذاتية.

وقد كُتب كتاب سوروس ببساطة تجعله تعريفًا ممتازًا بالمنظمات الاقتصادية الدولية، بما فى ذلك صندوق النقد الدولى ومنظمة التجارة العالمية والبنك الدولى. وفى الوقت الذى لا تتضح فيه صورة تلك المؤسسات وضوحًا تامًا فى أذهان العامة، فإنها مؤسسات مميزة ذات مهام وثقافات وسلطات حاكمة مختلفة. وهى جميعًا تقوم بدور مهم فى كشف دراما العولمة، وبذلك تتحمل الكثير من اللوم على فشلها. وهى كما يقول سوروس «تُدار لمصلحة الدول الغنية صاحبة السيطرة، الأمر الذى ينطوى فى كثير من الأحيان على إلحاق الضرر بالدول الفقيرة.....».

ويتضح من فشل صندوق النقد الدولى كمؤسسة أنه أسوأ المؤسسات. وكما يشير سوروس، فإنه «منذ أزمة ١٩٩٧-١٩٩٩... ليس لدى الإمبراطور ملابس تستره: فقد فشلت برامج صندوق النقد الدولى فى التأثير على الأسواق». وهو يرى، شأنه شأن معظم الاقتصاديين، أن السياسات التى كان صندوق النقد الدولى يدعو لها من قبل هذه الأزمة ساعدت على إحداثها، بالمضى أبعد مما يجب فى الإصرار على تحرير أسواق رأس المال، أى بتشجيع البلاد على قبول القروض طويلة المدى وقصيرة المدى دون أن تكون هناك ضوابط فعالة على آثارها المدمرة المحتملة (كان يسحب الدائن الأجنبى رأس المال فجأة). ويشير سوروس بكلامه المختصر المعهود إلى أن «صندوق النقد الدولى كان يقترح إدراج فتح أسواق رأس المال ضمن أهدافه الأساسية فى الوقت الذى اندلعت فيه الأزمة الآسيوية، ولم يُسمع الكثير عن ذلك الاقتراح منذ ذلك الوقت».

ودعا البعض إلى إلغاء المؤسسات الاقتصادية الدولية وهم يرون ما منيت به من فشل. إلا أن سوروس - بروح المجتمع المفتوح

George Soros on Globalization

جورج سوروس يتحدث عن العولمة

by: George Soros

Public Affairs, 2002, 160pp. $20.00

العملية - يعترف بأنه فى عالم العولمة الجديد، تزداد حاجة البلاد إلى العمل بشكل جماعى من خلال المؤسسات الدولية. وتستلزم العولمة قدرًا أكبر من الاعتماد المتبادل، ويتطلب الاعتماد المتبادل أن يكون هناك تعاون. وقدّم سوروس حجة مقنعة بخصوص الحاجة إلى وجود قدر أكبر من الإنفاق على المصالح العامة الكونية، بما فى ذلك الصحة والتنمية الاقتصادية. وفى الوقت الذى نحن فيه بحاجة ماسة إلى المؤسسات الاقتصادية كصندوق النقد الدولى والبنك الدولى، نجد أن الثقة فى تلك المؤسسات فى أدنى معدلاتها. والحل ليس هو إلغاؤها، بل إصلاحها. ويخصص سوروس جزءًا كبيرًا من كتابه لاقتراح إصلاحات محددة من بينها مصدر جديد للتمويل ومقاربة جديدة للمساعدات الخارجية. وكلا الاقتراحين يبدو لى على درجة كبيرة من الأهمية.

اقتراح

حقوق السحب الخاصة

أول إصلاح يقترحه سوروس معقد بعض الشىء. فالدول تحتفظ باحتياطى، هو فى المقام الأول الأموال الموجودة فى البنك لمواجهة أيام الشدة. وهى عادة ما تحتفظ بهذا الاحتياطى فى خزانة، فى صورة سائلة - سندات الخزانة الأمريكية. والاحتفاظ بالاحتياطى مسألة مكلفة بالنسبة للدولة النامية؛ وهى اليوم تكسب أقل من ٢ بالمائة عن سندات الخزانة الخاصة بها، بينما هناك عائد أعلى من ذلك بكثير على الاستثمار داخل بلادها. والفرق بين عائد سندات الخزانة الأمريكية وعائد الاستثمارات الأخرى هو الثمن الذى لا بد أن تدفعه للاحتفاظ باحتياطى كاف لحماية انفسها من التذبذب الشديد فى الأسواق العالمية. فقد ترتفع أسعار الفائدة بين عشية وضحاها، لأسباب لا علاقة لها بما يجرى فى بلدهم؛ إذ ربما ترتفع أسعار الواردات، كالبترول، ارتفاعًا حادًا، بينما قد تنخفض أسعار ما تبيعه الدولة هبوطًا شديدًا. أو قد تجد الدولة أن سوق سلعها تهبط هبوطًا سريعًا حين يحل كساد كونى. وقد ترتفع أسعار الصرف أو تهبط بنسبة ٥٠ بالمائة أو يزيد، لأسباب لا سبيل إلى تفسيرها، حتى بالنسبة لمن يسمون بالخبراء. ومن بين التكاليف التى كان يتعين عليها دفعها هو ادخار المزيد من المال بالاحتياطى منخفض الفائدة.

وكانت الولايات المتحدة ولا تزال أحد أقوى مؤيدى العولمة وسياسات مثل تحرير أسواق رأس المال، التى تجعل البلاد عرضة بصورة كبيرة للمخاطر التى ذكرتها. فى الوقت الذى استفادت فيه الولايات المتحدة من الطلب المتزايد على احتياطيات الدولار، بينما دفعت الدول النامية ثمنًا باهظًا للحصول عليها.

بل إن هناك ميلاً انكماشيًا كامنًا فى تلك الترتيبات الدولية، حيث إنه فى كل عام لا تنفق مليارات الدولارات من الدخل، بل تحفظ وحسب فى الاحتياطيات السائلة. كما يكمن عدم الاستقرار فى النظام. ويحذر صندوق النقد الدولى (وغيره) الدول النامية باستمرار من العجز التجارى. ولكن لا بد أن يساوى مبلغ العجز التجارى مبلغ الفائض؛ ولذلك فإنه فى حالة إصرار بضع دول كبيرة، كاليابان والصين، على أن يكون لديها فائض، فلا بد أن يكون لدى سائر دول العالم عجز. وإذا قللت بعض الدول عجزها (كما فعلت كوريا بعد أزمة ١٩٩٧)، فلا بد أن يظهر العجز فى مكان آخر من النظام. وحين تجد دولة من الدول نفسها تعانى من عجز كبير، فإنها قد تواجه أزمة. وإذا باع المستثمرون عمل هذه الدولة، فإن بنكها المركزى قد يضطر إلى رفع سعر الفائدة كى يمنع العملة من السقوط سقوطًا حادًا. وقد تبطئ أسعار الفائدة المرتفعة نمو البلد وتحدث انكماشًا.

والشىء الوحيد الذى يجعل النظام مستمرًا فى عمله على أى الأحوال هو أن الولايات المتحدة، وهى أغنى دولة فى العالم، أصبحت «عجز الملاذ الأخير». وهذه هى المفارقة المطلقة: فالنظام المالى يسمح للولايات المتحدة بالعيش عامًا بعد آخر فيما هو أكثر مما لديها من وسائل، حيث تشترى من الخارج سلعًا أكثر بكثير مما تبيع، حتى حين تقدم وزارة الخزانة الأمريكية النصح للآخرين، عامًا بعد آخر، بشأن أسباب ضرورة عدم القيام بذلك. وتتعدى القيمة الإجمالية للفوائد التى تحصل عليها الولايات المتحدة من النظام المالى الحالى إجمالى المساعدات الخارجية التى تقدمها واشنطن بمبالغ ضخمة. فيا له من عالم غريب حقيقة أمره أن الدول الفقيرة هى التى تدعم أغنى دولة، التى يتصادف فى الوقت ذاته أنها بين أكثر الدول تقتيرًا من حيث تقديم المساعدات فى العالم. فكما يوضح سوروس، تمثل «قيمة المساعدات الخارجية ٠.١ بالمائة من إجمالى الناتج المحلى فى الولايات المتحدة الأمريكية، مقارنة بحوالى ٣ بالمائة فى زمن مشروع مارشال».

هناك ترتيب بديل - وهو ترتيب موجود بالفعل وجودًا جزئيًا. فبإمكان المجتمع الدولى إصدار نوع خاص من الاحتياطى النقدى يسمى «حقوق السحب الخاصة» SDRs، وإن كان من الممكن إعطاء اسم آخر لهذه الأموال، مثل أوراق النقد الكونية أو TERRAs. فالدول تضع العملات فى أقبيتها وحسب. وما يجعل لهذه الأموال قيمة هو مبادلة الدول الأخرى عملاتها بحقوق السحب الخاصة هذه: وهى بطبيعة الحال لن تسحب من احتياطياتها إلا فى أوقات الشدة. فالأمر أشبه بالجمعية التعاونية، إذ يكون لكل عضو فى الجمعية الحق فى أن يسحب من الدول الأخرى مبلغًا مساويًا لتلك الاحتياطيات.

وإصدار قدر معقول من حقوق السحب الخاصة قد لا يؤدى إلى حدوث تضخم: إلا أنه قد يوفر اعتمادات لدعم المصالح العامة كالرعاية الصحية والتعليم ويساعد فى تمويل التنمية. وتمشيًا مع تأكيد سوروس على

حاربوا الفقر والجهل أيضا



الإصلاحات العملية المعتدلة، يقترح الاستفادة من حقوق السحب الخاصة التى صرح بإصدارها صندوق النقد الدولى بالفعل - وهو ينتظر فقط إقرار الولايات المتحدة لها. وهو يقترح كذلك موافقة الدول المتقدمة على المساهمة فى تخصيص حقوق السحب الخاصة لتوفير المصالح العامة الكونية، بما فى ذلك التنمية.

وحظى هذا الاقتراح المهم الذى يتسم بالبساطة والعملية بتعاطف الكثير من الحكومات والمؤسسات المالية فى أنحاء العالم. كما روّج له سوروس ترويجًا نشطًا، وساهمت أنا فى مناقشات تتعلق به مع العديد من الحكومات. وانتقادى الوحيد هو أنه لا يحقق الكثير - ربما لأنى مثالى أكثر من اللازم. فمجرد تحقيق الأهداف المتواضعة التى اتفق عليها المجتمع الدولى بالفعل - مثل خفض معدل الفقر والأمية بمقدار النصف بحلول عام ٢٠١٥ - سوف يتطلب زيادة قدرها ٥٠ مليار دولار سنويًا عما ينفق حاليًا. وقد يوفر اقتراح سوروس ٢٧ مليار دولار لمرة واحدة. ولكن ما ذكرته من ظلم وعدم استقرار سوف يستمر، ولن يعالج مخصص لمرة واحدة هذه المشاكل الأكثر أهمية.

وأعتقد أن هناك سبلاً عملية يمكن بها إقناع الولايات المتحدة، أو غيرها ممن قد يترددون لولا ذلك فى المساهمة، بأن تنحو هذا المنحى. فعلى سبيل المثال، إذا وافق من يشاركون فى المشروع على أن يحتفظوا فقط باحتياطيات من عملاء المشاركين الآخرين، فسوف يضغط ذلك على الولايات المتحدة - ومعها الدول الأخرى التى تستخدم عملاتها كاحتياطيات - كى تنضم.

إصـــــلاح المساعدات الخارجية

كُتب (أو بالأحرى ورد على الألسنة) فى الفترة الأخيرة الكثير من الكلام الفارغ فيما يتعلق بفاعلية المساعدات الخارجية. وأشار وزير الخزانة الأمريكية إلى أنه ليس ضد تقديم المساعدات: فما يريده ليس سوى التأكد من أن الأموال تنفق بطريقة صحيحة، وهو يشير إلى أنه لا بد أن يرى ما يدل على إنفاق المساعدات بطريقة صحيحة. وإذا كان الحال كذلك، فهو لم يبحث عن هذا الدليل. فقد رأيت، من خلال خبرتى فى البنك الدولى وغيره، مشروعات رى تسمح للمزارعين الفقراء بمضاعفة دخولهم مرتين أو ثلاث مرات عن طريق زراعة محصولين وثلاثة محاصيل فى السنة، بينما كانوا قبل ذلك لا يزرعون سوى محصول واحد. وقد شهدت مشروعات تعليم ريفى لتعليم أطفال العمال المهاجرين القراءة والكتابة، مما يتيح خروج الأطفال من دائرة الفقر المفرغة. كما رأيت برامج صحية تزيد متوسط العمر وتقضى على أمراض مثل عمى النهر. وإذا لم ينفق كل دولار إنفاقًا جيدًا، فإن هذا يصدق على كل برنامج فى القطاع العام أو القطاع الخاص.

ويقترح جورج سوروس مجموعة من الإصلاحات الخاصة بزيادة فاعلية المساعدات الأجنبية. وهو يقارب المشكلة من منظور استثمارى، وبما يبدو لى أنه فهم ثاقب.

كى تنجح «سوق» المساعدات الخارجية، من المهم أن ندرك أنها لا بد أن تقل كفاءة عن السوق العادية.... وليس هناك معيار للنجاح أشبه بحساب المكسب والخسارة فى التجارة. وهناك بعض الأهداف التى يمكن قياسها بالمؤشرات الكمية كمعدل الوفيات أو معرفة القراءة والكتابة، إلا أنه قد يكون فى قصر الأهداف على تلك التى لها مؤشرات كمية تقييد وتشويه.

وتجمع مقترحاته بين استخدام صناديق الائتمان التى يديرها بشكل جزئى برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة، وإشراك أفضل الخبرات المتاحة، والاعتماد على المنظمات غير الحكومية. وهو مصيب فى إشارته إلى أن الكثير من المساعدات الخارجية فى الوقت الراهن تعوق حركتها شرط مرورها عبر الحكومات التى لا تتفق أجنداتها ومصالحها فى كل الأحوال مع مساعدة فقراء العالم. (كما لا تتفق معها أجندات ومصالح بعض المؤسسات الاقتصادية الدولية التى تشكلها الحكومات.) وأظهرت مؤسسات المجتمع المفتوح الخاصة بسوروس أن هناك أملاً فى مشروعات المساعدات الفعالة فى الدول ذات الحكومات الديمقراطية.

النظـــام المـــالى الكونى

ليس مستغربًا أن تتعلق أكثر نظرات سوروس نفاذًا بالنظام المالى. وهو يبدأ بنقد لكل من الترتيبات المالية الكونية الحالية والنصائح السياسية التى يقدمها صندوق النقد الدولى ووزارة الخزانة الأمريكية. والواقع أن سوروس يشير إلى أن المشكلة تكمن فى أيديولوجيا السوق الأصولية الخاصة بها، أى الإيمان بالأسواق الحرة التى لا يقيدها قيد، وهو الإيمان الذى لا تعضده نظرية حديثة ولا تسانده تجربة تاريخية. وكان من السهل وسط أزمة شرق آسيا أن يلقى باللوم فيما يتعلق بالمشاكل على الفشل الداخلى فى دول كتايلاند وإندونيسيا - حيث انعدام الشفافية ورأسمالية المحاسيب. وقد أُسكتت تلك الآراء إلى حد كبير فى أعقاب ما شهدته السنوات الأخيرة من فشل وفضائح، بما فى ذلك الانهيار المفاجئ لشركة إنرون، وإنقاذ إدارة رأس المال طويلة المدى الذى جرى تنسيقه بشكل عام وتمويله بشكل خاص، وكشف الاستغلال الإجرامى لحسابات بنوك الأوفشور. كما أنها تشير إلى أن ماليزيا، التى أقرت قروضًا على رأس المال، عادت بسرعة إلى النمو بقدر أقل من ميراث الدَيْن؛ وكانت فترة انكماشها أقصر وأكثر ضحالة من تلك الدول التى اتبعت نصائح صندوق النقد الدولى.

ويوضح سوروس أن الحال بالنسبة لتحركات رأس المال أقل وضوحًا بكثير من حال التجارة الحرة. بل إنه مضى إلى ما هو أبعد من ذلك بقوله إن هناك أدلة على أن تحرير أسواق رأس المال يؤدى إلى زيادة المخاطر، ولكنه لا يؤدى إلى زيادة النمو الاقتصادى. ويوضح سوروس شيئًا يعرفه معظم مراقبى قاعة سوق الأوراق المالية الأخيرة معرفة حدسية، فى حين ينكره أصوليو السوق: «لو تُركت الأسواق المالية لأجهزتها فإنه من المحتمل أن تشتط وتنهار فى نهاية الأمر». ووثق روبرت شيلر فى كتابه Irrational Exuber ance (الحيوية غير المنطقية) ميل الأسواق هذا إلى التذبذب الزائد. ويقول سوروس إن تاريخ الرأسمالية هذا «تخلله الأزمات». وهذه المشكلة ليست جديدة، كما يقول. والشىء الاستثنائى فيما يتعلق بشرق آسيا - كما كتبت أنا من قبل - ليس أنه تعرض لأزمة فى النهاية، بل إنه أمضى فترة طويلة دون أى هبوط اقتصادى خطير. كما يشير سوروس إلى أن الدول النامية على «هامش» النظام هى التى تعانى أكثر من غيرها. وهو يقول إن مشكلة الإصلاح تكمن فى هذا. وهؤلاء الذين يؤمنون بأصولية السوق «يترددون فى قبول إمكان الانتقاص من قيمة النظام بشكل كبير حين يعمل بشكل جيد من أجل من يتولون المسئولية».

وانتقادات سوروس لكثير من إصلاحات صندوق النقد الدولى المقترحة مدمِّرة. فهو مقنع حيث يقول إن المشكلة الأساسية فيما يتعلق بسياسة صندوق النقد الدولى لم تكن، كما أكد البعض، مجرد مشكلة «مخاطرة أخلاقية» - فحقيقة الأمر أن عمليات الإنقاذ التى قام بها صندوق النقد الدولى أغرت المقرضين على التحلى بالقدر الكافى من الدأب والمثابرة عند تقديم القروض. ولم يكن مستغربًا كذلك أن استراتيجية صندوق النقد الدولى سيئة التخطيط الخاصة بإجبار القطاع الخاص على المشاركة فى عمليات الإنقاذ منيت بالفشل فى أغلب الأحوال؛ وهى مهجورة منذ ذلك الوقت. ومن المؤكد أن صندوق النقد الدولى لم يجرب الاستراتيجية إلا على الدول الضعيفة مثل رومانيا والإكوادور، وليس على روسيا.

وبما أن الثقة فى صندوق النقد الدولى تراجعت بسبب هذا الفشل، فقد جرَّب ما بدت أنها استراتيجية سياسية جريئة - فقد قال نائب مديره العام الأول إنه ينبغى تحسين سلطته بجعله مقرض الملاذ الأخير، أى فى حالة عجز الدول عن الوفاء بالتزاماتها، أو حين توشك على ذلك. وكما يشير سوروس ببساطة وقوة، فإن «صندوق النقد الدولى لا يمكنه القيام بدور مقرض الملاذ الأخير، إذ ليست له السيطرة على الأنظمة المصرفية المحلية. وقد يعنى العمل بمقتضى ذلك توقيع شيك على بياض». وهناك مغالطات أخرى فى الزعم بأنه ينبغى على صندوق النقد الدولى أن يكون مقرض الملاذ الأخير، إلا أن حجة سوروس الأساسية غير كافية؛ فلماذا نهاجم النقطة حين تكون الملاحظة المدمرة البسيطة كافية لإثارة الشك فى الاقتراح؟

وفى بعض الحالات لا يحتاج سوروس إلى تقديم أية حجة، حيث تروى الأحداث نفسها كل شىء. وبعد أزمة شرق آسيا، كانت ما تسمى حكمة صندوق النقد الدولى ووزارة الخزانة الأمريكية هى «نظرية الركنين» - فالدول ينبغى أن تكون لديها أسعار صرف ثابتة كل الثبات أو مرنة كل المرونة. وساهم ذلك الاعتقاد الخاطئ إلى حد ما فى الانهيار الأرجنتينى، عن طريق تقديم الدعم لهؤلاء الذين كانوا يريدون الحفاظ على نظام سعر الصرف الذى كان محكومًا عليه بالفشل. فقد فشلت محاولة الأرجنتين فى الحفاظ على سعر صرف يرتبط ارتباطًا شديدًا بالدولار، مما أدى إلى هروب رأس المال من ذلك البلد. إلا أن من هم أقل اقترانًا بأيديولوجيا السوق الأصولية كانوا يعترفون باستمرار بأن فكرة الركنين هذه تتسم بالسخف، ولا تقوم على نظرية ولا على أدلة - وهذا هو السبب فى أن «جماعة الشخصيات البارزة» Eminent Persons Group الخاصة بزعماء العالم الاقتصاديين، التى تدعمها مؤسسة فورد، رفضت موقف صندوق النقد الدولى (ووافقت إلى جانب ذلك على الكثير من الآراء الأخرى التى عرضها سوروس).

ويقول أصوليو السوق، الذين يعتقدون أن الأسواق غير المحررة سوف تؤدى دائمًا وفى كل مكان - من تلقاء نفسها وبدون التدخل الحكومى - إلى نتائج مؤثرة ومرغوبة اجتماعيًا، إن ما وقع من أخطاء بالنسبة للأسواق كان «حكوميًا إلى حد كبير» فى صورة عمليات الإنقاذ. ولو تركت الأسواق لنفسها، لعملت بطريقة لا بأس بها. وهنا يبدو لى سوروس مقنعًا حين يقول: «لا حاجة إلى تغيير النظام، إلا إنه لا يكفى القضاء على الخطر الأخلاقى». كما يقول إنه لا بد من عمل شىء «لموازنة العيوب المتأصلة» فى الأمم التى على الهامش «وخلق ملعب أكثر استواء».



تتعدى القيمة الإجمالية للفوائد التى تحصل عليها الولايات المتحدة من النظام المالى الحالى إجمالى المساعدات الخارجية التى تقدمها واشنطن بمبالغ ضخمة. فيا له من عالم غريب حقيقة أمره أن الدول الفقيرة هى التى تدعم أغنى دولة، التى يتصادف فى الوقت ذاته أنها بين أكثر الدول تقتيرًا من حيث تقديم المساعدات فى العالم

إنى أتفق بشدة مع روح اقتراحين من الاقتراحات - وهما أنه ينبغى على الدول الصناعية الأكثر تقدمًا أن تستوعب قدرًا أكبر من المخاطر (بما فى ذلك ما هو من خلال المؤسسات المالية الدولية) ولابد من عمل ترتيبات أفضل للتعامل مع الإفلاس الدولى، بما فى ذلك «اتفاقيات التجميد»، أى تأجيل سداد الديون. وقد ناديت أنا وآخرون منذ زمن بعيد بذلك. ويشير سوروس إلى أن النتائج فى شرق آسيا كانت ستصبح أفضل بكثير لو أنه استفيد استفادة أكبر من تلك الآليات بدلاً من عمليات الإنقاذ الكبيرة التى أتيحت من خلالها مبالغ ضخمة لتسديد الديون والحفاظ على سعر الصرف المغالى فى تقديره. ورغم ما أبدته الأرجنتين مرة أخرى من فشل لاستراتيجية عمليات الإنقاذ الكبيرة، كان صندوق النقد الدولى يبحث فى مكان آخر عن حلول. وتستحق مبادرته الأخيرة المتعلقة باتفاقيات التجميد والإفلاس اهتمامًا جاداً. ولكن ما يؤسف له أنه يبدو أن وزارة الخزانة الأمريكية دمجت ما بدا أنه بحث حقيقى فى إصلاح له أهميته.

والواقع أن سوروس يشير إلى التباطؤ الواضح فى تدفقات الأموال إلى الأسواق الناشئة بعد أزمة ١٩٩٨ حين يقول: «إذا ما أخذنا فى الحسبان كلاً من الإقراض المقيم واستثمار المحافظ وتدفقات الائتمان الخاص لوجدنا أن هناك بالفعل تدفقًا صافيًا إلى الخارج من الأسواق الناشئة منذ عام ١٩٩٧، من ٨١،٧ مليار دولار إيجابى عام ١٩٩٦ إلى ١٠٦ مليارات دولار سلبى عام ٢٠٠٠، وهو ما عوضته التدفقات الأكبر قليلاً من الاستثمار الأجنبى المباشر والتمويل الرسمى». وهذا موقف غريب، وهو محير إلى حد كبير بالنسبة لأى إنسان يعتقد أن مشكلة التنمية الأساسية هى نقص التمويل. ومن بين المقصود من مقترحات سوروس تسهيل استئناف تدفق الائتمان.

إلا أننى أظن أن الحجة القائلة بأن التدفقات المالية (مقابل الاستثمار المباشر الأجنبى) كان لها أثر إيجابى قوى على النمو - مع أخذ كل الأمور فى الاعتبار - تبدو أقل وضوحًا. فالاستثمار المباشر الأجنبى - على الأقل فى بعض القطاعات وحين يفهم فهمًا صحيحًا - يخلق فرص العمل، ويوجد سبل الوصول إلى الأسواق، ويأتى معه بالتكنولوجيا الجديدة. إن «الاستثمار» الأجنبى فى القروض قصيرة المدى فيه مخاطرة بالنسبة للدولة النامية، إذ قد يغير الأجانب آراءهم بين عشية وضحاها. وربما توفر الأسواق النظام، ولكنها مع حبها للنظام الصارم تتسم بعدم الاستقرار والتذبذب: فهى تغض الطرف عن الخطايا الكبيرة فى بعض الأحيان، وتدفع الدول فى أحيان أخرى إلى الوقوع فى خطايا الآخرين. ومن المؤكد، كما أشرت من قبل، أن الأدلة التى حصلنا عليها من الدول التى أخضعت نفسها لـ «نظام» تدفقات رأس المال قصيرة المدى ليست مشجعة.

التجارة الدولية ومنظمة التجارة العالمية

كان الغرض من اجتماع منظمة التجارة العالمية فى سياتل عام ٢٠٠٠ هو بدء دورة جديدة من المفاوضات التجارية التى تزيل أكثر وأكثر الحواجز التى تقف أمام التجارة فى أنحاء العالم. إلا أن المظاهرات هناك عبرت عن الاستياء من فهم منظمة التجارة العالمية للعولمة؛ وأقل ما يمكن أن يقال عنها إنها لفتت نظر الجماهير إلى بعض القضايا الأكثر إلحاحًا. ولا يزال ظلم النظام الراهن، الذى ازداد حدة فى الدورة السابقة من مفاوضات التجارة العالمية، بحاجة إلى أن يرفع. فعلى سبيل المثال، فإنه بينما يمكن لسلع الدول الغنية أن تتدفق بلا قيد إلى الدول الفقيرة، قد تجد الدول الفقيرة أنه من الصعوبة بمكان أن تبنى اقتصاداتها، بسبب التنافس القوى من الواردات. وفى الوقت ذاته نجد أن الدول الغنية، التى تمتدح رسميًا التجارة الحرة، كثيرًا ما تستعمل التعرفة الجمركية والدعم للحد من الواردات من الدول الفقيرة، مما يحرم تلك الدول من التجارة التى هى بحاجة إليها كى تخفف من وطأة الفقر وتسعى لتحقيق نموها الاقتصادى.

ويكاد يكون هناك اتفاق عالمى على ضرورة معالجة ذلك الظلم: وكانت دورة المفاوضات التى بدئت فى الدوحة بقطر فى نوفمبر عام ٢٠٠١ (بعيدًا عن المتظاهرين الذين تجمعوا فى سياتل وجنوة) تسمى «دورة التنمية». وتبين الحاجة إلى ممارسة الكثير من الضغط والإقناع على الدول المتقدمة، كى توافق ولو على مناقشة بعض هذه القضايا الأساسية، مدى صعوبة حلها.

ولا يقدم سوروس معالجة شاملة للجدل الدائر حول التجارة الحرة، ولكن ما يقوله ينبغى أن يقرأه كل من له اهتمام بالعولمة. فهو على سبيل المثال ينتقد «مقاييس الاستثمار المتصلة بالتجارة»، التى قيل إنها واحدة من «منجزات» دورة أورجواى للمفاوضات التى استكملت عام ١٩٩٤، انتقادًا حاداً. فقد قُصد بهذه المقاييس منع ممارسة الدول النامية للتمييز ضد الشركات المتعدية للقومية؛ حيث كان يطلب فى بعض الحالات من الشركات شراء قدر معين من سلعها الرأسمالية من السوق المحلية. وكان المقصود بمقاييس الاستثمار المتصل بالتجارة تحريرها من تلك الالتزامات. ويقول سوروس إن تلك المقاييس المقصود بها توفير ملعب مستو بين المشروعات الأجنبية والمحلية. وهذا فى ظاهره هدف له قيمته. ولكن الحقيقة هى أنه فى عالم يتمتع فيه رأس المال بحرية الحركة يكون الملعب مائلاً ميلاً شديدًا لمصلحة المستثمرين الدوليين والشركات المتعدية للقومية. والإجراءات الجديدة تؤسس التحيز وتكرسه.

ويتفق سوروس مع الخبراء الدوليين مثل جاجديش باجاواتى فى الشك فى تدخل منظمة التجارة العالمية فى حماية حقوق الملكية الفكرية. وهو يقول:

لا بد من حماية براءات الاختراع وحقوق الملكية، ولكن هذه الحماية لا تشكل قيدًا على التجارة. فما هو مقدار الحماية التى يمكن تبريرها؟ تختلف طريقة الحساب بالنسبة للدول المتقدمة تكنولوجيًا التى تستفيد من الابتكارات عن تلك الخاصة بالدول الأقل تقدمًا التى عليها أن تدفع ثمنها. وكانت حقوق الملكية الفكرية تحتل مكانًا متقدمًا على جدول الأعمال الأمريكى، وكان لدى الدول الأقل تقدمًا سبب كى تشعر بالاستياء من الشكل الذى اتخذته حقوق الملكية الفكرية المتصلة بالتجارة.

وحين كنت عضوًا بمجلس المستشارين الاقتصاديين فى حكومة كلينتون، كنا (ومعنا مكتب سياسة العلوم والتكنولوجيا) نخشى أن يكون وزير التجارة الأمريكى، الذى يتفاوض على تلك الاتفاقيات «باسم» الولايات المتحدة، يضغط من أجل ترتيبات خاصة بحقوق الملكية الفكرية قد تكون لها آثار ضارة. وكانت الولايات المتحدة تعكس مصالح شركات الأدوية أكثر مما تعكسه، على سبيل المثال، آراء الباحثين أو من يخشون أن تصل القوانين الحاكمة للملكية الفكرية بالنمو إلى أقصى حد له. وأولى وزير التجارة الأمريكى اهتمامًا ضئيلاً بمخاوفنا - ناهيك عن مخاوف العالم النامى. وكما يقول سوروس، فإن «منظمة التجارة العالمية فتحت صندوق باندورا (صندوق الشرور) حين شاركت فى حقوق الملكية الفكرية. وإذا كانت حقوق الملكية الفكرية موضوعًا يتناسب مع منظمة التجارة العالمية، فلمَ لا تتناسب معها حقوق العمال وحقوق الإنسان؟»

وفيما يتعلق بالتمويل ومساعدات التنمية، يعترف سوروس مرارًا بأهمية المؤسسات الدولية، وهو يقول: «منظمة التجارة العالمية مؤسسة ذات قيمة كبيرة. ولو لم تكن موجودة لكان إيجادها واجبًا». ولكنه لا يجد غضاضة فى انتقادها أو الترويج للإصلاحات. وبينما يشعر كثيرون هنا أنه لم يصل إلى المدى الذى كان ينبغى عليه الوصول إليه، فقد جمّع أجندة «حد أدنى» يمكن أن يلتف حولها هؤلاء الذين يريدون رؤية فلاح النظام الكونى - والعمل من أجل الفقراء.

القيم الكونية

صحيح أن كتاب سوروس عن الاقتصاد، ولكنه، شأنه شأننا جميعًا، أثرت فيه أحداث الحادى عشر من سبتمبر. وأدت تلك الأحداث إلى نسق أعرض من التأملات - فى كل من السياسة والطبيعة البشرية. وهو يشير إلى أننا «لا يمكن أن نحمى» أنفسنا من الأخطار الجديدة «عن طريق زيادة التفوق العسكرى على الدول الأخرى».

ولا تتطلب الزعامة الكونية أن نكون معارضين لشىء ما وحسب، بل إنها تستلزم أن نكون مؤيدين لشىء ما. إن لدينا تحالفًا ضد الإرهاب. ولا بد أن يكون لدينا كذلك تحالف من أجل المزيد من العدل الكونى وبيئة كونية أفضل. لقد جعلتنا العولمة على قدر أكبر من الاعتماد المتبادل، وهذا الاعتماد المتبادل يوجب القيام بعمل جماعى كونى. ولا بد أن تكون للولايات المتحدة الريادة فى توفير المصالح العامة الكونية - بما فى ذلك القانون والنظام. وينبغى عليها أن تعمل من أجل تحقيق الإصلاحات فى النظام الاقتصادى العالمى، فى منأى عن «إجماع واشنطن» - «نموذج» أصولية السوق الذى يتحرك بدافع أيديولوجى. ولكن سوروس يوضح كذلك أنه لكى تكون الزعامة للولايات المتحدة لابد من حدوث بعض التغييرات الضخمة:

لا بد لنا من التخلى عن السعى الأرعن من أجل تحقيق المصالح الذاتية الضيقة والاهتمام بعض الشىء بمستقبل البشرية.... إننا بحاجة إلى إعادة التأكيد على الأخلاق وسط همومنا اللاأخلاقية. وقد يكون من السذاجة توقع تغير فى الطبيعة البشرية، إلا أن البشر قادرون على تجاوز السعى لتحقيق المصلحة الذاتية الضيقة. والواقع أنه لا يمكنهم العيش بدون شىء من الإحساس بالأخلاق. إنها أصولية السوق التى تعتبر أن بالإمكان خدمة المصلحة الاجتماعية كأحسن ما تكون الخدمة بالسماح للناس بالسعى لتحقيق مصلحتهم الذاتية دون التفكير فى المصلحة الاجتماعية التى هى شذوذ عن الطبيعة البشرية - فالمصلحتان متطابقتان.

وفى نفس الاتجاه ينهى سوروس كلامه بالتأكيد على الفكرة التى تتكرر فى مواضع مختلفة من كتابه - وهى أن التعاطف هو الأخر مسألة واقعية براجماتية:

لا يمكن للحرب ضد الإرهاب أن تنجح ما لم نضع تصورًا لعالم أفضل. فلا بد أن تقود الولايات المتحدة المعركة ضد الفقر والجهل والقهر بنفس الأهمية والتصميم والالتزام بالموارد كالحرب على الإرهاب. ■

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books
May 23, 2002

ترجمة: أحمد محمود

لم يكن مستغربًا أن استراتيجية صندوق النقد الدولى سيئة التخطيط الخاصة بإجبار القطاع الخاص على المشاركة فى عمليات الإنقاذ منيت بالفشل فى أغلب الأحوال؛ وهى مهجورة منذ ذلك الوقت. ومن المؤكد أن صندوق النقد الدولى لم يجرب الاستراتيجية إلا على الدول الضعيفة مثل رومانيا والإكوادور، وليس على روسيا



فـــــاروق عبـد القــادر

يستكمل الكاتب قراءته، للمشهد الأدبي الجديد في مصر، والتي بدأها في العدد الماضي من مجلة «الكتب.. وجهات نظر»، ويلقي الضوء، عرضا ونقدًا وتحليلاً واستشرافا، على مجموعة من الأعمال الروائية التي صدرت في الفترة الأخيرة.

المحرر







فى الرواية المصرية الجديدة

نماذج مختارة

«٢»

وهذا عمل ثار حوله جدل صغير حين حصل على جائزة ما. وقد سبقت الإشارة إلى أن هذه الجوائز لا تعني - بالضرورة - امتياز الأعمال التي تمنح لها. ولعل الجائزة التي حصل عليها هذا العمل أن تكون من أكثر تلك الجوائز افتقادًا للمعايير المضبوطة التي تمنح وفقًا لها: مرة مُنحت لقاص شهير بعد رحيله، ومرات مُنحت لكتّاب - مصريين وعربًا - من أجيال مختلفة، وعن أعمال صدرت في أعوام مختلفة، ومرة تجاوزت كل الحدود فمُنحت لعمل لا يجرؤ أحد - حتى صاحبه - على القول بأنه عمل روائي!

مرة ثانية: لا عليك من هذا كله. العمل هو «أوراق النرجس» رواية سمية رمضان الأولى (بعد مجموعتين من القصص القصيرة). إن شئت وصفًا موجزًا لتلك الرواية أمكنك القول أنها رواية «نخبوية ELITIST»، وربما رأيت هذه الكلمة الواحدة تسري على موضوع الرواية وصياغتها ولغتها جميعًا. العمل كله يأتينا من وعي الراوية - وهو وعي معطوب، لو صح التعبير - ينتقل بحرية - دون روابط منطقية معظم الأحيان - بين خبرات ماضيها ووقائع حاضرها. سوف نعرف أنها تنتمي لعائلة من أصول طبقية عليا، تتلقى تعليمها في مدرسة أجنبية، تتصارع في وعيها، وذاكرة طفولتها، الأساطير ذات الأصول الإغريقية والأوروبية، وحكايات مربيتها «آمنة» ذات الطابع الفولكلوري، لتصبح السيادة - وهي شابة تدرس الأدب الإنجليزي في «دبلن» أربع سنوات - لمفردات الثقافة الأوروبية بوجه عام، الإنجليزية بوجه خاص، الأيرلندية بوجه أخص (قد يكون مفيدًا هنا القول إن الكاتبة نفسها دارسة ومدرِّسة للأدب الإنجليزي).

لنقترب من ملامح الراوية أكثر. فهي الرواية كلها أو تكاد، لأننا لا نرى الشخصيات الأخرى - وهي قليلة، بالضرورة، في رواية تتجاوز المائة بعدة صفحات - إلا من خلال وعي الراوية، وموقفها النفسي تجاهها يعطيها ألوانها، وهي - منذ البداية - منقسمة، منفصمة، تحس باغتراب راسخ عمن حولها وعما حولها، تعيش في ذاتها عسيرة الألفة، ولا تني تتساءل: «لماذا لا ينضبط لديها ما يبدو منضبطًا لديهم؟»، والمسألة أعمق من أن تكون انفصامًا بين ثقافتين، وإن كان هذا الانفصام واردًا. تقول الراوية معقبة على حكاية من الفولكلور حكتها لها «آمنة»: «ومع هذا كانت الحكاية تنتهي نهاية سعيدة كل مرة، لم يكن بها غيلان مثل الحكايات الإغريقية، ولم يكن بها أناس يضعون الأطفال في الفرن كما في حكاية «هانز جريتيل» ولم تكن الأخطار تحيق بالصغار الطيبين من قبل كبار أشرار كما في «بلانش ينج»... إلخ»، لعل هذا الانفصام هو ما ستحمله الراوية معها إلى «دبلن» وما ستعمِّق منه الهوة الشاسعة بين تصورها لوطنها وتصور المحيطين بها لهذا الوطن (لاحظ أن اسمها «كيمي»)، حتى تدور رأسها: «أين من كل هذا مصر؟ وعدتُ أراجع عنوان المحاضرة، كان كما قرأت من قبل، كان عن تاريخ مصر الحديث: آه يا كيمي. قصة لم تُجمع، لم تُسرد، ولم تُغن إلا مشرذمة. استلبوكِ فصاروا منك، هل صرتِ أنت منهم؟ في كيانها وداخل دماغها حرب أهلية بين كل الأمصار، وهي كل الأمصار»، ولعل هذا ما سيودي بها - في النهاية - إلى «مستشفى سانت باتريك للأمراض النفسية والعصبية»، حيث تقضي زمنًا تُعالج بالصدمات الكهربية و«الليثيوم»، قبل أن تعود إلى الوطن بعد أن غابت عنه عشر سنوات.

وطبيعي عند مثل هذه الشخصية أن يعبِّر سردها للأحداث واستبطانها للمشاعر عن هذا كله. بل إن بعض صفحات هذا السرد (الصفحات من ٢٦ إلى ٣٠ على سبيل المثال) لا تمكن قراءتها إلا باعتبارها «هلاوس» - بمعنى الكلمة في التحليل النفسي والطب العقلي، ولا يمكن تفسير تماهيها بمربيتها البعيدة «آمنة» في جانب من جوانب تجربتها وهي أنها أمية لا تقرأ ولا تكتب، حال أهلها دون تعلمها، إلا في ضوء ما تنتهي إليه هذه الهلاوس: «ما الذي كان يؤذيهم مني ليعزلوني هكذا؟ لماذا يتسامرون في يسر ويتضاحكون ويتفهمون بعضهم البعض، وأنا لا؟ لماذا أشعر بكل هذه الغربة وسط أهلي، وأهلي الناس جميعًا. قتلتُهم كلهم في ثلاثة أيام؟ كتبتُهم ثم مزقتُهم عندما استولت أنفاسهم على هواء الغرفة وابتلعته ولم يعد لي متنفس في المكان..». (لدى الراوية لون من «الهذاء» المرضي يتفق تمامًا وأحد القوانين الأساسية في اللاشعور، وهو قانون أن الرغبة تساوي الفعل، ولأن الكتابة همٌّ من همومها، اتخذ هذا الهذاء شكل أنها حين «تكتب» الآخرين فهي «تقتلهم»)، وليس هذا المنهج في الفهم والتفسير بعيدًا عن الراوية، هذا بعض حوار بينها وبين صاحبها: «ضحكنا كثيرًا وقلت له إنني لا أحب تهاويم كارل يونج. فقال إنه هو، شخصيًا، فرويدي حتى النخاع».

منذ طفولتها المبكرة كان بين يديها كتاب «الأساطير الإغريقية الرومانية»، وحين تجاوزت طفولتها أحاطتها رموز ذات الثقافة وشخوصها وأعمالها، وإذا كانت تلك الأساطير قد تصارعت، زمنًا، مع فولكلور «آمنة» فقد انتهى هذا الصراع إلى انتصار كاسح لتلك الثقافة التي تتردد فيها أسماء أوسكار وايلد وجيمس جويس وييتس وديلان توماس وصامويل بيكيت (ألسنا في أيرلندا؟)، جنبًا لجنب جوجان وسلفادور دالي وهنري مور.. إلخ، بل إن عنوان العمل ذاته عن لوحة لسلفادور دالي. بالمقابل: يخلو العمل تمامًا من أية إشارة إلى «ثقافة» الوطن الذي جاءت منه «كيمي». وتحمل اسمه القديم وتنتمي إليه (هي إشارة خجول إلى واحدة من رباعيات صلاح جاهين!). هذا الصدع لا يقف عند الجانب الفكري وحده، بل يتعداه إلى الجانب العاطفي والسلوكي، أعني علاقتها بأستاذها الذي تقدمه لنا، أو تعرِّفنا به: «أستاذ منطق وعلم نفس، يدرِّس فرويد ولاكان في «ترنيتي كولدج»، ولو أصروا: من الشمال، ولو علقوا وقد عرفوا من اسمك: بروتستانتي؟ قلت: وماذا يهم؟..». هذه ملامحه الخارجية، لو صح الوصف، أما ملامحه الداخلية فهي، أيضًا، لا تخفيها: «في حجرتها، على السرير الصغير كانت تتملى الجسد الأبيض الفارع. من قبل لم تكن تحب البياض، كان يوحي لها بالترهل، ولم يطرأ لها قط أن تعرف رجلاً لم تمسسه موسى الختان المطهِّرة، لكنه تركها مرادفًا للجمال الحاني، الاكتمال الوثير، متعته تمتد وتتباطأ تتعبد في جسد صاحبها، فتنفرج لها مستسلمة لاختراقه لأنه يتسربل في حنو المتهدِّج، فيعلِّمها الصلاة..!».

بلغت «كيمي» إذن، تمام الانسلاخ، وفي لحظة استبصار حاد، مألوفة عند أمثالها، ويعرفها المشتغلون، تقول بصراحة جارحة: «أنا أعرف أن العيب فيَّ أنا، وعليَّ أنا يقع عبء التنصل من هويتي، أو التصرف وكأني أنا، أنا فقط، لا أهل لي، ولا وطن، لا ذاكرة لي، ولا حنين إلى مكان كان عالمي.. » وقد لقيت جزاءها الحق: مستشفى «سانت باتريك» في دبلن، وحين عادت إلى الوطن لم تصبح أفضل حالاً: لقد تشرُّب جسدها وروحها السحر الأسود حتى الثمالة، سيكون عليها في وطنها أن تختار الصورة التي تحب أن تكون عليها، ولكن: ليس لمن كان مثلها أن يختار: تُنهي الراوية روايتها وهي ماتزال في قمة أزمتها: تنوس بين الصحو والغياب، «السرنيات» أو «عرائس الماء» يحطن بها، وجيمس جويس يحاورها، أما في الصحو فإن أمها تتحدث إليها: «هيّا.. دعكِ من البحلقة في السقف وقومي معي»، وهي ماتزال تكتب وتمحو، ثم تكتب من جديد.









هذه بطلة سمية رمضان، بوعيها المعطوب والدائرة المغلقة من حولها وهى تتخبط فى إسارها، ولا سبيل إلى النجاة ما بقيت منخلعة، متخلية عن جذورها، منسلخة عن هويتها، التى هى حقيقتها بالذات.

وسوف تظل تكتب ثم تمحو، مادامت الكتابة عندها خاضعة لذلك القانون اللاشعورى الذى يساوى الرغبة بالفعل، لكننا نعرف أن الكتابة هى أيضًا، وسيلة للتحرر، وأن لها وظيفة «سيكو ثرابية» خالدة، وتاريخ الأدب والفن يعرف شعراء وكتَّابًا وفنانين تحرروا من عُصاباتهم حين «أخرجوها»: شعرًا وقصصًا وروايات ومسرحيات ولوحات، وسوف نظل نأمل أن تتحرر «كيمى» من عصابها، وقد أخرجته على الورق.

من رواية «النخبة» إلى رواية «العامة» لو صح التعبير: لماذا كتبت صفاء عبدالمنعم روايتها «من حلاوة الروح» (هى الأولى بعد ثلاث مجموعات من القصص القصيرة كانت قصصها على النسق المألوف: الوصف والسرد بالعربية والحوار بالعامية) كلها بالعامية المصرية؟

قبل أن ننظر فيما قدمته صفاء، يحسن أن نلقى نظرة عجلى إلى الأعمال التى سبقت كتابتها بالعامية. هنا سوف تنب إلى الذهن فورًا تلك التجربة المتفردة «قنطرة الذى كفر» للدكتور محمد مصطفى مشرفة (شقيق العالم الكبير) وقد كُتبت فى أربعينيات القرن الماضى ونُشرت - للمرة الأولى - فى ١٩٦٦، وأحاطت بها هالة اكتشاف هذا العمل الذى ظل طويلاً بين أوراق صاحبه: أستاذ الأدب المقيم فى انجلترا، وظل موضوع حديث بين قلة كانت تعرف العمل وصاحبه (فيما بعد قدمت مجلة «أدب ونقد» طبعة ثانية «للقنطرة» مع مقدمات لشكرى عياد ويوسف إدريس ومحمد عودة وسواهم، ١٩٩١). ويقول لنا لويس عوض أنه كتب عمله «مذكرات طالب بعثة» فى الأربعينيات كذلك، وأن الرقابة اعترضت على نشره آنذاك (١٩٤٤)، ثم «ضاع» منه مخطوط العمل حتى عاد إليه - فى حكاية ذات طابع بوليسى - فنشره فى ١٩٦٥، وقال فى تقديمه إنه كتبه على غرار ما فعل بيرم التونسى فى «السيد ومراته فى باريس»: «لم يفكر أحد أن تجربة التعبير العامى يمكن أن تمتد إلى نسيج النثر الفنى بأشمل معانيه، فتمتد إلى لغة السرد والوصف والتحليل، لم يفكر فى ذلك أحد إلا بيرم التونسى الذى كتب فى الثلاثينيات «السيد ومراته فى باريس»، وهو وصف فكاهى ساخر لغربته فى المنفى، كتبه بيرم التونسى بالعامية من الألف إلى الياء، وقد التهمت هذا الكتاب التهامًا، ولم يلبث أن فتح أمامى آفاقًا فى تجارب اللغة، كان «مذكرات طالب بعثة» ثمرتها المباشرة..» هذا ما يقوله لويس، ولنا عودة إليه. وفى نهاية الخمسينيات وأوائل الستينيات عمد أحد كتَّاب القصة القصيرة - بدر نشات - إلى كتابة عدد من قصصه بالعامية، ولم يقدر لهذه التجربة أن تستمر أو تتواصل.

تلك هى محاولات كتابة أعمال (روائية)، بالعامية المصرية فى أدبنا الحديث، وأضع الكلمة بين قوسين لأننى أرى هذا الوصف لا ينطبق إلا على ما كتبه مشرفة. إن «السيد ومراته فى باريس» ليست رواية على الإطلاق. هى عمل حوارى يدور بين «السيد» و«مراته» حول ما يريان حولهما فى باريس، وليس دقيقًا ما يقول به لويس من أنه «وصف ساخر لغربته فى المنفى» - ولعله كتب هذا «سماعًا» - أو من الذاكرة، فهدف بيرم مما كتبه واضح تمامًا. إنه المقارنة بين ما يراه فى باريس وما تركه وراءه فى مصر، مقارنة تنطلق من شئون الحياة اليومية الصغيرة لتتناول كل شىء: من الشوارع إلى اللوكاندات والمطاعم والمقاهى والكنائس والمراقص، إلى نظم العمل والتأمين على العاملين ورعايتهم، إلى نظم البيع والشراء وعمل النساء وحرياتهن، وهو لا يتعمد إخفاء هدفه ذى الطابع التعليمى الواضح، يقول «السيد» لمراته، على سبيل المثال: «الناس كلهم هنا بيشتغلوا، سوا كانوا مَرَه أو راجل لازم يشتغلوا، أهل فرنسا ما يعيبوش على الكفر ولا عالفسق، لكن أكبر عيب عندهم هو الكسل..»، ولعل بيرم كان فى هذا العمل ناقدًا للواقع المصرى بأكثر مما كان مشيدًا بالواقع الفرنسى، والشكل الذى يتخذه العمل هو الحوار الذى يقوم فيه «السيد» بالشرح والمقارنة، ولسنا بحاجة للقول أن هذا العمل ليس بدعًا بين أعمال بيرم: أستاذ العامية المصرية وواحد من أعرف الناس بأسرارها.

عمل لويس عوض شىء مختلف. ولاشك - عندى - فى أن توجهه نحو الكتابة بالعامية كانت وراءه دوافع أخرى: كان وراءه نفوره الراسخ من كل ما هو عربى: لغة وأدبًا وتاريخًا وحضارة، وليس هذا تَقوُّلاً، فهو صاحب الدعوة - سيئة السمعة - إلى «كسر رقبة البلاغة العربية»، وصاحب الصيحة الملتاثة: «مات الشعر العربى.. مات.. مات عام ١٩٣٢.. مات بموت أحمد شوقى.. مات ميتة الأبد.. مات..» (انظر كم تتكرر كلمة الموت فى جملة واحدة!)، والأخطر ما يقوله عن نفسه من أن «إحساسه باللغة ضعيف بالفطرة..»، وأنه «لم يقرأ حرفًا واحدًا بالعربية بين سن العشرين وسن الثانية والثلاثين.. فإحساسه باللغة أجنبى جدًا على كل حال..».

أما أن إحساسه باللغة ضعيف وأجنبى فهذا صحيح لاشك فيه، وقد ظل - رغم آلاف الصفحات التى سوَّدها - يستخدم لغة كابية جهمة منطفئة، ذات بلاغة رثة، لا تخلو من رطانة، تُطبق على أنفاس قارئها بثقلها وسقمها، لغة مصمتة جافة، لكنها ليست مقتصدة مدقَّقة (مثل لغة يحيى حقى، مثلاً)، بل ثرثارة متزيدة، لا تخلو من فكاهة غليظة ورغبة فى التنفج ورسم صورة كاذبة للذات.

تلك الأوصاف العامة تسرى على «مذكرات طالب بعثة»: عمل ركيك ثرثار، لا ينتمى إلى الإبداع الأدبى، على أى نحو من الأنحاء، واحدة من الأكاذيب السائرة فى تاريخنا الأدبى الحديث. يَصدُّ نفس القارئ عنه - مصريًا كان أو عربيًا - ما جاء فى صفحاته الأولى وهو يصف مشاعره نحو الشاطئ الأوروبى: «وقعدت أتامل فى أمواج الشاطئ المجهول.. (...) كأنه وطنى الحقيقى اللى ما شفتوش من يوم ما خطفونى الغجر وأنا لسه رضيع وجابونى مصر..»!

عمل مشرفة «قنطرة..» متفرد من وجوه عدة: أول الوجوه وأبقاها أنها رواية ثورة ١٩١٩ بامتياز. إن هذه الثورة لا تُقدم إلينا من حيث هى «أحداث» أو «وقائع» لكنها هى الدماء التى تسرى فى عروق العمل كله. هى محرك الأحداث، وهى دوافع التحول فى الشخصيات وأولها «قنطرة» نفسه: من شيخ انتهازى وضيع وفاسد، لا يجد رادعًا دون استغلال «فاطمة الدلالة» وابتزازها.. ودون نظم قصيدة فى أحد الباشوات الفاسدين رغم زعمه أنه «وفدى»، بل دون أن «يقود» الفتاة الفقيرة الجميلة، صاحبة قصة الحب الحزينة، يقودها إلى مخدع هذا الباشا نفسه مقابل خمسة جنيهات. هذا الشيخ الفاسد - بعد أن قضى سنتين فى بعثة لفرنسا - يصبح، بعد عودته، عضوًا فى «الجهاز السرى» للوفد، مشاركًا فى واحدة من عملياته، ثم يلتقى بزعيم الثورة وقائدها: «عبدالسلام فرح جدًا، وقابل الزعيم، ولاحظ أن وشه حساس وجميل وباس إيده.. (..) ولاحظ الذكاء اللى ظاهر فى عنيه، والعزيمة اللى ظاهرة من شفايفه، وقوة الإرادة الواضحة من أسلوبه فى الكلام، وأدرك بسهولة ليه سعد زغلول كان زعيم ثورة ١٩١٩..»، وهذا شأن بقية الشخصيات. الوجه الثانى يتمثل فى الإنجازات الفنية التى حققها العمل، وأهمها استخدامه الذكى لتيار الوعى، وجرأته على تناول المواقف ذوات الطابع الجنسى، وقدرته على الغوص فى تحليل شخصياته. يكتب الدكتور شكرى عياد: «إن اعتماد الرواية على تيار الوعى لا يؤدى إلى استسلام الكاتب لهذا الأسلوب، فهو لايزال يرصد المنظر والحادثة والشخصية.. (..) والكاتب يداول بين الواقع الخارجى والواقع الداخلى فى نسيج محكم تتبين عليه - شيئًا فشيئًا - رسم المأساة وهو يتكون حتى يكتمل النسيج فتكتمل المأساة بالنهاية الفاجعة التى تدور لها رؤوسنا..» الوجه الثالث هو الارتباط الحميم بين العمل وكاتبه، ومَن يعرف حياة الدكتور مشرفة - بين مصر وانجلترا - وما ابتلى به من آلام جسدية وروحية يعرف أن «قنطرة..» ليست مجرد عمل ينتجه كاتب يقف بعيدًا عنه، لكنها هى ذوب الروح.

من أسف أن الأستاذ الراحل لم يفرغ لإكمال عمله. فبقىَ الجزء الأول منه (حتى ص٩٣ من الطبعة الأولى، ص١٦٤ من الطبعة الثانية، والذى ينتهى بعزم «سيدة» على الانتحار: «وبعدين قامت وهى حاسة إن ده الوداع الأخير لأمها وللدنيا كلها..») نصًا روائيًا مكتملاً، فى حين أن الجزء الثانى لا يعدو «مذكرات روائية» تلخص الأحداث والمصائر، وتنتظر الصياغة التفصيلية من جديد (يرى شكرى عياد أن هذه المذكرات لو كتبت على نسق الجزء الأول لبلغت صفحات الرواية الأربعمائة أو الخمسمائة).

وإننى أعتقد أن هذا العمل كان مفتوحًا أمام صفاء عبدالمنعم وهى تكتب «من حلاوة الروح»: «رَبْع شيخ العطارين» الذى يجمع شخصيات «القنطرة»، منه تنطلق معظم الأحداث وإليه تعود. يقابله هنا بيت عشوائى فى حى عشوائى على أطراف القاهرة (لعله بين «المطرية» و«عين شمس») والجامع بين المكانين أن كل حجرة منه تستقل بساكنها أو ساكنيها، وثمة شكل من أشكال العلاقات الجماعية قائمة بين أفراده. الجامع الثانى أنهم جميعًا، فقراء، بل إن الفقر الذى يحيط شخصيات «حلاوة الروح» يبلغ حداً يفوق أى تصور باذخ للفقر: الصراع من أجل قروش، وليس نادرًا ألا تجد أسرة عشاء أبنائها فتتطوع أسرة فقيرة أخرى بإطعامهم. الرجال يعملون فى مهن هامشية: فران، صياد، عامل فى المجارى، إسكافى، ضائع لا يعرف لنفسه حرفة أو مهنة، «للبريزة» و«الريال» أهمية قصوى، فما بالك بالجنيه

الكامل؟ أما إذا رضي الرب عن أبنائه الفقراء فسوف يجتمعون للسهر والسمر. الرجال يدخنون الجوزة، مغموسة أو غير مغموسة، والنساء منصرفات لأعمالهن، منتشيات بالسهر في حضن الجماعة، مستسلمات لمتعة البوح. في ليلة طاب السهر والسمر ـ هي محض حيلة فنية ـ حكت كل منهن ماضي أيامها قبل أن تلقى بها في هذا المكان، منهن من جاءت من الصعيد، ومنهن من جاءت من قرى الدلتا، لكن وراءهن جميعًا الفقر والحاجة والقهر وقلة الحيلة وموت الأحباب والارتحال من مكان لمكان، في نضال متصل لتوفير الستر واللقمة، والأبناء يأتون في «أرخص ليالي»، ويشبون مثل الأعشاب البرية ذوات الأشواك.

ولن يجدينا أن نتابع أيًا من شخصيات «حلاوة الروح»، فليست بينها شخصية رئيسة تقف في مركز ما يحدث، بل كل الشخوص تشغل مساحات متقاربة (وأعتقد أن هذا ما كانت لتصبح عليه «القنطرة» لو أنها اكتملت، ففي الجزء الثاني منها بذور شخصيات عديدة لم تأخذ حقها من التفصيل). ومادامت الراوية قاعدة في البيت لا تكاد تبرحه، فطبيعي أن نرى النساء ونستمع إليهن أكثر مما نرى الرجال الذين يطاردون الرزق في الخارج، حتى «وحيد» ـ وهو الوحيد حقًا بلا زوج ولا أبناء ـ الذي أضاعه عشقه للسينما ولفريد شوقي، والذي يربط أحيانًا بين ما يحدث، وفي مونولوجه الدائم يضيء أحيانًا بعض الشخوص والأحداث، لا يشغل في العمل أكثر من مساحة سواه، ونظرًا لتعطله الدائم فهو الذي نراه أكثر من بقية الرجال، أما الباقون فلا نكاد نرى أحدهم إلا وهو يعود ليلتهم عشاءه ثم ينام استعدادًا ليوم شاق آخر، أو يأتي ثملاً آخر الليل فيشيع الصخب والفوضى، والعنف ـ اللفظي والجسدي ـ عملة متداولة بين الأزواج والزوجات لا تكاد تستثير اهتمام أحد.

مرة ثانية، يرتمي ظل «قنطرة..» على العمل، فكما كانت ثورة ١٩١٩ هي الإطار الذي يشمل الشخوص والأحداث، نجد المقابل في «حلاوة الروح»: إن أحداثها تبدأ حول منتصف الستينيات، وتتوقف طويلاً عند ١٩٦٧، فقد تدخلت في صميم حياة أهل البيت، حين جاءت أفواج «المهجَّرين» لتقيم إلى جوارهم تنازعهم العمل واللقمة، وتنتهي بموت عبدالناصر، وتفلح الكاتبة في إقامة الروابط بين ما هو خاص وما هو عام: هذه «أم عكاشة»: حارب ابنها في ٦٧ ولم يعد، وهي ماتزال تبحث عنه وتبقى على انتظاره، وهي أكثر الجميع نواحًا حين يموت عبدالناصر فتوحِّد بينه وبين ابنها. إن موت عبدالناصر يشملهم جميعًا ويوحِّد بينهم: الرجال حزاني، والأولاد مشغولون بصنع أعلام صغيرة سوداء، أما النساء فيتوالى «عديدهن»: هذه «حسنة» الجميلة: «اسم الله عليك يا ابو اسم غالي.. الدنيا اسودِّت وضلمت بعدك.. يا عامود بيتي والعامود هدوه.. يا هلترى في بيت مين نصبوه؟.. آه يا غالي يابو ضحكة حلوة.. يابو هلّة وطلّة. يابو الكلام رايق، يا طول بعرض ياخويا..»، وهذه «أم عكاشة»: «نادي المنادي وطوِّح النبوت / روِّح بلادك يا غريب لتموت. نادي المنادي وطوِّح الحربة / روح بلادك ياغريب أولى»... الخ.

لا، لست أنوي طرح قضية الفصحى والعامية في التعبير الأدبي (الروائي) فقد بتنا نحفظ حجج الطرفين المتقابلين. أكتفي بملاحظتين: في ١٩٨٥ صدرت رواية من أهم الروايات العربية المعاصرة هي «الرجع البعيد» للروائي العراقي فؤاد التكرلي، وكان الحوار فيها، ومونولوجات الشخصيات كلها بالعامية (البغدادية) التي تكاد تستغلق على غير أهلها، وحين نقلتُ هذه الملاحظة إلى نجيب محفوظ ـ الذي أنطق الفتوات والمومسات والسكارى واللصوص بالعربية الفصحى ـ قال: «لكن العمل الفني كله كذب جميل، فلم لا يمتد الكذب إلى اللغة؟»، ثم حدث أن صاحب «الرجع البعيد» عاد إليها في طبعة تالية وأبدل بعاميته عربية مبسطة، واعترف بان الشخصيات فقدت قدرًا كبيرًا من استدارتها واكتمالها، صحيح أن العامية المصرية أيسر فهمًا في أرجاء العالم العربي، نتيجة وسائط لا علاقة لها بالإبداع الأدبي، لكنها تبقى محدودة عند المتلقي. هذه واحدة. الثانية أن هذه الأعمال القليلة تبقى خارج المجرى الرئيسي للإبداع العربي، وها أنت ترى أننا لم نستطع الوقوف عند نماذج كثيرة تتحقق لها شروط العمل الإبداعي. ولكن: ما الضرر في أن تستمتع برافد من روافد النهر، إن كان جميلاً ومفيدًا؟

إذا لم تكن من أهل «الحذلقة» أو «الفيهقة» أو «السنوبزم» ـ والعياذ بالله ـ فسوف تستمتع بصفحات كثيرة في هذا العمل.

ويخيَّل إليَّ أن «قانون الوراثة» لم يخلِّف آثارًا مهمة في رواية ياسر عبداللطيف (الأولى): إنْ هي إلا فساد الأسنان وانحسار النظر وبعض الملامح الفيزيقية والنفسية المنحدرة إلى الراوي من «الجيتو النوبي» كما يسميه. إن هذه الرواية القصيرة ـ لا تعدو الثمانين صفحة ـ تحوي «شجرة عائلة» تكاد ترتسم خطوطها بالحبر الأزرق، كما يقولون، لكن الراوي ـ الحفيد وهو يرسم هذه الشجرة يمارس حقه في الإثبات والنفي: يثبت الجد وأحد الأعمام وقريبًا بعيدًا ثم ينفي الآخرين، وأولهم الأب نفسه. إن هذه ظاهرة مترددة في الرواية المصرية المعاصرة، وأكتفي بمثالين واضحين: في رواية نجيب محفوظ «يوم قتل الزعيم، ١٩٨٥» نتعرف إلى الجد «محتشمي» وحفيده «علوان» وتلعب العلاقة بينهما دورًا مهمًا في العمل، على حين يختفي الأب اختفاءً كاملاً، هكذا الأمر أيضًا في رواية بهاء طاهر «نقطة النور، ٢٠٠١»، فبقدر ما عرفنا الجد أو «حضرة الباشكاتب»، والحفيد «سالم» بقدر ما غاب الأب غيابًا شبه كامل كذلك. ولعل الهدف هو أن الاختلاف القائم بين الجد والحفيد إنما يكون أكثر عمقًا ووضوحًا مما يكون عليه بين أي منهما والأب.

لكن الأمر عند ياسر عبداللطيف يكتسب بُعدًا آخر: إنه يكتب عن الأب تحت عنوان جانبي ـ لا يتكرر مثل هذا العنوان في العمل كله ـ «جيل الستينيات». يكتب: «الابن الأوسط للجد وُلد في أعقاب الطفرة التي انتقل على أثرها إلى مصاف الموظفين.. مباشرة قبل اندلاع الحرب الكبيرة الثانية، (..) وتخرج في كلية الهندسة.. ١٩٦١، وتم تكليفه بالعمل في المصانع الحربية، مهندسًا من جنود حلم التصنيع الثقيل للعهد الناصري الطوباوي، واضعي أسس غدٍ لن تشرق شمسه إلا على سواد مطبق، وبعدَ انحسار موجة الهزيمة الطاغية ٦٧، ووفاة الأخ المعلِّم ترك خدمة الحكومة ليجرِّب حظه في الأعمال الحرة.. ومن إخفاق لآخر هاجر في منتصف السبعينيات إلى السعودية مع من هاجروا، ليعود مع انتصاف عقد الثمانينيات..» هذا «التقرير» هو كل ما نعرفه عن الأب الذي لا نراه سوى مرة واحدة عائدًا من عمله، في المطار. لكن هذا «التقرير» يشي بأكثر من شيء واحد: أهي كراهية ـ ذات طابع «أوديبي» ـ للأب؟ أهو نفور من مسلكه في الحياة؟ أغلب الظن أن الأمر هنا لا يتعلق بالأب ذاته قدر ما يتعلق «بجيل الستينيات» من ناحية، و«العهد الناصري الطوباوي» من الناحية الأخرى، وقد صفَّى الروائي حسابه معهما عن طريق النفي والإلغاء!

وفي مثل هذه الروايات القصيرة تصبح التفاصيل الزائدة عبئًا، مثل هذه التفاصيل قليلة في «قانون الوراثة»، يتركز معظمها حول «العم فتحي» الذي يحظى من الراوي باهتمام واضح، فهو يصف ملامحه، ويتابع حياته منذ جاء مع الجد إلى القاهرة قبل الحرب العالمية الأولى.... «وفي منتصف الثلاثينيات كان قد رسى المسار بفتحي عاملاً بأحد فنادق سليمان باشا، وهناك عشقته فتاة من بنات الجالية الإيطالية كانت تعمل معه بنفس الفندق، وانخرطا في قصة غرام ملتهبة أثارت حنق بني جلدة الفتاة من شباب الطليان الذين تفوشوا بالمهجر (هذا فعل جديد يدخله الكاتب إلى العربية: تفوشوا: أي أصبحوا فاشيين أو فاشيست!) وقرروا قتل ذلك الأسود الذي دنس الشرف الروماني، وفي فورة من غضب يميني عام كان يشكل الجزء الأكبر من السياق وتحت مظلة الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة التي لم تكن معاهدة ٣٦ قد ألغتها بعد، أخذوا يجوبون القاهرة على ظهور دراجاتهم البخارية مرتدين قمصانهم السود بحثًا عن فتحي.. الخ»، ولم يكتف فتحي بالهرب من مطارديه في حواري القاهرة بل واصل هروبه حتى وصل رودس! وسوف يتابع الكاتب قصة رودس وسقوطها في أيدي «الرايخ الثالث» وحركة المقاومة فيها التي انتهت إلى إخراجهم! أقل القليل من هذا كان يكفي. فلا ضرورة لكل هذه التفاصيل، ولا رابط عضويًا يربطها بالعمل. وقد سبق أن رأينا أولئك «المتفوشين» من قبل، عند فتحي غانم وروايته «بنت من شبرا، ١٩٨٥»، لكنهم كانوا جزءًا عضويًا من صميم الرواية، «ماريا ساندرو»، بطلة الرواية إيطالية، وأبوها ـ حلاق الأسرة المالكة ـ حالم بالدوتشي واستعادة المجد الروماني.. «ولقد دفع الثمن غاليًا ومقدمًا من أجل مجد روما ومجد الدوتشي، فدفع ولده «ماريو» للسفر إلى روما والانضمام إلى القمصان السود، ثم سافر ماريو إلى الحبشة جنديًا في جيش الدوتشي، وهناك لقي مصرعه.. (..) وشوارع شبرا عرفت ماريو يرتدي قميصه الأسود ويركب «موتوسيكلاً» يطقطق ويطرقع ويتفجر حيوية وشبابًا.. الخ». إنما هكذا يستخدم الروائي التفاصيل التاريخية في صميم عمله الروائي.

على أن هذه التفاصيل الزائدة لا تتكرر كثيرًا في «قانون الوراثة»، فالعمل ـ على وجه العموم ـ ذو بناء محكم وصياغة موجزة في «مقدماته» وهي ضربات سريعة تحدد الإطار الزماني والمكاني والعائلي الذي سيدور داخله ما يلي، ثم فصوله الأربعة: الأول عن الإطار العائلي أو «شجرة العائلة» التي أشرنا إليها، ويلحق به الفصل الرابع والأخير كأنه حاشية له أو هامش على متنه. الفصلان الثاني والثالث يتابعان الراوي طالبًا في الجامعة أثناء أحداث ٩٠/ ٩١ (التي تقابل أحداث ٧١/ ٧٢ عند جيل سابق، على اختلاف في زوايا النظر)، ثم معرفة الراوي للمخدرات وولعه بها، والتخليقية منها بوجه خاص، وتحايله ـ ورفاقه ـ للحصول عليها، ويثبت عدة صفحات

إن الكتابة أيضًا، وسيلة للتحرر، ولها وظيفة «سيكو ثرابية» خالدة، وتاريخ الأدب والفن يعرف شعراء وكتّابًا وفنانين تحرروا من عُصاباتهم حين «أخرجوها»: شعرًا وقصصًا وروايات ومسرحيات ولوحات



عن تأثيرها عليه وما تؤدى إليه من هلاوس (من الممتع حقًا أن تقارن هلاوس الراوى هنا بهلاوس «أنيس زكى» بطل «الثرثرة، ١٩٦٦» لنجيب محفوظ: هل الاختلاف راجع لطبيعة المخدر أم لطبيعة المتعاطى؟ يكفى القول أن هلاوس أنيس كانت تطوف حول هموم الوطن فى ذلك الحين، وتضرب فى عمقه التاريخى، أما هلاوس صاحبنا فلا تكاد تتجاوز حدود جسده!).

«قانون الوراثة» ـ هى العمل الأول لصاحبها ـ رواية «حديثة» بمعنى من المعانى: من حيث إيجازها وبنائها والتفاتها نحو الأماكن واستنطاق ماضيها وما يصحبها من طاقة وجدانية (فى وسط المدينة وفى حى عابدين ثم فى المعادى)، وما يتخللها من رؤية نافذة للمفارقات (راجع مشهد «فتاة المترو» ذات النصف الأعلى المحافظ والنصف الأسفل المتحرر، ومشهد «صفية» صديقة الجد وما تحكيه عن «كازانوفا البلاقسة»، ابن بائع الجاز الذى ضاجع معظم نساء الحارة) وفى خلفية العمل كله حكاية النوبيين (الجيتو النوبى كما يسميه) من خلال أجيال ثلاثة: الجد والحفيد وبينهما «ربيب العائلة».

يقول الراوى: «أنا لا أحاول التخلص من رومانسيتى لكننى أحاول تقليصها قدر الإمكان..»، وقد نجح فى محاولته إلى حد كبير، تجنَّب الرومانسية، و«السنتمنتالية» أو طرطشة العواطف، والميلودرامية فى الأحداث والمشاعر، وقدم عملاً صلبًا ومتماسكًا.

إلى مكانٍ كان نائيًا ـ ولعله الآن لم يعد كذلك ـ يصحبنا محمد العشرى فى روايته (الثالثة) «تفاحة الصحراء»: إلى منطقة «العلمين» وما حولها من صحرائنا الغربية، وإذا قلنا «العلمين» تداعت إلى الذهن ـ على الفور ـ معركتها الشهيرة التى حوّلت ميزان الصراع فى أكثر مراحل الحرب الثانية حرجًا. وليست «تفاحة الصحراء» بعيدة عن هذه الفترة من التاريخ الحديث. والحقيقة أننى وجدت فى هذه الرواية القصيرة (لا تبلغ المائة صفحة) أكثر من وجه من وجوه التميز: أول هذه الوجوه أنها تتحرك على مستويين، لو صح التعبير، هما حاضر هذه المنطقة وماضيها. الحاضر هو هذا المشروع الذى تقوم به إحدى شركات النفط، ذات رأس المال المشترك والإدارة المشتركة، لاستكشاف إمكان استخراجه، والماضى هو أحداث الحرب العالمية فى هذه المنطقة وما حولها.

وثمة أكثر من رابط بين المستويين: «الشيخ عبد الرحمن» الذى كان شابًا صغيرًا أثناء الحرب، يعمل ابنه بين العمال فى البعثة الجيولوجية. إلى جانب هذا الرابط الإنسانى ثمة الآثار التى خلفتها الحرب: المقبرة الشهيرة التى تضم رفات جنود الحلفاء، وحارسها الإيطالى «كيوديني» الذى يعاونه عبد الرحمن، والنصب الذى أمر «روميل» بإقامته تخليدًا لذكرى أحد طياريه الأكفاء، وأهم من هذه وذاك: حقول الألغام الرهيبة، تفاحات الصحراء القاتلة. فهنا «أكبر حقل ألغام فى العالم، حقل «البويرات».. على بعد مائتين وخمسين كيلو مترًا شرقى طرابلس، والذى زرع فيه (مونتجمرى) مائة وخمسين الف لغم.. متاهبًا للانفجار بشكل دائم، مانعًا الأرجل من الاقتراب منه، مزلزلاً الأرض تحت حوافر الحيوانات الضالة، ناثرًا لحومها على الرمال..». كيف تعمل البعثات الجيولوجية فى هذه المنطقة إذن؟ «ما يقرب من سبعين كيلو مترًا مربعًا هى كل المنطقة التى تم مسحها من مساحة تقدر بآلاف الكيلو مترات مزروعة بالألغام، لأعمال البحث والتنقيب عن البترول تقوم به شركات أجنبية بمشاركة شركات وطنية، فى جو قلق وحذر من خطورة المكان، مع رسم مسارٍ للعاملين لا يحيدون عنه تجنبًا لأية مفاجآت تحدث..»، لكن المفاجأة قد حدثت: حاد الجيولوجى «تامر» وبصحبته الزميل الأجنبى «جون» عن المسار فانفجر لغم أطاح باصابع يدى جون. لم يكونا فى العمل لكنهما كانا فى رحلة صيد، وكان جون مثيرًا للريبة لكنه أجنبى.. «أوقف «تامر» عن العمل لحين استكمال التحقيقات مع الجهات الأمنية المختلفة، وسافر جون إلى بلده بعد أن حصل على مليونى دولار كتعويض مبدئى.. بعد أن صعَّدت سفارته الأمر إلى مستوى عال..».

حسب الراوى، فقد لقى تامر جزاء عدوانه الدائم على الغزالات، حيوانات الصحراء الجميلة، يطاردها دون هوادة ويطلق عليها الرصاص دون رحمة. خذ المشهد الأخير من هذه المطاردة غير المتكافئة: «الغزالة التى أصابتها الطلقة فى رأسها كانت تلد، وضعت واحدة، والثانية أول شىء رأته فى الدنيا وجه القاتلين ليلتقطاها بأيديهما ويداعباها. وضع تامر الأم فى صندوق العربة وحمل جون الصغيرتين على ذراعيه فرحًا..»، بعدها بقليل انفجر اللغم.

يقودنا هذا إلى وجه التميز الثانى: إن الروائى يضم ـ فى نظرة واحدة وكل واحد مترابط ـ الطبيعة بما فيها من صحراء وقيظ وزوابع ومطر (نادر) ونبات ذى طبيعة خاصة قادرة على مقاومة الجفاف القاسى، وحيوانات ضارية أو تم ترويضها: الجمال والأغنام والأرانب والثعالب إلى جانب الضباع (وهو يروى الأسطورة المتواترة هناك حول اسم «الضبعة») والحيات والعقارب. أضف لذلك كله فبحكم طبيعة عمل أبطال الرواية، فإن الصخور أيضًا تجد مكانها..«الجيولوجى فى الصحراء حين تقع عينه على قطعة صخرية ويلتقطها فلا بد أنها غير عادية، أو أن بها خطوطًا ما يود أن يدرسها ويفصلها على مهل، يرجعها إلى أسباب وجودها فى المكان الذى وجدها فيه..». ثم إن الروائى يضفى حياة ذات أفكار ومشاعر على عالم الحيوان (فى مشاهد صيد الغزلان، وابتهاج الجمال لأن هؤلاء البشر لا يشعلون الأرض والسماء كما فعل سابقوهم، وحزن الكباش والخراف على الكبش الذى مزّق جسده انفجار طوربيد كان مطمورًا). إنما على هذا النحو تشغل هذه الرواية القصيرة مكانًا بين روايات الصحراء فى أدبنا العربى المعاصر (خاصة عند أستاذيها الكبيرين: عبد الرحمن منيف وإبراهيم الكونى).

الوجه الثالث هو رغبة الروائى فى إقفال الأقواس ووضع النقاط فى نهايات السطور، وتتضح هذه الرغبة ـ أكثر ما تتضح ـ فى قصة حب الشاب عبد الرحمن للملازم، الإنجليزية الجميلة «دونا ماكسويل» التى تعمل فى الصليب الأحمر.. «كانت تكلمه بعربية مكسرة، فيلقى إليها ببعض الكلمات مشيرًا إلى معانيها بحركات من يديه، يتشرب وجهها الأبيض، وعيناها الزرقاوان تشدانه إلى ساحل البحر، تسلمه للهدير المتلاطم وتتركه فى الأعماق، فيغمره قلبه المتدفق ويغرقه..»، لكن مثل هذه العاطفة لم يكن مسموحًا لها أن توجد، هناك وآنذاك، وبين هذين.. «حين رأى القائد ذلك التجاذب بين «الملازم دونا» والشاب عبد الرحمن، ناداها فى خيمة مكتبه وسد عليها الباب.. خرجت بعد ساعة، وجهها شديد الاحمرار وتخفى ارتباكًا، تسوى ملابسها وتدبس شعرها الطويل. خرجت «دونا ماكسويل» أخرى غير التى يعرفها عبد الرحمن(..) بعد يومين رتب القائد أمر زواجها من الطبيب «شاو صن». أدار القمر وجهه المعتم، وتاهت المعالم تحت قدميه وتخبط فى الظلام..». سوف يغلق الروائى هذا القوس بعد أكثر من أربعين سنة، وفى الصفحة الأخيرة من الرواية: تأتى سيدة جميلة فى حوالى الأربعين إلى المقبرة، تسأل «كيوديني» عن قبرى أمها وأبيها، وتلقى باسميهما دون أن تدرى ما يحدثه هذان الاسمان فى العجوزين: الملازم دونا ماكسويل والطبيب شاو صن. هكذا يضع الروائى النقطة فى نهاية السطر. إفراط فى الصنعة؟ ليكن: لا فن بلا صنعة.

هذا الطبيب نفسه «شاو صن» يتقاطع مع حكاية أخرى تبدو نتوءًا فى الرواية أو شيئًا ملصقًا بها، ولعل ما يحول دون أن تصبح كذلك هو التقاؤها بالعمل من حيث أفقه الإنسانى العام، أعنى حكاية البحارة الليبيين الذين أسرتهم غواصة إنجليزية وهم على ظهر سفينة شحن إيطالية، وفى ميناء الإسكندرية كان شاو صن هناك لاستقبال زوجته، واكتشف قائد الميناء أن البحارة مرضى بالتيفوس، وأكد له الطبيب ذلك فأمر بإعدامهم، وتولى الطبيب حقنهم بحقن الموت، وافتدى «خالد» نفسه بكيس نقوده فنجا من مصير الآخرين. وبعد عشرات السنين ها هو «خالد الليبى» يقود سيارته اللورى على الطريق بين أفريقيا وآسيا، وفى واحدة من رحلاته يعطيه حارس المقبرة متعلقات رفاقه، وينغلق قوس آخر!

قلت إن هذه «الحكاية الداخلية» تلتقى مع أفق الرواية الإنسانى الرحب، هذا الأفق هو، ببساطة: إدانة الحرب من ناحية، وجدل الحياة والموت، وحضورهما معًا فى كل زمان ومكان.

لعل طريقة السرد هى أول ما يلفت النظر فى «لصوص متقاعدون» رواية حمدى أبو جليل الأولى (بعد مجموعتين من القصص القصيرة): إنه يحاول أن يقول أقل الأمور جدية بأكثر الوسائل جدية. أشبه بخطيب يتخذ سمت الجدية الكاملة ثم لا يقول إلا هذرًا ولغوًا. هى ليست كتابة «ساخرة» ـ لو كان لهذا الوصف معنى محدد، قدر ما هى كتابة تحمل بداخلها تناقضها الخاص بين المضمون الهازل من ناحية، ووسائل التعبير الرصينة من الناحية الأخرى.

لم لا نأخذ مثالاً؟ هذا «سيف» يعرض على الراوى أن «يقود» له «زنوبة» زوجة أخيه، كل ما عليه أن يترك باب شقته مفتوحًا فى الليل، وسيتولى هو ترتيب كل شىء.. «من المؤكد أن الأمور على ما يرام وأن سيف سيقوم بدوره على أكمل وجه.. أغلقتُ الباب جيدًا واندفعتُ إليها فتمنعت كما هو متوقع، وانزلقت منى إلى السرير فقفزت وراءها، وبعد فاصل قصير من فقدان التوازن والتخبط نجحتُ فى إحكام السيطرة عليها، زنقتُها ولكن فى الوضع الخلفى، غير أن ذلك لم يمهلنى فأنا لا تفرق عندى مسالة الأوضاع، وربما هذا هو الوضع الأمثل بالنسبة لها.. وبمجرد أن أخذتُ نفسًا عميقًا تملكنى الشك فى أنها «سيف»، وأن تلك التى تنتفض أمامى مؤخرته.. كانت المسألة محرجة، وللحظة فقدت القدرة على التمييز وتذكرتُ بنوع من الإجلال ضرير يوسف إدريس فى «بيت من

لعل طريقة السرد هى أول ما يلفت النظر فى «لصوص متقاعدون» رواية حمدى أبو جليل الأولى إنه يحاول أن يقول أقل الأمور جدية بأكثر الوسائل جدية. أشبه بخطيب يتخذ سمت الجدية الكاملة ثم لا يقول إلا هذرًا ولغوًا

لحم«...». ذلك مثال نموذجى لطريقة السرد فى «لصوص متقاعدون». ولعل ما كان جديرًا بالراوى أن يتذكره، مادام مصممًا على عالم يوسف إدريس ـ ليس ضرير «بيت من لحم» بين الأرملة وبناتها، بل بطل قصة أخرى فى ذات المجموعة، قصة «هى». وهذه السطور التى تنتهى إليها: «وجاءت اللحظة واسترخت فوق الفراش تناديني، ولبيتُ النداء، وأشارت فاطفئت الأنوار، وأشارت فانطفأ القمر، وتحسست جسدها وأنا ذائب معها فى قبلة..(..) اكتشفتُ أن الأنثى التى أنا غائص فيها كانت مؤخرة رجل فاجر الشذوذ!».

لا عجب ولا غرابة، فمعظم الأبطال فى العمل لا تكاد تشغلهم سوى همومهم ذات الطابع الجنسى ـ سويًا كان أو شاذًا، من جانب، وتدخين «البانجو» من الجانب الأخر، وثمة شخصيات لو لم يحصرهم الكاتب فى هذا النمط من الكتابة لاستدارت واكتملت لها أسباب الحياة (اشير، بوجه خاص، إلى الشاعر المغمور والمستشار المرتشى). بعبارة ثانية: إن الكاتب حاصر شخصياته بتلك الطريقة فى السرد، المولعة بالطرائف والغرائب، الساعية إلى الإدهاش. ثم حاصرهم كذلك بوعيه الخاص، لقد حاول أن يجعل من أحد أبطاله ـ وهو تاجر مخدرات صغير ـ كاتبًا، لكن عدم الاتساق كان واضحًا بين مسلكه وما يفكر فيه، كان «جمال» يكتب أحيانًا، وهذا بعض ما كتبه: «أخطأ القاتل صديق الشيخ «زوسيما» فى «الإخوة كرامازوف» حين حمل على المصلحة الشخصية أخطاء العالم، يبدو أن طبيعة العصر الذى عاش فيه دستويفسكى أعمت هذا الرجل عن أن يرى الحياة كما ينبغى لحكيم مثله، فأفعال الواحد تصدر عن ذاته، عن فرديته، عن مصلحته الشخصية الضيقة جدًا.. إلخ». إنه ليس «جمال» الذى يعرف دستويفسكى لكنه الراوى نفسه، ها هو يقول عن رؤيته «أم جمال» لأول مرة: «لمحة خاطفة اكتشفت منها حقيقة أن الخيال يمكن أن يتطابق مع الواقع، كانت تشبه ـ بشكل ما ـ تلك المرابية التى قتلها «راسكولنيكوف» فى «الجريمة والعقاب»...» بل إن وعى الراوى نفسه لا يخلو من اختلاط يجعله «شخصية ورقية» أكثر منه شخصية ممتلئة بالحياة والحضور. إنه يقول لنا ـ مرة ـ إنه كان عامل بناء، وأنه «نال شهرة لا بأس بها على مقاهى مقاولى أنفار اليومية.. واحد من الشداد الذين يمكن الاعتماد عليهم تمامًا فى مهمة نقل شكاير الرمل والأسمنت.. إلى أعلى الأدوار على أكتافهم...»، ويبدو أنه نسى هذا الوصف وهو يحكى تاريخه الجنسى مع العادة السرية «فى الثانوية.. وبالتحديد فى السنة الأولى بدأ العصر الذهبى واكتشفت مناظر التليفزيون.. إلخ»، كما أننا لا نعرف ماذا يعمل بالضبط زمن الرواية. مرة ثالثة وهو يحاول تصوير شخصية «القبطى» يقول عنه: «قليل الكلام، الأدق أنه لا يتكلم مطلقًا، ربما لو توفرت له مهارة الكلام لوَصف حالته بشكل أعمق من تلك السيدة الإنجليزية التى التقاها عالم النفس روبرت برتون فى كتابه الشهير «تشريح المنخوليا»: إذا خرجت من البيت فإننى لا أستطيع التنفس.. إلخ». ها أنت ترى: وعى الراوى يختلط بوعى شخصياته، وهما معًا يختلطان بوعى المؤلف، فكيف يمكن الحديث عن بناء روائى؟

من الناحية الأخرى، فإن هذه الطريقة فى السرد، والخلخلة فى البناء، أديا لأن يثبت الكاتب أحداثًا أو وقائع أو صورًا أو تعابير تبدو له «طريفة» دون نظر إلى علاقتها بالعمل ككل. وإذا نحن تقبلنا كل تلك الحكايات عن القبيلة التى تتحول من البداوة إلى الفلاحة، وعن الجد وزوجاته، خاصة جدة القبيلة «نقاوة» باعتبارها جوانب من التاريخ الشخصى للراوى، فإن صفحات أخرى تهن علاقتها بالعمل كله، مثل تلك عن «الزوجين المسنين» (ص١١٧)، إنها يمكن أن تنعزل تمامًا كقصة قصيرة متماسكة، لا علاقة لها بالعمل الذى يحاوله الروائى (قل هذا أيضًا عن ماضى «عادل» القبطى، أو بالأحرى ماضى أبيه فى قريته الصعيدية البعيدة)، والحقيقة أنه لم يكن يقوى على انتزاع حدث أو شخصية أو موقف يبدو له «طريفًا» يحقق أهدافه فى هذه الصياغة الخاصة.

حى عشوائى (منشية ناصر) وشخصيات ورقية، ونص لا يخلو من طرافة. هؤلاء هم «اللصوص المتقاعدون»!

لعل الظهور الأول لحى «شبرا» فى الرواية المصرية جاء مع نجيب محفوظ و«بداية ونهاية، ١٩٤٩». فمن «حارة نصر الله» على مبعدة دقائق قليلة من «المدرسة التوفيقية» ـ واحدة من أقدم المدارس الثانوية فى مصر ـ خرج حسن وحسين وحسنين ونفيسة، ليخوض كلٌ صراعه مع الحياة منتصف ثلاثينيات القرن الماضى، ولتختلف مصائرهم فى هذا الصراع، وإن كانت المأساة تظللهم جميعًا، من عاش منهم ومن قُتل أو انتحر. بعدها اختار فتحى غانم جانبًا من هذا الحى لتدور فيه أغلب أحداث روايته التى سبقت الإشارة لها «بنت من شبرا، ١٩٨٥»، اختار فتحى «أول شبرا»، وكان هذا الجزء من الحى ـ على مرمى حجر من قلب المدينة ـ يضم حشدًا كبيرًا من فقراء الجاليات الأجنبية فى مصر: الإيطالية واليونانية بوجه خاص، وعلى الجانب المقابل من الشارع منطقة مازالت تحمل الاسم الدال على ساكنيها: «قصور الشوام»، وتغيرت ـ بطبيعة تطورات الواقع المصرى بشكل عام ـ التكوينات الديموجرافية فى هذا الحى الذى كان معظمه حقولاً تنتج ـ أكثر ما تنتج ـ الخضروات التى تحمل إلى السوق الكبير الذى يتوسطه. ولعل ما يميزه اليوم أن ساكنيه يكادون ينتمون لكل شرائح وطبقات المجتمع. اضف لهذا كله أنه أول أحياء القاهرة للقادمين ـ بحثًا عن العمل ومن ثم الاستقرار ـ من محافظات الدلتا القريبة، خاصة محافظتى القليوبية والمنوفية. وفى الرواية المصرية الحديثة كتب المثابر الدءوب نعيم صبرى «شبرا» قبل أن يهجرها إلى «الحى السابع»، وكتب بهاء عبد المجيد «سانت تريزا»، وحديثنا عن هذه الأخيرة.

يقوم بناء العمل على شخصيات أربع، وتقوم صياغته على المقاطع الصغيرة المتتالية ذات العناوين التى تحدد طبيعتها والشخصية التى تعنيها، وإطاره الزمنى من منتصف الستينيات لأوائل الثمانينيات على وجه التقريب، وإطاره المرجعى الأحداث السياسية الكبرى: ٦٧ و ٧٣ والصلح المصرى ـ الإسرائيلى حتى اغتيال السادات فى ٨١. فتاتان من سن واحدة، الأولى مسلمة والثانية قبطية، لكنهما تختلفان معًا إلى كنيسة الحى «سانت تريزا»، وإليها تلجأ القبطية «بدور» فى النهاية كى تتحرر من خطاياها.. «هنا كانت بدايتها، وهنا ستأتى عندما تموت، هنا تعمدت وغُطست فى الماء المقدس، هنا تزوجت، وهنا كانت تستريح، لماذا أغضبت الرب والعذراء وسانت تريزا وكل القديسين.. كيف الخلاص يا ست تريزا؟ وجدت طريقك إليه وأنت فى الرابعة والعشرين، فتخففت من عبء الحياة وترهبنتِ وخدمته إلى أن فاضت روحك الطاهرة، لقد كنتِ مثلى الأعلى يومًا، فاين أنا منك؟ خذى بيدى يا طاهرة..».

ولكن: كيف أغضبت بدور «الرب والعذراء وسانت تريزا وكل القديسين»؟ إنه «لوكا»: يهودى من أصول يونانية، جاء مصر مع أمه وهو فى الثانية عشرة، وهو ـ زمن الكتابة ـ قد جاوز الخمسين، صاحب «الأتيليه» الذى يعمل فيه «جرجس» زوج بدور. هكذا قام مثلث تقليدى. لا بأس. لوكا بحاجة لبدور، وهى بحاجة إليه، فهو سبيلها إلى تجاوز حياتها المحدودة والصعود إلى حياة أرقى وأرحب. «همست لنفسها بزهو: أنا جميلة، فلم لا أستغل جمالى هذا؟ أريد أن أعيش حياة أفضل...». ومن الواضح أن زوجها لم يكن يعارض هذا الطموح، ولا كان يعارض تحققه وقد فتح لها لوكا «بوتيكًا» فى الإسكندرية حيث أصبحت تقضى جانبًا من أيامها هناك، بل «انغمسا فى الحب والعمل والكسب، يراوده الشك أحيانًا عندما يذكر اسم لوكا، باستثناء ذلك كانا يحلمان بالثراء وشراء المنزل الذى يعيشان فيه وتأسيس بوتيك للملابس...»، أكثر من ذلك حين لمحت له بدور عن عدم ارتياحها لطريقة لوكا فى معاملتها «لم يفهم جرجس، وقال لها إن هذه طريقته فى معاملة النساء والتى لا تعنى شيئًا، وهو، على أى حال، رجل كبير فى السن ولا خطر منه...»، وفى شجارهما الأخير قالت له بوضوح موجع: «لوكا إدانا كل شىء، تقدر تقوللى المحل والبيت اللى باسمك دول منين؟ والبوتيك اللى عندى دلوقتى منين؟..».

أطلتُ عمدًا فى تقصى هذه العلاقة الثلاثية كى أفسر رؤيتى لما تطورت إليه، أو بالأحرى، ما تطور إليه حال جرجس، الذى انهار وأدمن الشراب والضياع وغاص فى هذيانه عن «اليهودى» الذى دمَّر حياته، واضطر الروائى لأن يلتمس له تبريرًا.. «ورغم أن جرجس لم يكن مثقفًا للحد الذى يجعله يصدر أحكامًا على الجنس اليهودى، إلا أنه كان لديه كره فطرى لليهود، فهم الذين حرضوا على قتل المسيح، وهم أعداء مصر، وهم الذين اغتصبوا أرض فلسطين ودنسوا الأرض المقدسة، هم الذين قُتل فى الحرب بسببهم أعز أصدقائه وأقاربه وأحبابه.. لهذا فقد زاد حنقه على لوكا وأوغل فى طلب الثأر منه...». لكننا لم نكن نعرف أن له موقفًا من اليهود من قبل وهو قد عمل مع «لوكا» ـ وكان معجبًا به مقلدًا له ـ قبل أن يعرف بدور، ولم نعرف أبدًا أن له «أصدقاء وأقارب وأحباب» قتلوا فى الحرب. من هنا تأتى النهاية التى يضعها الروائى لهذه العلاقة، ولروايته كلها، الاشتباك الدامى بين لوكا وجرجس، وقد سعى الأخير إلى الأول ليقتله: «جرى إليه، وقبل أن يفيق لوكا من أثر الوقعة وجد جرجس مندفعًا ناحيته مشهرًا مقصه فى يده، حاول أن يتفاداه، ولكن الدماء تدفقت من بين أصابعه غزيرة ساخنة، رأى جرجس الدماء فجن جنونه وصرخ ضاحكًا: قتلتُه... إلخ». أقول إن هذه النهاية الميلودرامية الزاعقة قد تكون حلاً لإنهاء الرواية، لكنه حل يأتى من خارجها تمامًا!

خارج هذا المثلث، وقريبًا منه، تقف «سوسن»: صديقة بدور وجارتها منذ الطفولة، ولن يتسع المقام لمتابعة تطورها «وتطور وعيها أثناء دراستها الجامعية وبعد عملها مدرِّسة للغة الفرنسية. يكفى تعليق واحد حول «سليم» الذى ارتبطت به فى الجامعة، كان ماركسيًا شديد الثقة والرسوخ، ثم تحول ليصبح أحد قيادات الجماعة الإسلامية، ونجح فى الهروب من سجن طرة. إن هذه الشخصية

«سانت تريزا» تفيض بالنوايا أكثر مما تحقق من الإنجاز، خاصة والكاتب يثبت أنه ظل منشغلاً بكتابتها. فى أقل من مائة صفحة. ثمانى سنوات (١٩٩٢ ـ ٢٠٠١) بين القاهرة ودبلن وباريس!

«كولاج» غير متقن من شذرات متباينة لا تخلق شخصية متكاملة، بل تتنافر عناصرها، هذا إضافة إلى أننا لا نعرف أن «تحالفًا» قام في أي وقت بين «الماركسيين» وأعضاء الجماعات الإسلامية في الجامعة نهاية السبعينيات. متى حدث هذا وكيف؟.. لا ندري.

«سانت تريزا» تفيض بالنوايا أكثر مما تحقق من الإنجاز، خاصة والكاتب يثبت أنه ظل منشغلاً بكتابتها - في أقل من مائة صفحة - ثماني سنوات (١٩٩٣ - ٢٠٠١) بين القاهرة ودبلن وباريس!

هل تعرف المثل العربي القائل «كل الصيد في جوف الفرا»؟، لعل هذا ما تحاوله منال القاضي في روايتها القصيرة «لا ظل ولا صدى» (بعد مجموعتين من القصص). في أقل من مائة صفحة تنسج الروائية عالمًا شديد التعقيد والتشابك. الأدق أن نقول إنه عالم ينقسم إلى عوالم متداخلة، ثلاثة ركبوا الأوتوبيس المتجه إلى القلعة، «عصفوران بينهما شيخ»: مريم ومحمد وبينهما عبد الحميد. زمن الرواية هو الزمن الذي تستغرقه الرحلة، لكن كلاً من الأشخاص الثلاثة يستدعي عالمه، وهو عالم على جانب كبير من الخصوصية والتفرد. ومن ثم فإن الشكل الذي تستخدمه الكاتبة (المؤلف الخالق لكل شيء والعليم بكل شيء) والبناء الذي يقوم عليه (المقاطع القصيرة المتتالية التي تحمل أرقامًا، والتي تنتقل - بيسر وسلاسة معظم الأحيان - بين هذه العوالم المستدعاة) يبدوان ملائمين تمامًا. إنه أشبه بسيناريو عمل سينمائي: بعد اللقطة العامة الأولى (الأوتوبيس المتجه إلى القلعة) يبدأ «المونتاج» عمله: يقطع من هنا ليوصل من هناك، مضيفًا خطوطًا جديدة إلى كل من هذه العوالم، مستدعيًا شخوصًا وأحداثًا أخرى، ولاحتشاد هذه العوالم بالأحداث والشخصيات تلجأ الكاتبة إلى الاختزال والإيجاز، معتمدة - اعتمادًا قد يكون مبالغًا في تقديره - على الخبرة المتراكمة لدى القارئ وقدرته على أن يفكك الخيوط، ويرد كلاً إلى صاحبه.

ولن يتسع المجال لرصد كل التفاصيل في كلٍ من العوالم الثلاثة، يكفي أن نشير فقط إلى «رؤوس الموضوعات» التي يقوم عليها كلٌ من هذه العوالم: إن عالم عبد الحميد يستدعي قيام ثورة يوليو وهو طالب بالثانوي، ووقع هذا الحدث الكبير على زملائه في المدرسة واستجاباتهم المختلفة له، وبينهم ابن واحد من «البهوات» الذين بدأ عالمهم في التقوض، وبينهم طالب عُرف منذ البداية أن له صلات وثيقة بالثوار، وأنهم «طوع أمره»، فمارس الاستبداد والابتزاز لزملائه ومدرسيه استنادًا إلى شيوع هذا القول، وفيما بعد اعتقل «مصطفى» مع الشيوعيين، وقيل إنه قد أطلق سراحه لأنه كان يعمل مع السلطة ضد رفاقه، وهو - زمن الكتابة - كاتب يقرأ له عبد الحميد أحيانًا، وأحيانًا يراه بين من يسوّقون اللغو والهذر في برامج التليفزيون (شخصية قد















ترجع بأصولها إلى النموذج الكلاسيكي: رءوف علوان). وفي عالم عبد الحميد كذلك أخوه «علي» المثقف الذي كان يعقد «صالونات الخميس» في بيته، وفي أحدها عرف «شذا» الشاعرة التي تعاطفت مع مصطفى، ولم تأبه بعبد الحميد.

محمد - صبي في الثانية عشرة - له عالم آخر: أهم ما في عالمه زميله وصديقه الفلسطيني «مريد»، الذي يتفرج معه على اللوحات التي رسمها جد «مريد»: الرسام الفلسطيني المعروف، وله - بطبيعة كونه فلسطينيًا وفنانًا - مأساته الخاصة، ذرة مفردة من مأساة شاملة، وبين زملائه كذلك «تايسون»: الصبي المصري الذي يحمل الجنسية الأمريكية (وهذه شخصية غير مسبوقة)، وتفسير ذلك أن أمه، مضيفة الطيران، وأباه، طبيب التخدير، قررا أن يكون ميلاده في «تكساس» حيث يعيش عمٌ لأمه «فيصبح مواطنًا أمريكيًا، وينقذانه من وصمة العالم الثالث والتأرجح بين دولة نامية ومتخلفة...»، وهو يباهي بجنسيته ويتيه على زملائه الذين يدخلون معه في معركة مفتوحة. إن الصراع بين «مريد» الفلسطيني و«تايسون» الأمريكي، ومواقف محمد وزملائه المصريين من هذا الصراع ليس «تعبيرًا رمزيًا» عن حقائق تحدث اليوم على أرض الواقع، قدر ما هو «مكافئ» أو «معادل» لما يحدث. (ولكي تبرز الكاتبة الدلالة السياسية للموقف كله، لا بأس بأن تجعل صبي الثانية عشرة يفكر على النحو التالي: لكن «مريد» شغله أكثر لأنه فلسطيني، ومثله مثل أطفال الحجارة الذين يعتدون بحجارتهم على أمن إسرائيل، كما قالت مذيعة «السي. إن. إن» وقرأ في «الواشنطن بوست»!).

أما عالم الصغيرة «مريم» فحدث عنه ولا حرج!، يكفي أن تكون فيه حكايات «سنية» عن زوجها النوبي، وحكاية المرأة النوبية العجوز «عائشة مياسة» التي جاءت من النوبة بعد أن أغرقت ابنتها «سبيلة» لأنها حبلت من الشيطان، وعالم مريم - بوجه خاص - يتأرجح بين الواقع وما وراءه، خاصة وهي دائمة الانشغال بالتفكير في حكايات «سنية» التي تغص بالعفاريت والشياطين من ناحية، وما تقوله «ميس راجية»، المدرِّسة، عن الاستنساخ.. «لم تفهم مريم من كلام «الميس» سوى أنه يمكن استخراج منها أكثر من مريم، وبدت المسألة مدهشة ومريحة» من الناحية الأخرى.

هي، إذن، عوالم ثلاثة مستدعاة، كل منها غني بشخوصه وأحداثه، لكن العلاقات والروابط التي تسعى الروائية إلى إقامتها بين هذه العوالم الثلاثة لا تأتي - في معظمها - معقولة أو مقنعة، ولعل أكثرها وضوحًا محاولة الربط بين عالمي عبد الحميد ومحمد من خلال اللوحات المرسومة لوجوه ومشاهد فلسطينية، فهي تبدو واضحة الافتعال.

«لا ظل ولا صدى» عمل يعتمد على الإيجاز والحذف، ويتكئ على خبرة القارئ ومهارته في التقاط الخيوط والتمييز بينهما، وبقدر نجاحه يتحدد مدى تفهمه وتذوقه للعمل كله.

رأيتُ أشياء وفاتتني أشياء، من قراءة هذه «النماذج المختارة» - وقد حرصتُ، قدر الجهد، على عرضها وتقديمها - هل يمكننا الجواب عن بعض الأسئلة التي طرحناها أول هذا الحديث؟

بأقصى قدر ممكن من تدقيق الكلمات، ومن خلال هذه النماذج الخمسة عشر، إضافة للأعمال التي لم نعرض لها لأنها دون مستوى المناقشة الجادة (لا حاجة، بطبيعة الحال، لتحديد الأعمال والأسماء)، يمكننا أن نثبت بعض الملاحظات:

الأولى: تفرض نفسها على الفور، وهي المتعلقة «بحجم» هذه الأعمال، أو عدد صفحات كلٍ منها. هنا نجد عملين فقط هما اللذان تتجاوز صفحات كلٍ منهما المائتي صفحة (عمارة يعقوبيان ٣٤٨ص، ثم نوة الكرم ٢٩٤ص) وواحدًا يقارب المائتين (من حلاوة الروح، ١٧٥ص). أما معظمها فيقع بين المائة والمائة والخمسين، ومنها ما لا يبلغ المائة (تصريح بالغياب، ٧٥ص، قانون الوراثة، ٨٧ص، لا ظل ولا صدى، ٩٢ص، تفاحة الصحراء وسانت تريزا، كلٌ في ٩٧ صفحة).

إن هذه ليست ملاحظة شكلية، وأنني لست من المؤمنين بتلك القواعد التي يضعها «معلمو الأدب» للتفرقة بين القصة والرواية، سواء من حيث عدد الكلمات (كان يقولوا إن القصة لا يجب أن تتجاوز الثلاثة آلاف كلمة) أو من حيث الزمن اللازم لقراءتها (كان يقولوا إن القصة يجب أن تُقرأ في جلسة واحدة) أو ضرورة أن تلتزم القصة ما كانت تلتزمه المسرحية الكلاسيكية من حيث وحدة المكان والزمان والحدث، أو ضرورة أن تكون في القصة شخصية واحدة رئيسة، وتقوم بقية الشخصيات بالعمل على توضيح معالمها، أو ضرورة ألا يتجاوز زمن القصة حياة فرد واحد.. إلخ.

آية إخفاق تلك القواعد أن القائلين بها لم يجدوها جامعة ولا مانعة، ومن ثم أسرفوا في التقسيم والتصنيف: ثمة «أقصوصة» و«قصة قصيرة» و«قصة قصيرة طويلة» - «نوفيللا» أو «نوفيليتا» حسب اللغة التي تفضلها - و«رواية». من الناحية الأخرى فقد أطاح المبدعون الكبار بكل تلك «التقعيدات»، وفي ظني أن أيًا منهم لو قعد يكتب «قصته» أو «روايته» ملتزمًا أيًا منها، ما كتب شيئًا على الإطلاق!

عندي: يتداخل شكلا القصة والرواية ويتواشجان، وكثيرًا ما نرى - في أفضل النماذج - أن في أحد الشكلين بعض خصائص الآخر. المعوَّل، إذن، هو نسيج العمل نفسه وطريقة صاحبه في تناوله. هل يكتب «على اتساع الصفحة»، كما يقولون، أم يتعمد الإيجاز والاقتصاد؟ هل يستعين بالتفاصيل الكثيرة - في الوصف والسرد والتحليل والحوار - لرسم لوحته الكبيرة أم يتعمد الانتقاء الدقيق والنسج الرقيق كما في «المنمنمة»؟ أقرب وصف أتصوره للاختلاف بين كاتب القصة والرواية أن الأول لا يملك في جعبته سوى طلقات محدودة، ومن ثم فعليه أن يحسن استخدامها وتصويبها والإفادة منها، أما الثاني فيملك «ترسانة» كاملة تحوي مختلف الأسلحة التي يمكن له أن يستخدم هذا أو ذاك منها، أو استخدامها جميعًا في وقت واحد.

على أنني أميل لأن أفسر ظاهرة وقوع أغلب هذه النماذج في هذا القدر المحدود من الصفحات بما يمكن أن ندعوه «تراكم الخبرة» عند القارئ والكاتب معًا. بعبارة ثانية: لا شك في اتساع قاعدة قراء

كتاب الزاوية

حرب النهر
سقوط أم درمان

يتحدث تشرشل عن أجواء ما بعد سقوط أم درمان عاصمة الدراويش والنهاية السريعة لحكمهم فى السودان.

لم يدرك الخليفة عبدالله التعايشى بعد أن غادر أرض المعركة، أن جنوده لم يطيعوا أوامره واستمروا فى تقهقرهم ولم يصل المدينة إلا بضع مئات للدفاع عنها. ذكر خادمه الأثيوبى أنه تلقى صدمة الهزيمة وهو متماسك، تناول بعض الطعام ثم رجع إلى القبة، تضرع فى هذا الضريح المقدس لروح محمد أحمد أن تعينه على تحمل هذه المحنة، كانت آخر صلاة تقام حول قبر المهدى. سمع الخليفة أن السردار يدخل المدينة وأن الفرق البريطانية وصلت ميدان الاحتفالات فى الغرب. امتطى ظهر حماره واصطحب زوجته الأولى، وبعض خاصته واتجه ناحية الجنوب. كانت الجمَال السريعة تنتظره على بُعد ثمانية أميال من أم درمان سرعانَ ما انطلقت به إلى حيث بقايا جيشه فى انتظاره. عندما وصل لم تكن معه أية حراسة ولم يكن يحمل أى سلاح. كان النازحون لديهم كل الحق فى أن يكونوا ثائرين، لأن قائدهم قد جرهم إلى الخراب والدمار، قطع رقبة هذا الرجل الوحيد الذى كان سببًا فى كل معاناتهم ما أسهله على أى واحد منهم ويمكن أن يتم ببراءة ولكن لم يهاجمه أحد.

هرع الأمراء الناجون إلى جواره، سقط أغلبهم على السهل المميت، عثمان أزرق البطل الصنديد ود بشاره، يعقوب وكثيرون لم تعتم أسماؤهم الغريبة هذه الصفحات ولكنهم جميعًا كانوا رجالاً عظماء رقدوا وأنظارهم نحو النجوم.

الرواية العربية، ولا شك كذلك فى ازدهارها الذى يتمثل فى وفرتها وتنوعها، ولعل ما حققته فى هذه العقود الثلاثة الأخيرة يفوق - من حيث إنجازاته الفكرية والفنية - كل ما تحقق لها منذ بدايتها أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. لم يعد الروائى - وهو يتوجه لقارئه - بحاجة إلى الإسهاب والتفصيل قدر حاجته إلى توصيل ما يريد فى أقل عدد من الكلمات (المنتقاة). من الناحية الأخرى فلا شك فى أن انتعاش التعبير بالصورة - فى وسائطها المتعددة - قد ترك أثره فى التعبير الأدبى الذى أفاد من مختلف تقنيات اللغة السينمائية وكتابة السيناريو من حيث استخدام اللقطات البعيدة والقريبة، وتقطيع المشاهد والانتقال من واحدها للآخر حسب منطق داخلى يحدده إيقاع العمل كله. وقد سبق أن بدا لنا أحد هذه النماذج كسيناريو مكتمل، لا ينقصه إلا أن يكتب على عمودين، وأن تحدد فيه أوقات التصوير!

الثانية: أن أصحاب هذه النماذج - فى أغلبهم - مهمومون بالواقع المعيش. وإذا جاز لنا القول بأن الهدف النهائى لأى عمل إبداعى هو الإسهام فى العمل على تغيير هذا الواقع عن طريق كشف الجوانب المعتمة والمظلمة فيه، والإيحاء بوجود سبيل نحو عالم أكثر أمنًا وعدلاً وجمالاً (حتى حين يبدو أحدهم منصرفًا عن هذا الواقع فإن هذه رسالة فحواها أن واقعكم هذا غير جدير بالاهتمام، وهذا اهتمام لا شك فيه!)، فإن أصحابنا هؤلاء تختلف سبلُهم فى التعامل مع هذا الواقع: الوطنى والاجتماعى والسياسى. وتتسع رقعة هذا الواقع حتى تكاد تشمل الجسد المصرى كله: صحاريه الشرقية (ميرال الطحاوى) والغربية (محمد العشرى) وقرى الصعيد ونجوعه (خالد إسماعيل، أسماء هاشم)، وطبيعى أن تشغل أحياء القاهرة مكانها الذى يكافئ مكانة العاصمة فى هذا الواقع، وتكاد تشمل وسط المدينة وجنوبها (علاء الأسوانى، ياسر عبد اللطيف) وشمالها (بهاء عبد المجيد) مع اهتمام خاص بأحيائها «العشوائية» (صفاء عبد المنعم، حمدى أبو جليل). عمل واحد فقط هو الذى يتجاوز هذا الواقع، مرتحلاً فى التاريخ نحو واقع آخر (نوة الكرم). تكمل هذه الملاحظة أن «الحس التاريخى» أو «الحس بالتاريخ» موجود فى أعمال عديدة (أوراق النرجس، قانون الوراثة، تفاحة الصحراء، لا ظل ولا صدى). هذا من ناحية، من الأخرى فإن ذلك الرجوع إلى التاريخ (البعيد أو القريب) يحمل مشابهات واضحة بالواقع المعيش.

الثالثة: إن نصف هذه النماذج تقريبًا (سبعة من خمسة عشر) لكاتبات. وإننى أعتقد أن هذه الحقيقة - فى ذاتها - هى واقعة ثقافية واجتماعية جديرة بالاهتمام والتقدير (بعيدًا، بطبيعة الحال، عن الغمزات واللمزات والكلمات المسمومة!)، فنحن جميعًا نعرف أننا نعيش واقعًا مازالت ترتفع فيه أصوات - جاهلة أو ماجورة أو هما معًا - تُجرِّم الإبداع وتؤثِّمه، فضلاً عن أن الطابع العام للمجتمع ما يزال «ذكريًا» و«بطريركيًا» فى كثير من جوانبه، يكاد أن يحول بين المبدعة الشابة وتكوين ثقافتها الجادة، واكتساب الخبرات الحقيقية بالحياة والناس والأفكار، وهما جناحا الإبداع الذى لا يمكن أن يحلِّق بدونهما، ومن ثم فإن اقتراب الشابة المصرية من العمل الإبداعى الجاد، والمثابرة على تحمل أعبائه هو أمر جدير بالحفاوة.

ثم إننى لم أجد عند كاتباتنا هاته ما يمكن أن ندعوه «حروب الجنس» التى أعلنتها كاتبات قبلهن، وهى حروب تُشن ضد الرجل بما هو كذلك، أى بطبيعته البيولوجية وحدها، لأنه - بالتعريف - قاهر ومصدر للقهر، ظالم ومصدر للظلم، متسلط ومصدر للتسلط، وإذا بدت النساء مقهورات فى بعض هذه الأعمال، فيجب أن نضع فى الاعتبار أمرين: الأول: أن هذا القهر مكوِّن من مكونات «ثقافة البدو» فى الصحراء أو الصعيد (عند ميرال وأسماء وأيضًا عند حمدى أبو جليل) وهى ثقافة منحسرة أمام خطو الضياء والتقدم، رغم كل محاولات بعث الحياة فيها. الأمر الثانى: أن النساء مقهورات بقدر ما أن الرجال مقهورون كذلك. إن واقعًا ثقيلاً من الفقر والحاجة وافتقاد الأمن فى الحاضر والأمل فى المستقبل يقهر الجميع، وتطيش السهام، فتتوجه سهام المقهورين إلى المقهورين بدل أن تتوحد جميعًا ضد مصادر القهر.

لو كان هناك ما يميز كتابتهن عن كتابة مجايليهم من الرجال فربما أمكن القول إن لديهن اهتمامًا بالطقوس والممارسات داخل البيوت (indoors) بأكثر مما لدى الرجال، وهذا طبيعى بحكم الواقع الاجتماعى ذاته، وهن - من ثم - أكثر حفظًا وترديدًا للمأثور من شعر ونثر، لكنهن تتقدمن ليخضن صراع الحياة، مثل الرجال، ومثلهم أيضًا يلقين ما فيها من شرٍ وخير، انكسار وانتصار.

وغنى عن القول أننى لم أجد عندهن ما يدعوه البعض «كتابة الجسد» أو «الكتابة بالجسد»، ومازلت لا أفهم معنى لهذا القول!

الملاحظة الرابعة والأخيرة: إننى أنفر من استخدام «أفعل التفضيل» دون ضرورة، ثم إننى من المؤمنين بأن الزمن هو خير غربال، والقدرة على الاستمرار خير مصفاة. المستقبل وحده هو الذى سيفرز لنا من الذى سيواصل التقدم، ومن الذى سيبقى يراوح فى مكانه، يقول ما سبق له (أو للآخرين) قوله، ومن الذى ستسوخ قدماه فى رمال واقع فاسد معاد للإبداع، ومن سيدخل بهو المرايا الخادع، ويبقىَ محدقًا فى صورة ذات طابع نرجسى خُلَّب، وإن قام تعثر فى ظله..

نعم. رأيت أشياء وفاتتنى أشياء.(*) ■

(*) الأعمال الواردة فى هذا القسم هى، على الترتيب:

* سمية رمضان: «أوراق النرجس»، شرقيات، ٢٠٠١
* صفاء عبد المنعم: «من حلاوة الروح»، كتاب «رؤى» للقصة والرواية، ٢٠٠١
* ياسر عبد اللطيف: «قانون الوراثة»، ميريت، ٢٠٠٢
* محمد العشرى: «تفاحة الصحراء»، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠١
* حمدى أبو جليل: «لصوص متقاعدون»، ميريت، ٢٠٠٢
* بهاء عبد المجيد: «سانت تريزا»، شرقيات، ٢٠٠١
* منال القاضى: لا ظل ولا صدى، مكتبة مدبولى، ٢٠٠٢

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات، وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

رضوان الكاشف «مع السلامة يا أخى»

فى عالم «المضحكون الجدد» الذين سيطروا أو كادوا على المرحلة الراهنة من حياة السينما المصرية. هناك سينما جادة تتناول بعمق وجراة وبتكنيك فنى راق أحوال مصر المحروسة فى نهايات القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة.. وقد كان الراحل رضوان الكاشف فى مقدمة المخرجين الجادين المعبرين عن تلك الرؤية.

وبعد أن قرأت موضوعى «المضحكون الجدد فى مصر» و«السينما وهموم الشباب» أرجو أن تتاح لى الفرصة بالكتابة عن رضوان الكاشف.

«رضوان الكاشف».. فنان السينما المبدع الشاب الذى باغتنا رحيله فى ٢٠٠٢/٦/٥ هو ابن عصره، بكل المعانى.

رضوان الكاشف.. ابن عصره ثقافيًا وإبداعيًا، وطنيًا وسياسيًا، ابن عصر انغمس فيه وفى تضاريسه «حتى النخاع»، ليعبر عنه، وليعبره مع وطنه. ابن عصره بسمات ذلك العصر ومعالمه وأحزانه وأحواله وتحولاته العنيفة وفوضاه فى كل مكان!

ورضوان.. ابن أشرف المحاولات لتجسيد وتعبير الفنون والأفكار عن كل ذلك وعن (موقف) منه، وابن أعمق الاجتهادات وأوضحها نضجًا وحداثة، باستهداف أن تكون السينما فى مصر جزءًا أصيلاً وجميلاً من ثقافة مصر الوطنية، وأن تكون بدورها «بنت العصر» وأن تكون مع غيرها عونًا على الاجتياز الشاق، والمخاض العنيف، نحو الحلم.. والأفق الجديد، ونحو عصر جديد ومختلف منشود.

* الفتى أحمد على:

رضوان.. ابن العصر والأوان الذى لم يتم مشروعه المباغت بالرحيل، مع أنه أكثر من كان يقاوم الرحيل، مثل أروع وأنصع أبطاله «أحمد» - فى تحفته السينمائية «عرق البلح» - الفتى الذى أصر على أن يبقى ولو وحده، ولو غادر كل رجال القوم، أجمعين، واستجابوا لنداء المجهول! إنه لذلك هو الرجولة الحقة.

وهو أيضًا مثل الفتى أحمد.. الذى رغم كل مقاومته للرحيل، الطويلة والمستبسلة، باغته الرحيل ذات حين، دون توقع منه.

ودون توقع أو استعداد منا!

لقد فقدنا بحق - ودون أدنى مبالغة - «أملاً كبيرًا» من آمال السينما المصرية والعربية، «فنان السينما» بكل معنى الكلمة / المصطلح.

ثلاثة أفلام طويلة فقط (ليه يا بنفسج ١٩٩٢ - عرق البلح ١٩٩٧ - الساحر ٢٠٠٢)، وأربعة قصيرة (الجنوبية ١٩٨٤ - الورشة ١٩٨٥ - حياة بائع متجول ١٩٨٦ - نساء من الزمن الصعب ١٩٩٩). وكان هذا شان كثيرين فى جيله، حاصرتهم ظروف متوحشة، وكان إبداعهم يطلع إلى النور متأخرًا، ويستمرون فى بلورة مشروعهم وفى المجاهدة أو المكابدة على الرغم من عراقيل متكاثرة، ولكنهم يواصلون، خاصة النماذج الصلبة الواثقة مثل «رضوان» تمضى فى طريقها عاقدة العزم مثابرة صابرة، بل «تحاصر حصارها» على حد تعبير محمود درويش الرائع ذائع الصيت!


المضحكون الجدد فى مصر
طارق الشناوى

لم يبتعد رضوان الكاشف قط، فى حياته ومن ثم فى أفلامه ومشاريعه ما تم منها وما حلم وكان يعد (ومن بينها فيلم عن جيله وعصره بعنوان «نحن» أو بعنوان «عنا»)! لم يبتعد عن الانسان العادى، عن البسطاء (الناس الحقيقيين) الذين جرفهم إلى «هامش» تعس، عصر الترف والعنف، ووجه إليهم أقسى ضرباته، ولكن مثلما لم يتخل الكاشف فى حياته يومًا عن ابتسامته الهادئة الواثقة، رغم كل الصخب من حوله والتشويش المطرد، لم يتخل على الإطلاق عن (رؤية واكتشاف) الابتسامة الصافية والحقيقية رغم كل شيء فى حياة هؤلاء البسطاء. وقدمها دائمًا فى أفلامه وسط تراكم ودواعى العناء وعلى الرغم من «كل هذه المرارة»..! وقد أطلق على ذلك تعبير (نظرية) فى آخر أفلامه - أو رسائله الذاخرة - «الساحر» وأسماها (نظرية البهجة) وكان تعبيره هذا هو عنوانه الأصلى للفيلم ثم أبقى عليه كعنوان إضافى!

ونفس ذلك المزيج - ولا نقول الثنائية - هى ما التقطه، وأسره، فى احدى أغنيات الشجن المزدوج بالابتهاج المصرية: «ليه يا بنفسج.. بتبهج.. وأنت زهر حزين؟!»، حتى أنه وضع التعبير عنوانًا على رأس فيلمه الأول. وينتمى فيلم «ليه يا بنفسج» إلى سينما انسانية غنية وآسرة. جماله البالغ والخاص ينبع من بساطته وأصالة الانتماء ومن تلك «الانسانية» الصادقة والدافقة.

آمن رضوان (بنظرية البهجة) على الرغم من كل الأشياء وحصار الأحزان المحكم، وآمن بنظرية التقدم، وأن الغد لابد أفضل وأبهى.. للإنسان العادى ومن البدايات المبكرة، منخرطًا فى الحركة الطلابية والوطنية. منذ حشد «الكعكة الحجرية» ومشهدها ذائع الصيت الذى تصدر السبعينيات، احتشدت فيه مصر من أجل حرب تحرير الوطن فى ميدان التحرير وسط القاهرة، والذى خلده شعريًا أمل دنقل، وكان يشرع فى أن يخلده سينمائيًا رضوان الكاشف.

وقد أتى كلاهما من صعيد مصر، وكلاهما جنوبى وابن بار للجنوب ومصر لغاية النفس الأخيرة وكلاهما صعد فى عز وعنفوان التدفق بالعطاء والألق الجميل، بشجنه / حسنه البهيج..!

«رضوان»، من جيل ولد تمامًا مع الثورة، بل إنه ولد فى عام قيامها وبعد أسبوعين فقط (٦ أغسطس ١٩٥٢).

تراجيديا هذا الجيل كامنة فى لحظة تفتح وعيه وإدراكه على السقوط الكبير، فى السبعينيات، أى تسليم المقدرات والإرادة وكل شيء، كان الجيل السابق «جيل٦٨» مصدومًا بالهزيمة الكبيرة فى يونيه١٩٦٧ وفقدان الأرض، لكن مصر بالقيادة الوطنية التقدمية لجمال عبد الناصر لم تفقد إرادة المقاومة، والإصرار على التحرير بل والشروع على الفور رغم المخاطر فى حرب استنزاف على الطريق إلى حرب التحرير. والآن تسلم مصر الرسمية السبعينية إرادتها مختارة وتلحق الوطن - بالتسوية المنفردة والانفتاح البائس - بركاب منظومة الرجعية العالمية بقيادة الولايات المتحدة.

هذه الترديات، أو بتعبير جمال حمدان الحاد النفاذ «حركة التاريخ إلى أسفل»، وحدت جيل مقاومة الردة، بمختلف الفصائل والتوجهات والمواقف، وإينما وقف، يمينًا كان، أو يسارًا «كرضوان».

وغلب على طلائع الجيل التوجه يسارًا، وبلغت المد الواضح والعنفوان بحركتها وسط الجماهير فى هبة١٨، ١٩يناير عام ١٩٧٧. كما أن تلك الترديات وحدت مختلف أجيال مصر التى حضرت السبعينيات العاصفة، جيل مقاومة الردة، وجيل مقاومة الهزيمة السابق عليه، وجيل مقاومة الاحتلال البريطانى وتفجير الثورة السابق عليهما.

أى جيل الفتيان، وجيل الإخوة الكبار، وجيل الآباء..! معًا فى مواجهة النكوص الشامل، و«هزيمة من نوع جديد».

وبدا للكافة أن الأمر على هذا المنوال - رغم التضحيات - قد طال بل وتعقد وازداد استحكامًا.

وحينما تبلغ - مع انتصاف سنة ٢٠٠٢ - ثورة يوليو سن الخمسين تمامًا ومعها رضوان الكاشف. فى تلك اللحظة المشحونة بالمعنى: يغمض رضوان الكاشف عينيه، ويختفى بلا تمهيد، كشخصيات الأساطير، يمضى بلا توقع ووداع، ليظل فى بالنا طول الوقت كائنا لابد سيعود!

يركب حصانه، حصان الموت، كما كان يركب أبطاله فيرحلون إلى الأبد، فى فيلمه المرموق «عرق البلح».

لكن جواد الموت فى «عرق البلح»، كان أيضًا جواد حياة جديدة، ذاهب إليها الراكب، راضيًا مرضيًا بعينين باسمتين. وكان يودع أبطال

وشخصيات رضوان راكب الجواد، بالتلويح والصوت المحب بلا بكاء، المردد بجلال وشجن آسر بلا نحيب: «مع السلامة يا أخى.. مع السلامة يا حبيبى».

وأذكر أنى قلت لرضون الكاشف عند مشاهدة ذلك الفيلم: لم أشاهد فى فيلم من الأفلام، مثلما شاهدت فى فيلمك «عرق البلح.. الموت! بهذا الرقى والإحساس، بهذا الخيال الخصيب الخاص، والتأمل الفلسفى البعيد البديع، بالعقل والحدس، والوجدان والروح!

وكعادته، مع ابتسامته الهادئة، ونظرته التى تذهب إلى بعيد، وصفاء رؤياه، أخذ يهب متعمقًا، ويطوف بحديث رقيق فى الفن والخيال، والموت والحياة، والجمال والجلال!

ظل «رضوان» دائمًا ذلك المزيج المتفرد من الابتسام الهادئ والاعتمال والانشغال بكل الحيوى والخوض فى كل القضايا الجادة بجدية تليق بها إلى أبعد حد.

ومضى «رضوان»، وفيلمه الثالث فيلم الوداع «الساحر» - والمعروض لم يزل وقت الرحيل فى عدد من الدور - هو فيلم العام، أو نصفه الأول على الأقل، الفيلم الأجمل والاتقن والأبلغ.

كان فيلمه حديث السينما والأفلام المتصدر خلال شهور. والآن أصبح الحديث عن صاحب الفيلم هو الحديث الأول والحزين فى كل مكان، ونحسب أن الحديث عن عمله وعمره - على قصره - سيصبح باستمرار تحليلاً متعمقًا وقراءات متجددة لعمله ودوره، والذى لن يُحسب أبدًا بعدد الأفلام، أو عدد السنين، وإنما بعمق التأثير، ومعنى الدور، وقيمة الإسهام.

محمد بدر الدين
عضو مجلس إدارة
جمعية نقاد السينما المصريين

تأثير الحضارة المصرية

فى عدد يونية وتحت عنوان «تأثير الثقافة العربية فى الحضارة الغربية الحديثة» تحدث د. شوقى ضيف فى إسهاب عن الفضل التاريخى للحضارة الإسلامية على الحضارة الأوروبية الحديثة والذى أثمر فى عصر النهضة. حقًا لقد أبدع العرب حضارة زاهرة استصفت افضل ما انجزته الحضارات السابقة وتمثلته وأضافت إليه أروع ما جادت به عقول وسواعد أبنائها وصهرته فى مزيج حضارى متناغم وثرى كان فضله على الحضارة الأوروبية عظيمًا حيث أعاد العرب بعث التراث الكلاسيكى الإغريقى وحفظوه من الضياع وأضافوا إليه شرحًا وتعليقًا وقاموا على رعايته خير قيام وحينما اشرفت هذه الحضارة على الغرب الأوروبى كانت عاملاً رئيسيًا فى انتشاله وانتقاله من ظلمات العصور الوسطى بكل أثقالها وجهالاتها إلى عصور النهضة.

ولكننا إذا تتبعنا أصل هذا التراث الإغريقى الذى أكد العرب بإحيائه فضلهم على أوروبا لوجدنا أن معظمه يعود إلى أصول مصرية حيث كانت مصر القديمة هى المنبع الذى نهل منه الإغريق معارفهم وشيدوا معجزتهم الإغريقية على أساسه فاصول الفلسفة اليونانية العظيمة تضرب بجذورها فى أعماق الحضارة المصرية التى امتد تاثيرها فى الحضارة الإغريقية إلى جميع المجالات تقريبًا فى الفن والفلسفة والتشريع والعمارة.

ويعترف برونو بهذا الفضل ويقول: لقد امتلكنا نحن الإغريق مصر مملكة الأدب والنبل العظيمة وأصل كل تراثنا وشرائعنا. هنا يبدو تسلسل الفضل الحضارى منطقيًا حيث تدين أوروبا للعرب الذين استفادوا من الإغريق وهؤلاء يدينون بحضارتهم لمصر القديمة أصل الحضارات الإنسانية بما فيها الحضارة الإسلامية وتسرى فى كثير من مكوناتها والشاهد أن الانقطاع الثقافى والحضارى بين مصر القديمة ومصر الإسلامية لم يكن كاملاً بل هناك استمرارية خلاقة فى مجالات كثيرة فعلى سبيل المثال تاثرت العمارة الإسلامية بالعمارة المصرية القديمة بشدة فالمئذنة الإسلامية هى الترجمة الفعلية للمسلة المصرية؟ ويبدو مسجد السلطان حسن أهم روائع قاهرة العصور الوسطى بمدخله الشاهق الذى يبعث الرهبة والجلال فى النفوس وكانه جزء من العمارة المصرية القديمة.

وسلعل هذه الاستمرارية توضح لنا السبب فى تفرد مصر بإنجاب كوكبة أسطورية من كبار القراء تصدح بألحان سماوية بديعة وتشدو بأذان وابتهالات لا مثيل لروعتها فى العالم أجمع، إن مصر الإسلامية حين تجد حرمة الاستعانة بالموسيقى فى صلواتها كما كان الأمر فى الصلوات القديمة والقبطية تلجأ إلى إبراز الموسيقى الباطنية الكامنة فى القرآن فى استمرارية نادرة لألحان التراتيل المصرية والقبطية.

إن مصر كما يقول مالروهى التى اخترعت الأبدية وهى أول حضارة عرفت الثواب والعقاب والتوحيد جوهر الأديان، أهذه أدلة انقطاع أم شواهد استمرارية وحيوية رائعة؟

لقد سطرت مصر بحروف مضيئة أول فصول الحضارة الإنسانية وكان فضلها عليها واضحًا وضوح الشمس فى رائعة النهار وإذا كان العرب قد أعادوا إحياء التراث الكلاسيكى ذى الأصول المصرية فإن من واجبنا نحن إحياء التراث المصرى وتدريس اللغة المصرية القديمة وهو ما لا يتنافى مع روح مصر الإسلامية ولسانها العربى، فالحضارة المصرية القديمة ليست كما يدعى البعض وعلى رأسهم الأستاذ أحمد حسن الزيات الذى ذهب فى سخرية إلى وصفها بانها دفين دفنت روحه مع الآلهة وصحائف موت ذهب سرها مع الكهنة.

ليست الحضارة المصرية كذلك بل هى راسخة وفوارة بالحياة ونافذة فى فلسفة اليونان وتشريعات الرومان ومزامير داود.

كيف تموت حضارة نشا الضمير الإنسانى فى وجدانها وأشرقت شمسه أول ما أشرقت على أرضها؟ ليس هناك داعيًا لافتعال التناقض بين مراحل تاريخنا وتراثنا سيظل الأزهر والهرم والمتحف الإسلامى والمتحف المصرى رموزًا عزيزة عن حياة مصر تصنع تاريخها وتشيد مجدها وتؤكد عبقريتها، وهل من المصادفة أن مصر هى بلد الأهرامات فى العالم الخارجى وبلد الأزهر فى العالم الإسلامى؟ أين التناقض فى ذلك؟

إن تدريس اللغة والتراث المصرى القديم ليس انسلاخًا عن عروبة مصر وروحها الإسلامية التى لا تنفك عنها مادامت فيها حياة ستظل مصر تنطق بلسان مضر، وروحها هى روح عمرو وقيثارها الذى توقع عليه ألحان النيل هو قيثار امرؤ القيس.

ليس الأمر تفاخرًا بأمجاد الماضى فامجادنا صنعها أجدادنا والفصل لهم وحدهم وليس استثمارًا لتاريخ مصر وحضارتها فى بورصات السياحة، بل أهم وأخطر.

إن قراءة التاريخ هى المدخل الأساسى لأى نهضة حضارية حقيقية ومن العبث أن نقرا قراءة انتقائية بل لابد من قراءة كاملة واعية وقادرة على استخلاص الأصيل عن الدخيل وهو سلاح قوى قادر على مواجهة أى محاولة لتزوير التاريخ وتزييف الوعى.

مصطفى عبدالعزيز ريحان
دمياط

نحن وهم!

فى العدد الأخير من المجلة لفت نظرى مقال الأستاذ سلامة أحمد سلامة الذى أثار لدى أوجاعًا كانت مختزلة فى عقلى حتى جاء لقاء الأستاذ هيكل على قناة دريم وتحدث عن ضرورة تحديث النخبةفى مصر بكافة أنواعها سياسية، ثقافية، صحافية، دبلوماسية.. وكان الرئيس مبارك قد تحدث فى هذا الموضوع منذ أكثر من خمس سنوات ولازلنا مكانك سر وبينما يتحدث الأستاذ سلامة عن جيل الستينيات الذى تولى السلطة فى أوروبا والولايات المتحدة لم يذكر أن هناك الآن رؤساء أكبر صحف العالم «ديلى تليجراف تايمز» ومستشارين لأكبر شركات العالم، ملحقين دبلوماسيين لبلادهم ولم يتعدوا الخامسة والثلاثين. وفى مصر فإننا جيل التسعينيات وأواخر القرن العشرين نعتبر المصدر الرئيسى لمعلوماتنا هو الشبكة العالمية للمعلومات «الإنترنت» والدردشة على الـ Email، بل فينا شباب قاموا بإنشاء شركات ومواقع ثقافية مصرية بهيئة عالمية وتصميم راق جدًا بينما هذه الأولويجاركية الثقافية مازالت تتحدث عن ماركس ونظريته التى يستطيع الشاب منا تفسيرها لك ولماذا لم ولن تنجح أبدًا ومازالوا يتكلمون عن الاختلاف حول تنظيم الحياة الإسلامية فنرى الوجوديين والماركسيين هم القادة للتيار الإسلامى وهل الإسلام قادر على المعاصرة أم لا وتناسوا صراع السياسات وليس صراع الحضارات التى فسرها الغالبية من مفهوم ثقافى وتناسوا أن صمويل هنتنجتون مستشار للأمن القومى وأحد المشاركين فى صناعة السياسة ليس فى الولايات المتحدة، وإنما للعالم كله، ومازالوا يتكلمون عن الحق الشرعى لنا فى القدس وحفريات وآثار وحكايات ولم يفكروا فى المواجهة مع عناصر صهيونية مسيحية تمتلك ما يزيد على ١٥٠٠ محطة تليفزيونية فى الولايات المتحدة بل ووصلت الحالة بهم إلى نصائحهم لنا بأن نشاهد هذه القنوات دون إدراك علاقتها بالصهيونية. إلى جانب أكثر من ٢٠٠ كلية لاهوتية تمويلها بواسطة الجماعات الصهيونية ونشراتها وإصداراتها التى تصل إلى أكثر من ٤٠٠ مليون أمريكى من مجمل ٤٨٠ مليونا..

يحدث كل هذا ولازال هؤلاء المثقفون محتارين بين قصيدة النثر، هل سعاد حسنى ماتت أم انتحرت، هل نفك الأسر عن عرفات أو عن القدس.

أحمد أبو زيد
المنيا

عروض موجزة

كتب عربية

نظرات فى التاريخ العام لليمن

عبدالرحمن طيب بعكر الحضرمى

صنعاء، مركز عبادى للدراسات والنشر، وعالم الكتب اليمنية للنشر، ٢٠٠٢، ٢٦٠ صفحة



يلقى الكاتب أضواء على تاريخ اليمن مستفيدًا مما ذكر فى الكتب المقدسة ودراسات المستشرقين والدراسات التى سبقت عن تاريخ اليمن قديمًا وحديثًا.

يحدثنا المؤلف عن عاد وثمود، والأولى كانت الحضارة الأولى فى جزيرة العرب بعد الطوفان، وكان أصحابها من الضخامة بحيث نعتهم القرآن بـ«إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد»، وقد اغتروا بقوتهم حتى جاءتهم ريح عاصفة فاصبحوا من البائدين عقابًا لهم على غرورهم وتجبرهم، أما ثمود فيذهب أكثر المؤرخين إلى أنهم أقاموا بين الشام والحجاز فى المنطقة التى باتت تعرف بمدائن صالح، وتشير كتابات عدة إلى أنهم أدركوا المسيحية.

ويفرد المؤلف فصلاً عن الأنبياء الذين ينتمون إلى اليمن السعيد ومنهم هود وإبراهيم وشعيب عليهم جميعًا السلام، ويتابع نشوء حضارات عتيدة أخرى من «معين» التى أسهم أصحابها بنصيب وافر فى حضارة عصرهم، ثم مملكة سبأ وحمير، وقد ورد ذكر الأولى فى القرآن الكريم بل إن سورة كاملة منه تحمل اسمها، سورة «سبأ»، وهى تشير إلى أسباب تضعضع قوتهم وانحطاطهم وترده إلى تعاظم ذنوبهم وتكاثر ظلمهم وإعراضهم عن نعم الله وكفرهم، ما أدى إلى أن سلط الله عليهم الأحباش فأحالوا عزهم ذلاً وخصبهم جدبًا ثم كان الأخدود وجاء الفرس وعم الشتات.

ولا يغفل المؤلف طبعًا سيرة «بلقيس» الملكة الشهيرة التى اقترن اسمها بقصتها مع النبى سليمان كما وردت فى القرآن الكريم، وقد دخلت مع قومها فى دين سليمان وأسلمت لله رب العالمين بعد ما رأت وقومها معجزاته.

ويواصل المؤلف سرد التاريخ اليمنى وينقل عن ابن هشام فى السيرة خبر العبد الصالح فيميون وتلميذه عبدالله الثامر اللذين دعيا إلى المسيحية واستجاب لهما قطاع كبير من أهل اليمن إلى أن وصلنا إلى الرسالة المحمدية التى كسبت أنصارًا عديدين من أهل اليمن عضدوها وساهموا فى تثبيت دعائم دولة الرسول والخلفاء الراشدين من بعده، ويتعرض لعشرات الحركات التى نسبت إلى الإسلام وتعاليمه وإن كان بعضها يخفى أهدافًا ومطامح دنيوية، ويحدثنا عن مدى استجابة الشعب اليمنى لهذه الحركات ومنها الإسماعيلية والقرامطة والزيدية وغيرها، حتى يصل إلى «الهادويون» كما يسميهم ومنهم الهادى يحيى بن الحسين العلوى والإمام عبدالله بن حمزة والإمام يحيى بن حمزة والإمام أحمد بن يحيى المرتضى والإمام شرف الدين ثم الإمام يحيى حميد الدين وسلالته التى سعت إلى توحيد اليمن حتى وصلنا إلى مرحلة الجمهورية ويعود الرؤساء العشرة وصولاً إلى الرئيس اليمنى الحالى على عبدالله صالح الذى يسميه المؤلف «الرئيس التاريخى لليمن».

□ □ □

تكوين النهضة العربية

محمد كامل الخطيب

دمشق: وزارة الإعلام السورية ٢٠٠١، ٢٢٠ صفحة



يلخص هذا الكتاب مشروعًا كاملاً استمر لسنوات، مداره النهضة العربية منذ بدايات القرن التاسع عشر وحتى اليوم، ونشر فى ثلاثة عشر مجلدًا تحت عنوان «قضايا وحوارات النهضة العربية».

سعى المؤلف إلى تتبع مشكلات وقضايا عصر النهضة ومؤسساته، بتفكيك هذه المشكلات والقضايا وإعادة تركيبها من جديد لاكتشاف ما إذا كانت النهضة قد جرت فعلاً أم لا. وتحرى أسباب الفشل والانتكاس إلى أن وصلت الأمور إلى ما آل إليه الحال.

بدأت النهضة العربية عبر إدراك أمرين كان الوعى بهما وراء كثير من القضايا التى أثارها المصلحون ورواد النهضة آنذاك وهما التخلف عن الغرب الذى كان قد خطا خطوات واسعة فى الانتقال من العصر الزراعى إلى الصناعى، من المجتمع الريفى إلى المجتمع المدنى، بما اشتمل عليه ذلك من بُنى وهياكل ثقافية وقانونية وسياسية واقتصادية.. إلخ. فى مجتمعاتنا العربية لم يجر الأمر على النحو ذاته، لم تتحول المدن إلى مراكز صناعية تبث إشعاعًا ثقافيًا وحضاريًا وتسهم فى تكوين النخبة من الطبقة الوسطى، مثل مثيلتها التى قادت التحولات الاجتماعية فى أوروبا، بقيت مخزنًا لخيرات الريف، وساهمت فى إفقاره وابتزازه إلى أقصى مدى، وهو ما أدى إلى نزوح أبنائه إلى المدن بحثًا عن فرص أفضل للعيش، فزاد الريف فقرًا وتشوهت المدن وعانت من أحزمة فقر حاصرتها بالجريمة والعنف حوّلتها إلى عشوائيات كبرى، بما تعنيه العشوائيات من سلوك انحرافى وشذوذ وفساد، ووفق هذا التحليل الذى يقدمه المؤلف، فإن المنطقة العربية كلها، بريفها ومدنها، تنتمى إلى ما قبل العصر الحديث، ناهيك عن محاولات الزج بها فى عصر ما بعد الحداثة، عصر الكمبيوتر والإنترنت وتجارة الخدمات.

هذه البداية المرتبكة انعكست على طبيعة الأفكار التى طرحها روّاد عصر النهضة إثر احتكاكهم المباشر بالحداثة فى بلادها، كما جرى مع الطهطاوى مثلاً، الذى لم يكن ليجرؤ على التفكير بالانفصال عن الدولة العثمانية - دولة الخلافة الإسلامية - وأقصى ما رآه هو حاجة الأمة الإسلامية إلى بعض العلوم «الاستعمالية» - كما سماها - دون المساس بالأساس العقائدى للمجتمعات المسلمة، أى نبذ الأفكار اكتفاءً بالإجراءات.

بعد الطهطاوى وزملائه، خطا آخرون خطوات فى الاتجاه ذاته، وكان لبعضهم الجرأة كى يطرحوا فكرة الانفصال عن الدولة العثمانية ونبذ مفهوم الخلافة، ودفع الشيخ على عبدالرازق ثمن اجتهاده - الذى حمل أبعادًا سياسية لا مجال لذكرها هنا - بإقصائه عن هيئة كبار العلماء عقب صدور كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، الذى تجاوز به طروحات سابقيه من المعممين أمثال الأفغانى ومحمد عبده، وبامتداد الوطن العربى تبارى مفكرون ومصلحون منذ بدايات الخمسينيات فى استكناه أفق الأزمة التى تراوح سبل حلها بين العودة إلى الأصول «سلفية»، والارتماء فى حضن الغرب ومحاكاته «تحديث»، أو التوفيق بين الدعوتين كى لا نفقد ذاتنا فى مواجهة الأخر، وصدرت اجتهادات عديدة يشير المؤلف إلى بعضها منها «أزمة الفكر العربى» لإسحق موسى الحسينى، و«أزمة التمدن العربى» لمحمد وهبى، و«أزمة المجتمع العربى المعاصر» لمدثر عبدالرحيم الطيب، و«أزمة الضمير العربى» لغالى شكرى و«أزمة الحرية فى عالمنا» لخالد محمد خالد.. وغيرها.

وكان الرد الذى تبنته معظم الأنظمة العربية منذ الخمسينيات لتجاوز الأزمة راديكاليًا يجنح إلى العنف الثورى بادعاء التسريع بالتحولات الاجتماعية، وقد جرى ذلك فى معظم الأحيان على حساب الحريات المدنية والسياسية للمواطنين.

عبر هذه الخلفية، التى تبدو قاسية ومتشائمة، لكنها علمية وموثقة، يتتبع المؤلف تكوين المجتمع الجديد، من حيث تطور المدنية ونشوء النقابات والحركات العمالية ومؤسسات المجتمع المدنى والمجالس النيابية والوزارات والقوانين والدساتير والأحزاب السياسية، وكذلك الدور الذى لعبته المؤسسات الثقافية التى تم استحداثها وإسهامات المطابع ودور النشر والصحف والمجلات فى توسيع دائرة الاهتمام بالقضايا محل الجدل. ثم يعرض لأهم الأفكار التى طرحتها مرحلة النهضة مثل القومية والاشتراكية والعلمانية وقضايا المرأة وحريات الإنسان، ويقدم بانوراما للأوضاع الثقافية وبزوغ أنواع جديدة من الفنون والمحاولات التجديدية فى الشعر والفن التشكيلى والرواية والنقد، لينتهى من هذا كله إلى أن النهضة العربية هى عملية تغيير مؤسساتى ثقافى تاريخى شامل، وليست مجرد أفكار فردية ونزعات يسهل الرجوع عنها، ليعيدنا من جديد إلى طرح السؤال المؤلم: هل ثمة نهضة عربية فعلاً؟

□ □ □

الحكمة الضائعة

عبد الستار إبراهيم

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٢، ٢٢٧ صفحة



ربما لأن الإبداع يتطلب قدرات شخصية وذهنية خارقة، ظهرت نظريات واتجاهات فكرية تفسر سلوك المبدعين بالشذوذ والاضطراب، لكن هذا الكتاب يسعى إلى إثبات العكس وتأكيد أن الإبداع لا يعيش بمعزل عن الصحة النفسية وتكامل الشخصية.

يبدأ الكتاب بشرح عديد من المفاهيم النظرية عن الاضطراب النفسى، ويقدم نماذج لعباقرة عانوا اضطرابات نفسية بينهم العقاد وتشرشل ولينكولن وروزفلت وصلاح عبد الصبور ومى زيادة وعبد الرحمن شكرى وبيكاسو ورمبرانت وفان جوخ وموتسارت وبيتهوفن وعشرات غيرهم من الفنانين والأدباء والسياسيين.

وقد سعى كثير من المبدعين منذ القرن السادس عشر والسابع عشر إلى إثبات أن العبقرية تمثل شكلاً من أشكال المرض النفسى والجنون، هذا ما فعله لامارتين وبيرتون ولمبروزو، وزاد هذا الاتجاه رسوخًا مع نظريات فرويد فى التحليل النفسى التى سار على نهجها عشرات المحللين النفسيين بعده، وقد نظر فرويد إلى المبدع كإنسان تسيطر عليه الكآبة وتمزقه الإحباطات وعدم الاتساق مع العالم من حوله، ويعجز عن إشباع

عــــروض موجـــزة

حاجاته الرئيسية، ما يدفعه إلى الاتجاه نحو الإبداع كى يعوض به ما يفقده فى الواقع.

وشجع على شيوع هذه الأفكار سلوك بعض المبدعين الشاذ والمضطرب من ناحية، والخلط فى فهم طبيعة المرض النفسى من ناحية ثانية، وإقامة علاقات سببية بينه وبين الإبداع دون سند علمى حقيقى.

ومع التطور فى مجال الدراسات النفسية ظهر خطأ هذه التصورات، إذ زادت أهمية التفكير العلمى فى علم النفس الحديث، وتقلصت إلى حد كبير الأحكام التى تتسم بالعمومية دونما توفر براهين حقيقية، وطوّر العلماء كثيرًا من التقنيات والمناهج التجريبية التى بحثت فى السلوك الإنسانى ونقبت عن الدوافع الشخصية للإبداع وما الذى يعيقها أو ييسر ظهورها.

وقد تتبع المؤلف فى كتابه تيارين رئيسيين من تيارات دراسة العلاقة بين الإبداع والشخصية، استند الأول منهما إلى التطور فى حركة القياس النفسى فى علم النفس، وبفضل هذا التيار أصبح من الممكن وضع مقاييس للإبداع فى شتى مجالاته، تبين ما يتسم به المبدعون من خصائص شخصية مرضية أو صحية.

أما التيار الثانى فقد استند إلى دراسة السير الشخصية للمبدعين، وهو اتجاه تقليدى، إلا أن المناهج التى استحدثت فى مجال الدراسات النفسية جعلته أكثر انضباطًا ودقة، وانتهى المؤلف إلى عدة استنتاجات أهمها: أنه لا صحة للفرضية التى ترى أن المبدع يعانى مرضًا عقليًا أو نفسيًا، وما يتسم به بعض المبدعين من غرابة فى التصرفات والسلوك وشكواهم من القلق والاكتئاب، فإن هذه الاضطرابات لا تصل إلى درجة التشويش الذهنى والاضطراب العقلى الذى يتسم به عادة المرضى النفسيون والعقليون.

ويشير المؤلف إلى أن المبدعين يتميزون بخصائص إيجابية لا نجدها عند الأشخاص العاديين، منها أنهم مستقلون فى أفكارهم وآرائهم، وأن استجابتهم للأفكار الجديدة أكثر من غيرهم.

كما يشير إلى نتيجة بالغة الأهمية أثبتتها دراسة سير المبدعين الذين وصفهم البعض بالاضطراب والتوتر، وهى أن عمليات الإبداع والخلق الفنى والإنتاج المميز تتم وهم فى أحسن حالاتهم، وفى الفترات التى خلت فيها حياتهم من الاضطراب، وقل إنتاجهم وعطاؤهم فى الفترات التى عانوا فيها اضطرابًا ما، من النتائج المهمة التى انتهى إليها المؤلف أيضًا، أن نسب الاضطراب النفسى والعقلى تزيد بين الغنائيين والممثلين أكثر منه بين العلماء والساسة، كما أن المبدعين الذين يعانون اضطرابات نفسية كانوا فى معظمهم مدمنى خمور أو عقاقير أو أنهم ورثوا هذه الأمراض عن آبائهم، بما يعنى أن اضطراباتهم النفسية يمكن ردها إلى أمور لا صلة لها بالإبداع.

□ □ □

العرب.. إلى أين؟

مجموعة مؤلفين

بيروت: مركز دراسات الوحدة الوطنية، ٢٠٠٢، ٥٢٨ صفحة



يلقى هذا الكتاب أضواءً كاشفة على جوانب محددة فى الواقع العربى الراهن من منظور استشراف الاحتمالات المرتبطة بتطور وخاصة فى المستقبل المنظور.

ويحتوى الكتاب على اثنى عشر فصلاً مقسمة على أربعة أقسام رئيسية، يتناول القسم الأول منها مجموعة من القضايا القومية العامة حول نهضة الأمة ومتغيرات النفط والثقافة وتقانة المعلومات. ويتتبع القسم الثانى الانتفاضة الفلسطينية التى تفجرت فى ٢٨ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠ ولاتزال فى عنفوانها. ويعرض القسم الثالث لنسق التحول الديمقراطى الجارى فى الوطن العربى، سواء فى أقطار عربية بعينها، أو من منظور فئات اجتماعية معينة، أو فى ظل انعكاسات مسيرة التسوية السياسية للصراع العربى ـ الإسرائيلى. أما القسم الرابع فيركز على متابعة حالات محددة، وبخاصة حالة الجزائر وحالة الصومال، فيسلط الضوء فى الحالة الأولى على دور الجيش والدولة وتفاعلات المجتمع المدنى فى الجزائر، ويبحث فى حالة الصومال تشكل ولادة جديدة للدولة فيها.

وقد شارك فى فصوله كل من: أسامة الخولى وأسامة عبد الرحمن وأيمن إبراهيم الدسوقى وباقر سلمان النجار وثناء فؤاد عبد الله وحسنين توفيق إبراهيم وسعد غالب ياسين وعبد الله عبد الدائم وعبد الإله بلقزيز وفواز جرجس ومحمد الميلى ومعن بشور ومفيد الزيدى وميثاء سالم الشامسى ونايف على عبيد ونجوى أمين الفوال وهادى حسن ووليد خدورى وويل كروفورد.

ويتحدث المفكر القومى اللبنانى معن بشور عن عروبة جديدة يتلازم بروزها مع مقاومة النظام العالمى الجديد، وتحرص على الاستفادة من التجارب والخبرات السابقة للحركة القومية العربية، بينما يتناول الاقتصادى العراقى هادى حسن ما يسميه «دولة الرفاه العربية» مستبعدًا أن تنتقل هذه الأخيرة من حالة القمع إلى الرعاية فى ظل فرض النخب الحاكمة لنمط شكلى للديمقراطية يلتفون حوله متى يشاءون مع شيوع الحرمان والفقر بعيدًا عن المساواة والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان.

ويؤكد المفكر السورى عبد الله عبد الدائم أن الثقافة العربية الإسلامية لم تنجح منذ أكثر من قرن فى صنع حداثتها لأسباب أهمها عدم الإدراك الواضح للفرق بين التحديث والتغريب كما أن ازدهار هذه الثقافة الذى يمتد إلى بداية ظهور الإسلام يحدث نوعًا من الانتماء يصبح التجديد فى إطاره أصعب منالاً.

أما أمين عام المنتدى المغربى العربى عبد الإله بلقزيز فيرى فى هذا المجال أن المطلوب استثمار قوة الدفع التى أطلقتها الانتفاضة وعدم تبديد مكتسباتها التوحيدية التصحيحية من هنا أهمية إعادة بناء منظمة التحرير الفلسطينية وهما مهمتان مرتبطتان.

وينتقد وليد خدورى المتخصص فى قضايا النفط المشاعر التى تدغدغ الكثيرين من الذين يتحدثون عن النفط العربى وكأنه حقيقة ثابتة مشيرًا إلى أن وجود النفط بكميات وفيرة فى الدول العربية لا يعنى أن هناك نفطًا عربيًا ترسم فى ضوئه الخطط الاقتصادية والمصالح الإقليمية المشتركة.

□ □ □

الصراع العربى الإسرائيلى

عبدالمنعم واصل

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٢، ٤١٠ صفحات



شارك اللواء عبدالمنعم واصل فى حرب يونيو ١٩٦٧ بوصفه قائدًا لأحد الألوية المدرعة، وخاضت وحدته واحدة من المعارك القليلة الناجحة ضد الجيش الإسرائيلى.

وفى نوفمبر ١٩٧٠ تولى قيادة الجيش الثالث الميدانى، وشارك به فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، وانتهت خدمته فى عام ١٩٧٤ مساعدًا لوزير الدفاع ورئيسًا لهيئة تفتيش القوات المسلحة، ليتقلد بعد ذلك عددًا من الوظائف المدنية: محافظًا لسوهاج ثم محافظًا للشرقية.

الكتاب يضم مذكراته وذكرياته عن حقبة زمنية تتجاوز نصف القرن، شارك خلالها فى حروب ومواقع عدة، بدءًا من الحرب العالمية الثانية ثم حرب فلسطين سنة ١٩٤٨، فالعدوان الثلاثى ١٩٥٦، ثم حرب يونيو ١٩٦٧، وحرب الاستنزاف وأخيرًا حرب أكتوبر المجيدة ١٩٧٣.. وهو يبدأ بدراسة عن نشأة الصراع العربى الإسرائيلى، ومسرح الحروب العربية الإسرائيلية، ويشير إلى أن إنشاء دولة إسرائيل وزرعها فى المنطقة وضع العرب أمام خيارين: إما القبول بتفوقها الاقتصادى والعسكرى والسياسى، أو إغراق المنطقة فى سلسلة من الحروب والصراعات التى من شأنها أن تفتت وحدتها، وهما الخياران اللذان يتارجح بينهما الصراع حتى اليوم.

ويشير الفريق واصل إلى أن حرب ١٩٤٨ أوضحت مدى قصور رؤية القيادة السياسية والعسكرية العربية على وضع التصور الصحيح للحرب ووضع الخطط والبدائل لمواجهة التغيرات المحتملة.

كما يشير ـ بعد تحليل عسكرى وسياسى ـ إلى ما أبرزته حرب ١٩٥٦ من تأثير القرار السياسى على القرار العسكرى.. حيث كان تأخير عبور اللواء الثانى مشاه إلى شرق القناة سببًا فى تعرضه لغارات الطيران الفرنسى المعاون للقوات الإسرائيلية».

ويعرض المؤلف تفصيلاً لسير أحداث حرب يونيو ١٩٦٧، ويتساءل فى النهاية عما كان يمكن أن تكون عليه نتيجة حرب يونيو ١٩٦٧ لو لم يُصدر المشير عبدالحكيم عامر قرار الانسحاب، وتمسكت التشكيلات والوحدات بمواقعها وأدى القادة واجبهم فى المعركة.. «هل كانت النتيجة ستكون هى ما سجله التاريخ على الجيش المصرى أم كانت ستكون مثل ما سجله التاريخ للواء ١٤ مدرع مستقل»، وهو اللواء الذى حقق بقيادة الفريق واصل واحدًا من الانتصارات القليلة فى هذه الحرب.

ثم نصل إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣ والتى يفرد لها الفريق واصل بابًا مستقلاً شارحًا مقدماتها والاستعداد لها والتحالفات الدولية قبلها وأثناءها وحالة الجيوش على الجانبين، ثم سير أحداثها وصولاً إلى الضربة المضادة الإسرائيلية وبدء التحول فى مسار الحرب وحدوث ما اصطلح على تسميته بثغرة «الدفرسوار». والتى نجحت فيها القوات الإسرائيلية فى نصب كمين للواء ٢٥ مدرع المستقل، ويرى صاحب المذكرات أنه لو سمح للواء ٢ مدرع بالمشاركة لتدمير قوات العدو ـ وهو العليم بتضاريس هذه المنطقة والتى اشتبك فيها مع قوات العدو فى معركة كبده فيها خسائر فادحة ـ لكانت النتيجة مختلفة تمامًا.

وما أن صدرت قرارات وقف إطلاق النار وبدأت عملية فض الاشتباك بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية، حتى بدأ الطرفان ينشران قواتهما لكسب مزيد من الأراضى قبل وصول القوات الدولية، غير أن إسرائيل كانت تستهدف الاستيلاء على مدينة السويس لأسباب

عــــروض موجــــزة

عديدة يذكرها صاحب المذكرات، لكن الجيش الثالث الميداني وشعب السويس البطل كان لهما رأى آخر، فلم يمكناه أبدًا من تحقيق هدفه. ويشير صاحب المذكرات إلى خلافات فى وجهات النظر بين القيادات العليا فى الجيش حول كيفية الدفاع عن مدينة السويس. غير أن الأمر انتهى بدحر العدو وانسحابه من المدينة وبدأت الجهود الدبلوماسية لفصل القوات وما تلاها، لينتهى الأمر بجلاء القوات الإسرائيلية الكامل عن سيناء وتحرير كامل التراب المصرى فى ٢٥ أبريل ١٩٨٢.

□ □ □

طه حسين.. الكتابات الأولى

عبدالرشيد صادق المحمودى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ٢٦٣ صفحة



يضم الكتاب مجموعة من المقالات التى نشرها طه حسين فى الفترة التى سبقت حصوله على الدكتوراة فى عام ١٩١٤، بالإضافة إلى مقالة من حلقتين عن الخنساء.

ويشير المؤلف إلى أن هذه الفترة كانت حافلة بالأحداث والتطورات الكبرى. فقد التقى بأحمد لطفى السيد فى عام ١٩٠٧ وأصبح من يومها أحد تلامذته المقربين، وبدأ من عام ١٩٠٨ ينشر مقالاته فى صحيفة الجريدة التى كان يرأس تحريرها. ثم تعرّف على الشيخ عبدالعزيز جاويش الذى احتفى بمقالاته فى صحف الحزب الوطنى. وفى هذه السن التحق طه حسين بالجامعة الأهلية إلى جانب استمراره فى دراسته الأزهرية. ومن الشائع ـ كما يقول المؤلف ـ أن طه حسين نشر بدءًا من عام ١٩٠٩ سلسلة من المقالات هاجم فيها كتاب «النظرات» للمنفلوطى وأعرب فيما بعد عند ندمه لكتابتها، وقد اعتاد طه حسين فى بداية حياته أن يهاجم المرموقين من أدباء وكتّاب عصره طلبًا للشهرة من أمثال حافظ إبراهيم ومصطفى صادق الرافعى ورشيد رضا وعبدالرحمن شكرى والمنفلوطى بطبيعة الحال. لكن بعض كتاباته فى هذه الفترة كانت محكمة البناء إيجابية وسجالية أيضًا، لكن صاحبها لم يجمعها فى كتاب لأنه اعتبرها أقل من حيث المستوى وإحكام البناء مما اعتاده بعد حصوله على الدكتوراة عن أبى العلاء.

ويلاحظ المؤلف أن كتابات طه حسين فى هذه الفترة فعلاً كانت مفككة ناقصة يغلب عليها الطابع التجريبى، وهى السمة التى أكسبتها أهميتها من وجهة نظر المؤلف، كونها تكشف عن صاحبها وهو فى طور التكوين.

يضم الباب الأول مقالات طه حسين عن الأزهر والجامعة والتى يمكن اعتبارها تمهيدًا لمقالاته الرئيسية التى تناولت تاريخ النقد والأدب. والمعروف أن طه حسين انتقد نظام التعليم الأزهرى فى مراحل مختلفة من حياته، والمقالتان اللتان اختارهما المؤلف كتبهما طه حسين سنة ١٩١٢ أى بعد أن انقطع تمامًا عن الدراسة الأزهرية، وهما إلى جانب أنهما تحملان رأيه فى هذه المؤسسة العريقة، تحملان بعضًا من نضج أفكاره وخصوصية أسلوبه الذى ميّزه فيما بعد، فضلاً عن رأيه الحاسم فى أداء الأزهر، الذى اعتبره مقصرًا فى أداء رسالته من ناحيتين: الفكر الذى يختلط فيه العقل بالخرافة، واللغة المعقدة التى تصرف النظر عن الفكر والمحتوى.

ويرى المؤلف أن الطريقة التى استخدمها طه حسين فى التعبير عن أفكاره هى ذاتها التى تبلورت فيما بعد فى سيرته الشهيرة «الأيام»، أما حديث طه حسين عن الجامعة والنهضة فى مقالتيه اللتين نشرهما فى العام ١٩١٣، فيتفق مع المثل العليا التى حددها مؤسسوها، والتى تستند أساسًا إلى حرية الفكر والتعبير قبل تحصيل العلوم.

وتشير كتابات طه حسين المبكرة تلك إلى وقوعه تحت تأثير أحمد لطفى السيد من ناحية والشيخ عبدالعزيز جاويش من ناحية ثانية على ما بينهما من خلاف، فالأول صاحب نزعة إصلاحية تدريجية فتح آفاقًا رحبة من المعارف والعلوم لطه حسين ما كان له أن يدركها وحده، والثانى صاحب نزعة ثورية خطابية مناهضة للاحتلال ولا ترى إصلاحًا إلا بعد دحره وإجلائه عن البلاد.

وتشير المقالات أيضًا إلى وقوع طه حسين لفترة من الوقت تحت تأثير أفكار الإمام محمد عبده، خاصة ما يتصل منها بإصلاح الأزهر وتطوير الدراسة فيه، لكنه فى فترة تالية انصرف عن تلك الأفكار، واتجه نحو القول بضرورة الفصل بين الدين والعقل.

وإلى جانب هؤلاء فقد تأثر طه حسين خصوصًا فى منهجه التاريخى لدراسة الأدب بأساتذته من المستشرقين خصوصًا «نالنيو» وهو ما يؤكده المؤلف فى دراسته.

ما ينبه إليه الكتاب بين السطور أحيانًا وبصراحة فى أغلب الأحيان، هو أن هذه الكتابات المبكرة كانت النواة التى تشكلت منها كتابات وأفكار طه حسين فى مراحل حياته التالية، وأنه استطاع أن يكتشف ذاته فى وقت مبكر، وأن يظل وفيًا لأفكاره الأساسية رغم تحولاته.

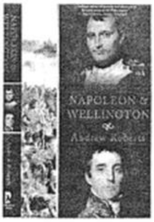
كتب أجنبية

Napoleon And Wellington

(نابليون وويلنجتون)

Andrew Roberts

London, Phoenix press, £ 9.99



ما أن انتهت معركة ووترلو الشهيرة فى بدايات القرن التاسع عشر بين انجلترا وفرنسا حتى بدأ عراك المؤرخين حول من هو أفضل قائدى المعركة. دوق ويلنجتون الإنجليزى الذى فاز بالمعركة أم نابليون امبراطور فرنسا الذى خسر وكانت نهايته.

وبالنسبة لكل المؤرخين ذوى الثقافة الفرنسية أو المتعاطفين معها فإن نابليون يبقى الأفضل والأذكى رغم خسارته فى المعركة.. وهناك عبارة شهيرة للكاتب الفرنسى الشهير فيكتور هوجو تقول: «إن ويلنجتون هو مهندس أو فنى حرب، أما نابليون فهو مايكل أنجلو الحرب». وبالطبع فإن هذا الرأى لا يتفق ورأى المعلقين والمؤرخين البريطانيين، وعلى سبيل المثال يصف المؤرخون الإنجليز ويلنجتون بأنه: أمين، مخلص، موثوق به، بينما نابليون مخادع غير مخلص وغير أخلاقى.

وفى حقل الألغام هذا يضع المؤرخ الإنجليزى الشاب اندرو روبرتس، الذى ألّف عديدًا من الكتب عن رجال دولة بريطانيين كبار مثل تشرشل ولورد سالزبورى وغيرهما، نفسه فى هذا الحقل ليدلى هو الآخر بدلوه وهو يركز فى الكتاب على العلاقة بين نابليون وويلنجتون رغم أنهما لم يلتقيا على الإطلاق وجهًا لوجه. وتلك بالفعل معضلة كبيرة لأى مؤرخ، فكيف يمكن بناءكتاب على فرضية ضعيفة، لكن روبرتس تغلب على تلك المشكلة بتناول المراسلات بينهما.. وانطباعات كل منهما عن الآخر ويصل روبرتس الى استنتاجات أى أنه عكس ما يقول المؤرخون من تباين كبير فيما بينهما فويلنجتون قاس متحجر القلب مثل نابليون تمامًا، ويضرب المؤرخ أمثلة كثيرة منها أن ضابطين انتحرا بسبب سوء معاملة دوق ويلنجتون لهما.

ويبقى بعد كل ذلك أن دوق ويلنجتون يكاد يكون شخصية تاريخية لا يذكرها سوى البريطانيين الذين يعتبرونه من أبطالهم القوميين إن لم يكن البطل الأكبر، أما نابليون فقد امتدت شهرته ومازال هناك فى أماكن كثيرة من العالم من يعتبرونه عبقرية نادرة لم يجد التاريخ كثيراً بمثلها ليس فقط على الصعيد العسكرى ولكن على صعيد سن القوانين والتفتح الفكرى والرؤية الثورية التى حاول حكام آخرون وقادة بعد ذلك تقليدها.

□ □ □

The Jews of Britain 1656 to 2000

(يهود بريطانيا من ١٦٥٦ حتى عام ٢٠٠٠)

Todd M. Endelman

University of California Press,

347PP, £ 37.95, 2002



رغم أن عددهم لا يزيد على ٢٠٠ ألف شخص حاليًا إلا أن اليهود فى بريطانيا يمارسون دورًا متميزًا للغاية فيها، فهناك العديد من المسئولين والوزراء يهود أو من أصول يهودية، كما أن هناك مؤسسات كثيرة لليهود فى بريطانيا، والتأييد البريطانى لإسرائيل وسياساتها فى الشرق الأوسط واضح للعيان.

لقد عاش اليهود فى انجلترا فى العصور الوسطى لكن صدر قرار بطردهم عام ١٢٩٠. وبالطبع يمكن تصور مدى العداء لليهود الذى كان منتشرًا فى أوروبا كلها فى الوقت الذى عاش فيه اليهود حياة آمنة مطمئنة فى العالم الإسلامى آنذاك، وقد أعيد إدخال اليهود إلى بريطانيا مرة أخرى فى القرن السابع عشر. ومرت العلاقة بينهم وبين المجتمع البريطانى بمراحل عديدة وطويلة.

ومع مرور الوقت اكتسب اليهود نفوذًا كبيرًا خاصة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وامتلك عديدون منهم مشروعات وشركات وأصبح التأثير اليهودى خاصة فى مجال البنوك واضحًا بشكل كبير.

ومؤلف الكتاب اجتماعى ولذلك فهو يركز على مدى التنوع الاجتماعى ومشاركة اليهود فى أنشطة المجتمع اليهودى بحيث لم يعودوا أقلية منعزلة تعيش على حافة المجتمع، ولذلك كان هناك العلماء وأساتذة الجامعات وقيادات الأحزاب والوزراء والمثقفون والفنانون من اليهود فى بريطانيا.

إن سر نجاح اليهود فى بريطانيا ـ حسب بعض المفكرين ـ هو أنهم وضعوا يهوديتهم تحت جلدهم وعاشوا او حاولوا العيش كما لو كانوا بريطانيين تماماً علاوة على أن المجتمع البريطانى مفتوح

عـــروض مـــوجـــزة

وقادر على استيعاب الأقليات دون أن يجبرها على أن تذوب فيه كما هو الأمر فى مجتمعات أخرى.

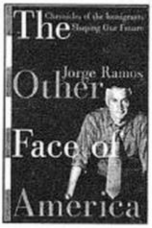
□ □ □

The other Face of America chronicles of the Immigrants shaping our Future

(الوجه الآخر لأمريكا)

Jorge Ramos

Rayo, 252PP, $ 24.95, 2002



مؤلف هذا الكتاب صحفى مكسيكى عاش أكثر من عشرين عامًا فى الولايات المتحدة وفاز بجائزة «ايمى» للصحافة، وهو يعتبر نفسه صوت من لا صوت لهم. وهم فى هذه الحالة المهاجرون من أمريكا اللاتينية إلى الولايات المتحدة. ويتحدث راموس فى كتابه عن التمييز الذى يعانيه هؤلاء المهاجرون خاصة غير الشرعيين منهم، ويبدو الكتاب فى عين قارئه كما لو كان العالم ينقسم إلى «بيض» وهم الأمريكيون ثم أصحاب البشرة البنية أى هؤلاء المهاجرين من أمريكا اللاتينية إلى الولايات المتحدة ويصف المؤلف المهاجرين غير الشرعيين بانهم أناس شجعان يعانون من تمييز دائم من جانب السلطات الأمريكية التى قررت أن تعطى ظهرها لهم. ويقدم راموس أمثلة كثيرة للمعاملة العنصرية التى يواجهها أصحاب البشرة البنية فى أمريكا.

ويمتلىء الكتاب، المؤلف من ٤٧ فصلاً قصيرًا، بعشرات القصص والرسائل والشكاوى التى تعبر عن حال المهاجرين غير الشرعيين ومن بين ذلك رسالة بعثت بها فتاة مكسيكية إلى الرئيس السابق بيل كلينتون عندما كان فى السلطة تقول له فيها أن أسرتها على وشك أن يتم ترحيلها من الأراضى الأمريكية لأن التشريعات الأمريكية معادية للمهاجرين غير الشرعيين.

ورغم صدور الكتاب خلال العام الحالى إلا أن مادته، وهى عبارة عن مقالات وتقارير كتبها المؤلف، تعود إلى عام ٢٠٠٠ أى أنها كانت قبل أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، الأمر الذى يشير إلى أن المؤلف لو أعاد النظر فيها مرة أخرى لوجد أنه يتعين عليه تعديلها فقد أصبحت قوانين وإجراءات الهجرة إلى الولايات المتحدة أشد صعوبة عما كان عليه الأمر من قبل.

□ □ □

Learning To Fly

(تعلم الطيران)

Victoria Beckham

Penguin, 2002, 528PP, £ 6.99



تحظى كتب نجوم المجتمع والفنانين ونجوم الكرة والرياضة فى جميع أنحاء العالم بمبيعات واسعة النطاق ويحتل كثير منها مراكز متقدمة ضمن قائمة أعلى المبيعات فى المكتبات الشهيرة.

وتعد فيكتوريا بيكام واحدة من نجمات الفن والمجتمع فى بريطانيا فهى علاوة على كونها عضوة بارزة فى فرقة «سبايسى جيرلز» الفنية الشهيرة فإنها زوجة لنجم كرة القدم الشهير ديفيد بيكام لاعب نادى مانشستر يونايتد، وكابتن المنتخب الإنجليزى لكرة القدم، ولذلك استقبلت الجماهير باهتمام كبير كتابها وهو بعنوان «تعلم الطيران» حيث تتناول سيرة حياتها، لكنها تتحدث عن أمور صغيرة خاصة ليس من المرجح أن تكون مقام اهتمام واسع لكن بالنظر إلى حجم المبيعات كما سبق القول فإنه يبدو أن الجماهير تتطلع إلى معرفة هذه الأمور الصغيرة عن نجمها المفضل أو نجمتها المفضلة. فهى تتحدث عن ظهور حب الشباب فى وجهها وعن وزنها ومحاولتها الحفاظ على قوام نحيف. وكذلك عدم شعورها بالأمان. وتتحدث فيكتوريا عن كل هذه الحكايات إن صح هذا التعبير بشكل بسيط ودون إبراز للأنا.

ورغم الحديث عن أشياء خاصة بالنسبة لها فإنها فشلت فى أن تتطرق إلى موضوعات مهمة وربما تكون جذابة فهى لم تشرح مثلاً أسرار نجاح فرقتها التى تعد من أشهر الفرق الفنية فى العالم وليس فى بريطانيا فقط وكيف تغلبت تلك الفرقة على الخلافات التى مرت بها ولم تتحدث أيضًا عن تسلط الرغبة فى الشهرة عليها رغم التهديدات الكثيرة بالقتل لها. والعلاقة بينها وبين وسائل الإعلام ودور الإعلام فى الترويج لها.

ولكن هل القارئ العادى الذى يقبل على حفلات فرقة سبايسى جيرلز وعلى شرائط الفيديو الخاصة بها سوف تستهويه مثل هذه القضايا الشائكة.

إن هذا القارئ سيستمتع بأحاديث فيكتوريا الخاصة عن حياتها وعلاقاتها ومصفف الشعر الخاص بها ورحلاتها وتسريحة شعر زوجها ديفيد بيكام التى أثارت الاهتمام فى كأس العالم الأخيرة بكوريا واليابان، أما هذه التساؤلات والقضايا الجادة فستظل على الأرجح مسألة تهم المثقفين ونقاد الكتب فقط.

□ □ □

Governing London

(حكم لندن)

Bin pimlott and Nirmiala Rao

OxFord, 208PP, £ 15.99, 2002



يتناول هذا الكتاب التجربة الفريدة التى مرت بها لندن عاصمة المملكة المتحدة خلال السنوات القليلة الماضية والتى بلغت ذروتها بانتخاب عمدة لندن ومجلس تشريعى لها فى يونيو من عام ٢٠٠٠، وذلك بعد مئات السنين من عدم وجود حاكم منتخب للمدينة التى شهدت التطور الديمقراطى فى بريطانيا التى تعد أقدم دولة ديمقراطية فى العالم حاليًا.

ويعيد مؤلفا الكتاب بن بليموت ونبرمالاراو، وكلاهما أستاذ فى جامعة لندن، رواية قصة مشروع القانون الذى تقدم به حكومة العمال البريطانية لتغيير نظام إدارة لندن وانتخاب عمدة لهما من خلال الاقتراع المباشر. وردود أفعال الأحزاب السياسية البريطانية على هذا المشروع إلى أن وافق البرلمان عليه، ويتحدث المؤلفان أيضاً عن نظم إدارة المدن ديمقراطيًا فى عديد من المدن فى العالم. إن لندن كانت أحدث مدينة ينتخب سكانها عمدة لهم فقد سبقتها مدن عديدة أشهرها نيويورك وباريس. وقد ظل بعض السياسيين البريطانيين يجادلون بان لندن لها وضع خاص وأن عدم وجود عمدة منتخب لها لا يعنى أن الخدمات غير متوافرة أو أن آراء السكان ليست مأخوذة فى الاعتبار إلا أن هذه الآراء أصبحت حاليًا فى ذمة التاريخ.

ولأن أول عمدة منتخب للمدينة لم يكن شخصًا مغمورًا فقد ركز الكتاب على كين ليفنجستون الزعيم العمالى البارز والذى اختلف مع حزبه «العمال» وقدم استقالته من الحزب لأن القيادة اختارت شخصًا آخر للتقدم إلى انتخابات لندن مع علمها بأن ليفنجستون هو الذى سينجح. لقد كانت هناك خلافات شديدة بين تونى بلير رئيس الوزراء العمالى وليفنجستون اليسارى الذى وجه انتقادات شديدة لحكومة بلير فأراد بلير أن يبعده عن حكم لندن لكى لا يسبب له صداعًا دائمًا إلا أن هذا بالضبط ما حدث.

ويقول المؤلفان أن ليفنجستون لديه سلطات كثيرة وموارد طيبة لكى يقوم بتنفيذ طموحات سكان المدينة ويحل مشاكلها وأن عليه أن يستخدم هذه السلطات والموارد بدلاً من أن يظل يشكو من أن حكومة بلير تحاول التضييق عليه وإفشال مهمته.

□ □ □

The Shade of Swards

(ظل السيوف)

M.k.Akbar

Rautledge, 2002, PP 272, £ 16.99



عقب أحداث ١١ سبتمبر مباشرة، أصبحت كلمة الجهاد العربية عالمية وتحدث عنها الساسة والمثقفون والصحفيون فأساء البعض عمدًا إليها مثل سلفير بريلسكونى رئيس وزراء ايطاليا الذى اعتبرها (كلمة الجهاد) مثالاً للتخلف الذى يعيشه العالم الإسلامى حسب ادعائه، وبالنسبة لآخرين فقد كانت الكلمة بمثابة تحدٍ لغوى كبير فماذا تعنى كلمة الجهاد حقًا؟ وخلال أيام ظهرت معان كثيرة على الإنترنت للكلمة فهى تعنى جهد أو مجاهدة النفس أو المثابرة ومعانى كثيرة أخرى جذابة حتى للغرب لكن المشكلة أن هناك من اختزل الكلمة فى «الحرب المقدسة».. وهذا الكتاب «ظل السيوف» ألفه صحفى هندى مسلم هو ام.كى.أكبر وهو يقوم فى الكتاب برحلة عبر التاريخ الإسلامى وبالطبع ينتقى ما يحلو له ويتحدث كثيرًا عن الإسلام فى الهند ويلقى بحكم جازم إذ يقول أن المسلمين الوحيدين الذين يتمتعون بالديمقراطية حاليًا هم الذين يعيشون فى الهند، دون أن يثبت صحة هذا الحكم، فهناك مسلمون فى مناطق أخرى يتمتعون بديمقراطية أيضًا.. ثم يمر المؤلف مرور الكرام على حوادث كثيرة فى تاريخ الإسلام مثل حركات التمرد والخوارج وغيرها.

وبالطبع يفرد المؤلف مساحات كبيرة لتجربة تعايش المسلمين مع الهندوس فى الهند وهو يريد أن يقدم صورة جيدة للإسلام لكن ذلك لم يرض بعض النقاد الغربيين الذين اتهموا المؤلف بأنه لم يتحدث كثيراً عن الخلافات والصراعات التى مر بها تاريخ الإسلام منذ ما يزيد على ١٤٠٠ عام.

□ □ □

أثـــار

الآثار الإسلامية فى القاهرة

كارولين ويليارمز

القاهرة: الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٢

خمسة عشر فصلاً تقدم تاريخ الآثار الإسلامية بدءًا من العصر العباسى ثم الفاطمى فالأيوبى فالمملوكى فالعثمانى ثم عصر محمد على، وتقدم المؤلفة شروحًا لطبيعة العمارة الإسلامية فى كل عصر، والسمات التى تميزها وترتيبها جغرافيًا حيث تبدأ بجزيرة الروضة فى المنيل ثم آثار مصر القديمة وهكذا.

■■■

The View from Nebo: How Archeology is Rewriting the Bible and Reshaping the Middle East

(المشهد من النبق: كيف يعيد علم الآثار كتابة الكتاب المقدس ويعيد تشكيل الشرق الأوسط)

Amy Dock Marcus

Little Brown & Co., 2001, 295PP., $ 14.95

يرى البعض أن الأحداث المذكورة فى الكتاب المقدس يجب فهمها بشكل رمزى، بينما يرى آخرون أنها سجل دقيق لتاريخ الشرق الأوسط قبل آلاف السنين. فى هذا الكتاب تقوم المؤلفة وهى صحفية فى جريدة وول ستريت جورنال الأمريكية اليمينية ومراسلتها بتل أبيب بتغطية المعارك الجديدة التى نشبت بين علماء الآثار حول الأدلة الأثرية على صدق روايات الكتاب المقدس.

من بين ما أكدته الكشوف الأثرية الجديدة فى المنطقة وتناقشه المؤلفة أن بناة الأهرام هم المصريون وليس العبيد الإسرائيليين، وأن مملكة سليمان وداود لم تكن أبدًا مملكة موحدة، كما أن النفى البابلى وقع على أقلية فقط بينما استمرت الأغلبية تعيش فى أرض يهوذا كما كانت. وترى المؤلفة أن كثيرًا من معارك اليوم نجد جذورها فى الكتاب المقدس وأننا إذا بحثنا قد نجد الحل أيضًا هناك.

اجتمــاع

أقباط مصر

بربارة واترسون

ترجمة: إبراهيم سلامة إبراهيم

القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٢

تجمع المؤلفة جميع عناصر العصر القبطى، الاجتماعية والفنية والأثرية والسياسية والفكرية منذ عهد العصر الإغريقى وحتى اليوم، وكيف تأثرت حياة الأقباط بتوالى الحضارات التى مرت على مصر.

■■■

قانون إجراءات التقاضى فى مسائل الأحوال الشخصية

محمد فتحى نجيب، محمود غنيم

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

الكتاب هو نتاج تعديل الكتاب الرابع من قانون المرافعات الخاص بالأحوال الشخصية، والذى يعالج كثيرًا من الخلل فى العلاقة الزوجية الناتج عن استبداد الطرف الأقوى (الرجل) بما يتيحه له القانون، ومسائل الأحوال الشخصية صارت مهمة للكافة خصوصًا بعد إقرار قانون الخُلع وبدء العمل به.

■■■

قرية الزرابى

عواطف عبدالرحمن

القاهرة: مركز الفسطاط للدراسات والاستشارات، ٢٠٠٢

دراسة عن واحدة من القرى القابعة فى عمق صعيد مصر، وهى ذاتها قرية المؤلفة وهى أستاذة فى كلية الإعلام، وهى تعنى بالذات بأوضاع المرأة فى هذه القرية وكيفية تعاملها مع وسائل الإعلام وكيف تتعامل وسائل الإعلام خصوصًا التليفزيون معها، لتكتشف ببساطة أن التليفزيون لا يعلم شيئًا عن الريف وأن البرامج الموجهة التى يقدمها والدراما التى يبثها منبتة الصلة بالواقع.

■■■

Below the Breadline

(تحت خط الخبز)

Fran Abrams

Profile Books, 2002,184PP., £ 6.99

اتفقت دار النشر مع المؤلفة فران أبرامز التى تعمل صحفية فى جريدة الجارديان البريطانية على قضاء شهر كعاملة فى مصنع مخللات بيوركشير، تحصل من خلاله على أجر أقل من الحد الأدنى للأجور فى بريطانيا، ثم نقلتها إلى سكوتلاند لقضاء شهر آخر كعاملة نظافة مساعدة. وفى هذا الكتاب خلاصة تجربة فران أبرامز التى تصف شكل الحياة فى ظل أدنى أجر فى بريطانيا، أين يمكن أن تسكن؟ وما الذى يمكن شراؤه من طعام؟ وما الذى يمكن عمله فى المساء؟ وخبرة العمل نفسها ونوعية زملاء العمل والرؤساء فى مثل هذه الوظائف.

اقتصــاد

الغاز الطبيعى المصرى.. الواقع والطموح

أحمد مختار

القاهرة: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٢

بدأت سلسلة اكتشافات الغاز الطبيعى فى مصر منذ عام ١٩٩٠، حيث تم العثور على احتياطى خام وضع مصر فى المرتبة السابعة عشرة بين الدول المصدرة للغاز والتى يبلغ عددها ١٠٢ دولة، المؤلف يبين الأهمية الاستراتيجية للغاز الطبيعى، والفائدة المادية التى سيجلبها على مصر واقتصادها.

■■■

Bamboozled at the Revolution: How Big Media Lost Billions in the Battle for the Internet

(كيف خسرت شركات الإعلام الضخمة المليارات فى معركتها من أجل الإنترنت)

John Motovalli

Viking 2002, 336PP., $ 26.95

يتركز الجانب الأكبر من الكتاب على تجربة شركة «تايم وارنر» فى التواجد على شبكة الإنترنت والأخطاء التى ارتكبتها فى علاقتها مع شركة «أمريكا أون لاين» التى اندمجت معها عام ٢٠٠٠.

تاريــخ

الأهرام.. ديوان الحياة المعاصرة

يونان لبيب رزق

القاهرة: مركز تاريخ الأهرام، ٢٠٠٢

بدأ المؤلف هذه السلسلة منذ سنوات، حيث يقدم دراسة تحليلية لما نشرته جريدة الأهرام العريقة فى السنوات الأولى من القرن، من أخبار ومقالات وتحليلات وإعلانات، وحتى ما اشتملت عليه أبواب الاجتماعيات والوفيات وغيرها. بما يمكن أن يعطى صورة عامة عن مصر فى تلك الفترة، وهذا الكتاب هو الجزء الأول من القسم الرابع من السلسلة، وقد تناولت الأقسام السابقة أحوال مصر منذ عام ١٨٧٦ وحتى ١٩٠٠.

■■■

الفتح الإسلامى للقسطنطينية

نيقولو باربارو

ترجمة: حاتم عبد الرحمن الطحاوى

القاهرة: دار عين للدراسات والنشر، ٢٠٠٢

يمثل فتح المسلمين للقسطنطينية مفارقة تاريخية، إذ فى الوقت الذى فقد فيه المسلمون قاعدة مهمة لهم فى الأندلس (أقصى غرب أوروبا)، إذ بهم يفتحون قاعدة فى شرق أوروبا، وعنى بها المؤلف مدينة القسطنطينية التى فتحها المسلمون فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى، والتى صارت عاصمة الإسلام لعدة قرون.

■■■

قصة الحضارة الفرعونية

أحمد عثمان

القاهرة: مكتبة الشروق، ٢٠٠٢

يروى الكاتب فى صفحات قصة الحضارة المصرية القديمة منذ فجر التاريخ وحتى عصر بناء الأهرامات، ويشير إلى الدعائم الأساسية التى قامت عليها هذه الحضارة، والركائز الروحية والمادية التى مكنتها من احتلال موقع الصدارة وسط الحضارات المعاصرة لها.

■■■

مدرسة الفنون والصنائع الإسلامية بطرابلس فى مائة عام

تحرير: عماد حيدر

طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ٢٠٠٢

يعرض الكتاب لتاريخ ودور واحدة من أعرق المدارس فى ليبيا، والتى كانت قلعة من قلاع المقاومة ضد الاستعمار الإيطالى، وعلى جدرانها عُذِّب المناضلون وسالت دماؤهم الزكية.

■■■

Alamein

(العـــلمين)

Jon Latimer

J Murray, 2002, 411PP., $ 25.00

قال ونستون تشرشل عن معركة العلمين التى دارت فى صحراء مصر عام ١٩٤٢ أن قبلها لم تعرف بريطانيا طعم النصر وبعدها لم تعرف الهزيمة. وبمناسبة الذكرى الستين لهذه المعركة الفاصلة فى تاريخ الحرب العالمية الثانية ظهرت عدة كتب ودراسات تتناول أبعاد المعركة، من بينها هذا الكتاب الذى يكشف مؤلفه من خلال مصادر ألمانية أن الجنرال روميل كان يخطط لتوسيع أهداف حملته لتشمل القاهرة وقناة السويس متجاوزًا بذلك الأوامر الصادرة إليه. يتناول الكتاب الصعوبات التى واجهت ثعلب الصحراء وفصول المعركة، كما يتعرض لخبرات الرجال الذين شاركوا فى القتال من بريطانيين وأستراليين وهنود وفرنسيين وإيطاليين..إلخ.

دوريــات

سطور

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٢

يقدم العدد الأخير من مجلة سطور التى كانت مهددة بالتوقف قبل أسابيع قليلة، ملفًا خاصًا عن عالم الفوضى، ودراسات عن الديكتاتورية وأصولها فى الفكر السياسى، وكيف أمكن لبعض المفكرين تأويل نصوص دينية مقدسة لتزيين مفاهيم الاستبداد، كما تقدم المجلة ترجمة عن «الفوكوياما الجديدة» للدكتور أحمد مستجير.

■■■

مجلة الدراسات الفلسطينية

مجموعة من المحررين

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٢

موضوعات عديدة عن الوضع الفلسطينى الراهن وتأثيره على مستقبل الصراع العربى الإسرائيلى، يتضمن مقالات لنبيل عمرو وعزمى الشعيبى ومحمد حمزة غنايم وطارق البشرى وخالد عايد، ومقابلة مع حنان عشراوى.

رواية وقصص

حوش آدم

محمد إمبابى

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢

رواية عن الحياة اليومية فى مجتمع المدينة، وقد اختار المؤلف حوش آدم بوصفه واحدًا من الحارات الشعبية الشهيرة، حيث يعيش المهمشون الكادحون بكل إحباطاتهم وتطلعاتهم الصغيرة، وقد عمد المؤلف إلى إبراز التناقضات بين عالم هؤلاء ودنيا الأحياء الراقية فى المدينة.

■■■

فك وتركيب
محمد الجمل
القاهرة: دار الوفاء، ٢٠٠٢

يرسم المؤلف بانوراما كاملة لما جرى للناس منذ أواسط السبعينيات أى مع الانفتاح الاقتصادى والتحولات الانقلابية التى أصابت المجتمع المصرى وقيمه وتقاليده.

■■■

وتلك قضية أخرى
هدية حسين
عمان: بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢

متوالية قصصية للقاصة العراقية هدية حسين، لا تلتزم بهيكلية واحدة تضم مجموعتها، وإنما تختلف الموضوعات وتتنوع الأفكار وتتمتع المؤلفة بحرية بالغة فى القص والحكى، والتيمة المفكرة التى تلعب عليها المؤلفة هى تيمة الغياب والانفصال، معتمدة التداعيات والتداخلات الزمنية واللغة الموحية والجمل القصيرة التى أسهمت فى تحريك النص وإكسابه حيوية أكبر.

"سياسة"

الأمة العربية والألفية الثالثة
محمد أبوالقاسم
مراكش: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٢

تدخل الأمة العربية الألفية الثالثة وهى فى حال تبعث على الأسى فنحن فى حالة من التخلف فى شتى مناحى الحياة، كيف يمكن تجاوز هذا الوضع المهين والاستفادة من السواعد والعقول العربية وكذلك من الثروات الطبيعية الموجودة فيه، خصوصًا أن لدينا ما يمكن من تفعيل هذه الثروات البشرية والطبيعية.

■■■

النظام العربى وآفاق المستقبل
عمان: مؤسسة عبدالحميد شومان ودار الشروق للنشر، ٢٠٠٢

محاضرات ألقاها باحثون عن النظام العربى بين الحاضر والمستقبل ضمن برامج المحاضرات الأسبوعية لمنتدى شومان، ويضم بحوثًا تتناول شئونًا محلية سياسية واقتصادية فى عدد من الأقطار العربية، ومن أبرز المشاركين فى بحوث الكتاب: محمود عبدالفضيل وأحمد يوسف أحمد وباسل البستانى ومجدى حماد وإبراهيم العيسوى ورجب أبودبوس وإبراهيم سلطى وطاهر كنعان وآخرون.

■■■

انتفاضة الأقصى وقرن من الصراع
عمان: مؤسسة عبدالحميد شومان ودار الشروق للنشر، ٢٠٠٢

يضم الكتاب محاضرات ألقاها عدد كبير من الباحثين فى منتدى شومان الثقافى ودراسات تحيط بجوانب الصراع العربى الإسرائيلى خلال القرن العشرين، والكتاب قدم له الدكتور حسن نافعة ويضم خمسة محاور أساسية، وشارك فيه عبدالوهاب المسيرى ومحمد علوان وسلمان أبوستة وهيثم الكيلانى وغسان الخطيب وزياد أبوعمرو وآخرون.

■■■

حال الأمة العربية.. المؤتمر القومى العربى
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢

الأوراق الكاملة للمؤتمر العربى فى دورته الحادية عشرة، وهى فى مجملها تقدم رؤية سياسية ثقافية اجتماعية اقتصادية وعسكرية للأوضاع العربية خلال عام ٢٠٠٠، ولا يغيب طبعًا الصراع العربى الإسرائيلى عن هذا التحليل.

■■■

حقوق الانسان
أحمد منيسى
القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٢

صدر الكتاب ضمن سلسلة موسوعة الشباب السياسية والغرض منها تقريب المفاهيم السياسية المستحدثة للشباب، والكتاب يتناول معلومات تفصيلية ومبسطة حول مفهوم حقوق الانسان والتنظيم الدولى لحقوق الانسان، ويلقى أضواء على واقع حقوق الانسان فى الوطن العربى.

■■■

مصر والعروبة
أحمد صلاح الملا
القاهرة: دار مصر العربية، ٢٠٠٢

بحث فى هوية مصر المتنازعة بين الفرعونية والعربية والإسلامية والشرق أوسطية، وقد برزت الهوية العربية وتعالت أسهمها فى المرحلة الناصرية لأسباب تاريخية وسياسية عديدة، ويبدو أن قضية مصر عادت إلى سطح الأحداث من جديد مع تغيير الظرف التاريخى، المؤلف يتناول هوية مصر العربية والموقف منها منذ بزوغها حتى اليوم واحتمالات تطورها واتساع دائرة مناهضيها أو انكماشها فى المستقبل.

■■■

من داخل إسرائيل
تحرير/ عماد جاد
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

تحليل لبنية المجتمع الإسرائيلى وما يحمله من متناقضات، والآليات التى تحكمه وحدود دور المؤسسة العسكرية والعلاقة بينها وبين المؤسسة السياسية منذ نشأة إسرائيل قبل أكثر من نصف قرن وحتى اليوم.

■■■

Peacemonger
(تاجر السلام)
Marrack Goulding
J.Murray, 2002, 378PP.,£ 25

مارك جولدنج دبلوماسى بريطانى بارز، رأس عمليات الأمم المتحدة لحفظ السلام منذ عام ١٩٨٦ وحتى عام ١٩٩٣، أى الفترة التى شهدت أكبر توسع فى عمليات حفظ السلام التى تعد أهم أنشطة الأمم المتحدة وأكثرها إثارة للجدل والمشكلات.

يصف جولدنج النجاحات التى تمثلت فى انسحاب القوات السوفيتية من أفغانستان، ووقف إطلاق النار بين العراق وإيران وتحرير الكويت وتسويات السلام فى ناميبيا وأنجولا وكامبوديا وموزمبيق. ولكن مع بداية عام ١٩٩٣ توالت الإخفاقات من أنجولا إلى البوسنة والصومال. ويصف مارك الفرق فى العمل فى ظل رئاسة كل من خافير بيريز دى كويار وبطرس بطرس غالى، كما يروى يومياته التى دوّنها عن غرائب وتفاصيل عمل المنظمة من الداخل. فهو يرى أن الإدارة الكفء مستحيلة فى الأمم المتحدة لأن معظم الدول الأعضاء ترسل أولادها وبناتها هناك باعتبارهم يشغلون وظائف شرفية، وتقف الحساسيات الدبلوماسية عائقًا أمام التقييم الحقيقى لأداء معظم العاملين.

■■■

Perpetual War for Perpetual Peace: How We Got to Be So Hated
(حرب دائمة من أجل سلام دائم: كيف أصبحنا مكروهين لهذه الدرجة)
Gore Vidal
Thunder's Mouth/Notion, 2002, 144PP., $10.00

جمع الروائى الأمريكى الشهير جور فيدال مجموعة من مقالاته حول ١١ سبتمبر فى هذا الكتاب الصغير. وتعتبر آراء فيدال مختلفة عن التيار العام فى الولايات المتحدة، فهو ينتقد جميع السياسات الأمريكية التى تلت كارثة ١١ سبتمبر. حيث يرى أن هجوم الحكومة على الحريات المدنية الأمريكية أشد ضراوة من هجوم أسامة بن لادن على مركز التجارة العالمى، وأن الحرب على أفغانستان كانت خاطئة، كما يسخر من مفردات بوش وما يترتب عليها من مشكلات جسيمة مثل «الحملة الصليبية»، و«الإرهاب»، و«محور الشر».

"سير ومذكرات"

سندريلا تتكلم
منير مطاوع
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

قراءة فى مذكرات الفنانة الراحلة سعاد حسنى ومراحل حياتها مع الفن وقبله، ثم صراعها فى السنوات الأخيرة مع المرض والشائعات التى رافقت موتها المفزع الذى مازال البعض يصر على أنه انتحار.

■■■

You Cannot Be Serious
(لا يمكن أن تكون جادًا)
John Mc Enroe With James Kaplan
Putnam, 2002, 336PP., $ 25.95

اشتهر لاعب التنس الأمريكى جون ماكنرو بمهارته الفائقة ومشاغباته العديدة فى كل البطولات. فهو لا يستطيع التحكم فى غضبه ولا يستطيع أن يتقبل الهزيمة.

فى هذا الكتاب يشرح جون ماكنرو لجمهوره أسباب هذه المشاعر الشخصية النابعة من تركيبة عقله ونفسيته منذ الطفولة. ويتحدث عن مشواره فى البطولات وعمله الجديد كمعلق رياضى بل يعلن أيضًا عن عزمه الدخول فى معترك السياسة!

"شعر"

المنظر
تميم البرغوثى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

قصائد بالعامية المصرية ترسم مشاهد من واقع الحياة، وقد اختار الشاعر نماذج من الشعر العمودى ذى التفعيلة الواحدة والبحر الواحد، وعنى أكثر ما يكون بالموسيقى الداخلية لتحقيق الانسجام لديوانه.

■■■

اللهب المقدس
مفدى زكريا
القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠٢

مفدى زكريا هو شاعر الثورة الجزائرية بامتياز، وقد ألهمت قصائده المناضلين سبل التحرر كما أشعلتهم حماسة دفاعًا عن وطنهم حتى نال استقلاله، وهذا الديوان يضم بعضًا من أهم قصائده فى الثورة والتحرر.

■■■

مؤلفات حامد طاهر
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢

يضم المجلد الأول بدايات حامد طاهر الذى كان عميدًا لكلية دار العلوم مع الشعر، وقصائده فى مختلف الأغراض، وبينها ما يسميه قصائد فلسفية وقصائد عصرية وقصائد فى حب مصر، وتتناول المقدمة مسيرة المؤلف العلمية والأدبية.

"علوم"

البحث العلمى مناهجه وتقنياته
محمد ريان عمر
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢

دراسة عن الأسلوب الأمثل للبحث العلمى ومناهجه، وأهمية الدلائل والبراهين والجداول الإحصائية فى البحث، ويقدم المؤلف مبحثًا خاصًا عن أهمية الكمبيوتر وشبكات المعلومات فى تسهيل البحث العلمى وتدقيق نتائجه.

■■■

العصر الرقمى وثورة المعلومات
محمد صلاح سالم
القاهرة: دار عين، ٢٠٠٢

تنطوى ثورة المعلومات على خير كثير للبشرية، لكنها تنطوى أيضًا على سلبيات

عديدة خصوصًا بالنسبة للمجتمعات الأقل تقدمًا، هذا ما يناقشه المؤلف إجمالاً في كتابه.

■■■

لقطات من المستقبل.. بحث في حدود الممكن

آرثر سي كلارك

ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

ثمة أحلام مستقبلية وتصورات تبدو للبعض خيالية موقعها الطبيعي أفلام الخيال العلمي.

لكن كثيرًا من هذه الخيالات تحولت بالفعل وفي غضون سنوات قلائل إلى واقع يشاهده الناس ويسعدون بنتائجه، وبعض ما يعرض المؤلف له هنا يرتبط بتلك الأحلام المستقبلية ذات البعد الخيالي.

منها مثلاً سكن الكواكب المحيطة بالمجموعة الشمسية والتخلص من الجاذبية الأرضية واكتشاف معادن جديدة ومصادر بديلة للطاقة قد تغير شكل العالم وتقلب موازين القوى الدولية.

■■■

استنساخ الإنسان- الحقائق والأوهام

مارتاس نسبوم وكاس سانتشتين

ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي

القاهرة: دار الصيف، ٢٠٠٢

أكثر من عشرين مقالاً لعلماء ومفكرين وفنانين ورجال دين في عملية استنساخ الإنسان، وما إذا كانت ممكنة أم أنها ضرب من الوهم خصوصًا على بعض التأثيرات البيئية والحياتية المهمة التي تجعل الإنسان أسيرًا لها ولا تجعله مجرد جينات يتناقلها جيل بعد جيل بكل صفاتها الوراثية في الشكل والمضمون والمزاج.

■■■

Hydrogen: The Essential Element

(هيدروجين: العنصر الأساسي)

John. S. Rigden

Harvard University Press, 2002, 280PP., $28

تعد ذرة الهيدروجين أبسط ذرة في الطبيعة، ونتيجة لذلك كان الهيدروجين محط أنظار علماء الطبيعة خلال القرن الماضي كله. يقوم المؤلف جون ريجدين الذي يعمل مديرًا للمشروعات الخاصة في المعهد الأمريكي للفيزياء برواية تاريخ الفيزياء في النصف الأول من القرن العشرين من خلال معرفة ذرة الهيدروجين، ثم يبين كيف ساهمت تلك المعرفة في تطور مختلف أنواع التكنولوجيا في النصف الثاني من القرن نفسه.

ففي بداية بحث العلماء عن التكوين الأساسي للمادة تم اكتشاف مكونات الذرة من خلال نموذج ذرة الهيدروجين بسبب كونها الأبسط على الإطلاق، وبالتالي تتابعت المعرفة بميكانيكا الكم والنسبية الخاصة.

"فلسفة"

ابن رشد فيلسوف عربي بروح غربية

عاطف العراقي

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

مازال قاضي قرطبة أبوالوليد ابن رشد يثير جدلاً في الأروقة الأكاديمية، المؤلف من أكثر المتحمسين لفلسفة ابن رشد، وقد كتب عنه أكثر من دراسة ونظّم أكثر من ندوة في مصر وخارجها تبحث في تأثير ابن رشد على من لحقوه، وكتاباته في الطب والفلسفة والعلوم وغيرها، فضلاً عن معاركه الفكرية وأهم القضايا التي ناقشها.

"لغة"

اللاتينية العربية

علي فهمي خشيم

القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٢

يقدم المؤلف أدلة علمية على تقارب اللغتين اللاتينية والعربية، ويعرض لتاريخ هذا التقارب من خلال مقابلة النماذج والتشابه بين المفردات في كليهما.

■■■

إشكالية الترجمة بين العربية والعبرية

أبوظبي: مركز زايد للتنسيق والمتابعة، ٢٠٠٢

تحتل الترجمة من العربية للعبرية والعكس مكانًا مهمًا خصوصًا مع استمرار الصراع العربي الإسرائيلي وتأرجحه بين دعوات المواجهة العسكرية وادعاءات السلام التي ثبت زيفها وتهافتها أمام الإصرار الإسرائيلي على اغتصاب فلسطين. لكن ثمة إشكالات تواجه عملية الترجمة من وإلى العبرية، وهذا ما يناقشه الكتاب.

■■■

التخلف الآخر

محمود الزوادي

تونس: الأطلسية للنشر، ٢٠٠٢

تدور فصول الكتاب حول ما يسميه المؤلف بالتخلف الآخر، وهي ظاهرة لغوية وثقافية ونفسية تنتشر في مجتمعات العالم الثالث المعاصرة ترتبط أكثر بالتخلف اللغوي الثقافي النفسي، وبحسب المؤلف فإن التخلف في هذين المعلمين أي تخلف اللغة العربية وتهميشها يؤدي إلى اغتراب الفرد في مجتمعه ويضاف إلى التخلفات الأخرى في الاقتصاد والصناعة والتكنولوجيا.

"للأطفال"

حكايات شعبية

مجدي الجابري

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢

٢٧ حكاية شعبية للأطفال يقدمها الشاعر الراحل، هي في معظمها ذات طبيعة تعليمية وترفيهية ولا تخلو من زجر وتوجيه، والمؤلف صاحب دواوين شعرية صدر آخرها في عام ١٩٩٩ قبل وفاته بقليل.

■■■

Cow

(بقرة)

Malachy Doyle

Angelo Rinaldi (Illustrator)

Simon & Schuster/ Mc Elderry, 2002, 40PP., $17.00

كتاب مصور مخصص للأطفال من سن الخامسة إلى التاسعة، ويدور حول يوم في حياة بقرة.

فالمؤلف يتتبع الروتين اليومي للبقرة منذ الفجر وحتى الغروب، مرورًا بوجباتها وتغيرات الطقس حولها في الريف، وعملية حلبها، وعلاقتها بأسرة الفلاح الذي يربيها.

"منوعات"

دليل القارئ إلى الثقافة الجادة

آرثر والدهورن، أولجاويبر، آرثر زيجر

ترجمة: أحمد عمر شاهين

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

القارئ هو الطرف الذي يمنح النص حيويته إذا لا وجود للنص ولا للمؤلف دون قارئ يكتشف أفكار النص ودلالاته.

من هنا تأتي أهمية القراءة، لكن القراءة ليست كلها جيدة وصحيحة، وهو ما ينبه إليه المؤلفون الذين يقدمون أيضًا دراسة في كيفية انشاء بنية ثقافية تعني بالقراءة، فضلاً عن أمهات الكتب في الثقافات المختلفة.

■■■

عاشقات بيروت الستينيات

عصام محفوظ

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٢

يضم الكتاب قسمين هما في مجملهما حوارات قصصية يمتزج فيها الواقعي بالمتخيل.

وهي تستعيد نبض الحياة العاطفية في بيروت الستينيات، حيث امتزجت التطلعات إلى القيم الجديدة بالحنين إلى القديم.

وهي جدلية مازالت لم تحسم تعيشها العواصم الثقافية العربية وبينها بيروت حتى اليوم.

"موسوعة"

موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية

رشاد الشامي

القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ٢٠٠٢

موسوعة متخصصة في المصطلحات الدينية اليهودية هدفها تقديم إطار معرفي كامل للقارئ العربي حول كل ما يتصل بالديانة اليهودية: الشريعة والرموز الدينية والعقيدة وغيرها.

"نقد أدبي"

اتجاهات النقد الروائي المعاصر

مصطفى عبد الغني

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢

دراسة نقدية تحليلية لفن الرواية والاتجاهات الحديثة فيه وأهم الروايات التي كتبت في إطارها مثل الاتجاه التأثيري والتاريخي والنفسي والجمالي والواقعي الاجتماعي وغيرها، وازدهار هذا الجنس الأدبي في مسيرة السرد العربي.

■■■

انتاج الدلالة الأدبية

صلاح فضل

القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٢

يجاهد المؤلف في كل ما يكتب في أن يقرّب معنى الحداثة في الأدب والاتجاهات الجديدة في النقد الأدبي. ويقدم نماذج تطبيقية تقرّب إلى قارئ النص العربي معنى ما يقول، وفي هذا الكتاب يواصل المؤلف مسيرته عن انتاج الدلالة الأدبية عبر الكتابة والقراءة أيضًا.

■■■

الإبداع.. قضاياه وتطبيقاته

عبد الستار إبراهيم

القاهرة: مكتبة الأنجلو، ٢٠٠٢

للإبداع شروط ذاتية خاصة فضلاً عن سياق عام يشجعه وينمي مثيراته، وهذا بعض ما يناقشه المؤلف في كتابه كاشفًا عن كيفية اكتشاف المبدع لذاته، وكيفية استمتاع الناس بالإبداع والتعامل معه.

■■■

الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام

عدنان النحوي

الرياض: النحوي للنشر، ٢٠٠٢

دراسة نقدية في الأسلوب النحوي العربي، ومقارنة بينه وبين العلمانية وتيارات الحداثة والبنيوية والتفكيكية، ويعرض لمسيرة الفكر والأدب عند المسلمين وكذلك لقانون الفطرة ونظرية «بزوغ» الفكرة وعلاقتها بعلم اللسانيات.

■■■

Literature, Partition and the Nation Sate: Culture and Conflict in Ireland, Israel and Palestine

(الأدب والفصل والدولة القومية: الثقافة والصراع في ايرلندا وإسرائيل وفلسطين)

Joe Cleary

Cambridge Up, 2002, $23

هذا الكتاب يقدم دراسة في الميراث الثقافي والاجتماعي لتقسيم الدولة في كل من ايرلندا وفلسطين. فمن خلال التركيز على المرحلة التي بدأت منذ الستينيات، مع تصاعد احتجاجات الوطنيين الايرلنديين والفلسطينيين ضد مشروعات الفصل، يقوم المؤلف بتحليل تأثير ذلك على تكون الأدبيات القومية وعلى أعمال كتّاب ومثقفين أيرلنديين وإسرائيليين وفلسطينيين.

ثلاثة اختيارات تمنحك أعلى عائد على مدخراتك

٪١١,٢٥



١ وثيقة ادخار البنك العربى
ذات العائد المدفوع مقدماً

تحصل على عائد شهري مقدماً يصل إلى ١١،٢٥ ٪* مما يضاعف من العائد الحقيقى لمدخراتك . تصدر الوثيقة بألف جنيه ومضاعفتها ويمكن الاقتراض بضمانها.

٢ وثيقة ادخار البنك العربى الذهبية

أعلى عائد على مدخراتك يصل إلى ١١،٢٥ ٪*، مع الحصول على جنيهات ذهبية . تصدر الوثيقة بألفى جنيه ومضاعفتها مع إمكانية الاقتراض بضمانها.

٣ وثيقة البنك العربى
ذات العائد متعدد العملات

أستفد بالفرق بين سعرى الفائدة على العملات الأجنبية والجنيه المصرى، واحصل على عائد يصل إلى ١١،٢٥ ٪* مع إمكانية صرفه بالعملات الأجنبية.
يمكن اصدار بطاقة ڤيزا والاقتراض بضمان الوثيقة.

أياً كان اختيارك ... فالبنك العربى يقدم لك أعلى عائد على مدخراتك،
فقط أختار الوثيقة التى تناسبك.

* (العائد يساوى سعر الخصم المحدد من البنك المركزى +١/٤٪)

لمزيد من المعلومات برجاء الاتصال برقم
٣٣١ ٩٩ ٢٢
٧ أيام فى الاسبوع من التاسعة صباحاً وحتى التاسعة مساءاً

اكبر شبكة مصرفية عربية

البنك العربي
رؤية جديدة

Checkmate Adv.

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد الثالث والأربعون
أغسطس ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد:

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

كتّاب العدد:

- **جوزيف ستيجليتز**.. أكاديمى أمريكى وحاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد عام ٢٠٠١.
- **حسين عبدالله**... أستاذ اقتصاديات البترول.
- **ريتشارد سينيت**.. أستاذ النظرية الثقافية والاجتماعية بكلية لندن للاقتصاد.
- **سلامة أحمد سلامة**.. صحفى.
- **عز الدين نجيب**.. ناقد وفنان تشكيلى.
- **فاروق عبدالقادر**.. كاتب.
- **محمد حسنين هيكل**.. صحفى.
- **محمد سيد أحمد**... صحفى.
- **محمد الميلى**.. المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة.
- **نبيل مطر**.. أستاذ الإنجليزية والإنسانيات بمعهد فلوريدا للتكنولوجيا.
- **يُمنى طريف الخولى**.. أستاذ فلسفة العلوم بكلية الآداب - جامعة القاهرة.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى - سعد الدين شحاتة - محمد حاكم

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

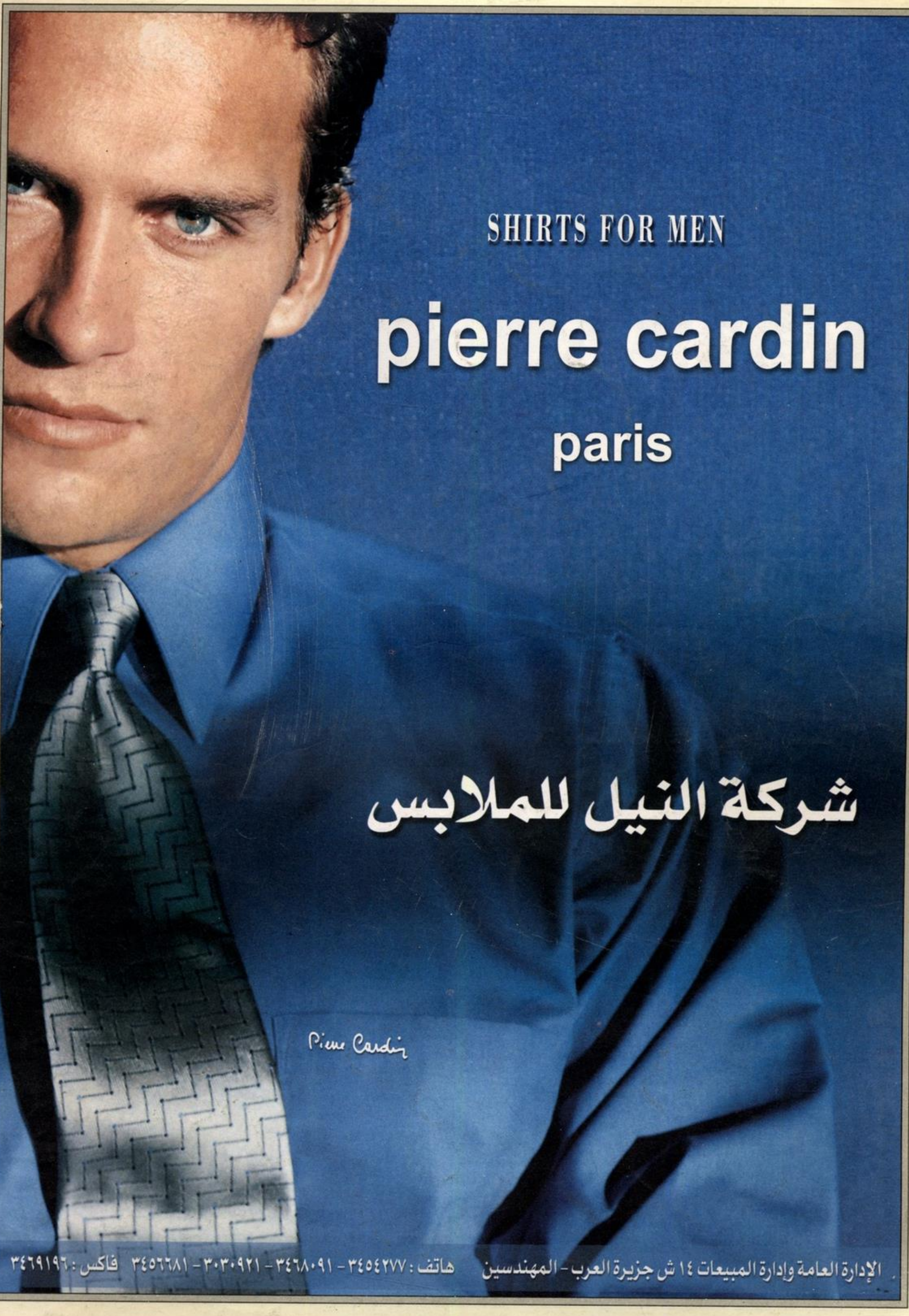
الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٢٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٢٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة


SHIRTS FOR MEN
pierre cardin
paris
شركة النيل للملابس
Pierre Cardin
الإدارة العامة وإدارة المبيعات ١٤ ش جزيرة العرب - المهندسين هاتف : ٣٤٥٤٢٧٧ - ٣٤٦٨٠٩١ - ٣٠٣٠٩٢١ - ٣٤٥٦٦٨١ فاكس : ٣٤٦٩١٩٦